@ketab_n
Follow Me
6.1.2016

دوستويفسكي

المراهِق

الجزء الثاني

ترجمة: سامي الدروبي

دوستويفسكي

المُراهِق

2

ترجمة: سَامي الدروبي

ترجم
مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم

المركز الثقافي العربي

Twitter: @ketab_n

لقد طُبعت أعمال الكاتب الروسي الكبير «دوستويفسكي» أكثر من مرّة.
ونحن نعيد طباعتها بموجب عقد مع ورثة المترجم الأستاذ سامي
الدروبي بعد إعادة تنضيدها وإخراجها في حلّة جديدة

Twitter: @ketab_n

الكتاب: **المراهق (2) (رواية)**

المؤلف: **دوستويفسكي**

المترجم: **سامي الدروبي**

الطبعة الأولى، 2010

ISBN 978-9953-68-459-6

يُنشر هذا الكتاب بموجب عقد مع مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم

ترجم
مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم

tarjem@mbrfoundation.ae
www.mbrfoundation.ae

جميع حقوق هذه الترجمة محفوظة لـ:

الناشر: المركز الثقافي العربي

بيروت والدار البيضاء

بيروت ـــ لبنان

ص.ب. 5158 ـ 113 الحمرا

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 01352826 ـ 01750507

فاكس: 01343701 ـ 961+

الدار البيضاء ـــ المغرب

ص.ب.: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 303339 522 ـ307651 522

فاكس: 2305726 522 212+

Email: markaz@wanadoo.net.ma cca@ccaedition.com www.ccaedition.com

---

إن مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم والمركز الثقافي العربي غير مسؤولين عن أفكار وآراء المؤلف، وتعبّر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف وليس بالضرورة أن تعبّر عن آراء المؤسسة والدار.

Twitter: @ketab_n

رسالة مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم

عزيزي القارئ،

إن كان الحلم في حد ذاته أمراً مشروعاً، فإن الأكثر إلحاحاً في ظل التحديات التي تواجه واقعنا العربي، هو العمل على تحويل الحلم إلى مشروع حقيقي على الأرض. وإذا كان العصر الذي نعيش فيه يتسم بالمعرفة والمعلوماتية والانفتاح على الآخر، فإن مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم ترى إلى الترجمة باعتبارها جسراً لاستيعاب المعارف العالمية واللحاق بالعصر.

لقد عبّر صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم نائب رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة رئيس مجلس الوزراء حاكم دبي عن مدى الحاجة للتعامل العاجل مع مقتضيات العصر عندما قال: «إن أهم ما في الاقتصاد الجديد هو الفكرة التي تنفّذ في وقتها». وعليه فإن مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم تعتقد بحزم أن إحياء حركة الترجمة العربية، وجعلها محركاً فاعلاً من محركات التنمية واقتصاد المعرفة في الوطن العربي، هي فكرة حان وقتها، ولا يجوز تأخيرها.

فمتوسط ما تترجمه المؤسسات الثقافية ودور النشر العربية مجتمعة لا يتعدى كتاباً واحداً لكل مليون شخص في العام الواحد، بينما تنتج دول منفردة في العالم من حولنا أضعاف هذا الرقم.

في ظل هذه المعطيات أطلقت المؤسسة برنامج «ترجم»، بهدف إثراء المكتبة العربية بأفضل ما قدّمه الفكر العالمي من معارف وعلوم، عبر ترجمة تلك الأعمال إلىٰ العربية. ومن أهداف البرنامج أيضاً العمل على إبراز الوجه الحضاري للأمة عبر ترجمة الإبداعات العربية إلى لغات العالم.

ومن التباشير الأولى لهذا البرنامج إطلاق خطة لترجمة ألف كتاب من

Twitter: @ketab_n

اللغات العالمية إلى اللغة العربية في خلال ثلاث سنوات، أي بمعدل كتاب في اليوم الواحد. وما الكتاب الذي بين يديك، عزيزي القارئ، إلا دفقة في نهر معرفي نأمل أن يجري غزيراً ليروي الظمأ، ويسقي بساتين النهضة العلمية، وصولاً إلى التنمية الشاملة في الوطن العربي.

إن مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم على ثقة بأن هذا الكتاب سيكون بمثابة خطوة إلى الأمام في سبيل تحقيق رسالتها الكلية، المتمثلة في تمكين الأجيال المقبلة من ابتكار وتطوير حلول مستدامة لمواجهة التحديات، عن طريق نشر المعرفة، ورعاية الأفكار النيّرة التي تقود إلى إبداعات حقيقية، بالإضافة إلى بناء جسور الحوار بين الشعوب والحضارات.

للمزيد من المعلومات عن برنامج «ترجم» والبرامج الأخرى لمؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم، يرجى زيارة الموقع الإلكتروني:
www.mbrfoundation.ae

مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم

عن المؤسسة:

انطلقت مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم بمبادرة شخصية من صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم، نائب رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة رئيس مجلس الوزراء حاكم دبي، الذي خصص للمبادرة وقفاً قدره 37 مليار درهم (10 مليارات دولار). وجاء الإعلان عن تأسيسها في كلمة سموّه أمام المنتدى الاقتصادي العالمي في البحر الميت، الأردن في أيار/ مايو 2007.

تهدف مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم إلى تمكين الأجيال الشابة في الوطن العربي من امتلاك المعرفة وتوظيفها لمواجهة تحديات التنمية، وابتكار حلول مستدامة نابعة من الواقع المحلي، للتعامل مع المشكلات التي تواجه مجتمعاتهم. ولتحقيق هذا الهدف، حدد سموه ثلاثة قطاعات استراتيجية لعمل المؤسسة، وهذه القطاعات هي: المعرفة والتعليم، والثقافة، وريادة الأعمال وفرص العمل.

Twitter: @ketab_n

الفصل السادس

1

قلتُ عازماً أمري وأنا أعود إلى البيت مسرعاً: «واضح. يجب أن أذهب إليها. يجب أن أذهب إليها فوراً. ومن الجائز جداً أن أجدها وحدها، وحدها أو مع غيرها، سيان: ففي وسعي أن أدعوها، وسوف تستقبلني، ستدهش لكنها ستستقبلني، وإذا لم تستقبلني ألححت عليها أن تستقبلني مرسلاً من يقول لها أن عليَّ أن أراها. فتعتقد أن لمجيئي صلة بالوثيقة، فتستقبلني، فأعلم كل شيء عن أمر تانيانا... ثم... ثم ماذا؟ إذا ثبت أنني على خطأ، كفرت لها عن خطئي، وإذا ثبت أنني على حق وأنها على خطأ، انتهى كل شيء. وقد انتهى كل شيء على كل حال. ما الذي أخسره؟ لا شيء! هلمَّ... هلمَّ!...

ولكنني لم أذهب. لن أنسى هذا أبداً، وسأظل أتذكره بفخر واعتزاز. لن يعلم بذلك أحد، سيظل مجهولاً، ولكن يكفي أن أعرفه أنا، يكفي أن أعرف أنني في تلك اللحظة استطعت أن أكون نبيلاً نبلاً لا نهاية له! قلت لنفسي بعد تفكير: «هي محاولة إغواء. لكنني سأغض النظر عنها. وقد أريد لي أن أرتاع، ولكنني لم أصدق، ولم أفقد إيماني بطهارتها! علام أذهب إليها؟ وعمَّ أسألها؟

Twitter: @ketab_n

لماذا يكون عليها أن تثق بي كما أثق بها، أن تؤمن بطهارتي، ألاَّ تخشى «حرارة اندفاعي» ولا تحتمي بتاتيانا بافلوفنا؟ إنني لم أستحق بعد شيئاً من ذلك كله في نظرها. فلتجهل أنني أستحق ذلك، وأنني لا أنقاد للإغواءات، وإنني لا أصدق ألسنة السوء! لتجهل هي ذلك كله. ولكنني سأعلمه أنا، فأزداد احتراماً لنفسي. سأحترم عاطفتي. صحيح أنها جعلتني أتكلم على مسمع من تاتيانا، لقد قبلت تاتيانا، كانت تعلم أن تاتيانا هناك وأنها تُنْصت (لا يمكن إلا أن تُنصت)، وكانت تعلم أن تاتيانا تسخر مني... آه... شيء فظيع! شيء فظيع!... ولكن لعلها كان يستحيل عليها أن تتجنب ذلك! ماذا كان في وسعها أن تعمل إذا استحال عليها أن تتجنب ذلك؟ كيف يمكنني أن أتهمها؟ أفلم أكذب عليها أنا نفسي بصدد كرافت؟ ألم أخدعها أنا أيضاً لأنني استحال عليَّ أن أتجنب ذلك؟ أنا أيضاً كذبت هذا الكذب البريء على غير إرادة مني.

وهتفت أقول فجأة وأنا أحمرّ وأشعر بألم شديد: رباه! رباه! ما هذا الذي فعلته أنا؟ ألم أستدرجها على مسمع من تاتيانا هذه نفسها؟ ألم أقصص كل شيء على فرسيلوف؟ ولكن لماذا أتكلم عن نفسي؟ إن هناك فرقاً ضخماً. لقد كان الأمر أمر الوثيقة فحسب. والحق أنني لم أحدّث فرسيلوف إلا عن الوثيقة، إذ لم يكن ثمة شيء آخر أحدثه عنه، ولا يمكن أن يكون ثمة شيء آخر أحدثه عنه. ألست أنا الذي بادرت إلى إبلاغه، وصحت أقول «إنه لا يمكن أن يكون ثمة شيء آخر»؟ هذا رجل يدرك الأمور... هِمْ... ولكن ما هذا الكره الشديد الذي لا يزال يحمله قلبه لهذه المرأة حتى الآن! ما عسى تكون القصة التي جرت بينهما في الماضي؟ لا شك أن حبه لنفسه هو سبب كل شيء... «هذا رجل

Twitter: @ketab_n

لا يقدر أن يحس إلا عاطفة واحدة هي حبه لذاته حباً لا حدود له» (بالفرنسية).

نعم، أفلتت مني هذه الفكرة حتى إنني لم أنتبه إليها. تلك هي الخواطر التي تلاحقت في ذهني سريعة، وكنت عندئذ صادقاً مع نفسي: لم أكن أخادع، ولم أكن أحاول أن أغشَّ نفسي. وإذا كان ثمة شيء لم أستطع أن أدركه في تلك اللحظة، فإنما مرد ذلك إلى فقدان الفهم لا إلى مخادعة النفس.

وعدت إلى البيت مهتاجاً اهتياجاً شديداً، وكنت مرح المزاج برغم الاضطراب القوي، لا أدري لماذا! ولكنني كنت أخشى أن أحلل نفسي، وكنت أبذل كل ما أملك من قوة في سبيل أن أسلو. فسرعان ما ذهبت إلى المؤجرة. فرأيت أن شجاراً عنيفاً قد نشب بينها وبين زوجها فعلاً. إنها امرأة موظف مصابة بداء السل إصابة قوية، وهي طيبة القلب، لكنها كسائر المصدورين صاحبة نزوات جامحة. فأسرعت أصلح بينهما. ثم ذهبت إلى المستأجر الشرس، وهو موظف في بنك، غليظ القلب، فظ الطبع، أناني، مجدور الوجه، اسمه تشرفياكوف، كنت لا أحبه كثيراً ولكن العلاقات بيني وبينه كانت حسنة، لأنني كنت أستعذب أن أستهزىء معه ببيتر ايبوليتوفتش. فسرعان ما أقنعته بألا يترك المنزل إلى مسكن آخر، ولم يكن عازماً على ذلك على كل حال، وأفلحت في تهدئة المؤجرة تهدئة حاسمة، واستطعت عدا هذا أن أسوي لها مخدتها. فقالت في مكر: «ذلك ما لا يستطيع بيتر ايبوليتوفتش أن يفعله أبداً». ثم عكفت في المطبخ على الاهتمام بكماداتها، فصنعت لها بيدي كمادتين رائعتين. فكان المسكين بيتر ايبوليتوفتش ينظر إليَّ حاسداً، ولكنني لم أسمح له حتى بلمس الكمادات! وقد كوفئت

Twitter: @ketab_n

على صنيعي بامتنان عبَّر عن نفسه بدموع صادقة. ثم لم ألبث أن شعرت بضجر من هذا كله على حين فجأة ـ لا أزال أتذكر هذا ـ وأدركت أنني لم أعن بالمريضة بدافع الشهامة والأريحية قط، وإنما عنيت بها هكذا، لا أدري لأي سبب، أو لسبب آخر لا علاقة له بالشهامة ولا الأريحية!

وأخذت أنتظر ماتفي نافد الصبر: كنت قد قررت في ذلك المساء أن أجرب حظي مرة أخيرة. وعدا الحظ، كنت أشعر بحاجة شديدة إلى المقامرة. وإلا لم يكن في وسعي أن أصبر. فلو استحال عليَّ أن أشغل نفسي بالقمار، لكان من الجائز جداً ألا أستطيع مقاومة الرغبة في الذهاب إليها. وكان على ماتفي أن يصل بعد قليل. ولكن الباب فتح فجأة، ودخلت عليَّ زائرة لم أكن أتوقع أن تجيء إليَّ، وهي داريا أوسيموفنا. فقطبت حاجبيَّ وبانت دهشتي. كانت داريا أوسيموفنا تعرف أين أسكن، لأنها جاءتني برسالة من أمي في أحد الأيام. وأجلستها، ونظرت إليها مستفهماً. فلم تقل شيئاً، ولم تزد على أن أخذت تنظر إليَّ محدقة وتبتسم بخضوع ومذلة. فخطر ببالي فجأة أن ليزا هي التي أوفدتها، فسألتها:

ـ أليست ليزا هي التي أرسلتك؟

فقالت:

ـ بل جئت هكذا... من تلقاء نفسي...

فأنبأتها بأنني خارج بعد قليل، فعادت تقول مرة أخرى إنها جاءت «هكذا»، من تلقاء نفسها، وأنها منصرفة حالاً. فأحسست فجأة بنوع من الشفقة. يجب أن أذكر هنا أن أمي، وتاتيانا بافلوفنا خاصة، هما اللتان، من بيننا جميعاً، عطفتا عليها، ولكن جميع

Twitter: @ketab_n

ذوينا قد نسوها تقريباً بعد أن وضعت عند ستولبيافا، ربما باستثناء ليزا التي كانت تزورها في أحيان كثيرة. ويرجع ذلك، فيما أظن، إلى داريا نفسها، لأنها كانت تتصف بالميل إلى الابتعاد والغياب، رغم كل مذلتها وكل ابتساماتها المستجدية المستعطية. أما أنا فكانت هذه الابتسامات لا تعجبني كثيراً، إذ كنت أرى أن هذه المرأة تصطنع تعابير وجهها اصطناعاً زائفاً، حتى لقد خطر ببالي ذات يوم أنها لم تبك عزيزتها أوليا مدة طويلة. ولكنني في هذه المرة شعرت بشفقة عليها، لا أدري لماذا!

وها هي ذي تنحني فجأة دون أن تقول كلمة، وتخفض عينيها، وترمي ذراعيها إلى أمام، فتمسك بخاصرتي، وتميل بوجهها على ركبتي، ثم تتناول يدي، فأظن أنها تريد أن تقبلها، ولكنها رفعتها إلى عينيها، فإذا بسيل من الدموع يسيل عليها. وأخذت تنشج نشيجاً قوياً يهز جسمها كله، دون أن يُسمع لبكائها صوت. فانقبض صدري ألماً، رغم أنني أحسست ببداية حنق. ولكنها أخذت تقبلني بثقة كاملة، لا تخشى أن أغضب، على حين أنها كانت منذ قليل تبتسم ابتسامات فيها كثير من الوجل وكثير من المذلة. فرجوتها أن تهدىء نفسها. فأخذت تتكلم فقالت:

ـ سيدي الطيب، لقد أصبحت لا أعرف ماذا أصنع بنفسي. فما أن يهبط الظلام، حتى تنفد طاقتي على الاحتمال. إنني أفقد قدرتي على الصمود متى حل المساء، فأراني مدفوعة إلى الخروج إلى الشارع في العتمة. والحلم هو الذي يجذبني خاصة. لقد نبت في رأسي حلم هو أنني متى خرجت فسألقاها في الشارع. فأسير، وأظن أنني أراها. أقصد أن الناس يسيرون، فأسير وراءهم عامدة وأنا أقول لنفسي: أليست هذه هي؟ نعم، ها هي ذي، إنها ابنتي

Twitter: @ketab_n

أوليا. وأفكر، وأفكر. وأصبحت في النهاية مجنونة من كثرة الجري بين الجمهور. وصرت أشعر من ذلك بغثيان. إنني أصدم الناس كسكرى ويقذفني بعضهم بشتائم. لكنني أحتفظ بهذا كله لنفسي، ولا أذهب إلى أحد. ثم إنني لا أذهب إلى مكان ألا أجد حالتي أسوأ مما كانت. وقد مررت منذ قليل أمام بيتك، فقلت لنفسي: «ماذا لو دخلت؟ إنه خير من الآخرين، ثم إنه رأى الأمر بعينيه». سيدي الطيب، اغفر لي إزعاجك، أنا منصرفة حالاً...

ونهضت بحركة مباغتة، وهمّت أن تسارع إلى الانصراف. ووصل ماتفي في تلك اللحظة. فأركبتها إلى جانبي في العربة، وأوصلتها إلى منزل ستولبيافا.

2

أصبحت في الآونة الأخيرة أتردد إلى صالة الروليت التي يملكها زرشتشيكوف. وكنت أذهب قبل ذلك إلى ثلاثة بيوت، في صحبة الأمير الذي كان «يُدخلني» إلى تلك الأماكن. ففي أحد تلك البيوت كان المقامرون يتعاطون البكاراه خاصةً وكانوا يراهنون على مبالغ ضخمة. فكنت لا أحس هنالك بأرتياح، إذ كنت أرى أن المرء يحتاج إلى مال كثير، عدا أن ذلك البيت كان يرتاده عدد كبير من الوقحين، وعدد كبير من الشبان الذين ينتمون إلى أسر عالية، وتمتلىء جيوبهم بأموال طائلة. وذلك بعينه ما كان يحبه الأمير. كان الأمير يحب أن يقامر، ولكنه كان يحب أيضاً أن يحتك بهؤلاء الطائشين. وقد لاحظت أنه إذا دخل معي في بعض الأحيان جنباً إلى جنب، ابتعد عني طوال السهرة، ولم يقدمني إلى أحد من «صحبه». وكانت هيئتي هيئة إنسان متوحش تماماً، حتى لقد كان

Twitter: @ketab_n

ذلك يلفت إليَّ الانتباه أحياناً. وكان يتفق لي أن أتحدث على مائدة القمار إلى هذا أو ذاك من اللاعبين، ولكن وقع لي ذات مرة أن حاولت التكلم في ذلك البيت نفسه مع سيد قصير تحدثت إليه بالأمس، ضحكت معه جالساً إلى جانبه (حتى لقد حزرت له ورقتين من أوراق اللعب)، فإذا هو لا يتعرفني، وإذا هو يزيد على ذلك سوءاً فيلقي عليَّ نظرة دهشة مصطنعة، ثم يمضي مبتسماً ابتسامة ساخرة. لذلك لم ألبث أن تركت ذلك البيت، وأخذت أرتاد محلاً للقمار لا أستطيع أن أسميه إلا ماخوراً قذراً. إنه صالة روليت حقيرة، صغيرة، تديرها امرأة «مومس» كانت لا تظهر في الصالة مع ذلك أبداً. الناس هنالك يتعاملون بدون كلفة ولا حرج، فكأنهم أسرة واحدة، رغم أن بينهم ضباطاً وتجّاراً، فكان هذا يجتذب كثيراً من الرواد. ولكنني انقطعت عن ارتياد ذلك المكان في أعقاب قصة قذرة حدثت ذات يوم أثناء اللعب، وانتهت بتضارب بين اثنين من المقامرين. وبعد ذلك إنما أخذت أجيء إلى صالة زرشتشيكوف التي قادني إليها الأمير أيضاً. إن زرشتشيكوف ضابط من سلاح الفرسان محال على التقاعد، وإن جو سهراته جو محتمل جداً. وهو رجل عسكري قليلاً في سلوكه، حريص على التقيد بالأصول، سريع وعملي. من ذلك مثلاً أنه كان لا يقبل في صالته أناساً يسيئون المزاح أو يسرفون في القصف واللهو. ثم إن اللعب نفسه لم يكن فيه عنده مزاح. وكان المقامرون يتعاطون البكاراه والروليت. وكنت في ذلك المساء، مساء 15 تشرين الثاني (نوفمبر)، قد جئت إلى هذا المكان قبلئذ مرتين لا أكثر. وكان زرشتشيكوف يعرف وجهي فيما أظن، ولكن لم يكن قد قام بيني وبينه أي تعارف. وشاءت المصادفة التي تشبه العمد أن جاء الأمير في ذلك المساء نفسه مع دارزان عند

Twitter: @ketab_n

منتصف الليل عائداً من لعب البكاراه مع أولئك الشبان الطائشين أبناء المجتمع الراقي الذين هجرتهم: هكذا كنت في ذلك المساء رجلاً مجهولاً بين أناس غرباء.

لو كان لي قارىء فقرأ كل ما سبق أن رويته من أحداث حياتي لما كان عليَّ حتماً أن أشرح له أنني امرؤ لم أخلق حقاً لحياة المجتمع أياً كان هذا المجتمع. أنا أولاً لا أعرف كيف اختلط بالناس. فإذا ذهبت إلى مكان فيه ناس كثير، بدا لي أن جميع الأنظار تنصب عليَّ فتلسعني كلسع الكهرباء، فأجد نفسي متوتر الأعصاب، منهكاً إنهاكاً جسمياً، حتى في مكان كالمسرح، ناهيك عن البيوت الخاصة. وفي جميع صالات الروليت هذه وفي جميع تلك المحافل أشعر بعجز عن السيطرة على سلوكي: فتارة أجلس حتى لألوم نفسي على فرط الرقة والأدب والتهذيب، وتارةً أنهض فأرتكب فظاظة من الفظاظات. وأنظر حولي فأرى أن أي وغد من الأوغاد الحقيرين أقدر مني على التصرف في المجتمع بيسر عجيب وسهولة مدهشة، فيزيدني هذا حنقاً، فإذا أنا أفقد هدوئي مزيداً من الفقدان. ويجب أن أقول بصراحة أنني، لا اليوم فحسب، بل حتى في ذلك الحين، كانت تلك السهرة كلها، وكانت أرباح القمار نفسها (إذا وجب أن أقول كل شيء) قد أمست في النهاية تبدو لي باعثة على الاشمئزاز، مثيرة للألم. نعم، حتماً: مثيرة للألم. صحيح أنني كنت أشعر بمتعة قصوى، ولكن تلك المتعة كانت تجيء من خلال الألم. كان ذلك كله، أقصد الناس والقمار وأنا خاصةً معهم، كان ذلك كله يبدو لي قذراً قذارة فظيعة. «ألا فلأربح مرةً واحدة، ثم أركل ذلك كله برجلي إلى الأبد!». كذلك كنت أقول لنفسي دائماً حين أستيقظ في الصبح بعد لعب الليل. الربح

Twitter: @ketab_n

مثلاً: إنني لم أكن أحب المال البتة. لا أريد أن أردد تلك الجملة المعادة المكرورة المبذولة وهي أنني كنت أقامر من أجل القمار نفسه، من أجل الإحساسات القوية، من أجل لذة المجازفة، من أجل متعة المصادفة، وما إلى ذلك، وليس من أجل الربح. لقد كنت في حاجة ملحة إلى المال. ولا شك أن هذه الطريق لم تكن طريقي، وهذه الفكرة لم تكن فكرتي، ولكن ذلك لا يمنع أنني كنت قد قررت حينذاك أن أسلك هذه الطريق أيضاً من باب التجربة. هناك فكرة قوية كانت تحاصرني، كنت أقول لنفسي: «لقد خلصت إلى هذه النتيجة: وهي أنك تستطيع أن تصبح من أصحاب الملايين بشرط أن تملك إرادة قوية! وقد برهنت على قوة إرادتك. فهلمَّ برهن هنا أيضاً على أنك قوي الإرادة. إن الروليت تقتضي منك قوة الإرادة أكثر مما تقتضيه فكرتك!». ذلك ما كنت أردده لنفسي. ولما كنت مقتنعاً حتى هذه الساعة بأن المرء في ألعاب المصادفة يستطيع بالهدوء الكامل الذي يتيح له أن يحتفظ بدقة تفكيره، أن يتغلب على المصادفة العمياء، وأن يربح حتماً، فقد كان لا بد لي في ذلك الأوان من أن يزداد حنقي ويشتد حين كنت أراني أفقد هدوئي وأندفع اندفاع صبي صغير. «أنا الذي استطعت أن أتحمل الجوع، كيف أعجز عن تحمل نفسي في أمر تافه هذه التفاهة؟» ذلك ما كان يغيظني. أضف إلى ذلك أن شعوري بأنني أملك في قرارة نفسي، مهما أبدو للناس مضحكاً وحقيراً، كنزاً من قوة سيجبرهم على أن يغيروا حكمهم عليَّ في ذات يوم، أقول إن هذا الشعور ـ الذي لازمني منذ سنيّ طفولتي الذليلة ـ كان في ذلك الحين هو النبع الوحيد الذي يروي حياتي، وكان ضيائي، وكان تراثي وكان سلاحي وكان عزائي، ولولا ذلك لانتحرت منذ أن

Twitter: @ketab_n

كنت طفلاً. فهل كان في وسعي ألا أغضب من نفسي حين أرى المخلوق التافه الذي كنت أصير إليه أمام مائدة القمار؟ ذلك هو السبب في أنني أرى اليوم هذا رؤية واضحة. وعدا هذا السبب الرئيسي، كان الغرور التافه يتأذى أيضاً: كانت الخسارة في القمار تخفض قدري في نظر الأمير، وتخفض قدري في نظر فرسيلوف، (وإن يكن فرسيلوف لم يتنازل يوماً فيقول شيئاً عن هذا) وتخفض قدري في نظر الجميع، حتى في نظر تاتيانا بافلوفنا ـ ذلك ما كان يتراءى لي على الأقل، ذلك ما كنت أحسه. وهناك أخيراً اعتراف يجب أن أدلي به: كنت قد فسدت. أصبح صعباً عليَّ أن أتخلى عن عشائي المؤلف من سبعة أطباق في المطعم، وأن أتخلى عن ماتفي، وعن المتجر الإنجليزي، وعن رأي بائع العطور الذي أشتري منه عطوري، أصبح صعباً عليَّ أن أتخلى عن هذا كله. ولقد وعيت هذا حينذاك، لكنني أغمضت عينيَّ. والآن حين أدوِّن هذه الحقائق إنما أحمر منها خجلاً.

3

دخلت وحيداً ووجدتني في جمهور غريب، فجلست أول الأمر إلى ركن من المائدة وأخذت أقامر بمبالغ صغيرة. ولبثت على هذه الحال ساعتين لا أتحرك. ساعتين راكدتين ركوداً رهيباً: فلا حظَّ ولا سوء حظ. وأفلتت مني فرص رائعة، فحاولت ألا أغضب، وأن أنتصر بهدوئي وثقتي. وكان حاصل الحساب خلال هاتين الساعتين أنني لم أربح ولم أخسر. فالثلاثمائة روبل التي كانت معي قد نقصت عشرة روبلات أو خمسة عشر روبلا. وأحنقتني هذه النتيجة التافهة، وحدثت لي عدا ذلك حادثة زادتني حنقاً. إنني

Twitter: @ketab_n

أعلم أن المرء يلقى حول موائد الروليت هذه لصوصاً، لصوصاً لم يجيئوا من الشارع ليسرقوا، ولكنهم من بين المقامرين المعروفين. فأنا مقتنع مثلاً بأن المقامر الشهير آفردوف سارق. وهو يظهر في المدينة شامخ الأنف. وقد رأيته منذ مدة قصيرة مع فرسين. ولكن هذا لا ينفي أنه سارق، وأنه سرقني. على أن لهذه الحادثة حديثاً سيجيء حينه فيما بعد. أما ذلك المساء فلم يكن إلا مقدمة: لقد ظللت طوال تينك الساعتين جالساً إلى ركن من المائدة، وكان إلى يساري مفزور صغير، أنيق الهندام، أظن أنه يهودي، هو عضو في جماعة لا أدري ما هي، كما أنه يكتب ويُنشر له ما يكتب. كنت قد ربحت في آخر لحظة عشرين روبلاً على حين فجأة: فكانت أمامي ورقتان حمراوان، فإذا أنا أرى اليهودي الصغير يمد يده ويجذب إليه إحدى الورقتين بأكبر هدوء ممكن. فهممت أن أوقفه، ولكن ها هو ذا يعلن لي بلهجة وقحة وبدون أن يرفع صوته أن هذا ربحه هو، فقد حظّ وربح. حتى أنه لم يشأ أن يتابع الحديث معي، بل أدار لي ظهره. وشاءت المصادفة التي تشبه العمد أن أكون عندئذ في أشد حالاتي النفسية حماقة، إذ كنت قد تصورت فكرة كبيرة. فلم أزد على أن بصقت، ثم نهضت بسرعة وانصرفت، دون أن أناقش، مهدياً إليه ورقتي النقدية الحمراء. وكان من الصعب على كل حال أن أسوِّي الأمر مع وغد حقير مثله، فقد فعل فعلته وانقضى وقت، واستمر اللعب. لكن سكوتي كان غلطة كبيرة نجمت عنها نتائج وبيلة: فإن ثلاثة أو أربعة من المقامرين حولنا قد لاحظوا هذه المناقشة، ورأوا تراجعي السريع فلا بد أنهم اعتقدوا أنني غشاش. وكان الليل قد انتصف. مضيت إلى الغرفة المجاورة، ووضعت خطة جديدة، ثم رجعت فبدَّلت أوراقي النقدية من البنك

Twitter: @ketab_n

قطعاً ذهبية. فأصبح بين يديَّ أكثر من أربعين قطعة جعلتها عشرة أقسام وقررت أن أحط عشر مرات متتالية على «الصفر»، أي أربعة أنصاف من الليرات الإمبراطورية في كل مرة، حطةً بعد أخرى، قائلاً لنفسي: «إن ربحت كان هذا حظي وإن خسرت فهذا أفضل: فلن ألعب بعد اليوم أبداً». يجب أن أذكر أن الصفر لم يخرج خلال هاتين الساعتين مرةً واحدة، حتى ما عاد يحط أحد عليه.

كنت ألعب واقفاً، صامتاً، مقطباً حاجبيَّ كازاً أسناني. وهذا زرشتشيكوف يعلن في المرة الثالثة بصوت عال عن خروج «الصفر» بعد أن لم يخرج مرة واحدة طوال السهرة. فنقدت مائة وأربعين نصفاً من أنصاف الليرات الإمبراطورية الذهبية. بقيت لي سبع حطات. واستمررت، وكان كل شيء في أثناء ذلك يضطرب من حولي ويتراقص.

ـ تعال إلى هنا، تعال إلى هنا، فهنا هنا الحظ!

كذلك صحت منادياً من فوق الطاولة مقامراً كنت بقربه قبل لحظة، وهو رجل ذو شارب أبيض ووجه أحمر كان يرتدي رداء رسمياً، وكان يقامر منذ عدة ساعات بمبالغ زهيدة فيخسر في كل مرة، فيصبر صبراً لا يمكن وصفه. فصاح ذو الشارب من أقصى الطاولة يسألني بدهشة فيها تهديد:

ـ أإياي تنادي؟

فقلت:

ـ نعم، إياك أنادي، فهناك ستخسر كل شيء!

فقال:

ـ هذا ليس شأنك. دعني ولا تزعجني!

ولكنني كنت قد فقدت سيطرتي على نفسي. وكان يجلس أمامي

Twitter: @ketab_n

في الجهة الأخرى من المائدة ضابط مسن، فلما رأى حطتي على الصفر، دمدم يقول لجاره:

ـ غريب: الصفر. لا، لا، لن أحط على الصفر أبداً.

فصحت أقول له وأنا أحط مرةً أخرى:

ـ بل تجرأ يا كولونيل!

فانبرى يقول لي بعنف:

ـ أرجو ألا تزعجني أيضاً. لست في حاجة إلى نصائحك. إنك تحدث صخباً كثيراً هنا.

ـ إنني أسدي نصيحة حسنة. هل تريد أن تراهن على أن الصفر الذي سيطلع في هذه المرة أيضاً؟ أتراهن على عشر قطع ذهبية؟

قلت ذلك وأنا أمد عشرة أنصاف ليرات إمبراطورية ذهبية. فقال لي بلهجة خشنة قاسية:

ـ عشر قطع ذهبية؟ أراهن؟ مستعد! أراهن على أن الصفر لن يطلع هذه المرة!

ـ عشرة دنانير لويس يا كولونيل!

ـ ما عشرة دنانير لويس؟

ـ أي عشرة أنصاف ليرات ذهبية، وهي تسمى في اللغة النبيلة عشرة دنانير لويس.

ـ قل إذن عشرة أنصاف ليرات إمبراطورية، ولا تمزح معي!

ولم أكن آمل أن أربح الرهان طبعاً: فإن حظ الصفر في الطلوع لا يعدو أن يكون واحداً من سبعة وثلاثين حظاً. ولكنني إنما عرضت هذا الرهان أولاً من أجل أن «أثير الدهشة» وثانياً من أجل أن أجتذب إليَّ مودة الآخرين. كنت قد رأيت أن أحداً هنا لا يحبني وأنهم يجدون لذة في إشعاري بذلك. وأخذت الروليت

Twitter: @ketab_n

تدور، فما كان أشد ذهول الجميع حين طلع «الصفر» مرة أخرى! حتى لقد انطلقت صرخة عامة شاملة. وذهبت نشوة الانتصار بصوابي! ونُقدت مائة وأربعين نصفاً من أنصاف الليرات الإمبراطورية الذهبية. وسألني زرشتشيكوف ألا أريد أن أقبض جزءاً من المبلغ أوراقاً نقدية، فأجبته بغمغمة غير مفهومة، لأنني أصبحت عاجزاً بالفعل عن التعبير بهدوء ووضوح. كان رأسي يدور، وكانت ساقاي تصطكان. وأحسست فجأة بأنني سأتعرض الآن لخطر رهيب. وكنت أرغب في أن أقوم بعمل آخر، أن أعرض رهاناً جديداً، أن أنقد أحداً آلاف الروبلات. لممت كدسة القطع الذهبية والأوراق النقدية براحة يدي دون وعي، ولم أستطع أن أعدَّها. وفي تلك اللحظة لاحظت الأمير ودارزان ورائي فجأة، وكانا آتيين من لعب البكاراه بعد أن خسرا هنالك كل شيء كما علمت ذلك فيما بعد.

صحت أقول لدارزان:

ـ هيه دارزان! هنا حظك! حطَّ على الصفر.

فأجابني قائلاً بخشونة:

ـ خسرت كل شيء فليس معي مال.

وتظاهر الأمير بأنه لم يلاحظ شيئاً، وبأنه لم يعرفني. فصحت أقول لدارزان وأنا أريه كدسة الذهب التي أمامي:

ـ إليك المال، فخذ ما شئت. كم تريد؟

فصرخ دارزان يقول وقد احمر احمراراً شديداً:

ـ غريب أمرك. أنا لم أطلب منك شيئاً فيما أظن!

وقال لي زرشتشيكوف وهو يشدني من كمي:

ـ هناك من يناديك.

كان الكولونيل قد ناداني عدة مرات، وكاد يشفع نداءاته بشتائم،

Twitter: @ketab_n

منذ خسر رهاني معه على عشرة أنصاف الليرات الإمبراطورية. وها هو ذا يقول لي وقد تخضب وجهه بحمرة شديدة من فرط الغضب:

ـ خذ! لست مضطراً أن أنتظرك! سوف تقول عني أنني لم أدفع الرهان. هيّا عدّها.

ـ أصدِّقك يا كولونيل، أصدِّقك، أصدِّقك بدون أن أعد. لكنني أرجوك ألا تصرخ غاضباً مني، أرجوك ألا تزعل.

ولممت كدسة ذهبية بيدي. فصرخ الكولونيل يقول لي بعنف:

ـ أيها السيد العزيز، أرجو أن تتجه بحماستك هذه إلى غيري، فنحن لم نحرس الخنازير معاً في يوم من الأيام، وليس بيني وبينك سابق علاقة.

وهتف بعضهم متعجباً بصوت خافت:

ـ إنه لأمر غريب أن يُسمح بالدخول لأشخاص من هذا الطراز! من هذا؟ فتى صغير؟

ولكنني لم أكن أصغي، وطفقت أحط بغير روية، ولكنني لا أحط على الصفر، وجعلت حطاتي أعداداً من أوراق مالية.

قال الأمير ورائي:

ـ هيَّا بنا ننصرف يا دارزان!

فقلت وأنا ألتفت إليهما:

ـ إلى البيت؟ انتظراني فننصرف معاً. انتهيت.

لقد ربحت. فكان ربحي ضخماً. فصرخت أقول:

ـ كفى!

وبيدين مرتعشتين لممت الذهب وسكبته في جيوبي دون أن أعده، وأخذت أدعك الأوراق النقدية بحركات خرقاء بين أصابعي أريد أن أدسها جميعاً في جيب جانبي من سترتي، فإذا بيد سمينة

Twitter: @ketab_n

يزينها خاتم، هي يد آفردوف الذي كان إلى يميني وكان قد حطَّ مبالغ ضخمة، إذا بيده تطبق على ثلاث من أوراقي وتغطيها براحتها. وقال يخاطبني بخشونة مقطعاً كلماته مرققاً صوته:

ـ إسمح لي، هذه ليست لك!

كانت هذه هي المقدمة التي تحملت نتائجها الرهيبة بعد بضعة أيام. إني لأقسم اليوم بشرفي أن تلك الأوراق الثلاث (وهي من فئة المائة روبل) كانت لي، ولكن شاء سوء حظي أن ظلاً من شك قد ساورني حينئذ رغم اقتناعي الكامل، وذلك شيء له خطورته عند من يحرص على أن يكون إنساناً شريفاً، وأنا إنسان شريف، ولا سيما أنني كنت ألا أعلم في ذلك الحين علم اليقين أن آفردوف لص، بل كنت أجهل حتى اسمه، فلم يكن في وسعي أن أصدق حقاً أنني لست مخطئاً وأن هذه الأوراق الثلاث ليست لي. ولقد كنت طوال السهرة لا أعد كدسة أموالي، بل أقتصر على لمها بيدي، أما آفردوف فكان يرتب ماله أمامه معدوداً محسوباً بجانب مالي. وكان آفردوف عدا ذلك معروفاً في هذا البيت، وكانوا يعدونه هنالك رجلاً واسع الثراء، وكانوا يعاملونه باحترام: فكان من شأن ذلك كله أن فرض مهابته علي، فإذا أنا أسلِّم مرةً أخرى بغير اعتراض. يا للغلطة الفظيعة! وأنكى ما في الأمر كله أنني كنت في حماسة شديدة. فلم أزد على أن قلت مرتعش الشفتين من الاستياء:

ـ يؤسفني أنني لا أتذكر تذكراً دقيقاً، ولكن يخيَّل إليَّ أن هذه الأوراق لي أنا.

فسرعان ما أثارت كلماتي هذه دمدمات تذمر. وقال آفردوف بلهجة فيها استعلاء لا يطاق:

Twitter: @ketab_n

ـ لكي يقول المرء مثل هذا الكلام يجب أن يكون «واثقاً»، وأنت تعترف بأنك لا تتذكر تذكراً دقيقاً.

وهتفت أصوات عدة تقول متعجبة:

ـ من هذا الفتى؟ كيف يُسمح بمثل هذه الأمور؟

وارتفع صوت يقول بجانبي:

ـ ما هذه أول مرة. فمنذ قليل أراد هذا الفتى أن يسطو على ورقة عشر روبلات من مال رخبرج.

فصحت أقول:

ـ طيب، كفى، كفى! لست أعترض. خذ ما تشاء! يا أمير... ولكن أين الأمير ودارزان؟ انصرفا؟ يا سادة، ألم تروا من أي جهة خرج الأمير ودارزان؟

ولممت أخيراً مالي كله. وبدون أن أتريث لأدس في أحد جيوبي عدداً من أنصاف الليرات الإمبراطورية كان بيدي، اندفعت ألاحق الأمير ودارزان. إن القارىء يرى الآن رؤية واضحة أنني لا أستر عيوبي، وأنني أتذكر تذكراً كاملاً كيف كانت حالي في تلك اللحظة، وكيف كنت أحمق غاية الحماقة، فيستطيع أن يفهم ما حدث بعد ذلك.

كان الأمير ودارزان قد بلغا أسفل السلم، ولم يوليا ندائي وصيحاتي أيَّ انتباه. وقد وصلت إليهما، لكنني تلبثت لحظةً أمام البواب السويسري فدسست في يده ثلاثة أنصاف من الليرات الإمبراطورية، لا أدري لماذا! فنظر إليَّ البواب متحيِّراً، حتى أنه لم يشكرني، ولكنني لم أكترث بذلك؛ ولو كان ماتفي هناك، إذن لناولته قبضةً من القطع الذهبية حتماً، فإنني كنت قد عقدت النية على ذلك جازماً، ولكن ما إن وضعت قدمي على درج الباب حتى

Twitter: @ketab_n

تذكرت فجأةً أنني صرفت ماتفي. وفي تلك اللحظة كانت عربة الأمير تتقدم نحو الباب، فركبها الأمير، فصحت أقول وأنا أمسك واقي العربة وأرفعه لأجلس بجانبه:

ـ أنا آت معك يا أمير!

ولكن دارزان مرَّ أمامي فجأة، فوثب يركب العربة؛ وانتزع مني الحوذي الواقي فغطى به سيِّديه، فصحت أقول خارجاً عن طوري:

ـ يا للشيطان!

لكأنني ما رفعت الواقي إلا ليركب دارزان، مثلما يفعل خادم. وصاح الأمير يهيب بالحوذي قائلاً:

ـ إلى البيت!

فصرخت معولاً وأنا أتشبث بالعربة:

ـ قف!

ولكن الحصان جرَّ العربة، فتدحرجت على الأرض. ثم لم ألبث أن نهضت، ووثبت أركب أول عربة رأيتها، وطرت إلى منزل الأمير وأنا أستحث الحوذي في كل لحظة، فأنهك الحصان المسكين.

4

الحصان يجري بطيئاً كأنما ليزيد من حنقي، والحوذي لا يبرح يضربه بسوطه لأنني وعدته بروبل مكافأة. وقلبي يخفق خفقاناً شديداً. أخذت أكلم الحوذي، ولكن الكلمات لا تخرج من فمي، فكنت أتمتم تمتمةً بسخافات لا أدري ما هي. تلك كانت حالي حين هرعت إلى الأمير. وقد أوصل الأمير صاحبه دارزان إلى بيته. فهو الآن وحيد، يذرع حجرة مكتبه شاحب اللون منقلب السحنة. يجب أن أذكر مرة أخرى أنه كان قد خسر في القمار كثيراً. وها

Twitter: @ketab_n

هوذا ينظر إليَّ في حيرة وذهول، ثم يقول مقطباً حاجبيه:

ـ أأنت أيضاً؟

فقلت وأنا أختنق:

ـ جئت لأنهي صلتي بك. كيف تجرأت أن تعاملني هذه المعاملة؟

فرشقني بنظرة مستفهمة. قلت:

ـ إذا كنت قد أردت أن تصطحب دارزان، فما كان عليك إلا أن تقول لي أنك ستصطحب دارزان، ولكنك أجريت الحصان، فإذا بي...

ـ آ... نعم... أظن أنك وقعت أنت في الثلج.

قال ذلك وطفق يضحك. قلت:

ـ هذه أمور يكون الرد عليها بدعوة إلى مبارزة، ولذلك سنصفي أولاً حساباتنا...

واستللت أموالي بيد مرتعشة، فوضعت بعضها على الديوان، وبعضها على المنضدة الرخامية، بل وضعت بعضها الآخر على كتاب مفتوح، وكنت أتناولها بقبضة يدي ملأى، وألقيها حزماً وأكداساً، حتى لقد تدحرجت قطع ذهبية كثيرة على السجادة. قال:

ـ ها... نعم... أظن أنك ربحت كثيراً؟ يدرك المرء ذلك من لهجة كلامك.

إنه لم يكلمني بمثل هذه الوقاحة في يوم من الأيام وكان وجهي شاحباً شحوباً شديداً.

ـ يوجد هنا... لا أدري كم يوجد... يجب أن نعد... إنني مدين لك بثلاثة آلاف... أم ماذا؟ أأكثر أم أقل؟

ـ أظن أنني لا أجبرك على أن تدفع لي شيئاً.

Twitter: @ketab_n

ـ بل أنا الذي أريد ذلك. ولا بد أنك تعرف لماذا. خذ!

وطفقت أعد المال بيد مرتجفة، ولكنني ما لبثت أن عدلت عن العد، قائلاً له:

ـ لا يهمني أن أعرف المجموع معرفة دقيقة. أنا أعرف أن ههنا ألف روبل. فسآخذ هذه الألف لنفسي، وخذ أنت الباقي كله، خذ هذه الأكداس جميعها، سداداً لدينك عليَّ أو لبعض دينك عليَّ: أظن أن الباقي يبلغ نحو ألفي روبل وقد يزيد.

قال الأمير مبتسماً:

ـ وتلك الألف الأولى تحتفظ بها لنفسك مع ذلك؟

ـ أأنت في حاجة إليها؟ إذن... أعطيك إياها... كنت أظن أنك قد لا تريد أن... ولكن خذها إذا وجب أن تأخذها...

ـ لا، لا أريد.

قال ذلك وأشاح عني باحتقار، وعاد يذرع الغرفة ذاهباً آيباً. ثم التفت إليَّ فجأة وقد لاحت في وجهه معاني التحدي والاستفزاز:

ـ ولكن ما الذي جعلك تفكر في سداد ديونك؟

فزأرت أقول أنا أيضاً:

ـ إنما أرد إليك مالك لأستطيع أن أحاسبك على ما فعلت!

ـ اذهب إلى الشيطان أنت وألفاظك الضخمة وإشاراتك الأبدية!

وقرع برجليه الأرض كأنما هو خرج عن طوره، وأضاف يقول:

ـ إنني أريد منذ مدة طويلة أن أطردكما كليكما أنت وصاحبك فرسيلوف.

صرخت أقول:

ـ هل جُننت؟

وكان كمن جُنَّ فعلاً. وتابع كلامه قائلاً:

Twitter: @ketab_n

ـ لقد عذبتمانا تعذيباً رهيباً بجملكما المتفخمة. دائماً جمل، جمل، جمل! فيما يتعلق بالشرف مثلاً! أف! إنني أريد منذ مدة طويلة أن أقطع صلتي بكما. ويسرني، يسرني أنه آن الأوان. كنت أظن أنني مرتبط، وكنت أحمرّ خجلاً من أنني مضطر أن أستقبلكما... كليكما! أما الآن فأرى أنني غير مرتبط بشيء، غير مرتبط بشيء، ألا فاعلم ذلك! لطالما حضني صاحبك فرسيلوف على أن أهاجم آخماكوفا، وأن ألطخ شرفها بالعار... لا تتكلما عن الشرف بعد اليوم عندي أبداً! كلاكما غير شريف، كلاكما غير شريف! وأنت، ألم تستح أن تأخذ مالي؟

زاغ بصري. وقلت متمتماً برفق:

ـ أنا اقترضت منك كما يقترض رفيق من رفيقه. وأنت الذي عرضت عليَّ أن تقرضني فصدَّقت حسن نياتك...

ـ ما أنا رفيقك! لقد أعطيتك مالاً، ولكن لغير هذا الغرض. أنت تعلم لماذا أعطيتك.

ـ أعطيتني من حساب فرسيلوف. وذلك غباء طبعاً، ولكن...

ـ لم يكن في إمكانك أن تأخذ من حساب فرسيلوف بدون إذنه، ولا كان في إمكاني أن أعطيك ماله بغير إذنه... فأنا إنما أعطيتك من مالي، وكنت أنت تعرف ذلك. كنت تعرفه وكنت ترضاه. ولشد ما قاسيت أنا في بيتي من تمثيل هذه المسرحية الكريهة.

ـ ما الذي كنت أعرفه؟ عن أية مسرحية تتكلم؟ ولماذا كنت تعطيني إذن؟

ـ لجمال عينيك يا ابن عمي!.

قال هذه الجملة الساخرة بالفرنسية. وطفق يضحك أمامي. فصرخت معولاً أقول:

Twitter: @ketab_n

ـ إذهب إلى الشيطان! خذ كل شيء. إليك هذه الألف أيضاً! ها قد سددت ديني كله الآن، وغداً...

ورميت له كدسة الأوراق المالية التي كنت قد احتفظت بها لنفسي، فسقطت على صديرته، وتدحرجت إلى الأرض. فإذا هو يتقدم مني ثلاث خطوات سريعة واسعة، ويقول لي بغتةً بلهجة وحشية وكلمات مقطَّعة:

ـ هل تجرؤ أن تدَّعي أنك حين كنت تأخذ مني المال طوال هذا الشهر، كنت تجهل أن أختك حبلى مني؟

ـ ماذا؟ كيف؟

كذلك هتفت أسأله. وارتخت ساقاي فأصبحتا لا تستطيعان حملي فتهاويت على الديوان خائر القوى.

لقد ذكر لي هو نفسه فيما بعد أن وجهي اصفر اصفراراً شديداً يشبه أن يكون بياضاً كبياض منديل.

اضطرب ذهني. وأذكر أن كلاً منا قد حَدَّق إلى عينَيْ صاحبه صامتاً. وألمَّ بوجهه هو نوع من ذعر. ومال عليَّ فجأة، فأمسكني من كتفيَّ يسندني. إني أتذكر ابتسامته المتجمدة تذكراً واضحاً كل الوضوح. لقد قرأت فيها معاني الشك والدهشة. نعم! لم يكن يتوقع لكلماته أن تحدث في نفسي هذا الأثر، لأنه كان موقناً بأنني على علم بالأمر، وبأنني كنت آثماً.

وأُغمي علي أخيراً، غير أن الإغماء لم يدم إلا دقيقة واحدة. فلما أفقت وقفت على قدمَيّ ونظرت إليه وفهمت. لقد انكشفت الحقيقة فجأة لفكري الذي طال نومه! لو قد حكى لي الأمر من قبل وسئلت ما عساني صانعاً بالرجل، إذن لأجبت حتماً بأنني سأمزقه تمزيقاً. ولكن ما حدث كان غير هذا تماماً، وقد حدث بغير إرادتي

Twitter: @ketab_n

أبداً: فإنني لم ألبث أن دفنت وجهي بيديَّ فجأةً، وأخذت أذرف دموعاً حارة مُرَّة. ذلك ما حدث. لقد انبعث الطفل الصغير في الرجل الشاب. معنى ذلك أن الطفل الصغير كان لا يزال حياً في نفسي، وتهالكت على الديوان وطفقت أنشج منتحباً: «ليزا! ليزا! ليزا المسكينة!».

وعندئذ صدَّقني الأمير تصديقاً تاماً. فهتف يقول بحزن عميق:

ـ آه! ما أكبر الذنب الذي ارتكبته في حقك! ما أبشع الأشياء التي تصورتها عنك! سامحني يا آركادي ماكاروفش!

فانتفضت، وأردت أن أقول له شيئاً، وتسمرت أمامه، ولكن دون أن أنطق بكلمة، ثم لم ألبث أن ولَّيت هارباً من الغرفة ومن البيت.

رجعت إلى مسكني سائراً على القدمين، ولا أكاد أتذكر كيف وصلت. ارتميت على سريري، مكباً بوجهي على الوسادة في الظلام، ورحت أفكر وأفكر. إن الأفكار في مثل هذه اللحظات لا تتسلسل متسقةً منسجمة أبداً، ويكون الفكر والخيال كأنهما معلقان بخيط يترجّح ويتراقص. أذكر أنني أخذت أحلم بأشياء غريبة كل الغرابة عما أنا فيه، بل بأشياء لا يعلم إلا الله ما الذي جعلها تخطر ببالي! ولكن حزني وشقائي ما يلبثان أن يدركاني مؤلمين موجعين، فأعقف يديَّ كمداً، وأصيح قائلاً: «ليزا! ليزا!»، وأعود أسكب دموعاً سخينة غزيرة. لا أدري كيف نمت ولكنني نمت نوماً عميقاً هادئاً.

Twitter: @ketab_n

الفصل السابع

1

استيقظت في نحو الساعة الثامنة من الصباح، فسارعت أقفل بابي بالمفتاح فوراً، وجلست أمام النافذة، وعدت أحلم من جديد. وبقيت على هذه الحال حتى الساعة العاشرة. وقد قرعت الخادمة الباب مرتين، لكنني طردتها. وبعد الساعة العاشرة قُرع الباب مرةً أخرى، فأوشكت أن أصرخ أيضاً، لولا أن عرفت أنها ليزا. وقد دخلت الخادمة معها: جاءتني بقهوتي، واستعدت لإشعال المدفأة. فكان يستحيل أن أطردها. فكنت طوال الوقت الذي قضته في وضع الحطب وإشعال النار أذرع غرفتي الصغيرة بخطى واسعة، دون أن أشرع في الحديث، متحاشياً أن أنظر إلى ليزا. وكانت الخادمة تعمل ببطء شديد، وتتعمد هذا البطء تعمداً، كما تفعل جميع الخادمات في مثل هذه الحالة، حين يلاحظن أن أسيادهم متحرجون من الكلام بحضورهن. وكانت ليزا جالسةً على المائدة أمام النافذة تتابعني بنظرها. فقالت فجأة:

ـ توشك قهوتك أن تبرد.

فنظرت إليها. لم أر في وجهها أثراً لاضطراب، فوجهها هادىء هدوءً تاماً، حتى أن ابتسامة كانت تلم بشفتيها.

قلت محدثاً نفسي وأنا أرفع كتفي: هذه هي النساء!

Twitter: @ketab_n

وانتهت الخادمة أخيراً من إشعال المدفأة، وشرعت في تنظيف الغرفة وترتيبها. ولكنني طردتها طرداً صارماً، وأقفلت الباب بالمفتاح من جديد.

سألتني ليزا:

ـ قل لي، من فضلك، لماذا أغلقت الباب ثانيةً؟

فتسمرت أمامها، وهتفت أقول فجأة دون أن يكون قد خطر ببالي أن تكون هذه بداية كلامي:

ـ ليزا، كيف أمكن أن تظني أنك ستظلين تخدعينني؟

لم أذرف في هذه المرة دموعاً، وإنما اجتاحت قلبي عاطفة تشبه أن تكون شراً، حتى إنني لم أكن أتوقع ذلك أنا نفسي. فاحمرت ليزا ولكنها لم تجب، وإنما ظلت تحدق إلى عينيَّ.

ـ انتظري يا ليزا، انتظري! آه... ما أغباني! ولكن هل كنت غبياً إلى هذا الحد من الغباوة حقاً؟ إن التلميحات كلها لم تتجمع حزمةً واحدة إلا بالأمس، أما قبل ذلك فكيف كان يمكنني أن أحزر؟ أكان يمكنني أن أحزر الحقيقة لأنك كنت تذهبين إلى ستولبيافا أو إلى... داريا أونيسيموفنا هذه؟ لقد كنت أعدُّك شمساً يا ليزا، فكيف كان يمكن أن يخطر ببالي...؟ إنك تتذكرين كيف استقبلتك منذ شهرين عنده، وكيف مضينا نتنزه في الشمس معاً، وكيف سررنا أعظم السرور. هل كانت الأمور بينكما جارية منذ ذلك الحين؟

فأومأت ليزا برأسها لتقول نعم.

ـ إذن كنت تخدعينني منذ ذلك الحين يا ليزا! لا، يا ليزا، لم يكن ذلك مني غباءً، بل كان أنانية. ليس الغباء هو المسؤول، وإنما أعمتني الأنانية، وأعمتني ثقتي الكبيرة بقداستك. كنت لا

Twitter: @ketab_n

أنظر إلا في نفسي. وعلام أنظر فيكم أنتم؟ لقد كنت واثقاً بكم جميعاً، وكنت أعدُّكم أعلى مني كثيراً! وأمس، في البيت، لم يستطع سلوككم الغريب أن يزيل الغشاوة عن بصري، وكنت عدا ذلك مشغول البال بأمور أخرى، فلم أستطع أن أدرك شيئاً، رغم جميع الإشارات والتلميحات.

وتذكرت في تلك اللحظة كاترينا نيقولايفنا فجأة. فأحسست مرةً أخرى بألم يشبه أن يكون وخز إبرة في القلب، واحمر وجهي احمراراً شديداً. فكان طبيعياً ألا أستطيع أن أكون عندئذ طيباً.

قالت ليزا بصوت رقيق لكنه جازم:

ـ ولكن عمَّ تعتذر يا أركادي؟ يبدو لي أنك تحاول أن تعتذر عن شيء، أن تبرىء نفسك من شيء، ولكن عمَّ تعتذر؟ مم تبرىء نفسك؟

ـ ما الذي يجب عليَّ أن أفعله الآن؟ لو لم يكن ثمة إلا هذا السؤال لكفى. فكيف تقولين ممَّ تبرىء نفسك؟ لقد أصبحت لا أعرف كيف أتصرف! لست أعلم ماذا يفعل الإخوة في مثل هذه الحالة... أعلم أن منهم من يجبر الجاني على الزواج مشهراً عليه المسدس... ولسوف أتصرف كما يجب أن يتصرف رجل شريف. لكنني أجهل كيف ينبغي أن يتصرف رجل شريف! لماذا؟ لأننا لسنا من طبقة النبلاء. إنه أمير. وهو يصنع حياته ويهيىء مستقبله، فلن يرضى حتى أن يصغي إلينا نحن الشرفاء. وأنا وأنت لسنا أخاً وأختاً، وإنما نحن ولدا زنا بغير اسم، نحن من أولاد الأقنان. هل يتزوج الأمراء بنات أقنان؟ آه... يا للعار! وتظلين تنظرين إليَّ وتُدهشين؟...

فاحمرت ليزا من جديد، وقالت:

Twitter: @ketab_n

ـ أظن أنك معذب، ولكنك تتسرع كثيراً وتؤذي نفسك...

ـ أتسرع؟ أفي رأيك إذن أنني لم أتأخر؟ أأنت تقولين هذا الكلام يا ليزا؟ (أخيراً نشط خيالي). ما أكثر ما تكدس عليَّ من عار مع ذلك، وما أشد الاحتقار الذي لا بد أن هذا الأمير قد حمله لي! آه... الآن أصبح كل شيء واضحاً. الآن أصبحت اللوحة كلها ماثلة أمامي: لقد تصور أنني عرفت صلته بك منذ مدة طويلة، ولكنني سكتّ عليها، أو حتى شمخت بأنفي تباهياً «بالشرف» العظيم ـ ذلك ما تصوره عني. وتصور أنني كنت آخذ ماله في مقابل أختي، تصوَّر أنني كنت آخذ ماله ثمناً لعرض أختي. وذلك ما كان يشمئز منه. وإني لأعذره، أعذره كل العذر: فليس غريباً أن يضيق ذرعاً بمخلوق دنيء يُضطر أن يلقاه مرةً بعد مرة كل يوم لا لشيء إلا أنه «أخوها»، وأن يسمعه ـ فوق ذلك ـ متحدثاً عن الشرف... ذلك خليق بأن يجعل قلب المرء يقسو، أن يقسُو حتى قلب رجل مثله! وقد ارتضيت أنت هذا كله، ولم تنبهيني! لقد بلغ من شدة احتقاره لي أنه كان يحدث عني ستيبلكوف، حتى لقد قال هو نفسه بالأمس إنه يريد منذ مدة طويلة أن يطردنا كلينا أنا وفرسيلوف. وهذا إذن ما جعل ستيبلكوف يقول: «إن آنا آندرييفنا أختك مثل أليزابت ماكاروفنا سواء بسواء»، حتى لقد صرخ يقول ورائي: «مالي أنا أفضل». وكنت أنا أستلقي في بيت الأمير على دواوينه مسترخياً، وكنت ألتصق بأصدقائه ندا لهم ونظيراً! وسمحت أنت بهذا كله! ولا شك أن دارزان نفسه على علم بالأمر الآن، كما تدل على ذلك لهجته في مساء أمس... جميع الناس عارفون بالأمر، جميعهم عارفون به، إلا أنا!...

قاطعتني ليزا تقول:

Twitter: @ketab_n

ـ لا أحد يعرف. إنه لم يتحدث إلى أحد من أصدقائه، إنه لم يستطع أن يتحدث إلى أحد منهم. أما ستيبلكوف هذا، فأنا أعرف أنه يعذبه، وأن ستيبلكوف قد استطاع أن يشتبه اشتباهاً في أكثر تقدير. . . أما أنت فقد كلمته عنك مراراً، وصدَّق ما قلته له تصديقاً كاملاً. . . لقد قلت له إنك تجهل كل شيء، ولكنني لا أدري لماذا وكيف حدثت هذه القصة بينكما أمس.

ـ الحمد لله على أنني دفعت له دينه أمس، فتخففت على الأقل من هذا الحمل الذي يجثم على قلبي! ليزا، هل ماما على علم بالأمر؟ ولكن كيف لا تكون على علم به. إنها بالأمس ثارت عليَّ! آه يا ليزا! ولكن هل يمكن أن تعتقدي بأنك على حق؟ ألا تتهمين نفسك بشيء؟ إنني لا أدري كيف يُحكم على هذه الأمور اليوم، ولا أدري ما هي آراؤك، أقصد ما هي آراؤك فيَّ، في أمك، في أخيك، في أبيك! هل فرسيلوف على علم؟

ـ لم تقل له ماما شيئاً. وهو لا يسأل عن شيء. لا شك أنه لا يريد أن يسأل.

ـ يعلم ولكنه لا يريد أن يعلم. هذا هو الأمر. ذلك في طبيعته. طيب، وفي وسعك أن تسخري من أخيك، من أخيك الغبي، إذا هو تكلم عن مسدسات، ولكن هلا فكرت في أمك؟ ألم تحدثك نفسك أبداً يا ليزا بأن ما فعلته هو ملامة لأمك؟ لقد عذبتني هذه الفكرة طوال الليل. إن الفكرة الأولى عند ماما اليوم هي هذه: «لقد أثمت إبنتي لأنني أثمت أنا أيضاً. هل تلد الحية إلا الحية؟».

ما أن سمعت ليزا هذا الكلام حتى طفرت الدموع من عينيها، وهتفت تقول:

ـ آه ما أقسى هذا الذي تقوله وما أسوأه!

Twitter: @ketab_n

ثم نهضت وسارت مسرعةً نحو الباب، فقلت لها:

ـ قفي قفي!

وأمسكتها، وأجلستها من جديد، وجلست بقربها دون أن أسحب يدي. قالت:

ـ كنت أقدِّر، وأنا آتية إلى هنا، أن هذا كله سيحدث، وأنك ستكون في حاجة إلى أن أتهم نفسي حتماً. فاغتبطْ: هأنا ذي أتهم نفسي. إنني لم أصمت حتى الآن ولم أمتنع عن الكلام إلا كبرياءً ولكنني أشفق عليك وعلى ماما أكثر مما أشفق على نفسي...

ولم تكمل ليزا جملتها، وإنما انفجرت تبكي. فقلت لها:

ـ كفى يا ليزا! لا، لست في حاجة إلى شيء. ما أنا لك بالقاضي يا ليزا. ولكن قولي لي: هل علمت ماما بالأمر منذ مدة طويلة؟

فأجابت ليزا برقة وهي تخفض عينيها:

ـ أظن. ولكنني لم أذكر لها أنا متى وقع «الأمر» إلا منذ زمن قصير.

ـ فماذا كان منها؟

ـ قالت: «احتفظي به».

نطقت ليزا هذه الكلمات بلهجة فيها مزيد من الرقة. فقلت لها:

ـ نعم يا ليزا، «إحتفظي به». لا تحاولي أن تصنعي بنفسك شيئاً. حماك الله من مثل ذلك!

قالت بثبات:

ـ لن أفعل شيئاً.

ورفعت بصرها إليَّ من جديد. ثم أضافت تقول:

ـ إطمئن. ليس الأمر هذا!

Twitter: @ketab_n

ـ ليزا، عزيزتي! كل ما أراه هو أنني لا أعلم شيئاً. لكنني علمت الآن أنني أحبك. هناك شيء واحد لا أفهمه يا ليزا: لقد أصبح كل شيء واضحاً لي يا ليزا، ولكنني لن أفهم في يوم من الأيام، فهماً كاملاً، لماذا افتتنت به يا ليزا؟ كيف أمكن أن تحبي رجلاً مثله؟ ذلك هو السؤال.

فأجابت ليزا وهي تبتسم ابتسامة رقيقة عذبة:

ـ ولا شك أن هذه الفكرة أيضاً قد عذبتك في الليل، أليس كذلك؟

ـ انتظري يا ليزا، هذا سؤال سخيف، وأنت تستهزئين بي. استهزئي بي، ولكن من المستحيل على المرء مع ذلك ألا يدهش: أنت و«هو» نقيضان! لقد درست طبعه: إنه رجل قاتم المزاج، كثير الشك، قد يكون طيباً، ولكنه ميال كثيراً إلى رؤية الشر في كل مكان. (هنا على الأقل يشبهني تماماً). وهو يحترم النبل احتراماً شديداً، أعترف بهذا أيضاً وأراه، ولكنني أعتقد أن هذا الاحترام لا يتعدى نطاق المثل الأعلى. وهو ميَّال إلى الندم طول حياته بغير انقطاع، وهو ينحى على نفسه باللائمة دائماً، ولكنه لا يصلح حاله أبداً (وهو هنا أيضاً يشبهني على كل حال). في رأسه ألف وهم من الأوهام الاجتماعية، وألف معنى من المعاني الزائفة، ولكن ليس له فكرة واحدة! يسعى إلى المآثر الكبرى، لكنه لا يزيد على أن يُراكم دناءات فوق دناءات. معذرة يا ليزا، إنني أسيء إلى شعورك. والحق أنني غبي: فحين أقول هذا الكلام أجرح عاطفتك، وأعلم أنني أفعل ذلك؛ إنني أفهم هذا...

قالت ليزا مبتسمة:

ـ الصورة التي رسمتها كان يمكن أن تكون صحيحة، ولكنك

Twitter: @ketab_n

مسرف في السخط عليه، لذلك لم يبق فيها شيء من صحة. لقد ارتاب فيك منذ البداية، ولم تستطع أن تراه كاملاً، أما معي أنا فإنه منذ أن كنا في لوجا... إنه لم ير أحداً غيري منذ أن كنا في لوجا... نعم إنه كثير الشك مهيأ للمرض، ولولاي لفقد عقله. ولسوف يفقده إذا هو تركني أو سوف ينتحر.

وأضافت ليزا تقول لنفسها واجمة مفكرة:

ـ أظن أنه يدرك ذلك ويعرفه.

وتابعت كلامها فقالت:

ـ صحيح أنه ضعيف، ولكن أمثال هؤلاء الضعفاء قادرون أحياناً على أشياء قوية قوة هائلة. ما كان أسخف كلامك عن المسدس يا أركادي: لا حاجة إلى شيء من هذا البتة، وأنا أعرف ما سوف يحدث. لست أنا التي ألاحقه وأطارده، بل هو الذي يجري ورائي. إن ماما تبكي وتقول: «إذا تزوجته فسوف تشقين، لأنه سيكف عن حبك». أما أنا فلا أصدِّق هذا الكلام. قد أشقى، ولكنه لن ينقطع عن حبي. ليس هذا هو السبب الذي حملني على تأخير موافقتي، وإنما هنالك سبب آخر. لبثت شهرين لا أوافقه على الزواج. ولكنني أجبته اليوم قائلة: «نعم، أتزوجك». هل تعلم يا أركادي (هنا سطعت عيناها وطوقت عنقي بذراعيها فجأة) إنه ذهب أمس إلى آنا آندرييفنا، وأبلغها بكلام صريح قاطع أنه لا يستطيع أن يتزوجها؟ نعم، لقد أفصح عن نفسه، وانتهى أمر تلك الفكرة الآن! وهو لم يشارك فيها أبداً على كل حال، وإنما كان ذلك حلم الأمير نيقولا إيفانوفتش، وكان ذانك الجلادان، ستيبلكوف وشخص آخر، يضغطان عليه ضغطاً شديداً. فكان أن كافأته اليوم بجوابي: «نعم، أتزوجك». لا تجرحنك قصة الأمس يا

Twitter: @ketab_n

عزيزي أركادي. إنه يدعوك إليه، وهو اليوم مريض، وسيبقى طول النهار في البيت. حقاً إنه مريض يا أركادي. لا تظنن أن هذا تعلل. لقد أوفدني إليك خصيصاً ورجاني أن أقول لك إنه «محتاج» إليك، وإن في نفسه أشياء كثيرة يريد أن يقولها لك، وإن هذه الأشياء لو قالها لك هنا في مسكنك هذا لكانت في غير محلها. هيًّا، إلى اللقاء! آه يا أركادي، إنني أستحي أن أقول لك هذه الحقيقة، وهي أنني في طريقي إليك كنت أشعر بخوف رهيب من أن يكون حبك لي قد زال. فكنت أرسم إشارة الصليب طوال الطريق. ولكنني أحمد الله على أنك طيب جداً، ولطيف جداً! لن أنسى هذا في حياتي. أنا ذاهبة إلى ماما. حاول أن تحبه قليلاً، هه؟

فقبلتها بحرارة وقلت لها:

ـ أعتقد يا ليزا أنك قوية الإرادة. نعم، أصدِّق أنك لست أنت التي تجرين وراءه، بل هو الذي يجري وراءك. ولكن، رغم كل شيء. . .

فقالت ليزا تكمل جملتي:

ـ ولكن رغم كل شيء، «لماذا افتتنت به؟ هذا هو السؤال».

قالت هذه الجملة وهي تضحك ضحكة ماكرة كما فعلت من قبل، ونطقت بعبارة «هذا هو السؤال» مقلدةً لهجتي تقليداً تاماً، رافعةً إبهامها إلى مستوى عينيها مثلما فعلت أنا.

وتعانقنا، ولكن قلبي انقبض ثانية بعد انصرافها.

2

أريد أن أسجل هذا لنفسي: بعد انصراف ليزا تلاحقت في

Twitter: @ketab_n

خاطري أفكار غريبة كثيرة أورثتني ارتياحاً كبيراً. فكنت أقول لنفسي مثلاً: «لماذا أقحم نفسي في هذه الشؤون؟ فيم يعنيني هذا الأمر؟ إن هذه الأشياء تحدث لجميع الناس، أو لجميعهم تقريباً. وقد حدثت لليزا. فماذا؟ هل عليَّ أن أنقذ شرف الأسرة؟ هل عليَّ أن أمحو عار الأسرة؟». إنني أسجل هذه الخطوات الحقيرة لأبيِّن مدى ما كنت عليه في ذلك الأوان من ترجح في فهم الخير والشر. والعاطفة وحدها هي التي أنقذتني: كنت أعرف أن ليزا شقية، وأن ماما شقية؛ كنت أعرف ذلك بالعاطفة حين أفكر فيهما، فأحس أن كل ما حدث كان شراً ولم يكن خيراً.

والآن يجب أن أذكر أن الأحداث، منذ هذا اليوم إلى يوم كارثة مرضي، قد تلاحقت بسرعة تبلغ من الشدة أنني أدهش أنا نفسي ـ حين أفكر فيها اليوم ـ من أنني استطعت أن أصمد، ومن أن القدر لم يسحقني. لقد تعرض عقلي وتعرضت عاطفتي للمخاطر أثناء تلك الأحداث، فلو قد نفدت طاقتي في آخر الأمر فارتكبت جريمة (جريمة أوشكت أن أرتكبها)، لكان من الممكن جداً أن يبرئني المحلفون. ولكنني سأحاول أن أقص كل شيء بترتيب محكم، رغم أن فكري أثناء تلك الأحداث لم يكن فيه شيء من ترتيب. إني لأنبِّه إلى هذا. لقد هاجمتني الأحداث كعاصفة، فدارت الأفكار في رأسي كأوراق الأشجار اليابسة في أعاصير الخريف. لقد كنت متشبعاً حينذاك بأفكار الآخرين، فأين أجد فكرة نابعة من نفسي فأتخذ قراراً حراً! ولم يكن ثمة من يرشدني.

قررت أن أذهب في المساء إلى الأمير، لأكلمه عن كل شيء بحرية تامة، وإلى أن يحين المساء بقيت في البيت. ولكنني حين حل الغسق تلقيت بالبريد رسالةً جديدة من ستيبلكوف، مؤلفة من

Twitter: @ketab_n

ثلاثة أسطر، يطلب إليَّ فيها بإلحاح وبلهجة «مقنعة» إلى أبعد حد أن أزوره غداً في الساعة الحادية عشرة من الصباح «لأعمال ذات شأن هام، وسترى بنفسك ما هي». فقررت، بعد تفكير، أن أتصرف وفقاً للظروف، فالغد لا يزال بعيداً.

كانت الساعة قد بلغت الثامنة. وكان يمكن أن أمضي إلى الأمير منذ مدة طويلة، غير أنني كنت لا أزال أنتظر فرسيلوف: فإن هناك أشياء كثيرة يجب أن أعبِّر له عنها، وكان قلبي يحترق احتراقاً. ولكن فرسيلوف لم يأتِ، وقد أصبحت لا أستطيع في تلك اللحظة أن أظهر عند أمي وليزا، وكنت أحس من جهة أخرى أن فرسيلوف قد غاب عن البيت طول النهار. فخرجت سيراً على القدمين، وفيما أنا في الطريق خطر ببالي أن ألقي نظرة على حانة الأمس التي تقع تحت مستوى الأرض. فوجدت فرسيلوف هناك، في المكان الذي كان فيه البارحة.

قال وهو يبتسم ابتسامة غريبة، ويحدجني بنظرة عجيبة:

ـ كنت أعرف أنك ستأتي.

كانت ابتسامته خالية من الطيبة، لم أر مثلها في وجهه منذ مدة طويلة.

جلست إلى المائدة، ورويت له من البداية إلى النهاية جميع الوقائع التي تتصل بالأمير وليزا، وقصصت عليه المشهد الذي وقع لي أمس مع الأمير بعد الروليت، ولم أنس أن أذكر له أنني أصبت في القمار ربحاً كبيراً. فأصغى إليَّ بانتباه شديد، وسألني عن القرار الذي اتخذه الأمير بخصوص زواجه من ليزا. وقال:

ـ «يا للطفلة المسكينة»! لعلها لن تجني من هذا ربحاً. ولكن أغلب الظن أن الأمر لن يتم... رغم أن الشاب قادر على أن...

Twitter: @ketab_n

ـ قل لي كما يقول صديق لصديقه: هل كنت تعلم؟ هل كانت نفسك تحدثك بشيء؟

ـ يا صديقي، ماذا كان في وسعي أن أعمل؟ ذلك أمر من أمور العاطفة والوجدان، ولو من جانب هذه البنت المسكينة على الأقل. أكرر لك ما سبق أن قلته: لقد طالما تدخلت في شؤون غيري في الماضي، ثم أقلعت عن هذه الدعوى الخرقاء وصرت ألتزم جانب التحفظ! هذا لا ينفي طبعاً أنني لا أرفض أبداً أن أساعد أحداً إذا ألم به شقاء، أن أساعده في حدود طاقتي، بشرط أن أفهم شيئاً مما يحدث. ولكن قل لي: ألم تساورك أنت أية شبهة طوال هذه المدة؟

فقلت وقد اشتعلت نفسي غضباً:

ـ ولكن كيف أمكنك وقد اشتبهت في أنني أعرف علاقة ليزا بالأمير ـ ولو أقلَّ اشتباه ـ ورأيت في الوقت نفسه أنني أقبل أن آخذ من الأمير مالاً، كيف أمكنك أن تتحدث معي، وأن تجالسني، وأن تصافحني، أنا الذي لا بد أنك كنت تعدني شخصاً حقيراً؟ أراهن على أنك كنت تشتبه حتماً في أنني أعرف كل شيء، وأنني كنت آخذ المال من الأمير ثمناً لأختي وأنا عالم بالأمر كل العلم!

قال وهو يبتسم:

ـ أقول لك مرةً أخرى إن هذا شأن من شؤون الوجدان والضمير.

ثم أضاف يقول وقد لاح في وجهه تعبير عن عاطفة ملتبسة ملغزة:

ـ ومن أدراك أنني كنت لا أخشى ـ كما خشيت أنت، في حالة أخرى ـ أن أفقد مثلي الأعلى، وأن أكتشف في إبني النزق الشريف وغداً حقيراً؟ لقد كنت أخشى هذا، فكنت أؤجل لحظة المعرفة

Twitter: @ketab_n

الأليمة. لماذا لا تفترض فيَّ، بدلاً من الكسل والدناءة، شيئاً أقرب إلى البراءة، بل شيئاً من الغباء أيضاً، والغباء أنبل على كل حال. على أنني كثيراً ما أكون غبياً بغير نبل. بأي حق يمكن أن أكون متشدداً في محاسبة ابني؟ هذا عدا أن إصلاحك بالإكراه لا قيمة له في نظري.

ـ وليزا؟ ألا تشفق عليها؟ ألا ترثي لحالها؟

ـ أشفق عليها كثيراً يا عزيزي. من قال لك إنني خال من الإحساس؟... بالعكس، إنني أحاول بجميع الوسائل... وأنت؟ كيف تسير أمورك «أنت»؟

ـ دعنا من أموري. لم يبق لي «أنا» أمور. اسمع! لماذا تشك في أنه سيتزوجها؟ لقد ذهب أمس إلى آنا آندرييفنا، وأعرب لها عن عدوله إعراباً واضحاً... أقصد عن هذه الفكرة السخيفة... التي قامت في ذهن الأمير نيقولا إيفانوفتش... فكرة أن يزوجهما. لقد عدل عن هذه الفكرة عدولاً صريحاً.

ـ صحيح؟ متى حدث هذا؟ ممن علمته؟

ألقى عليَّ هذه الأسئلة مستطلعاً باهتمام. فحكيت له كل ما كنت أعرفه. فقال واجماً كمن يفكر بينه وبين نفسه:

ـ همْ... إذن حدث الأمر قبل مصارحة أخرى بساعة واحدة. همْ... نعم... جائز جداً أن تكون هذه المصارحة قد تمت بينهما... رغم أن شيئاً لم يُقل ولم يعمل هناك أبداً حتى ذلك اليوم، لا من هذا الجانب ولا من ذاك... أنا أعرف هذا. نعم... حتماً... تكفي كلمتان اثنتان للعرض. ولكن...

هنا ضحك ضحكة غريبة على حين فجأة، وتابع كلامه فقال:

ـ ولكن اسمع... سأذكر لك نبأ خارقاً لا شك أنه سيهمك: لو

Twitter: @ketab_n

أن صاحبك الأمير طلب من آنا آندرييفنا أن يتزوجها (وذلك عرض كنت سأبذل كل ما أملك من قوة لأحول دون تنفيذه، لما في ذهني من شبهات عن العلاقة التي بين الأمير وبين ليزا، أقول لك هذا سراً بيني وبينك) لرفضت آنا آندرييفنا طلبه فوراً. على كل حال أظن أنك تحب آنا آندرييفنا كثيراً، وتحترمها، وتقدرها، أليس كذلك؟ هذا لطف كبير منك، ولسوف تبتهج لها إذن: فاعلم يا عزيزي أن آنا آندرييفنا مقبلة على زواج، وإذا صدق ما أعرفه عن طبعها، فإنها ستتزوج حتماً، وسأبارك أنا زواجها طبعاً.

هتفت أقول مدهوشاً:

ـ ستتزوج؟ من الذي ستتزوجه؟

ـ أحزر. هيَّا، لا أريد أن أعذبك. ستتزوج الأمير نيقولا إيفانوفتش، شيخك العزيز.

حملقت. وتابع كلامه يقول بتراخ ووضوح:

ـ من الجائز جداً أن تكون هذه الفكرة قد نبتت في ذهنها منذ مدة طويلة، ولا شك أنها صقلتها صقلاً فنياً على جميع وجوهها، وفي تقديري أن الأمر قد تم بعد زيارة «الأمير سرجي» بساعة تماماً (هذا مثال على غزواته التي تجيء في غير الأوان). لقد جاءت إلى الأمير نيقولا إيفانوفتش ببساطة وعرضت عليه أن يتزوجها.

ـ كيف؟ هي عرضت عليه أن يتزوجها؟ تقصد: عرض عليها أن يتزوجها؟

ـ هو؟ دعك من هذا! هي التي عرضت عليه، هي! وواقع الأمر الآن أنه ممتلىء حماسة. ويبدو أنه مدهوش من أن هذه الفكرة لم تخطر بباله. ولقد سمعت أنه أصبح مريضاً، من فرط الحماسة أيضاً... في أغلب الظن.

Twitter: @ketab_n

ـ اسمع. . . إنك تتكلم بسخرية شديدة. فلا أكاد أصدقك. كيف تعرض عليه أن يتزوجها؟ ماذا قالت له؟

أجاب وهو يصطنع هيئة فيها جَدٌّ مدهش على حين فجأة:

ـ ثق يا صديقي أنني مبتهج ابتهاجاً صادقاً. صحيح أنه شيخ، ولكن جميع القوانين والعادات تجيز له أن يتزوج. أما عنها هي، فالأمر هنا أيضاً أمر وجدان الغير، كما سبق أن كررت لك ذلك يا صديقي. ثم إنها أهل لأن يكون لها رأيها وأن تتخذ قرارها في ما يخصّها. وأما عن التفاصيل، وعن الكلمات التي استعملتها في مخاطبته، فهذه أمور لا أعرف عنها شيئاً يا صديقي. ولكنها دبَّرت أمرها على كل حال، كما لا نستطيع أن نفعل نحن، لا أنا ولا أنت يا صديقي. وخير ما في المسألة أن هذا كله لا يشتمل على أية فضيحة، فهو في نظر جميع الناس سليم كل السلامة، هو «كما يجب» جداً. واضح أنها أرادت أن تنشىء لنفسها مركزاً في المجتمع، ولكنها تستحق أن يكون لها هذا المركز في المجتمع. تلك كلها أمور رائجة في المجتمع. ولا بد أن العرض الذي تقدمت به قد صاغته بعبارات رائعة فاتنة. إن لها طبعاً قاسياً يا صديقي؛ هي راهبة شديدة المراس كما ألقبها بذلك منذ مدة طويلة. لاحظ أنها ربيبته تقريباً، وأنها خبرت طيبته كثيراً. وطالما أكدت لي أنها تحمل له «كثيراً من الاحترام وكثيراً من التقدير والمودة!»، الخ، لذلك كنت شبه متهيىء لتلقي النبأ. هذا كله قد نقله إليّ اليوم باسمها وتلبية لرجائها ابني آندره آندريفتش، أخوها، الذي لا تعرفه، والذي أراه مرةً واحدة كل ستة أشهر تماماً. وهو يؤيد خطوتها باحترام عظيم.

ـ إذن أذيع النبأ؟ ما أشد دهشتي!

Twitter: @ketab_n

ـ لا، لم يُذع بعد. . . ولن يذاع إلا بعد مدة. متى؟ لا أدري. على كل حال، أنا لا دخل لي أبداً. ولكن كل ما قلته لك صحيح.

ـ ولكن ما عسى أن يكون موقف كاترينا إيفانوفنا الآن؟ لا شك أن هذا الأمر لن يسر بيورنج!

ـ ذلك ما أجهله. ولكن ممَّ يمكن ألا يسر؟ صدقني على كل حال أن آنا آندرييفنا سوف تعرف كيف تحسن التصرف في هذا المجال أيضاً. يا لآنا آندرييفنا هذه! لقد سألتني في صباح أمس هل أحب السيدة آخماكوفا. هل تتذكر؟ لقد رويت لك هذا بالأمس مدهوشاً: ألا يمكنها أن تتزوج الأب إذا تزوجت أنا البنت؟ هل تفهم الآن؟

هتفت أقول:

ـ آ. . . فعلاً. ولكن هل يخطر ببال آنا آندرييفنا حقاً أنك يمكن أن تريد تزوج كاترينا نيقولايفنا؟

ـ طبعاً يا صديقي. على كل حال، على كل حال، آن الأوان لأن تذهب إلى حيث كنت تريد أن تذهب. إنني أشعر بألم في رأسي. سوف أطلب أن تُعزف «لوسيا». أحب عظمة الضجر والسأم. أظن أنني قلت لك هذا قبل الآن. ما أكثر ما أكرر تكراراً لا يغتفر! قد أنصرف من هنا مع ذلك. أحبك يا صديقي، ولكن أستودعك الله! حين أُحس بألم في الرأس أو في الأسنان فإنني أشتاق دائماً إلى الوحدة.

وارتسم على وجهه غضب يعبر عن ألم. إنني أصدقه الآن. لقد كان يشعر بألم في رأسه، في رأسه خاصةً. . .

قلت:

ـ إلى الغد.

Twitter: @ketab_n

ـ ما تعني بقولك إلى الغد؟ وما الذي سيحدث غداً؟

وابتسم ابتسامة شزراء.

ـ أجيء إليك أو تجيء إليَّ.

ـ لا لن أجيء إليك، بل أنت الذي ستهرع إليَّ. كان في وجهه سوء وشر، ولكنني لم أنتبه إلى هذا. يا له من حادث!

3

كان الأمير مريضاً بالفعل: فهو ملازمٌ بيته، معصوب الرأس بخرقة مبللة. وكان ينتظرني نافد الصبر. ولكن لم يكن رأسه وحده مريضاً، بل كان شخصه كله يعاني من ألم نفسي. تنبيه آخر: إنني في هذه الآونة الأخيرة، وحتى وقوع الكارثة، لم ألق إلا أناساً مهتاجين اهتياجاً شديداً، فكان لا بد أن تسري عدواهم إليَّ رغم إرادتي.

يجب أن أعترف بأنني حين وصلت إليه كانت نفسي زاخرة بعواطف سيئة، وكنت عدا ذلك أشعر بعار كبير من أنني بكيت عنده أمس. لقد بلغا من خداعي، هو وليزا، أنني كنت أقدِّر أنهما يعّداني غبياً ولا شك. الخلاصة أن قلبي كان مترعاً بمشاعر رديئة حين دخلت عليه. ولكن هذا كله كان سطحياً، فسرعان ما تبددت تلك المشاعر. يجب أن أنصف الأمير فأقول: إنه متى خفت حدة تأذيه أو زالت، فتح نفسه لك صادقاً، فإذا أنت تكتشف فيه صفات تكاد تكون صفات طفل، من حنان وثقة ومحبة. لقد قبَّلني والدموع تترقرق في عينيه، ثم سرعان ما شرع يتحدث في الأمر. . . نعم، لقد كان في حاجة إليَّ حقاً. وكان في أقواله وفي تتابع أفكاره اضطراب كبير.

Twitter: @ketab_n

أعلن لي جازماً أنه عاقد عزمه على أن يتزوج ليزا، وعلى أن يتزوجها في أقرب وقت. وقال لي: «ألا تكون ليزا من طبقة النبلاء، فذلك أمر لم يهمني لحظة واحدة. لقد تزوج جدي فتاة من الأقنان كانت مغنية في مسرح خاص لملاك مجاور. صحيح أن أسرتي تعقد علي آمالاً من نوع خاص، ولكنها ستذعن الآن مضطرة، وسيتم هذا بغير صراع. أريد أن أقطع صلتي بكل مجتمع هذا الزمان! أريد شيئاً آخر، شيئاً جديداً! لا أدري لماذا أحبتني أختك، ولكن لعل السبب هو أنني لولاها لكنت قد بارحت هذا العالم. أحلف لك صادقاً كل الصدق أنني أعد لقائي لها في لوجا رحمةً إلهية. أعتقد أنها أحبتني بسبب «فداحة سقوطي». . . ولكن هل تفهم هذا يا أركادي ماكاروفتش؟

فأجبته بصوت يعبر تعبيراً واضحاً عن الاقتناع:

ـ كلَّ الفهم.

كنت جالساً على المقعد الذي يواجه المائدة، وكان هو يسير في الغرفة طولاً وعرضاً.

ـ يجب أن أروي لك قصة لقائنا كلها دون أن أخفي شيئاً. لقد بدأ كل شيء بسرٍ خاص عرفته وحدها، لأنني لم أبح به إلا لها، ولا يعرفه أحد حتى الآن. لقد وصلت لوجا مكروب النفس يائساً، وأقمت عند ستولبيافا، لا أدري الآن لماذا! لعلني أردت أن أنشد أكمل عزلة. بعد أن تركت الجيش منذ قليل. وكنت قد دخلت الجيش عند عودتي من الخارج بعد ذلك اللقاء في الخارج مع أندريه بتروفتش. وكنت أملك في ذلك الحين ثروة، وكنت أبدِّد المال تبديداً، وأعيش حياة بذخ ولهو. ولكن رفاقي كانوا لا يحبونني. ومع ذلك كنت أحاول ألا أسيء إليهم. يجب أن أعترف

Twitter: @ketab_n

لك بأن أحداً لم يحبني في يوم من الأيام. وكان هناك حاملُ علم اسمه ستيبانوف، وهو في الواقع رجل فارغ تافه بل يكاد يكون أبله. الخلاصة أنه ليس له ميزة من الميزات. ولكنه كان رجلاً شريفاً لا يمكن أن يجحد أحد شرفه. وقد تشبث هذا الرجل بي. فكنت لا أضيق بوجوده ولا أشعر بحرج منه. كان يأتي إلي، فيجلس في ركن من الأركان أياماً كاملة دون أن يفتح فمه بكلمة، ولكن بوقار وكرامة، فلا يزعجني أي إزعاج. وقد قصصت عليه في ذات يوم حكاية من حكايات الساعة زخرفتها بسخافات كثيرة: وهي أن ابنة الكولونيل تحمل لي عاطفة حب، وأن الكولونيل يعوِّل عليَّ فأستطيع أن أحرِّكه كيف أشاء. ولا حاجة إلى ذكر التفاصيل، فإنما المهم أنه قد نشأت عن كلامي هذا شائعات وأقاويل معقدة غاية التعقيد، قذرةٌ إلى أبعد حدود القذارة. وهذه الشائعات والأقاويل لم يكن مصدرها ستيبانوف، وإنما كان مصدرها خادمي الذي سمع كل شيء وحفظ كل شيء، لأن الكلام كان حكاية سيئة تفسد سمعة فتاة. فلما سأل الضباط هذا الخادم عن مصدر القصة حين شاعت في الناس سمَّى ستيبانوف وذكر أنني الذي رويتها لستيبانوف. وكان يستحيل على ستيبانوف أن ينكر أنه سمعها. فهذه مسألة شرف. ولما كنت قد اخترعت أكثر من ثلثي الحكاية اختراعاً لزخرفتها فقد استاء الضباط واضطر الكولونيل أن يجمعنا في بيته لتوضيح الأمور ووضعها في نصابها. وهناك ألقى هذا السؤال على ستيبانوف بحضور الجميع: أسمعت أم لم تسمع؟ فقال ستيبانوف الحقيقة. فكيف كان تصرفي أنا الأمير الذي أنتسب إلى سلالة أمراء عمرها ألف سنة؟ لقد أنكرت، وقلت أمام ستيبانوف أنه كذب، أو بتعبير مهذب: «لم يحسن فهم ما قلت»، الخ. هنا أيضاً لا داعي إلى ذكر

Twitter: @ketab_n

التفاصيل. وإنما المهم أن أشير إلى أن موقفي يمتاز على موقف ستيبانوف بأنني كنت أستطيع بسبب مواظبة ستيبانوف على المجيء إلى بيتي، أن أعرض الأمر عرضاً يوهم بأن ثمة تواطأ قد تم بين ستيبانوف وبين خادمي لتحقيق بعض المنافع، وذلك شيء يمكن أن يُصدَّق... وذلك ما كان. فلم يزد ستيبانوف على أن نظر إليَّ وهزَّ منكبيه دون أن ينطق بكلمة واحدة. إنني أتذكر نظرته ولن أنساها ما حييت. ولم يلبث ستيبانوف أن قدم استقالته فوراً. ولكنك لن تحزر أبداً ما حدث. إن جميع الضباط، من أولهم إلى آخرهم، قد زاروه وناشدوه ألا يرحل. حتى إذا مضى أسبوعان كنت أنا الذي أترك الجيش: لم يطردني أحد، ولم يدعني أحد إلى الرحيل، وإنما انتحلت عذراً عائلياً لتقديم استقالتي. هكذا انتهت القضية. وقد بقيت في أول الأمر غير مكترث، حتى لقد كنت غاضباً منهم. وأقمت في لوجا، وتعرفت إلى أليزابت ماكاروفنا، ولكنني أخذت بعد انقضاء شهر واحد، أنظر إلى مسدسي وأفكر في الموت. إنني أرى الأمور سوداء دائماً يا آركادي ماكاروفتش. وأعددت رسالةً إلى الكولونيل وإلى رفاقي في الجيش لأعترف بكذبي ولأردَّ إلى ستيبانوف اعتباره. وحين انتهيت من كتابة الرسالة ألقيت على نفسي هذا السؤال: «أأرسلها وأعيش أم أرسلها وأموت؟». وكان يمكن أن أعجز عن الاهتداء إلى إجابة. لكن مصادفة من المصادفات، مصادفة عمياء، قرَّبتني فجأة من أليزابت ماكاروفنا بعد حديث سريع خاص جرى بيني وبينها. كانت حتى ذلك الحين تختلف إلى ستولبيافا، فكنا نلتقي أحياناً، ونتبادل التحية، ولا نتخاطب إلا في القليل النادر. فإذا أنا أكشف لها فجأة عن كل شيء. وعندئذ إنما مدت لي يدها.

Twitter: @ketab_n

ـ وكيف حلت المشكلة؟

ـ لم أبعث الرسالة. هي التي قررت ذلك. وسوَّغت قرارها على هذا النحو: إذا بعثتُ الرسالة فلا شك أن عملي يكون نبيلاً يغسل عاري ولكن هل أطيق أنا نفسي احتمال هذه الخطوة؟ وكان رأيها أن أحداً لا يستطيع احتمال مثل هذه الخطوة، لأن كل مستقبل يكون قد ضاع، وكل انبعاث من أجل حياة جديدة يصبح مستحيلاً. ثم إن إرسال الرسالة يكون له ما يوجبه لو أن ستيبانوف قد أوذي وتألم، ولكن ستيبانوف قد ردَّ إليه الضابط اعتباره، وهو معهم على أحسن حال. الخلاصة أن كلامها كان مفارقة غريبة. ولكنها صدتني عن بعث الرسالة، وانقدت لها انقياداً تاماً.

هتفت أقول:

ـ ولقد اتخذتْ قراراً على غرار ما يفعل يسوعي، ولكن على غرار ما تفعل امرأة أيضاً. كانت تحبك منذ ذلك الحين.

ـ وهذا بعينه هو ما بعثني إلى حياة جديدة. حلفت لأغيرن نفسي ولأبدلن حياتي، ولأكسبن جدارة في نظري وفي نظرها. فانظر إلى أي شيء انتهى ذلك كله! ركضنا أنا وأنت إلى بيوت القمار، لعبنا الباكاراه، أطاش الميراث صوابي، لم أفطن إلا إلى اللذة، لم أنتبه إلى ضمان مستقبلي وعملي، وعاشرت الأوغاد من الناس، وحفلت بمظاهر الأبهة والفخامة واندفعت في ترهات المجتمع الراقي. وعذبت ليزا. آه... يا للعار!

قال ذلك وفرك جبينه بيده، وراح يذرع الغرفة، ثم أردف يقول:

ـ نحن كلانا مصابان بالداء الروسي المألوف يا آركادي ماكاروفتش: فلا أنت تعرف ماذا يجب أن تعمل، ولا أنا أعرف ماذا يجب أن أعمل. إن الروسي متى خرج عن الطريق الذي رسمته

Twitter: @ketab_n

له العادة أصبح لا يعرف ماذا يجب أن يعمل. في الطريق المرسوم كل شيء واضح: دخل، ورتبة، ومركز في المجتمع، ومركبة، وزيارات، ومنصب، وامرأة. ماذا يبقى مني عند أول انحراف عن الطريق الممهد؟ ورقة تذروها الريح! أصبحت لا أعرف ماذا أعمل! لقد حاولت في هذين الشهرين أن أبقى في الطريق المرسوم، وأردت أن أحب الطريق المرسوم، وغصت في هذا الطريق المرسوم. إنك لا تعرف حتى الآن الهاوية الجديدة التي سقطت فيها: لقد كنت أحب ليزا، كنت أحبها حباً صادقاً، وكان فكري في الوقت نفسه ينصرف إلى السيدة أخماكوفا!

هتفت أقول متألماً:

ـ أهذا ممكن؟ قل لي بالمناسبة يا أمير: ماذا ذكرت لي أمس عن فرسيلوف؟ هل قلت لي أنه كان يحضك على ارتكاب دناءة في حق كاترينا إيفانوفنا؟

ـ لعلني بالغت. ولعلني بسبب ما أتصف به من سرعة التأذي قد أذنبت في حقه مثلما أذنبت في حقك. ولكن دعنا من هذا الآن. هل تتصور أنني طوال هذه المدة، وربما منذ أيام لوجا، لم أكن وفياً لأي مثل أعلى في الحياة؟ أقسم لك أن المثل الأعلى لم يفارقني قط، بل كان دائماً أمامي، ولم يفقد شيئاً من جماله في نظري. كنت أتذكر العهد الذي قطعته على نفسي لأليزابت ماكاروفنا وهو أن أبعث بعثاً جديداً. وحين حدثني آندريه بتروفتش بالأمس هنا عن النبل فإنه لم يقل لي شيئاً جديداً، ثق بذلك. أن مثلي الأعلى ثابت راسخ: بضع عشرات من الهكتارات (بضع عشرات لا أكثر، إذ لم يبق من الميراث شيء تقريباً)؛ وقطيعة تامة، تامة إطلاقاً، مع المجتمع الراقي وعالم المناصب؛ ومسكن ريفي، وأسرتي، وأنا. . . أحرث الأرض

Twitter: @ketab_n

أو أقوم بعمل من هذا القبيل. وليس هذا في سلالتنا شيئاً جديداً: إن عمي كان يدفع سكة المحراث، وكذلك كان جدي. نحن أمراء منذ ألف سنة، ونبلاء مثل آل روهان، ولكننا فقراء. وإليك ما كنت سأقوله لأولادي: «تذكر طول عمرك يا بنيَّ أنك نبيل، وأن الدم المقدس، دمُ الأمراء الروس، يجري في عروقك، ولكن لا تحمرَّ خجلاً من أن أباك دفع سكة المحراث: فهو إنما فعل ذلك كما يفعله أمير». ولن أترك لأولادي ثروة عدا تلك الرقعة من الأرض، ولكنني في مقابل ذلك سوف أعلمهم تعليماً عالياً، سوف أجعل ذلك واجباً يقع على عاتقي ولا أتخلى عنه أبداً. وستساعدني ليزا في ذلك. ليزا، الأولاد، العمل! آه... لكم حلُمْنا بهذا كله، أنا وهي، في هذا البيت نفسه! وفي الوقت نفسه كان فكري ينصرف إلى آخماكوفا، دون أن أحبها أبداً، وكنت أفكر في زواج ثري راق! ولم أقرر أن أذهب إلى آنا آندرييفنا إلا بعد ذلك النبأ الذي حمله ناشتشوكين بالأمس من بيورنج ذاك.

ـ ولكنك ذهبت إليها لتنسحب. هذه خطوة شريفة فيما أرى.

ـ أتظن ذلك؟

ألقى هذا السؤال، ووقف أمامي متسمراً، ثم استأنف كلامه قائلاً:

ـ بل إنك لا تعرف طبيعتي بعد. أو قل... أو قل إن ها هنا شيئاً لا أعرفه أنا نفسي، لأن الأمر لا يمكن أن يكون أمر طبيعة فحسب. إنني أحبك صادقاً يا آركادي ماكاروفتش، وعدا هذا فقد أثمت في حقك إثماً عميقاً خلال هذين الشهرين، لذلك أريد أن تعرف كل شيء، من حيث أنك أخو ليزا: أنا إنما ذهبت إلى آنا آندرييفنا لأخطبها، لا لأنسحب.

Twitter: @ketab_n

ـ أهذا معقول؟

ـ لقد خدعت ليزا.

ـ اسمح لي: أخطبت آنا آندرييفنا خطبة رسمية ورفضت؟ نعم؟ أهذا ما حدث؟ إن التفاصيل تهمني كثيراً يا أمير.

ـ لا، لم أتقدم بخطبتها، ولكن السبب هو أنني لم يتح لي ذلك. وهي التي أفهمتني، لا بألفاظ الرفض طبعاً، ولكن بكلمات واضحة شفافة مع ذلك، أفهمتني «برقة» أن هذه الفكرة أصبحت بعد الآن مستحيلة.

ـ فكأنك إذن لم تخطبها، وبقيت كرامتك سليمةً لم يمسسها أذى.

ـ كيف تستطيع أن تفكر هذا التفكير؟ وحكم ضميري، وليزا التي خدعتها... والتي أردت إذن أن أهجرها؟ والعهد الذي قطعته على نفسي وعلى سلالة أسلافي جميعاً، وهو أن أُبعث بعثاً جديداً وأن أكفِّر عن دناءاتي الماضيات؟ أتوسل إليك: لا تحدثها في هذا الأمر. فلعل هذا هو الشيء الوحيد الذي لا تستطيع أن تغفره لي! إنني من ذلك مريض منذ الأمس. ويخيَّل إليَّ خاصةً أن كل شيء قد انتهى وأن آخر أمير من أمراء سوكولسكي سيودع في السجن! مسكينة ليزا! لقد انتظرتك نافذ الصبر، يا آركادي ماكاروفتش، لأكشف لك، بصفتك أخا ليزا، ما لا تعرفه ليزا حتى الآن. إنني مجرم من مجرمي الحق العام، أشارك في صنع أسهم مزيفة باسم شركة من شركات السكك الحديدية.

ـ ما هذا أيضاً؟ ماذا تقول؟ تودع في السجن!...

قلت له ذلك منتفضاً وتأملته مذعوراً. كان وجهه يعبر عن مرارة عميقة قاتمة لا مخرج منها. قال:

Twitter: @ketab_n

ـ اجلس!

وجلس هو أيضاً على مقعد قبالتي. وشرع يتكلم:

ـ أعلم أولاً هذا: منذ أكثر من سنة، في ذلك الصيف، صيف أمس وليديا وكاترينا إيفانوفنا وباريس بعد ذلك، يوم أردت أن أذهب إلى باريس لقضاء شهرين، وفي باريس بطبيعة الحال، كنت في عوز. وحينئذاك إنما جاءني ستيبلكوف، وكنت أعرفه على كل حال، فأعطاني مالاً ووعدني بمزيد، ولكنه سألني أن أساعده: كان في حاجة إلى أحد يكون فناناً رساماً حفاراً طباعاً وهلم جرا... كيميائياً وتكنيكياً، وذلك لأغراض معينة. وقد جعلني أدرك تلك الأغراض منذ المرة الأولى إدراكاً واضكاً. لقد كان يعرف طبعي. فلم يزد ذلك كله على أن أضحكني وسلاَّني. وكنت أعرف منذ أن كنت تلميذاً على مقاعد الدرس، شخصاً هو الآن مهاجر روسي، لا روسي الأصل على كل حال، يقيم في مكان بمدينة هامبورغ. كان هذا الرجل قد شارك إبان إقامته بروسيا في قصة تزييف أوراق. وعلى هذا الرجل إنما كان يعوِّل ستيبلكوف، ولكنه كان في حاجة إلى من يوصي به لديه، فاتجه إليَّ يلتمس مني هذه التوصية. فكتبت له سطرين بخط يدي ثم لم أفكر في هذا الموضوع. وقد رآني بعد ذلك مراراً، وبلغ ما أعطانيه زهاء ثلاثة آلاف روبل. ولقد نسيت تلك المسألة نسياناً تاماً. وصرت أقترض منه هنا من حين إلى حين، على رهون أو بسندات، وكان يتلوى أمامي ذليلاً كما يتلوى عبد. وعلمت منه أمس فجأة، لأول مرة، أنني مجرم من مجرمي الحق العام.

ـ أمس؟ أية ساعة؟

ـ ساعة كنا نتصارخ في مكتبي قبيل وصول ناشتشوكين. لأول

Twitter: @ketab_n

مرة، وبألفاظ صريحة هذه المرة، تجرأ أن يكلمني عن آنا آندرييفنا، وقد رفعت يدي لأضربه، لكنه نهض فجأةً ليعلن أنني متضامن معه، وأن عليَّ أن أتذكر أنني كنت شريكه في الجرم، وأنني وغد مثله. ذلك ما قاله لي، إن لم يكن بنصه فبمعناه.

ـ ما هذه السخافات؟ أهذا حلم؟

ـ لا، ليس حلماً. ولقد جاءني اليوم، فزادني إيضاحاً. إن هذه الأسهم المزيفة هي الآن في التداول، وسينزل غيرها إلى التداول. ويظهر أن عدداً منها قد صودر هنا وهناك. وأنا ليس لي في الأمر أي دخل طبعاً. ولكن ستيبلكوف قال لي: «أما تكرمت فأعطيتني كتاب التوصية هذا في ذلك الحين؟».

ـ ولكن أكنت تعلم لماذا التمس منك تلك التوصية به أم كنت لا تعرف؟

أجاب الأمير وهو يخفض صوته ويخفض عينيه أيضاً:

ـ كنت أعرف، بل قل كنت أعرف دون أن أعرف. لقد ضحكت وسلاَّني الأمر. ولم أفكر وقتئذ في شيء، لا سيما وأنني لم أكن أنا في حاجة إلى أسهم مزيفة، ولم أكن أتهيأ أبداً لصنع أسهم مزيفة. ولكن الثلاثة آلاف روبل التي أعطانيها حينذاك لم يقيدها ديناً عليَّ، وقبلت أنا ذلك. ثم ما أدراك؟ ربما أكون مزيفاً أنا أيضاً! لم يكن في الإمكان ألا أعلم، ما أنا بطفل. ولكن الأمر سلاَّني وأضحكني، وساعدت مجرمين. . . ساعدتهم طمعاً في مال! وإذن فأنا أيضاً مزيف!

ـ لا، لا، إنك تبالغ! صحيح أنك مذنب، ولكنك تبالغ!

ـ الخطير في الأمر أن هناك شاباً اسمه جيبلسكي يعمل كاتباً في

Twitter: @ketab_n

القضاء وتحوم حوله الشبهات، قد شارك أيضاً في حكاية الأسهم المزيفة هذه، ثم جاءني بعد ذلك عدة مرات موفداً من الرجل المقيم بهامبورغ، جاءني لترهات وسفاسف طبعاً، بل إنني لا أعرف لأي غرض من الأغراض على وجه التحديد قد جاءني، ولكنه يحتفظ برسالتين مني، هما أيضاً رسالتان قصيرتان لا تعدو إحداهما سطرين، غير أنهما تشهدان عليَّ. اليوم أدركت هذا. ويقول ستيبلكوف أن جيبلسكي هذا مزعج: فقد سرق لا أدري ماذا، سرق مالاً من الخزينة فيما أظن، وهو ينتوي أن يسرق المزيد ثم يهاجر؛ ومن أجل أن يهاجر يجب أن يتزود للسفر بثمانية آلاف روبل، لا أقل من ذلك. إن نصيبي من الميراث يكفي ستيبلكوف. ولكن ستيبلكوف يقول إن علينا أن نرضي جيبلسكي أيضاً. الخلاصة أن عليَّ أن أتنازل عن حصتي من الميراث وأن أدفع فوق ذلك عشرة آلاف روبل. هذه كلمتهم الأخيرة. فإذا نفَّذت هذا الشرط ردُّوا إليَّ الرسالتين. وواضح أنهم متواطئون.

ـ يا للسخافة! إنهم إذا وشوا بك كانوا يسلِّمون أنفسهم! فلا يمكن أن يشوا بك.

ـ أعرف هذا. ثم إنهم لا يهدِّدون بأن يشوا بي. بل يقولون: «نحن لن نشي بك، ولكن افتضح الأمر...». ذلك ما يقولونه. ذلك كل ما يقولونه. وأظن أنه كافٍ. ولكن ليس هذا هو الأمر: هبني استرددت الرسائل. فهل ينجيني هذا من أن أظل مرتبطاً بهؤلاء الأوغاد متضامناً معهم؟ آه... كيف يمكنني أن أبقى إلى الأبد رفيقهم؟ أكذب على روسيا، أكذب على الأطفال، أكذب على ليزا، أكذب على ضميري...؟

ـ هل تعلم ليزا؟

Twitter: @ketab_n

ـ لا، لا تعلم كل شيء. لو علمت، وهي على ما هي عليه من حال، لماتت من هول الصدمة. إنني أرتدي الآن بزة الجيش، فكلما صادفت جندياً من الجيش، شعرت شعوراً كاوياً بأنني لا أستحق ارتداء هذه البزة.

هتفت أقول فجأة:

ـ اسمع! لا حاجة إلى الإكثار من الكلام. ليس أمامك إلا طريق واحدة للخلاص. إذهب إلى الأمير نيقولا إيفانوفتش، وخذ منه عشرة آلاف روبل، إسأله أن يعطيك هذا المبلغ دون أن تكشف له عن شيء، ثم استدع هذين الوغدين، وصفِّ حسابك معهما تصفيةً نهائية بافتداء رسائلك... فينتهي كل شيء! ينتهي كل شيء، وتمضي تحرث الأرض! دع الأوهام وثق بالحياة!

قال مؤكداً:

ـ لقد فكرت في هذا. فكرت فيه طوال هذا اليوم، واتخذت أخيراً قراري. وكنت لا أنتظر إلا أن تجيء أنت. سوف أذهب إليه. هل تعلم أنني لم يسبق لي أن اقترضت في حياتي كلها قرشاً واحداً من الأمير نيقولا إيفانوفتش؟ إنه طيب في معاملة أسرتنا، حتى إنه... أظهر اهتماماً بنا... ولكنني... شخصياً... لم أطلب منه أيَّ مال في يوم من الأيام. وهأنذا الآن أرتضي لنفسي أن أطلب منه. لاحظ أن فرعنا أقدم من فرع الأمير نيقولا إيفانوفتش: إنهم هم الفرع الحديث، الفرع الهجين، الفرع المشكوك فيه تقريباً... ولقد تناصب أسلافنا العداء. وفي بداية عهد الإصلاح، أيام بطرس الأكبر، كان أبو جدي، واسمه بطرس أيضاً، كان راسكولنيكاً وظل كذلك وطوَّف في غابات كوستروما. فهذا الجد تزوج زواجاً ثانياً بامرأة لم تكن من طبقة النبلاء هي

Twitter: @ketab_n

أيضاً، وعندئذ إنما تقدمنا آل سوكولسكي هؤلاء... ولكن عمَّ كنت أتكلم؟

كان متعباً كأن الكلام قد أنهكه.

قلت وأنا أنهض وأتناول قبعتي:

ـ هدىء نفسك. نَمْ قبل كل شيء. أما الأمير نيقولا إيفانوفتش فإنه لن يرفض حتماً، ولا سيما الآن، في غمرة فرحه. هل تعرف القصة؟ لا! غير معقول! لقد بلغني نبأ عجيب: أنه سيتزوج. هذا سر، ولكن لا يُكتم عنك أنت طبعاً.

ورويت له كل شيء وأنا واقف ممسك قبعتي أهمُّ بالانصراف. لم يكن على علم بالأمر. فجعل يسألني عن تفاصيل، ويسألني خاصةً عن الزمان والمكان وحظ النبأ من إمكان التحقق. فلم أخف عنه طبعاً أن الأمر حدث فيما يقولون بعد زيارته آنا آندرييفنا بالأمس فوراً. لا أستطيع أن أصوِّر لكم الأثر الأليم الذي أحدثه هذا النبأ في نفسه. فقد تشوه وجهه وتخدَّد، وتشنجت شفتاه بابتسامة غضب، واصفر أخيراً، ثم خفض عينيه وغاص في تفكير حالم عميق. لقد رأيت رؤية واضحة أن رفض آنا آندرييفنا كان قد جرح كبرياءه جرحاً بالغاً عميقاً. ولعله وهو فيما هو فيه من حالة مرضية قد غلا وأسرف الآن في تصور الدور المضحك الذليل الذي قام به أمس أمام تلك الفتاة التي كان يتوقع موافقتها بثقة تامة كما ظهر ذلك واضحاً. ولعله أخيراً قد تصور الدناءة التي ارتكبها في حق ليزا، وهي دناءة لم تعد عليه بطائل! إنه لأمر طريف شائق أن يرى المرء ما هي آراء أبناء المجتمع الراقي بعضهم في بعض، وعلى أي أساس يحترم بعضهم بعضاً: لقد كان في إمكان هذا الأمير مع ذلك أن يفترض أن آنا آندرييفنا على علم بالصلة التي بينه

Twitter: @ketab_n

وبين ليزا، أختها مهما يكن من أمر، وأنها أن كانت تجهل هذه الصلة الآن فستعرفها حتماً في يوم من الأيام. ولكنه رغم ذلك كان لا «يخالجه شك في قراره»!

وحدَّق إليَّ فجأة بعينين فيهما استعلاء ووقاحة وقال:

ـ فكيف أمكنك أن تظن أنني أرضى، «أنا» أن أذهب إلى الأمير نيقولا إيفانوفتش أسأله مالاً بعد نبأ كهذا النبأ؟ أذهب إلى خطيب الخطيبة التي رفضتني؟ إن هذا يكون استجداء، وذلاً، وعبودية! لا، لا، ضاع الآن كل شيء. إذا كانت معونة هذا الشيخ هي آخر أمل، فليهلك هذا الأمل أيضاً!

كنت في قرارة نفسي موافقاً على ما يقول. ولكن كان ينبغي على المرء مع ذلك أن ينظر إلى الأمور نظرة أوسع: هل الأمير العجوز رجل حقاً؟ هل هو خطيب حقاً؟ وتحركت في رأسي أفكار كثيرة. وكنت قد قررت أن أزوره في الغد. فحاولت، بانتظار ذلك، أن أخفف وقع النبأ في نفس الأمير المسكين، وأن أحضه على النوم قائلاً له: «سوف تقضي ليلة مريحة، فتكون أفكارك غداً أوضح. لسوف ترى ذلك!». فصافحني بحرارة، ولكن من دون أن يقبلني. وقطعت له على نفسي عهداً لأجيئنَّ إليه مساء غد وقلت له: «سوف نتحدث، سوف نتحدث، هناك كلام كثير سوف نقوله». فحين سمع هذه الكلمات ألمت بشفتيه ابتسامة مشؤومة.

Twitter: @ketab_n

الفصل الثامن

1

ظللت طوال تلك الليلة أحلم بالروليت والقمار والذهب وسداد الديون. كنت كالجالس إلى مائدة القمار أحسب مبالغ الحظ واحتمالات الربح، فقضيت ليلتي كلها فريسة كابوسٍ ساحق. سأقول الحقيقة: إنني طوال النهار السابق، رغم جميع تأثراتي الحارقة، كنت أتذكر من حين إلى حين، الربح الذي جنيته بالقمار عند زرتشتشيكوف. صحيح أنني كنت أطرد الفكرة، ولكنني لم أستطع أن أدفع عن نفسي الشعور والعاطفة، فكنت أرتعش كلما وافتني ذكرى. كان هذا الربح قد ملك عليَّ نفسي. أتراني خلقت مقامراً، لا شك على كل حال في أنني أملك صفات المقامر. فحتى في هذا اليوم، وأنا أكتب هذه الأسطر، أحب أحياناً أن أفكِّر في القمار! وربما اتفق لي أن أقضي ساعات كاملة أجري في الصمت حسابات قمار، وأتخيلني في الحلم لاعباً ورابحاً. نعم، إنني أتصف «بصفات» كثيرة التنوع، وليست نفسي هادئة مطمئنة.

لقد كنت أنتوي الذهاب إلى ستيبلكوف في الساعة العاشرة سيراً على القدمين. فصرفت ماتفي منذ جاء. وفيما كنت أحسو قهوتي حاولت أن أنعم النظر في الأمور. فلاحظت أنني مسرور، فلما انكفأت إلى نفسي لحظةً أدركت أن سروري إنما يرجع خاصة إلى

Twitter: @ketab_n

«أنني سأكون هذا اليوم في منزل الأمير نيقولا إيفانوفتش». ولكن ذلك اليوم من حياتي كان يوماً مشؤوماً، ولم يكن في الحسبان، وقد ابتدأ بمفاجأة.

ففي الساعة العاشرة تماماً، رأيت بابي يفتح على مصراعيه، ورأيت تاتيانا بافلوفنا تدخل عليَّ كهبوب الريح. كان يمكن أن أتوقع كل شيء إلا هذه الزيارة، فوثبت مذعوراً. كان وجهها وحشياً، وكانت حركاتها وإشاراتها مشوشة، وأغلب الظن أنها ما كانت لتستطيع أن تجيبني لو سألتها ما الذي جاء بها إليَّ هذا المجيء المباغت. ويجب أن أشرح سلفاً فأقول: إنها قد تلقت منذ هنيهة نبأ خارقاً ساحقاً، وكانت لا تزال واقعة تحت تأثير الانفعال الأول، وكان النبأ يمسني أنا أيضاً. على أنها لم تقض عندي إلا نصف دقيقة، أو دقيقة إن شئتم، ولكن من المحقق أنها لم تزد على الدقيقة. وقد بادرتني فوراً بقولها وهي تتسمر قدامي ماثلةً إلى أمام:

ـ آ... هأنت ذا إذن! هأنت ذا أيها الوغد؟ ما هذا الذي فعلت؟ ماذا، ألا تدري؟ إنه يشرب قهوته! آه! يا ثرثار! يا طاحونة حكي! يا ماضغ ورق!... يجب أن تُجلد بالسوط، أن تجلد، أن تجلد...

ـ تاتيانا بافلوفنا، ماذا حدث؟ ماذا جرى؟ ما.. ما؟

فقالت مهددة متوعدة وهي تولِّي هاربة:

ـ ستعرف!

وغابت. وانطلقت ألاحقها طبعاً، ولكن فكرة طارئة أوقفتني، بل قل إن ما أوقفني ليس فكرة، وإنما هو قلق غامض: لقد أحسست أن الشيء الأساسي في صراخها إنما هو قولها «يا ماضغ ورق». وما كان لي أن أكتشف شيئاً بنفسي طبعاً، ولكنني خرجت

Twitter: @ketab_n

مسرعاً لأفرغ من ستيبلكوف بأقصى سرعة، ثم أذهب إلى الأمير نيقولا إيفانوفتش، قائلاً لنفسي بغريزتي: «هنالك مفتاح الأمور كلها».

فسرعان ما عرفت أن ستيبلكوف كان عالماً بقصة آنا آندرييفنا كلها، بل كان يعرف تفاصيلها. شيء غريب. لن أروي الآن حديثه ولن أصف إشاراته وحركاته، وحسبي أن أذكر أنني رأيته يتدفق افتتاناً وحماسة «لما لهذه المأثرة من قيمة فنية». قال صائحاً:

ـ يا لها من امرأة شجاعة! هذه امرأة شجاعة! لا، لا، إنها ليست مثلنا. نحن نبقى في مكاننا ساكنين، أما هي فقد أرادت أن تشرب الماء من منبعه الحق، وقد شربته من منبعه الحق. هذه... هذه تمثال قديم لمينيرفا، لكنه تمثال يتحرك ويسير ويرتدي فساتين حديثة!

ورجوته أن ينتقل إلى الموضوع. فإذا الأمر كله، كما أدركت ذلك من قبل، هو ضرورة إقناع الأمير بأن يذهب إلى الأمير نيقولا إيفانوفتش ليسأله المعونة والنجدة، «وإلا فإن العاقبة ستكون وخيمة عليه، وخيمة جداً، وليس الذنب ذنبي. صحيح أم لا؟».

كان يحدِّق إلى عينيَّ، ولكنه كان في أغلب الظن لا يفترض أنني أعرف شيئاً يزيد على ما عرفته البارحة. ولم يكن في إمكانه أن يفترض ذلك: فأنا لم أدعْ له طبعاً، لا بالتصريح ولا بالتلميح، أن يعرف أنني على علم بأمر «الأسهم». ولم يطل الحديث بيننا: فقد أسرع يعدني، على الفور تقريباً، بمبلغ من المال، قائلاً إنه «مبلغ كبير، مبلغ كبير، وإنما المهم أن أقنع الأمير بطلب المعونة، وأن الأمر مستعجل، مستعجل جداً، وأن كل شيء يتوقف على السرعة، فالأمر مستعجل إلى حد رهيب!».

Twitter: @ketab_n

لم أشأ أن أدخل في مناقشات معه كما فعلت البارحة، وهممت أن أنصرف، قائلاً له عَرَضاً «إنني سأحاول». ولكنه أدهشني على حين فجأة إدهاشاً لا سبيل إلى وصفه: كنت قد اتجهت إلى الباب، فإذا هو يحضنني بغتة في رقة وحنان، ويأخذ يقول لي أشياء تستعصي على الفهم إلى أقصى حد.

سوف أهمل التفاصيل، فلا أذكر كلامه كله، حتى لا أتعب القارىء. ولكن إليك فحوى ما قاله: لقد عرض عليَّ «أن أصله بالسيد درجاتشيف، ما دمت أتردد على ذلك المنزل».

أصخت إليه بسمعي، محاولاً بكل قواي ألا أفضح نفسي بأية إشارة. وأجبته على الفور قائلاً إنني لا أعرف أحداً هناك، وأنني إن ذهبت إلى ذلك المنزل مرةً فقد حدث ذلك عرضاً ومصادفة. قال:

ـ ولكن ما دمتَ قد «قُبلِت» مرة، ففي وسعك أن تذهب مرة أخرى، أليس هذا صحيحاً؟

فسألته صراحةً، ولكن ببرودة شديدة، فيم يعنيه هذا. وحتى هذا اليوم لا أستطيع أن أفهم كيف يمكن أن يلقى المرء هذه السذاجة كلها لدى أناس يلاحظ حين يراهم أنهم ليسوا أغبياء، بل يلاحظ أيضاً أنهم «عمليون» كما وصفه بذلك فاسين. ولقد شرح لي بصراحة تامة أن شبهاته توحي إليه بأن شيئاً يحدث عند درجاتشيف، شيئاً لا بد أنه محرَّم قطعاً، محرم أقسى التحريم فيكفي أن يلاحظ وأن يدرس حتى يستطيع أن يجني من ذلك نفعاً. قال لي ذلك وغمز بعينه اليسرى وهو يبتسم.

لم أجبه بشيء يؤكد أنني سألبي رغبته، ولكنني تظاهرت بالتفكير، ووعدته بأن «أفكر في الأمر»، ثم سارعت إلى الانصراف. إن الأمور تتعقد. وطرت إلى فاسين، فوجدته في بيته.

Twitter: @ketab_n

ـ ها! . . . أنت أيضاً!

إنه منذ رآني استقبلني بهذه الجملة الملغزة. ولكنني لم أتوقّف عند جملته، بل انتقلت إلى الموضوع رأساً، وقصصت عليه القصة، فكان واضحاً أنه دهش ولكنه لم يفقد هدوءه البتة، وسألني عن جميع التفاصيل. وقال:

ـ يجوز جداً أنك لم تحسن الفهم!

ـ بل فهمت أحسن الفهم. لقد كان المعنى واضحاً وضوحاً مطلقاً.

فأضاف يقول بصدق:

ـ على كل حال، أشكرك أجزل الشكر. نعم حقاً، إذا كان كل شيء قد جرى على هذا النحو، فمعنى ذلك أنه يفترض أنك لن تستطيع أن تصمد لإغراء مبلغ من المال.

ـ إنه عدا ذلك يعرف حالي، فلقد كنت أقامر كثيراً، وكانت سيرتي سيئة يا فاسين.

ـ سمعت عن هذا.

قلت:

ـ وما يحيرني أكثر من أي شيء آخر هو أنه يعلم أنك أنت أيضاً تتردد إلى ذلك المنزل.

فقال فاسين ببساطة كبيرة:

ـ هو يعلم علماً تاماً أنني لا صلة لي بالأمر. وهؤلاء الشبان جميعاً إنما هم ثرثارون لا أكثر. وإنك لتتذكر هذا أكثر من أي إنسان آخر على كل حال.

بدا لي أنه يضمر نوعاً من سوء الظن بي، أو نوعاً من الحذر مني. قال:

Twitter: @ketab_n

ـ إنني أشكرك أجزل الشكر على كل حال.

وحاولت أن أسأله مزيداً من الأسئلة فقلت:

ـ سمعت أن أمور السيد ستيبلكوف لا تجري مجرى حسناً، سمعت على الأقل كلاماً عن أسهم...

ـ أية أسهم تعني؟

لقد تعمدت أن أذكر الأسهم، ولكنني لم أفعل ذلك من أجل أن أكشف له عن سر الأمير. كل ما أردته هو أن ألمح إلى الأسهم لأتبين من النظر إلى وجهه وإلى عينيه هل يعلم عن هذا الأمر شيئاً. وقد وصلت إلى هدفي: استطعت أن أدرك، من حركة سريعة خفيفة في وجهه، أنه ربما كان على علم بشيء. ولم أجب عن سؤاله: «أية أسهم؟»، بل صمت. ومن الغريب أنه لم يُلِحّ.

سألني باهتمام:

ـ كيف حال أليزابت ماكاروفنا؟

ـ هي بخير. إن أختي تكن لك الاحترام دائماً...

فسطعت عيناه سروراً ورضا: كنت قد أدركت منذ مدة طويلة أنه يحمل لأختي عاطفة ما...

وقال لي فجأة:

ـ زارني في هذه الأيام الأخيرة، الأمير سرجي بتروفتش.

فهتفت أسأله:

ـ متى؟

ـ منذ أربعة أيام.

ـ لا أمس؟

ـ لا، ليس أمس.

وألقى عليَّ نظرة مستفهمة. وأردف يقول:

Twitter: @ketab_n

ـ قد أحدثك في المستقبل عن هذه الزيارة حديثاً فيه مزيد من التفصيل، أما الآن فأعتقد أن من الضروري أن أنبِّهك (قال فاسين ذلك بلهجة يلفعها السر) إلى أنني لاحظت أن حالته النفسية. . . بل حالته العقلية. . . غير طبيعية. وقد زارني شخص آخر أيضاً. . .

قال ذلك وهو يبتسم فجأة، ثم تابع كلامه:

ـ زارني شخص آخر منذ هنيهة قصيرة، قبل وصولك بلحظة، وقد اضطررت أن أستخلص أن حالة الزائر الآخر ليست طبيعية تماماً هي أيضاً.

ـ هل جاءك الأمير منذ قليل؟

ـ لا، ليس الأمير، لا أتكلم الآن عن الأمير. لقد زارني، منذ برهة، آندريه بتروفتش فرسيلوف، و. . . ألا تعرف شيئاً؟ ألم يحدث له شيء؟

أسرعت أسأله:

ـ ربما حدث له شيء، ولكن ماذا جرى هنا، عندك؟

ـ يجب عليَّ أن أكتم السر طبعاً. . . ما أعجب هذا الحديث بيننا! إن مداره كله على أسرار. . .

قال فاسين ذلك وابتسم مرة أخرى. ثم أردف:

ـ على أن آندريه بتروفتش لم يطلب مني كتمان السر. ثم إنك ابنه؛ ولعلمي بما تحمل له من عواطف، يخيَّل إليَّ أنني أحسن صنعاً إذا أنا نبهتك في هذه المرة. تصور أنه ألقى عليَّ هذا السؤال: «إذا اتفق لي في يوم قريب، قريب جداً، أن وجدتني مضطراً إلى مبارزة، فهل تقبل أن تكون شاهدي؟». ولقد رفضت ذلك رفضاً قاطعاً بطبيعة الحال.

دهشت دهشة شديدة. إن هذا النبأ هو أشد الأنباء إقلاقاً. لقد

Twitter: @ketab_n

حدث شيء. لا بد أن حادثاً ما زلت أجهله قد وقع! وتذكرت فجأة أن فرسيلوف قال لي أمس: «لست أنا الذي سأجيء إليك، بل أنت الذي ستهرع إليَّ».

وطرت إلى الأمير نيقولا إيفانوفتش وأنا أوجس بمزيد من القوة أن مفتاح السر هناك. وقد شكرني فاسين مرةً أخرى حين فارقته.

2

كان الأمير العجوز جالساً أمام مدفأته، مدثراً ساقيه بغطاء. وقد استقبلني بنظرة فيها شيء من الاستفهام، كأنه دهش من زيارتي، مع أنه كان يرسل من يدعوني إليه كلَّ يوم تقريباً. على أنه قد حيَّاني بلطف. لكنه أجاب عن أسئلتي الأولى بنوع من الاحتقار وقد لاح في وجهه ذهول رهيب. وكان في بعض اللحظات يبدو مفكراً، ويحدِّق إليَّ بنظرة ثابتة، كأنه كان قد نسي شيئاً يتعلق بي ثم إذا هو يتذكره الآن. فقلت له بصراحة إنني أعرف كل شيء، وإني سعيد بما حدث. فسرعان ما بانت على شفتيه ابتسامة فيها مودة، وسرعان ما انتعش وزال تحفظه واختفى حذره، حتى لكأنه نسيهما، بل لا شك في أنه نسيهما. قال:

- صديقي العزيز، كنت أعلم حق العلم أنك ستكون أول من يأتي، حتى لقد سألت نفسي أمس: «من ذا الذي سيبتهج؟» ثم أجبت على هذا السؤال قائلاً: «هو الذي سيبتهج». نعم، لا أحد غيرك، حتماً. ولكن لا ضير. إن ألسنة الناس ألسنة سوء... ولكن لا قيمة لهذا!... «يا بنيَّ العزيز» (قالها بالفرنسية)، ذلك كله سامٍ كل السمو، لذيذ كل اللذة. ولكنك تعرفها معرفة جيدة، أنت. ثم إن آنا آندرييفنا ترى فيك أحسن رأي. هي ذات وجه قاس آسر

Twitter: @ketab_n

أخاذ، وجه صورة إنجليزية. إنها أحلى الصور الإنجليزية قاطبة. لقد كنت منذ سنتين أملك مجموعة من هذه الصور... إن هذه النية كانت في نفسي دائماً، دائماً. وإنما يدهشني أنني لم أفكر في هذا الأمر أبداً.

ـ ولكنك أحببت آنا آندرييفنا دائماً، وقَدَّرتها دائماً، طوال المدة التي أذكرها.

ـ يا صديقي، إننا لا نريد أن نلحق ضرراً بأحد. إن الحياة مع أصدقاء وأقرباء وأشخاص أحبة هي الجنة. نحن جميعاً شعراء... الخلاصة: هذا معروف منذ العصور السابقة على التاريخ. اسمع، سوف نقضي الصيف أولاً بمدينة سودن، ثم بمدينة بادجاشتاين! أين ذهبت؟ كنت أنتظرك. ما أكثر الأحداث التي مرت منذ ذلك الوقت، ما أكثرها، أليس كذلك؟ وإنما المحزن أنني لست هادئاً: فمتى خلوت إلى نفسي شعرت بأنني قلق. هذا هو السبب في أنني يجب ألا أبقى وحيداً، أليس كذلك؟ هذا واضح وضوح النهار. آه يا صديقي، إنها لم تقل إلا كلمتين... ولكن كان كلامها أروع قصيدة. ولكن... أنت أخوها تقريباً، أليس كذلك؟ يا عزيزي، ليس غريباً أنني أحببتك ذلك الحب كله! كنت أتوقع كل هذا، أحلف لك. ولقد قبَّلت يدها، وبكيت.

واستل منديله من جيبه، كأنه يهم أن يبكي من جديد. كان متأثراً جداً، بل أظن أنه كان في حالة من تلك الحالات «المحزنة» التي أتيح لي أن أراها فيه مدةَ معرفتي به. إنه في العادة، بل في جميع الأوقات تقريباً، يكون أكثر نضارة وقوة مما هو الآن. وتمتم يقول:

ـ سوف أغفر لهم جميعاً يا صديقي. أحب أن أغفر لجميع الناس، وقد صرت منذ مدة طويلة لا أحقد على أحد. الفن،

Twitter: @ketab_n

«الشعر في الحياة»، مساعدة البؤساء، وهي، ذلك هو جمال التوراة. «ما أروعها من إنسان»، هه؟ «أناشيد سليمان... لا... ليس هو سليمان، بل هو داود الذي أضجع فتاة جميلة في سريره طلباً للدفء في شيخوخته. أوه... داود، سليمان»، هذا كله يدور في رأسي دوران إعصار حقاً. «إن تلك الحسناء في شيخوخة داود، لهي قصيدة»، أما بول روكوك فليس له ذوق ولا إحساس بالتوازن، رغم أنه صاحب موهبة... إن كاترينا نيقولايفنا تبتسم. ولقد قلت لها إننا لن نضايقها. إننا بدأنا روايتنا، فليسمح لنا بأن نتمها. سمِّه حلماً إن شئت، ولكن فليتركوا لنا حلمنا ولا ينتزعوه منا.

ـ كيف تقول إنه حلم يا أمير؟

ـ كيف أقول إنه حلم؟ فليعدوه حلماً، ولكن فليتركوا لنا أن نموت مع هذا الحلم.

ـ آه... أمير... لماذا الموت؟ إن الحياة هي الواجبة الآن!

ـ وماذا كنت أقول؟ لست أقول غير هذا! حقاً إنني لا أدري لماذا الحياة قصيرة هذا القصر كله. أغلب الظن أن الغاية من قصرها هي ألا تكون مملة، ذلك أن الحياة هي أيضاً عمل فني من أعمال الخالق الأعظم صاغها صياغة نهائية كاملة كقصيدة من قصائد بوشكين. إن الإيجاز أول شروط الفن. ولكن الذين لا يشعرون بالملل يجب أن يتاح لهم أن يعيشوا مدة أطول.

ـ قل لي يا أمير، هل أذيع النبأ في الناس؟

ـ لا، لا يا عزيزي، لم يُذع تماماً. إنه محدود بحدود الأسرة، بحدود الأسرة وحدها حتى الآن. لم أبح بما في نفسي بوحاً كاملاً إلا لكاترينا نيقولايفنا، لأنني أعد نفسي آثماً في حقها. ذلك أن كاترينا نيقولايفنا ملاك.

Twitter: @ketab_n

ـ نعم، نعم.

ـ نعم؟ أنت أيضاً تقول نعم؟ كنت أظنك عدواً لها. آه... بالمناسبة: لقد طلبت مني ألا أستقبلك بعد اليوم. تصور أنني نسيت ذلك منذ دخلت عليَّ.

انتفضت وسألته:

ـ ما هذا الذي تقوله؟ لماذا طلبت منك ذلك؟ ومتى؟

(لم يكذبني إحساسي. إن شيئاً من هذا النوع هو ما أوجسته منذ زيارة تاتيانا بافلوفنا!).

ـ أمس يا صديقي، أمس. لا أدري كيف استطعت أن تدخل. ذلك لأن التدابير قد اتخذت لمنعك من الدخول. كيف دخلت؟

ـ ببساطة.

ـ هذا هو الأرجح. فلو أنك دخلت بالمكر والحيلة لأوقفوك حتماً، ولكنك دخلت ببساطة فتركوا لك أن تدخل. البساطة يا عزيزي، البساطة هي أمكر المكر.

ـ لست أفهم شيئاً. هل قررت إذن، أنت أيضاً، ألا تستقبلني بعد اليوم؟

ـ لا يا صديقي. لقد أجبت بأن هذا ليس شأني... أقصد أنني وافقت موافقة تامة. ثق يا بني العزيز أنني أحبك كثيراً. ولكن كاترينا نيقولايفنا طلبت ذلك بكثير من الإلحاح. آه... هي ذي!

في تلك اللحظة ظهرت كاترينا نيقولايفنا على العتبة. كانت مرتدية ثياب الخروج، وقد جاءت إلى أبيها لتقبله على عادتها دائماً من قبل. فلما رأتني توقفت واضطربت، ثم استدارت وخرجت. فصاح الأمير مذهولاً منفعلاً أشد الانفعال:

ـ كذلك هي!

Twitter: @ketab_n

فهتفت أقول:

ـ هو سوء تفاهم لا أكثر. دقيقة واحدة يا أمير... سوف... سوف أرجع فوراً يا أمير!

وركضت وراء كاترينا نيقولايفنا.

إن كل ما حدث بعد ذلك قد حدث بسرعة بلغت من الشدة أنني لم أستطع التفكير، بل لم أستطع أن أهيىء سلوكي أقلّ تهيئة. فلو أنني استطعت أن أهيىء سلوكي لتصرفت تصرفاً آخر حتماً. ولكنني كنت قد طاش صوابي كصبي صغير. هرعت إلى حجراتها، غير أن الخادم قال لي إن كاترينا نيقولايفنا قد خرجت في هذه اللحظة نفسها وأنها تركب عربتها. فاندفعت أهبط السلَّم الكبير منكس الرأس. فرأيت كاترينا نيقولايفنا تنزل على السلَّم، مرتديةً معطفها، ورأيت ضابطاً فارع القد حسن القامة ببزة عسكرية من غير معطف يسير إلى جانبها بل قل يقودها متقلداً سيفه الذي يتدلى على جنبه. وكان خادم يحمل له معطفه وراءه. هذا هو البارون. إنه كولونيل في الخامسة والثلاثين من عمره. نموذج الضابط الأنيق الجاف، له وجه بيضوي كثيراً، وله شاربان أحمران، بل إن حاجبيه أحمران أيضاً. ليس وجهه جميلاً البتة، ولكن هذا الوجه يعبِّر عن الجزم والتحدي. إنني أصفه الآن على عجل، كما رأيته في تلك اللحظة. لم أكن قد لقيته حتى ذلك الحين. وركضت وراءها بغير قبعة وبغير معطف، فأبصرتني كاترينا نيقولايفنا قبل صاحبها وهمست في أذنه بشيء... فالتفت، وسرعان ما أومأ للخادم والبواب السويسري بإشارة من رأسه. فتقدم الخادم مني خطوةً أمام الباب، ولكنني دفعته بيدي ووثبت إلى درج الباب في أثرهما. أجلس بيورنج صاحبته في العربة. وصحت أنا قائلاً بغباء (كما يفعل أبله، كما

Twitter: @ketab_n

يفعل أبله! آه! إنني أتذكر كل شيء. كنت بغير قبعة):
ـ كاترينا نيقولايفنا: كاترينا نيقولايفنا!

فالتفت بيورنج مرةً أخرى غاضباً، وصاح يقول للخادم كلمة أو كلمتين لم أميزهما. وأحسست أنني أمسكت من الكوع. وانطلقت العربة في تلك اللحظة. فصرخت صرخة واندفعت أجري وراء العربة. كانت كاترينا نيقولايفنا تنظر من نافذة العربة ـ رأيت أنا ذلك ـ وكانت تبدو قلقة قلقاً شديداً. ولكنني بحركتي السريعة حين انطلقت أعدو وراء العربة قد صدمت بيورنج صدمة قوية دون أن أفكر في هذا البتة، وأظن أنني دست على رجله أيضاً. فصرخ صرخة صغيرة، وصرَّ بأسنانه، وأمسك كتفي بيد قوية ودفعني دفعة بلغت من شدة الغضب والحنق أنني تقهقرت ثلاث خطوات. وفي تلك اللحظة مُدَّ إليه معطفه، فارتداه، وركب عربته الزلاجة، ومن هناك صرخ صرخة تهديد أخرى وهو يشير للخدم وللبواب. فأمسكوا بي، وثبتوني في مكاني، وألقى إليَّ أحد الخدم معطفي، ومدَّ إليَّ خادم ثان قبعتي؛ لست أتذكر الآن ماذا قالوا لي: لقد كانوا يتكلمون، وكنت أصغي إليهم دون أن أفهم شيئاً. ولكنني تركتهم في مكانهم فجأة، ووليت هارباً.

3

ظللت أركض دون أن أميِّز شيئاً، وأصدم المارة أثناء ركضي يمنة ويسرة، حتى وصلت أخيراً إلى بيت تاتيانا بافلوفنا، ولم يخطر ببالي في الطريق حتى أن أستقل عربة. لقد دفعني بيورنج بحضورها «هي»! صحيح أنني دست على قدمه فدفعني عنه بغريزته كما يفعل شخص ديس على قدمه فانتزع جلد إصبع رجله (يجوز فعلاً أن

Twitter: @ketab_n

أكون قد سحقت له إصبع رجله!). ولكنها رأت، رأت الخدم يقبضون عليَّ. هذا كله حدث بحضورها، أمامها!

حين داهمت تاتيانا بافلوفنا لم أستطع في أول الأمر أن أنطق بكلمة. كانت فكي السفلى ترتعش من الحمى. لقد اجتاحتني حمى فعلاً. وكنت عدا ذلك أبكي... فإلى هذا الحد كنت أشعر بالهوان والمذلة!

ـ هه! طردوك إذن؟ احسنوا صنعاً أحسنوا صنعاً!

كذلك قالت تاتيانا بافلوفنا. وتهاويت على الديوان دون أن أقول شيئاً، ونظرت إليها.

قالت وهي تحدِّق إليَّ:

ـ ولكن ماذا أصابك؟ خذ، خذ هذه الكأس، ابلع قليلاً من ماء، اشرب! وقل لي ما الحماقة الجديدة التي ارتكبتها.

تمتمت قائلاً إنني طُردت، وإن بيورنج دفعني في الشارع.

ـ هل تمكنك حالتك الآن من أن تفهم شيئاً؟ اقرأ إذن، ولينشرح فؤادك.

قالت تاتيانا بافلوفنا ذلك وتناولت من على المائدة ورقة ومدتها إليَّ وتسمّرت أمامي. سرعان ما تعرفت خط فرسيلوف. لم يكن ثمة إلا أسطر قليلة: إنها رسالة إلى كاترينا نيقولايفنا. ارتعشت. ولكن القدرة على الفهم لم تلبث أن وافتني أقوى ما تكون. وإليكم نص تلك الرسالة الفظيعة، الفاضحة، المستحيلة، الإجرامية، إليكم نصها كلمةً كلمة:

إلى السيدة كاترينا نيقولايفنا

«رغم علمي بما إنت عليه من فساد الخلق سواء أكان هذا الفساد طبيعة فيك أم كان فناً تحذقينه، فلقد كنت أتصور أنك تستطيعين أن تسيطري

Twitter: @ketab_n

على أهوائك، وأنك في أقل تقدير لن تلحقي أذى بأطفال. ولكنك لم تتورعي حتى عن هذا. إنني أبلغك أن الوثيقة التي تعرفين لم تحرق على لهب شمعة حتماً، ولم تكن عند كرافت في يوم من الأيام، فلن تجني نفعاً مما تفعلين. فلا تفسدي أخلاق شاب في غير طائل. كفّي أذاك عنه. فإنه لا يزال قاصراً؛ بل إنه ليكاد أن يكون طفلاً لما يبلغ بعد كمال نموه العقلي والجسمي. فيم يفيدك؟ إنني أهتم بأمره، ولذلك جازفت فكتبت إليك هذه الكلمات، رغم انني لا ارجو لها اي نجاح. ويشرفني أن أبلغك أنني أبعث بنسخة من هذه الرسالة إلى البارون بيورنج».

اصفر وجهي أثناء القراءة، ثم انفجرت فجأة واختلجت شفتاي استياء وسخطاً. وصحت أقول غاضباً:

ـ إياي يقصد؟ هذا بمناسبة ما بحت له به أمس الأول!

ـ ذلك لأنك بحت له به!

وانتزعت تاتيانا الرسالة من يدي.

ـ ولكن. . . ليس هذا ما كنت أقوله له! آه. . . رباه! ما عسى يكون ظنها بي الآن؟ ولكن هل هو مجنون؟ إنه مجنون. لقد رأيته أمس. متى بعث الرسالة؟

ـ أمس نهاراً. وقد وصلت في المساء، فأعطتنيها اليوم بنفسها.

ـ ولكنني رأيته أمس. إنه مجنون! لا يمكن أن يكتب فرسيلوف هذا. هذا عمل رجل مجنون! من ذا الذي يكتب كلاماً كهذا الكلام إلى امرأة؟

ـ يكتبه مجانين من نوعه حين تجعلهم الغيرة ويجعلهم الغضب صماً عمياً ويتحول الدم في عروقهم إلى ماء. إنك لم تكن تعرفه بعد! ولكنه سيدفع الثمن غالياً. لسوف يسحق سحقاً. إنه يضع نفسه بنفسه تحت الساطور. ألا إن من الأفضل له أن يذهب ذات ليلة

Twitter: @ketab_n

إلى خط سكّة نيقولا، فيضع رأسه فوق السكة الحديدية فتقطعه له عجلات القطار قطعاً مناسباً، ما دام يستثقل حمله! وما الذي حملك على التحدث إليه؟ ما كانت حاجتك إلى مذاكرته؟ أردت أن تزهو بنفسك؟

ـ يا له من كره! ما أشد هذا البغض! كذلك هتفت وأنا ألطم رأسي بيدي. وتابعت أتساءل:

ـ ولماذا؟ لماذا؟ يسيء هذه الإساءة إلى امرأة؟ ماذا صنعت؟ أي ذنب جنت؟ ما العلاقات التي كانت بينهما حتى يكتب لها رسائل كهذه؟

ـ كره! بغض!

هكذا كررت تاتيانا بافلوفنا وهي تقلد لهجتي وحركاتي بسخرية حانقة.

وازدحم الدم في وجهي من جديد: بدا لي فجأة أنني أفهم شيئاً جديداً كل الجدة. نظرت إلى تاتيانا بافلوفنا نظرة مستفهمة، أودعتها كل ما أملك من قوة. فزعقت تاتيانا بافلوفنا وهي تدير لي ظهرها وتهدِّدني بيدها، قائلة:

ـ اذهب من هنا! كفاني ما لقيت منكم جميعاً! حسبي! في وسعكم أن تغيبوا كلكم... الوحيدة التي ما أزال أشفق عليها هي أمك.

ركضت إلى فرسيلوف طبعاً. ولكن ما أقبحه من عذر! ما أقبحه من عذر!

4

لم يكن فرسيلوف وحيداً. يجب أن أذكر سلفاً أنه بعد أن أرسل

Twitter: @ketab_n

تلك الرسالة إلى كاترينا نيقولايفنا أمس، وأرسل نسخة منها (لا يعلم إلا الله لماذا!) إلى البارون بيورنج، كان ينتظر أثناء النهار «عواقب» الخطوة التي قام بها، فلذلك اتخذ بعض التدابير: فنقل ماما وليزا منذ الصباح إلى فوق، إلى «التابوت» (وقد علمت فيما بعد أن ماما كانت قد مرضت في الصباح عند عودتها فرقدت في سريرها)، كما عُنيَ بنظافة الغرف وترتيبها عناية كبيرة، ولا سيما «الصالون». وما وافت الساعة الثانية بعد الظهر فعلاً، حتى جاء إلى الدار بارون اسمه «ر. . .»، وهو عسكري برتبة كولونيل، في نحو الأربعين من عمره، ألماني الأصل، طويل القامة، جاف الهيئة، قوي الجسم جداً فيما يبدو، أحمر البشرة هو أيضاً، مثل بيورنج، لكنه أصلع قليلاً. إنه واحد من البارونات «ر. . .» الكثير عددهم في الجيش الروسي، وهم جميعاً أناس شديدو التأذي في كل ما يمسّ الشرف، ليس لهم ثراء، وإنما هم يعيشون من رواتبهم ضباطاً كباراً ومقاتلين كباراً. لم أشهد بداية الحديث الذي جرى بينهما. كانا كلاهما في أوج النشاط والاندفاع. وكيف لا يكونان كذلك؟ كان فرسيلوف جالساً على الديوان أمام الطاولة، وكان البارون جالساً في مقعد إلى جانب. وكان فرسيلوف شاحب اللون، ولكنه يتكلم برصانة، ويزن أقواله، وكان البارون يرفع صوته، ويهم أن يحرك يديه بإشارات عنيفة، ولكنه يكبح جماحه. وكانت نظرته قاسية فيها تعال بل فيها احتقار، ولكنها مع ذلك لا تخلو من دهشة. فحين رآني قطب حاجبيه، ولكن فرسيلوف كاد يغتبط لرؤيتي. وقال يحييني:

ـ يومك سعيد يا عزيزي.

وأضاف يخاطب البارون:

Twitter: @ketab_n

ـ يا بارون، هذا هو الشاب الذي عنيته في رسالتي. صدِّق أن وجوده لن يضايقنا، حتى لقد يفيدنا.

رمقني البارون بنظرة شزراء فيها احتقار. وأردف فرسيلوف قائلاً لي:

ـ يا عزيزي، يسعدني أنك جئت. اجلس، أرجوك، إلى أن ننتهي.

ثم قال للبارون:

ـ اطمئن يا بارون، سيبقى...

لم يهمني ذلك. كنت قد عزمت أمري. وكان كل شيء عدا هذا يدهشني ويذهلني. جلست في ركن لا أنطق بكلمة، ولبثت هنالك لا تطرف لي عين، ولا أتحرك، إلى آخر الحديث.

قال فرسيلوف مقطعاً جميع الكلمات تقطيعاً قوياً:

ـ أكرر لك مرة أخرى يا بارون إنني أعدُّ كاترينا نيقولايفنا آخماكوفا، التي كتبت إليها تلك الرسالة الدنيئة الخسيسة، أنبل المخلوقات طراً، بل أعدُّها ذروة الفضائل الكاملة!

فزأر البارون يقول:

ـ إن هذا الدحض لأقوالك، كما قلت لك من قبل، أشبه بتأكيدٍ لها. فتعابيرك تخلو من الاحترام خلواً واضحاً.

ـ إن الأفضل مع ذلك أن تفهم أقوالي بالمعنى الذي يدل عليه نصها حرفاً حرفاً. إنني أصاب أحياناً بنوبات تستبد بي وتسيطر عليَّ، حتى إنني مضطر إلى معالجة نفسي ومداواة مرضي، وقد اتفق لي في أثناء نوبة من تلك النوبات أن...

ـ هذه الإيضاحات والأعذار لا يمكن قبولها. أكرر لك مرة أخرى أنك لا تزال تصر على ضلالك إصراراً عنيداً ولعلك تتعمد

Twitter: @ketab_n

أن تخدع نفسك. لقد نبهتك منذ البداية إلى أن المسألة المتعلقة بتلك السيدة، أعني رسالتك إلى الجنرالة آخماكوفا، يجب إقصاؤها من الحديث الذي نحن بصدده، ولكنك لا تزال تعود إلى تلك المسألة. لقد رجاني البارون بيورنج وكلفني أن أوضح ما يتعلق به هو وحده، أعني ما اجترحت من وقاحة إذ بعثت إليه تلك «النسخة» من الرسالة، ثم الحاشية التي أضفتها قائلاً إنك «على استعداد لتحمل المسؤولية أمام أي إنسان، وبأية طريقة».

ـ ولكن يبدو لي أن هذه النقطة الأخيرة جلية لا تحتاج إلى مزيد من الإيضاح.

ـ أفهم، أعلم. إنك تتهرب حتى من الاعتذار، وتظل تؤكد أنك «مستعد لتحمل المسؤولية أمام أي إنسان وبأية طريقة». ولكن سيكون معنى ذلك أن تتخلص من الأمر بأبخس ثمن. لذلك أجد أن من حقي، بسبب ما أراه من إصرارك على توجيه الإيضاح هذه الوجهة، أن أفصح لك عن رأيي بغير تحرج: لقد وصلت من تفكيري في الأمر إلى النتيجة التالية: إن البارون بيورنج لن يقبل بحال من الأحوال أن يكون له معك قضية... فكأنكما ندان.

ـ أرى أن هذا الحل أنفع الحلول لصديقك البارون بيورنج. وإني لأعترف لك بأنك لا تدهشني البتة: فلقد كنت أتوقع هذا الأمر.

يجب أن أذكر هنا مستطرداً أنني لاحظت منذ الكلمات الأولى ومنذ النظرة الأولى أن فرسيلوف كان يسعى إلى إحداث انفجار، فكان يستفز ويتحدى ويناكد هذا البارون الذي من طبعه الاهتياج، ولعله كان يمتحن صبره امتحاناً قاسياً. فكان البارون كالجالس على الشوك، نافد صبر.

Twitter: @ketab_n

ـ كنت أعلم أنك تستطيع أن تكون حاضر البديهة في الفكاهة، ولكن هذا ليس هو الذكاء.

ـ هذه ملاحظة عميقة إلى أبعد حدود العمق يا كولونيل.

صرخ البارون يقول:

ـ لست في حاجة إلى مدحك، ولا جئت هنا لأتكلم في الهواء سدى. اسمعني من فضلك: إن البارون بيورنج، حين تلقى رسالتك، احتار حيرة شديدة، إذ كانت تفوح منها رائحة مستشفى مجانين. ولقد كان في الإمكان طبعاً أن تلتمس الوسائل. . . لتهدئتك فوراً. ولكن أسباباً خاصة حملتهم على مراعاتك، وقد سألوا عنك، فاتضح أنك كنت تنتمي إلى المجتمع الراقي، وأنك في الماضي قد عملت في «الحرس»، غير أنك أُقصيت من ذلك المجتمع، واتضح أن سمعتك الآن مشبوهة بل أكثر من مشبوهة. ورغم ذلك انتقلت إليك لأستطلع الأمر بنفسي، وها أنت ذا تستبيح فوق ذلك أن تتلاعب بالألفاظ حتى الآن، ثم تشهد على نفسك بأنك تصاب بنوبات. . . كفى! إن مركز البارون وسمعته لا يمكن أن يتورطا في هذا الأمر. والخلاصة أيها السيد أنني مكلف بأن أعلن لك أنك إذا كررت هذا الفعل أو قمت بعمل آخر من هذا النوع، فسوف تلتمس لتهدئتك وسائلها على الفور، وهي وسائل أؤكد لك أنها مضمونة جداً وسريعة جداً. إننا لا نعيش في الغابات، بل في دولة لها شرطة!

ـ هل أنت واثق كل الثقة يا عزيزي الطيب البارون «ر. . .»؟

ـ أف. . .

كذلك صرخ البارون ثم نهض فجأة وقال:

ـ إنك تغريني بأن أبرهن لك حالاً على أنني لست «عزيزك

Twitter: @ketab_n

الباورن الطيب».
نهض فرسيلوف هو أيضاً وقال:
ـ أنبِّهك مرةً أخرى إلى أن زوجتي وابنتي ليستا بعيدتين، لذلك أرجوك ألا ترفع صوتك كثيراً، لأن صرخاتك تصل إليهما.
ـ امرأتك... هاه! لئن بقيت أتحدث إليك هذه المدة كلها، فمن أجل أن أستوضح هذه القضية القذرة...
كذلك تابع البارون كلامه وهو لا يزال غاضباً حانقاً، ولم يخفض صوته أي خفض. ثم صرخ يقول ساخطاً:
ـ كفى! إنك لست مطروداً من مجتمع الشرفاء فحسب، بل أنت كذلك رجل مهووس، مهووس حقاً، رجل مختل العقل؛ وهذا بعينه ما وصفوك به! إنك لا تستحق التسامح، وإني لأعلن لك أن تدابير معيّنة سوف تُتخذ في هذا اليوم نفسه، وأنك ستُستدعى إلى مكانٍ تُردُّ فيه إلى الصواب... وستُخرج من المدينة!
قال ذلك وغادر الغرفة سريعاً بخطى واسعة. ولم يشيعه فرسيلوف، بل ظل واقفاً ينظر إليَّ في ذهول كأنه لا يلاحظني. وابتسم فجأة، وهزَّ شعره، وتناول قبعته، واتجه نحو الباب هو أيضاً. فأمسكت يده. فتوقف أمامي وقال:
ـ ها... حقاً... أنت هنا! هل... أصغيت؟
ـ كيف أبحت لنفسك أن تتصرف هذا التصرف؟ كيف أمكنك أن تشوه وأن تلطخ بالعار... وأن تغدر هذا الغدر كله؟
حدَّق إليَّ بنظرة ثابتة، ولكن ابتسامته كانت تتسع شيئاً بعد شيء، حتى صارت إلى ضحك حقاً.
صحت أقول خارجاً عن طوري:
ـ لكنني أنا الذي لُطِّخت بالعار... أمامها! أمامها! هُزِّئت على

Twitter: @ketab_n

مرأى منها. لقد دفعني دفعاً مهيناً.

قال:

ـ هل هذا ممكن؟ آه يا بني المسكين، لكم أشفق عليك! هزؤوك؟

ـ أتضحك، أتضحك مني؟ أترى هذا داعياً إلى الضحك؟

استل يده من يدي مسرعاً، وتناول قبعته، وخرج من البيت ضاحكاً، ضاحكاً الآن ضحكاً حقاً!

أألحق به؟ علام؟ لقد فهمت كل شيء وفقدت كل شيء في دقيقة! وأبصرت ماما فجأة. كانت قد نزلت، وهي تلقي عليَّ الآن نظرة وجلة.

ـ هل خرج؟

قبَّلتها في صمت، وقبلتني بقوَّة، بقوَّة، ملتصقة بي التصاقاً.

ـ ماما العزيزة، كيف يمكنك أن تبقي هنا؟ لنرحل فوراً، سوف أؤويك، سوف أعمل من أجلك كما يعمل محكوم بالأشغال الشاقة، من أجلك ومن أجل ليزا. لنتركهم جميعهم، جميعهم، ولنرحل. سنكون وحدنا. ماما، هل تتذكرين يوم جئت تزورينني عند توشار ورفضت أن أتعرفك؟

ـ أتذكر يا بني. طوال حياتي كنت آثمةً في حقك. ولدتك ثم لم أعرفك.

ـ هو الآثم يا ماما. هو سبب كل شيء. لم يحببنا في يوم من الأيام.

ـ بلى. أحبنا.

ـ لنرحل يا ماما.

ـ كيف أتركه؟ هل هو سعيد؟

Twitter: @ketab_n

ـ أين ليزا؟

ـ في السرير. ما إن عادت حتى مرضت. أنا خائفة. ما بالهم حانقين عليه هذا الحنق كله؟ ماذا يريدون به؟ لماذا كان هذا الضابط يهدده؟

ـ لن يقع له سوء يا ماما. لن يقع له سوء أبداً. لن يقع له سوء أبداً. ولا يمكن أن يقع له سوء. هكذا خلق! ولكن ها هي ذي تاتيانا بافلوفنا. اسأليها إن كنت لا تصدقينني.

كانت تاتيانا بافلوفنا قد دخلت علينا. وتابعت أقول:

ـ إلى اللقاء يا ماما، سأعود حالاً، وسأطلب منك هذا الطلب مرة أخرى...

ووليت هارباً. كنت لا أطيق أن أرى أحداً، ناهيك عن تاتيانا بافلوفنا. كان أمر ماما يعذبني عذاباً شديداً. كنت أريد أن أخلو إلى نفسي، وحيداً، وحيداً.

5

ولكن ما إن وصلت إلى الشارع التالي حتى أحسست أنني عاجز عن السير. وكنت أصطدم اصطداماً غبياً بأولئك الناس، الغرباء، غير المكترثين. إلى أين أذهب؟ مَنْ هو في حاجة إليَّ، وما الذي أحتاجه أنا الآن؟ وسرت سيراً آلياً حتى وصلت إلى بيت الأمير سرجي بتروفتش دون أن يخطر على بالي البتة. لم يكن الأمير بالبيت. فقلت لبطرس (خادمه) إنني سأنتظر في مكتبه (كما سبق أن فعلت ذلك مراراً). إنها غرفة واسعة، عالية السقف جداً، ملأى بأثاث كثير. مضيت إلى أعتم ركن، وجلست على ديوان، ووضعت كوعيَّ على المائدة، وأسندت رأسي إلى يديَّ.

Twitter: @ketab_n

نعم، كان هذا هو السؤال: «ما الذي أنا في حاجة إليه الآن؟». ولئن كنت أستطيع أن أصوغ السؤال، فلقد كنت عاجزاً عن الإجابة عنه كل العجز.

ولكنني كنت لا أقدر أن أفكر ولا أن أسأل. سبق أن ذكرت من قبل أنني في نهاية تلك المرحلة كانت «الأحداث قد سحقتني». والآن، فيما أنا جالس، كان شيء كالسديم يدور في رأسي إعصاراً. «نعم، إنني لم أر من هذا الرجل شيئاً، ولم أفهم عنه شيئاً». تلك هي الفكرة التي كانت تبرق في خاطري في بعض اللحظات. «لقد ضحك مني في وجهي منذ قليل؛ ولكن لا، إنه لم يضحك مني أنا، بل كان لا يزال يضحك من بيورنج، لا مني أنا. أمس الأول، أثناء العشاء، كان يعرف كل شيء، وكان قاتم النفس. لقد استولى على اعترافي الغبي في المطعم، فشوَّه كل شيء، على حطام الحقيقة. ما حاجته إلى الحقيقة؟ إنه لا يصدِّق نصف كلمة مما كتبه إليها. كانت حاجته كلها هي أن يجرح، أن يجرح لغير سبب، بل دون أن يعرف لماذا، متشبثاً بأية حجة، وقد قدمت أنا إليه تلك الحجة... هذه فعلة كلب مسعور!... هل ينوي الآن أن يقتل بيورنج؟ لماذا؟ لأي سبب؟ إن قلبه يعرف السبب! أما أنا فإنني أجهل ما في قلبه... نعم، ما زلت أجهل هذا حتى الآن. هل يحبها هذا الحب المشبوب كله؟ لا أدري. وهل يدري هو نفسه؟ لماذا قلت لأمي «إنه لا يمكن أن يقع له سوء»؟ وماذا عنيت بهذا الكلام؟ أتراني فقدته أم لم أفقده؟...».

... «لقد رأت كيف دُفعت... وضحكت أيضاً... أم أنها لم تضحك؟ لو كنت أنا في مكانها لضحكت! الجاسوس هو مَنْ ضُرب، الجاسوس!...».

Twitter: @ketab_n

«وما الذي عناه (واتتني هذه الفكرة فجأة)، ما الذي عناه حين دسَّ في رسالته الدنيئة تلك أن الوثيقة لم تُحرق، وأنها لا تزال موجودة؟ . . .».

«لن يقتل بيورنج. هو الآن في المطعم قطعاً، يصغي إلى أغنية لوسيا! ولكن لعله بعد لوسيا سيمضي يقتل بيورنج. لقد دفعني بيورنج، بل ضربني تقريباً. هل ضربني؟ إن بيورنج يأبى حتى أن ينازل فرسيلوف: فهل ينازلني أنا؟»، «قد يكون عليَّ أن أقتله في الغد برصاصة مسدس، وأن أتربص به في الشارع. . .». نشأت هذه الفكرة في ذهني من تلقاء نفسها تماماً، ولم أتوقّف عندها البتة.

وفي بعض اللحظات كنت أحلم بأن الباب سيُفتح فتدخل كاترينا نيقولايفنا: تدخل فتمد لي يدها وننفجر ضاحكين كلانا. . . آه. . . عزيزي، الطالب! إن هذه الفكرة بل قل هذه الرغبة إنما عرضت لي حين ساد الظلام الغرفة تماماً. ولكن هل وقفت أمامها مدة طويلة أودِّعها بينما هي تمد إليّ يدها وتضحك؟ كيف يمكن هذا: في برهة وجيزة من الزمن، على مثل هذه المسافة الرهيبة! ألا فلأذهب إليها ببساطة فأناقشها حالاً، ببساطة، ببساطة! رباه! هذا عالم جديد كل الجدة يبدأ، جديد كل الجدة، كل الجدة. . . ليزا، الأمير، لا يزال هذا هو العالم القديم. . . أنا الآن عند الأمير. وماما، كيف أمكنها أن تعيش معه إذا صدق الأمر؟ أنا كان في إمكاني، ولكن هي؟ ما الذي سيحدث الآن؟». وأخذت أطياف ليزا، وآنا آندرييفنا، وستيبلكوف، والأمير، وآفردوف، والجميع، تتلاحق كإعصار دون أن تترك أثراً في ذهني المريض. وأصبحت الصور تزداد إبهاماً وتستعصي على الإدراك مزيداً من الاستعصاء. فأسعدني أن أفهم واحدةً منها وأن أمسك بها.

Twitter: @ketab_n

قلت لنفسي فجأة: «إن لي» «فكرتي»، ولكن هل هذا صحيح حقاً؟ أليست هذه جملة حفظتها على ظهر القلب؟ إن فكرتي هي العتمة والعزلة، ولكن هل أستطيع الآن أن أعتصم بعتمة الماضي تلك؟ آه! يا رب! ولكن السبب هو أنني لم أحرق «الوثيقة»! لقد نسيت أن أحرقها أمس الأول. سأرجع إلى بيتي فأحرقها على لهب الشمعة، نعم، على لهب الشمعة. ولكنني لا أدري هل حسن ما أفكر فيه الآن...».

ساد الظلام منذ مدة طويلة وجاء بطرس بالشموع. وقف أمامي وسألني هل أكلت؟ فلم أزد على أن أشرت له بيدي. ومع ذلك جاءني بعد ساعة بشاي، فشربت كأساً كبيرة بشراهة. ثم سألته كم الساعة؟ كانت الساعة قد بلغت الثامنة والنصف. لم يدهشني حتى أن أكون قد قضيت هنا خمس ساعات. قال بطرس:

ـ جئت ثلاث مرات، ولكنني أعتقد أنك كنت نائماً.

لم أتذكر أنه دخل عليّ. ولكنني لا أدري لماذا روَّعني فجأة أن أكون قد «نمت»، فإذا أنا أنهض وأمشي في الغرفة طولاً وعرضاً حتى لا أنام. وأخيراً أحسست بصداع في رأسي. حتى إذا كانت الساعة العاشرة تماماً دخل الأمير، فأدهشني أنني انتظرته. كنت قد نسيته كل النسيان، كل النسيان.

قال لي:

ـ أنت هنا، وأنا ذهبت أبحث عنك في بيتك!

كانت هيئته مكفهرة قاسية. وكانت عيناه تعبران عن فكرة ثابتة ثاوية في قرارة ذهنه.

تابع يقول:

ـ كافحت طول النهار واستعملت جميع الوسائل، ولكن كل

Twitter: @ketab_n

شيء أخفق فأصبح وضعي الآن رهيباً. (ملاحظة: لم يذهب إلى الأمير نيقولا إيفانوفتش). رأيت جيبلسكي. إنه إنسان فظيع. اسمع: لا بد أولاً من الحصول على المال، ثم نرى ما يكون من الأمر. وإذا لم نظفر بالمال، فعندئذ... لكنني قررت ألا أفكر اليوم في هذا. اليوم يجب أن نحصل على المال، وفي غد نرى أن المبلغ الذي ربحته أنت أمس الأول لا يزال كاملاً. هو ثلاثة آلاف روبل ينقصها ثلاث روبلات. فإذا طرحنا دينك يبقى عليَّ أن أرد إليك ثلاثمائة. فخذها وأضف إليها سبعمائة لتصبح ألفاً، وآخذ أنا الألفين. ثم نمضي معاً إلى تسرشتشيكوف، فنجلس على طرفين متقابلين ونحاول أن نربح عشرة آلاف، فعسى أن نصل إلى شيء... وإلا. هذا هو المخرج الوحيد الذي بقي لي.

وألقى عليَّ نظرة يائسة.

هتفت أقول فجأة كأنني بعثت بعثاً جديداً:

ـ نعم نعم! هيا بنا! لم أكن أنتظر إلا أن تجيء...

لاحظوا أن الروليت لم تخطر ببالي لحظة واحدة طوال تلك الساعات كلها.

وقال الأخير يسأل على حين فجأة:

ـ والدناءه؟ وحقارة الفعل؟

فهتفت أقول:

ـ ماذا؟ ذهابنا إلى الروليت؟ ولكن هذا هو المخرج. إن المال هو كل شيء. نحن القديسان أنا وأنت، على حين أن بيورنج باع نفسه، وآنا آندرييفنا باعت نفسها، وأن فرسيلوف... هل تعرف أن فرسيلوف مختل؟ مختل، مختل!...

ـ ألست مريضاً يا آركادي ماكاروفتش؟ إن عينيك غريبتان.

Twitter: @ketab_n

ـ هل تقول هذا لتذهب إلى الروليت دون أن تصطحبني؟ لن أتركك بعد الآن. ليس عبثاً أنني حلمت بالقمار طول الليل. هيا بنا إلى الروليت! هيَّا بنا!

كذلك صحت كأنني اكتشفت حل اللغز فجأة.

ـ طيب، هيَّا بنا، رغم أن بك حمى، وهناك...

لم يكمل الأمير جملته. كان في وجهه شيء أليم مرعب وخرجنا.

قال لي فجأة وهو يقف على العتبة:

ـ هل تعلم أنه لا يزال هناك مخرج آخر غير القمار؟

ـ ما هو؟

ـ مخرج جدير بأمراء.

ـ ما هو؟ ما هو؟

ستعرفه في المستقبل. ولكن أعلم أنني الآن لا أستحقه، لقد فات الأوان. هلمَّ، وتذكر أقوالي هذه. لنجرب المخرج الجديد بعامة الناس. هل يمكن أن أجهل أنني أتصرف تصرف خادم، بوعي واضح وإرادة كاملة؟

6

طرت إلى الروليت طيراناً كأن السلامة كلها قد تجمعت هناك، وكأن الروليت هي الحل الوحيد. ومع ذلك لم تكن الروليت قد خطرت ببالي قبل وصول الأمير، كما سبق أن ذكرت. على أنني لم أذهب مقامراً لنفسي، وإنما ذهبت مقامراً بمال الأمير ومن أجل الأمير. إنني لا أستطيع أن أفهم ماذا كان يجذبني، ولكنني كنت منجذباً انجذاباً لا سبيل إلى مغالبته. لا، لا، إن هؤلاء الناس،

Twitter: @ketab_n

وهذه الوجوه، وأولئك القوامين على مائدة الروليت، وتلك الصرخات التي يطلقها المقامرون، وتلك الصالة الحقيرة كلها، صالة تسرشتشيكوف، ذلك كله لم يبد لي في يوم من الأيام على هذا القدر كله من البشاعة والجهامة والفظاظة والحزن كما بدا لي في هذه المرة! إنني أتذكر بوضوح ما بعده وضوح شعور الحداد والحزن الذي كان يعتصر قلبي أثناء تلك الساعات الماضية كلها أمام مائدة القمار. ولكن لماذا لم أبارحها؟ لماذا بقيت وتحملت كمن يذعن لقدر أو كمن يقدم نفسه قرباناً أو كمن يقوم بسخرة؟ يمكنني أن أقول شيئاً على كل حال: هو أنني لا أستطيع أن أقطع حقاً بأنني كنت أملك عقلي كاملاً حينذاك. ومع هذا لم أقامر في حياتي بتعقل كما قامرت في ذلك المساء. كنت صامتاً مركز التفكير شديد الانتباه بارعاً في الحساب إلى حد رهيب، وكنت صبوراً وبخيلاً، وكنت في الوقت نفسه حازماً في اللحظات الحاسمة. جلست من جديد أمام الصفر، أي مرةً أخرى بين تسرشتشيكوف وأفردوف الذي يجلس دائماً على يمين تسرشتشيكوف. لقد كنت أشمئز من هذا المكان، ولكنني أردت أن أحط على الصفر حتماً، وكانت جميع الأماكن الأخرى حول الصفر محتلة. قامرنا قرابة ساعة. وأخيراً رأيت الأمير من بعيد ينهض ويتجه شاحب الوجه إلى الطرف الذي كنا فيه، ويقف أمامي في الجهة الأخرى من المائدة: كان قد خسر كل ما معه، فهو ينظر إلى لعبي صامتاً، ربما دون أن يفهم منه شيئاً بل دون أن يفكر في اللعب. وكنت قد أخذت أربح، وكان تسرشتشيكوف قد نقدني مبلغاً. فإذا أنا أرى آفردوف يتناول ورقة من أوراقي بمائة روبل، فيضمها إلى الكدسة التي كانت أمامه. فعل هذا فجأة، دون أن يقول كلمة، على مرأى مني، بأكبر

Twitter: @ketab_n

وقاحة. فصرخت وأمسكت يده. حدث لي عندئذ شيء لم أتوقعه أنا نفسي: إن جميع الأهوال والإهانات التي قاسيت منها في النهار قد تجمعت فجأة في هذه اللحظة الوحيدة، في سرقة هذه الورقة. لكأن كل ما تراكم وانضغط في نفسي كان لا ينتظر إلا هذه اللحظة لينفجر. فهأنذا أصرخ خارجاً عن طوري ناظراً فيما حولي:

ـ هذا لص. لقد سرق مني ورقة بمائة روبل.

لا أريد أن أصف كل ما أثارته هذه الكلمات من جلبة ولغط. إن حادثة كهذه هي في هذا المكان شيء جديد كل الجدة. إن الناس في صالة تسرشتشيكوف يتصرفون تصرفاً لائقاً، وقد اشتهرت داره بهذه السمعة. ولكنني كنت قد فقدت صوابي. وهذا صوت تسرشتشيكوف يجلجل وسط الضجة والصياح قائلاً على حين فجأة:

ـ اختفت فعلاً، ليس في ذلك شك. كانت هنا. أربعمائة روبل!

هذه قضية أخرى: إن كدسة تضم أربعمائة روبل قد اختفت من «البنك» تحت أنف تسرشتشيكوف. وأخذ تسرشتشيكوف يبيِّن المكان الذي كانت فيه الكدسة قائلاً: «كانت هنا منذ لحظة»، وكان هذا المكان قريباً مني كل القرب، بل كان يلاصقني، كان يلاصق الموضع الذي فيه مالي، كان أقرب إليَّ منه إلى آفردوف كثيراً.

وهتفت أقول مشيراً إلى آفردوف:

ـ اللص هنا! هو الذي سرق أيضاً! نبِّشوه!

وارتفع بين الصيحات صوت مهيب راعد يقول:

ـ مرجع هذا كله إلى أنه يُسمح لأي شخص بالدخول إلى هنا. أناس لم يوص بهم أحد. من أتى به؟ من هو هذا؟

ـ رجل يقال له دولجوروكي.

ـ الأمير دولجوروكي.

Twitter: @ketab_n

وصرخ أحدهم يقول:
ـ الأمير سوكولسكي هو الذي أتى به.
صرخت أقول للأمير عبر المائدة وقد طاش صوابي:
ـ اسمع يا أمير: يظنون أنني أنا السارق مع أنني سُرقت في هذه اللحظة نفسها! فقل لهم، قل لهم من أنا!
عندئذ حدث شيء هو أفظع من كل ما سبق حدوثه في ذلك اليوم كله... بل في حياتي كلها: أنكرني الأمير. رأيته يرفع منكبيه، ويجيب عن الأسئلة التي كانت تنهمر عليه قائلاً بصوت واضح قاطع:
ـ أنا لست مسؤولاً عن أحد. أرجوكم أن تدعوني وشأني.
وفي أثناء ذلك انتصب آفردوف بين الحشد طالباً بصوت عالٍ أن ينبشوه، وأخذ يقلب جيوبه، ولكن الأصوات ارتفعت تجيب عن مطالبته صائحة: «لا، لا، السارق نحن نعرفه». وكان قد نودي خادمان، فإذا هما يمسكان ذراعيَّ من خلف.
فصرخت أقول وأنا أحاول أن أخلِّص يديَّ:
ـ لن أسمح لأحد بأن ينبشني، لن أسمح لأحد بذلك.
ولكنني جررت جراً إلى غرفة مجاورة، وهناك نبشت ثيابي كلها دون أن تغفل منها ثنية واحدة، فكنت أصرخ وأتخبط محتجاً. قال أحدهم:
ـ لا بد أنه رمى ما سرقه إلى الأرض.
فأجاب آخر:
ـ ولكن أين نبحث عنها الآن في الأرض؟
ـ تحت المائدة. لا شك أنه رماها تحت المائدة.
ـ لم يبق لها أثر حتماً...

Twitter: @ketab_n

واقتادوني، لكنني استطعت أثناء ذلك أن أتوقف على العتبة وأن أصرخ في حنق مجنون:

ـ الروليت تحظرها الشرطة. سأشي بكم جميعاً في هذا اليوم نفسه.

ـ أنزلوني على السلم، وألبسوني معطفي و... فتحوا لي باب الشارع.

Twitter: @ketab_n

الفصل التاسع

1

هكذا انتهى اليوم بكارثة. وإليكم ما أتذكره عن تلك الليلة:

أظن أن الساعة كانت قد تجاوزت منتصف الليل قليلاً حين وجدت نفسي في الشارع. كانت الليلة صافية هادئة باردة. وكنت أسير سيراً يشبه أن يكون ركضاً، متعجلاً تعجلاً محموماً، لكنني لا أتجه إلى البيت. «علام الرجوع إلى البيت؟ هل يمكن أن أفكر في البيت الآن؟ إن المرء في البيت يحيا فإذا ذهبت الآن إلى البيت استيقظت من النوم غداً لأحيا: فهل هذا الآن ممكن؟ لقد انتهت الحياة، فيستحيل عليَّ بعد اليوم أن أحيا». هكذا ظللت أهيم على وجهي في الشوارع، لا أرى أين أمضي، بل إني لأجهل هل كنت أريد أن أمضي إلى مكان. وكنت أحس بحرٍ شديد، حتى لأحل أزرار معطفي في بعض اللحظات، ويتراءى لي أنه «ما من عمل يمكن أن يكون له أية غاية». شيء غريب: كان يبدو لي بغير انقطاع أن كل شيء من حولي، حتى الهواء الذي أتنسمه، إنما ينتمي إلى كوكب آخر غير الأرض، وكأنني وجدت نفسي فجأة على سطح القمر. كل شيء: المدينة، المارَّة، الرصيف الذي أركض عليه، ذلك كله لم يبق لي أنا فكنت أقول لنفسي: «هذا ميدان

Twitter: @ketab_n

القصور؛ وهذه بحيرة إسحاق، ولكن لم يبق لي بهما الآن شأن، لا علاقة لي بهما الآن!». أصبح كل شيء غريباً عني، كفَّ كل شيء عن أن يكون لي. «إن لي ماما وليزا! ولكن ماذا تستطيع ماما وليزا أن تصنعا لي الآن؟ انتهى كل شيء، انتهى كل شيء دفعةً واحدة، إلا شيئاً واحداً: أنني سارق إلى الأبد».

«كيف أبرهن على أنني لست سارقاً؟ هل يمكن الآن هذا؟ أأسافر إلى أمريكا؟ ولكن ما الذي أستطيع بذلك أن أبرهن عليه؟ لسوف يكون فرسيلوف أول من يصدِّق أنني سرقت! «الفكرة»؟ أية «فكرة»؟ ما «الفكرة» الآن؟ بعد خمسين سنة، بعد مائة سنة، حين سأمر، سيوجد دائماً من يشير إليَّ بإصبعه قائلاً: هذا سارق، دشَّن «فكرته» بسرقة مال في الروليت...».

هل شعرت بحقد؟ لا أدري. لعلني شعرت بحقد. غير أن هناك صفة غريبة أتصف بها، ربما منذ نعومة أظفاري: إذا نالني أحد بإساءة، إذا بلغت هذه الإساءة حدّها الأقصى، إذا أهانني أحد إهانة شديدة، فإنني أشعر دائماً برغبة نهمة في تحمل الإهانة دون رد، بل في أن أستبق رغبات المسيء، فكأنني أقول له: «خذ، إنك تذلني، فهأنذا أذل نفسي مزيداً من الإذلال. فأنظر إليَّ وأعجب بي!». كان توشار يضربني وكان يريد أن يُظهر أنني خادم، إنني لست ابن عضو من أعضاء مجلس الشيوخ. فسرعان ما كنت أقوم بدور الخادم، فلا أقتصر على أن أناوله ثيابه بل أتناول الفرشاة طوعاً من تلقاء نفسي، وآخذ أنفض عن ثيابه أيسر غبار عالق بها، دون أن يكون قد طلب مني ذلك أو أمرني به، وكنت في بعض الأحيان أتابع هذا العمل بالفرشاة مندفعاً بحماسة الخادم، لأزيل عن ردائه آخر ذرة من غبار، إلى أن يوقفني من تلقاء نفسه قائلاً:

Twitter: @ketab_n

«كفى كفى يا آركادي، هذا كافٍ!». وكنت إذا عاد بعد خروج، فنزع معطفه، آخذ أنطف المعطف بالفرشاة، وأطويه بعناية تامة، وأغطيه بغطاء من حرير ذي مربعات. كنت أعرف أن رفاقي يسخرون مني ويحتقرونني، كنت أعرف هذا حق المعرفة، ولكن ذلك بعينه هو ما كان يرضيني، فكأنني أقول لهم: «أردتم لي أن أكون خادماً، فانظروا كيف أنني خادم. ما دمت خادماً فلأكن خادماً تماماً!». وقد احتفظت بهذا الكره السلبي وهذا الحقد الخفي سنين طويلة. وعند تسرشتشيكوف، حين صرخت قائلاً لجميع من في الصالة وقد ثارت ثائرتي وخرجت عن طوري: «سوف أشي بكم جميعاً، فالروليت تحظرها الشرطة»، فيميناً أن عاطفة من هذا النوع هي التي كانت تحركني: لقد أذلوني ونبشوني ووصفوني على رؤوس الأشهاد بأنني لص، أي قتلوني قتلاً، فكأنني رددت على ذلك قائلاً: «طيب... اعلموا جميعاً أنكم عرفتموني على حقيقتي، اعلموا أنني لست لصاً فحسب، بل إنني أيضاً واش!». حين أتذكر اليوم ما حدث، فإنني أفسِّره هذا التفسير وألخصه هذا التلخيص. ولكن الأمر حينذاك لم يكن أمر تحليل، فأطلقت صرختي تلك بغير نية، وقبل ذلك بثانية واحدة كنت أجهل أنني سأطلقها. لقد خرجت الصرخة من تلقاء نفسها، ولكنها خرجت لأن هذه الصفة التي أتصف بها كانت قائمة في نفسي.

لا شك أن هذياني كان قد بدأ حين أخذت أركض، ولكنني أتذكر تذكراً واضحاً كل الوضوح أنني كنت أتصرف واعياً. كل ما هنالك ـ وهذا ما أستطيع أن أقطع به واثقاً ـ أن ميداناً كاملاً من الأفكار والاستنتاجات كان موصداً دوني: فحتى في ذلك الوقت كنت أشعر بيني وبين نفسي أن «ثمة أفكاراً يمكن أن توافيني، وأن

Twitter: @ketab_n

ثمة أفكاراً أخرى ممنوعة عني إطلاقاً». وكذلك كانت بعض قراراتي، فهي وإن اتخذت بوعي واضح وشعور كامل، كان يمكن أن تخلو حينذاك من أي منطق داخلي. بل أكثر من ذلك إنني أتذكر تذكراً واضحاً أن قراراً من قراراتي كان يمكنني في بعض اللحظات أن أشعر بسخافته واستحالته ثم أشرع مع ذلك في تنفيذه على الفور واعياً كل الوعي. نعم، لقد كانت الجريمة تتربص بي في تلك الليلة، ولئن لم أرتكب جريمة فإن الفضل في ذلك يرجع إلى الصدفة وحدها.

وفجأة وافتني الكلمة التي قالتها تاتيانا بافلوفنا عن فرسيلوف: «ليذهب إلى خطّ سكّة نيقولا فيضع رأسه على السكة الحديدية، فينفصل رأسه عن جسمه على نحو مناسب». وسيطرت هذه الفكرة لحظةً على جميع مشاعري، ولكنني لم ألبث أن طردتها من ذهني على الفور متألماً، إذ قلت لنفسي: «أضع رأسي على السكة الحديدية وأموت؟ لو فعلت هذا لقالوا غداً: هو السارق إذن، شعر بالخزي والعار فانتحر. لا، لن أفعل هذا أبداً». وأذكر أن شرارة كره رهيب قد شبت في قلبي في تلك اللحظة. قلت: «ماذا؟ يستحيل عليَّ بعد اليوم أن أبرىء نفسي، يستحيل عليَّ أن أبدأ حياة جديدة. فيجب إذن أن أخضع، يجب أن أجعل نفسي خادماً، يجب أن أكون كلباً، أن أكون ذبابة، أن أكون واشياً، أن أكون الآن واشياً بالفعل، وفي أثناء ذلك أستعد بهدوء ورفق، حتى إذا آن الأوان في ذات يوم دمرت كل شيء، أبدت كل شيء، أفنيت العالم كله، المجرمين فيه والأبرياء. وسيعلم الناس جميعاً حينذاك، على حين فجأة، أن الذي فعل ذلك إنما هو الرجل الذي اتهموه بأنه لص، وبعدئذ إنما انتحر».

Twitter: @ketab_n

لا أذكر الآن كيف أفضى بي السير إلى زقاق صغير قريب من شارع «الفرسان». إن هذا الزقاق تحفّه في الجانبين، على طول مائة متر تقريباً، جدران عالية هي حواجز تحجب وراءها أفنية منازل. وأبصرت خلف أحد هذه الجدران، على اليسار، كومة كبيرة من حطب، كومة عالية جداً يتجاوز ارتفاعها ارتفاع الجدار مترين. فوقفت فجأة وأخذت أفكر. كان في جيبي أعواد كبريت من شمع، محفوظة في علبة من فضة. أكرر مرةً أخرى أنني كنت عندئذ أعي وعياً واضحاً ما أفكر فيه وما أريد أن أعمله، وما زلت أذكر هذا إلى اليوم، ولكن لو سألتني لماذا أردت أن أقدم على هذا العمل لما استطعت أن أجيبك بشيء البتة. كل ما أتذكره هو أن هذه الرغبة قد استبدت بي وملكت عليَّ مشاعري فجأة. قلت لنفسي: «إن تسلق الجدار ممكن جداً». لقد كان هناك، على بعد خطوتين، باب كبير لا شك أنه مغلق منذ أشهر طويلة. وتابعت تفكيري قائلاً لنفسي: «إذا وضعت قدمي على حرف أسفله، كان في إمكاني أن أتشبث بأعلاه، فأتسلق الجدار، ولن يرى أحد شيئاً. لا أحد سيرى شيئاً! صمت كامل! وهناك في أعلى الجدار، سأستقر مرتاحاً، فأشعل النار في الحطب. هذا سهل، حتى بدون أن أنزل إلى الفناء، لأن الحطب يكاد يلامس الجدار. وبسبب الهواء ستسري النار في الحطب سريعة. ليس عليَّ إلا أن أسحب بيدي حطبة سندر... بل لماذا الحطبة؟ أستطيع رأساً، وأنا جالس على الجدار، أن أنتزع بيدي قليلاً من القش، فأشعله بلهب الكبريت، أشعله ثم أدسه في وسط الحطب، فيشب الحريق. وأثب أنا إلى أسفل الجدار وأنصرف. ولا داعي حتى إلى الركض، لأن الحريق لن يلاحظه أحد إلا بعد مدة...». أدرت هذا كله في رأسي، ثم

Twitter: @ketab_n

عزمت أمري تماماً على حين فجأة. وشعرت بلذة قصوى، بلذة قصوى وتسلقت. كنت أجيد التسلق إجادة عظيمة: إنني منذ كنت في الليسيه كنت متفوقاً في الرياضة البدنية تفوقاً كبيراً. ولكنني كنت أنتعل حذاءين من كاوتشوك، فكان ذلك عقبة. ومع ذلك استطعت أن أمسك بإحدى يديَّ حافة لا يكاد يُرى بروزها، وأن أصعد. وهممت أن أقذف يدي الأخرى لأتشبث بأعلى الجدار، فإذا بقدمي تنزلق فأسقط منقلباً. أظن أن رقبتي اصطدمت بالأرض. ولا شك أنني بقيت مغشياً عليَّ مدة دقيقة أو دقيقتين. فلما أفقت من غيبوبتي، عقدت أزرار معطفي بغير شعور، لأنني أحسست ببرد لا يحتمل، وجررت نفسي جراً إلى حيث الباب الكبير، فلطوت هناك وأنا لا أعي ما أفعل وعياً واضحاً، وتجمعت على نفسي في تجويف بين الباب ونتوء الجدار. كانت الأفكار في ذهني مضطربة، وأغلب الظن أنني سرعان ما غفوت. إنني أذكر الآن، كما لو كنت في حلم، أن صوت نواقيس، عميقاً ثقيلاً، قد ترجَّع في أذنيَّ فجأة، وأنني أصغيت إلى ذلك الصوت متلذذاً.

2

كان الناقوس يرن مرةً كلَّ ثانيتين، بل كل ثلاث ثوان، ولكن صوته ليس صوت ناقوس الخطر، بل هو صوت ممتع بهيج عريض، ولم ألبث أن ميزته فجأة: إنه ناقوس كنيسة القديس نيقولا، الكنيسة الحمراء التي تقع في مواجهة منزل توشار! ـ هي كنيسة موسكوبية قديمة، ذكراها في خيالي واضحة، شيدت في عهد ألكسي ميخائيلوفتش، بمسنناتها وقبابها الكثيرة وأعمدتها. وقد انتهى أسبوع الفصح منذ برهة قصيرة، وعلى أشجار السندر النحيلة في حديقة آل

Twitter: @ketab_n

توشار، أخذت تهتز الأوراق الخضر الجديدة منذ الآن. والشمس المتألقة عند الأصيل تسكب أشعتها المائلة في صفنا بالمدرسة، وأنا، في غرفتي الصغيرة التي تقع على اليسار، والتي أقصاني إليها توشار بعيداً عن «أبناء الكونتات وأعضاء مجلس الشيوخ»، عندي زائرة. نعم، أنا الولد الذي لا يُعرف له منبت، عندي زائرة، أتتني أول مرة منذ أن أودعت في مدرسة توشار. ولقد تعرفتها منذ دخلت: أنها أمي. تعرفتها رغم أنني منذ العهد الذي كانت تقودني فيه إلى كنيسة القرية لتناول القربان المقدس، وهي الكنيسة التي كانت الحمامة تجتاز قبتها، لم أرها مرةً واحدة. نحن الآن جالسان معاً. وأنا أتأمل وجهها تأملاً غريباً. ولقد عرفت فيما بعد، عرفت بعد سنين كثيرة، أنها في ذلك الحين، وقد بقيت وحيدة إذ تركها فرسيلوف وسافر إلى الخارج فجأة، جاءت إلى موسكو دون أن يكون لأحد سلطان عليها، مستعينةً على ذلك بما تملك من مال زهيد، كاتمة أمر سفرها تقريباً عن أولئك الذين عهد بها إليهم، وذلك كله من أجل أن تراني لا أكثر. شيء غريب أيضاً: أنها حين دخلت قد تحدثت إلى توشار، أما أنا فلم تقل لي أنها أمي. هي الآن هنا على مقربة مني، وإني لأذكر أنني قد أدهشني أن أراها لا تتكلم إلا قليلاً جداً. وها هي ذي تفض صرَّة كانت تحملها: إن في الصرة ست برتقالات، وبضعة أقراص من الحلوى، ورغيفين من خبز أبيض. وقد ساءني الخبز، فأجبت أمي متجهم الهيئة بأننا نُطعم هنا أحسن الطعام، وأننا نُعطى كلَّ يوم مع الشاي رغيفاً كاملاً. فقالت لي أمي:

ـ لا بأس يا عزيزي، لقد قلت لنفسي بسذاجة: «لعلهم في هذه المدرسة لا يغذونكم تغذية حسنة». لا تؤاخذني يا حبيبي.

Twitter: @ketab_n

قلت:

ـ وسوف يُجرح شعور آنطونين فاسيليفنا (زوجة توشار)، وسوف يسخر رفاقي مني...

ـ ألا تريده إذن؟ قد تأكله مع ذلك!

ـ اتركيه، إذا شئت.

ولم أمسس الهدايا. فالبرتقالات وأقراص الحلوى بقيت على المائدة أمامي، وبقيت أنا جالساً خافضاً عينيَّ، ولكن على وقار. من يدري؟ لعلني كنت أتمنى ألا أخفي عنها أن زيارتها تُخجلني أمام رفاقي، وأن أظهر لها ذلك قليلاً لتفهم، كأن أقول لها: «إنك تخجلينني ولا تدركين ذلك من تلقاء نفسك». نعم، أقول لها ذلك أنا الذي في تلك اللحظة ذاتها كنت أجري وراء توشار حاملاً الفرشاة لأنفض عن ثيابه أقل غبار! وكنت أتصور كذلك مدى السخريات التي سيصبها عليَّ الصبية الآخرون متى انصرفت، وقد يصبها عليَّ توشار نفسه، فلم يهتز قلبي بأية عاطفة طيبة نحو أمي. كنت أنظر شزراً إلى فستانها القاتم العتيق، وإلى يديها الغليظتين اللتين تشبهان يدي شغالة، وإلى حذاءيها الثقيلين، وإلى وجهها الذي نحل نحولاً شديداً. إن جبينها قد تخدَّد منذ الآن بغضون صغيرة، مع أن آنطونين فاسيليفنا قالت لي بعد ذلك في المساء، بعد انصرافها: «لا بد أن أمك كانت في الماضي جميلة جداً».

وفيما كنا على هذه الحال إذا بآجاتي تدخل علينا بصينية فوقها فنجان قهوة. الوقت بعد الظهر. وآل توشار، في هذه الساعة، يحتسون القهوة دائماً عندهم في الصالون. ولكن ماما شكرتهم ولم تتناول الفنجان. وعلمت فيما بعد أن ماما لا تشرب القهوة أبداً، لأن القهوة تحدث لها خفقاناً في القلب. وآل توشار، في قرارة

Twitter: @ketab_n

أنفسهم، يرون أن زيارتها وسماحهم لها بزيارتي هو منتهى التسامح والكرم منهم، وأن فنجان القهوة الذي أرسلوه إليها هو ذروة الإنسانية ومأثرة كبيرة من مآثر مشاعرهم المتمدنة وأفكارهم الأوروبية. ولكن أمي رفضت القهوة بمصادفة تشبه أن تكون عمداً.

ونوديت إلى عند توشار. فطلب مني أن آخذ جميع دفاتري وجميع كتبي وأن أظهر عليها أمي «لترى مدى ما أجنيه من فائدة في مدرسته». وانبرت آنطونين فاسيليفنا عندئذ فقالت لي بلهجة ساخرة وهي تزم شفتيها:

ـ أظن أن قهوتنا لم تعجب أمك.

وجمعت دفاتري لأحملها إلى أمي التي كانت تنتظر. ومررت أمام «أبناء الكونتات وأعضاء مجلس الشيوخ» الذين احتشدوا في الصف وأخذوا يرقبوننا كلينا. وسرَّني أن أنفذ أمر توشار تنفيذاً دقيقاً محكماً. فكنت أفتح دفاتري فتحاً منظماً، وآخذ أشرح لأمي قائلاً: «هذه دروس قواعد اللغة الفرنسية. وهنا نصوص الإملاء. وهذا تصريف الفعلين المساعدين، فعل avoir وفعل être، وهنا الجغرافيا، وصف المدن الكبرى بأوروبا وجميع أجزاء العالم، الخ». ظللت نصف ساعة أو أكثر أشرح لأمي ذلك كله بصوت رقيق مطرد خافضاً عينيَّ كما يفعل ولد أُحسن تأديبه. وكنت أعلم أن ماما لا تفقه في العلوم والآداب شيئاً، وأنها ربما كانت لا تعرف القراءة والكتابة، وهذا هو السبب في أن الدور الذي قمت به أعجبني. ومع ذلك لم أفلح في أن أُتعبها، فكانت تصغي إليَّ دون أن تقاطعني، وكانت تنصت بانتباه بل بخشوع، حتى اعتراني أنا السأم والضجر فكففت عن الاستمرار من تلقاء نفسي. وكانت نظرتها حزينة، وكان في وجهها شيء يبعث على الشفقة.

Twitter: @ketab_n

ونهضتْ أخيراً لتنصرف. فإذا بتوشار يدخل بنفسه بغتةً، ويسألها بوقار مصطنع غبي إذا كانت راضية عن النجاح الذي حققه ابنها. فأخذت أمي تتمتم معبِّرةً عن شكرها الجزيل بجمل مشوشة. ثم دخلت آنطونين فاسيليفنا. فرجتهما أمي ألا يتركا اليتيم، «لأنه الآن في حكم اليتيم، فاستمرا في إحسانكما إليه ونعمكما عليه...». وحيتهما مغرورقة العينين بالدموع، وحيّت كلا منهما على حدة، بانحناء شديد، كما يفعل العامة من أبناء «الشعب» حين يجيئون إلى سادة كبار يلتمسون منهم شيئاً. وكان توشار وامرأته لا يتوقعان هذا كله، حتى لقد لانت آنطونين من ذلك ليناً واضحاً، ولا شك أنها سرعان ما غيَّرت رأيها فيما يتعلق بفنجان القهوة. وازداد توشار اصطناعاً للوقار، وأجاب قائلاً بلهجة إنسانية «إنه لا يفرِّق بين الأولاد، وإنهم هنا جميعاً أولاده، وأنه هنا أبوهم كافة، وإنني أعامل كما يعامل تقريباً أبناء الكونتات وأبناء أعضاء مجلس الشيوخ، وأن هذا شيء يجب أن يقدر حقَّ قدره»، الخ، الخ. فكانت أمي تزيد تحياتها أثناء كلام توشار. وتفاقم اضطرابها، فالتفتت إليَّ والدموع تلتمع في عينيها وقالت: «استودعك الله يا بني».

وقبَّلتني بل قل إنني سمحت لها أن تقبِّلني. وكان واضحاً أنها ودَّت لو تقبِّلني مزيداً من التقبيل، وأن تعانقني وأن تحضنني وأن تشدني إليها، ولكنها أمسكت عن ذلك إما لأنها استحت من الحضور، وإما لأنها شعرت بحزن، وإما لأنها أدركت أنني أشعر بخجل، فها هي ذي تحيي توشار وامرأته تحية أخيرة، وتسرع متجهةً إلى باب الخروج. وبقيت أنا مسمراً في مكاني.

قالت آنطونين فاسيليفنا:

Twitter: @ketab_n

ـ «هلاً تبعت أمك! إن هذا الولد لا قلب له!».

ورفع توشار منكبيه، كأنه يقول لها: «ليس عبثاً أنني أعامله كما يعامل خادم».

وأطعت أمر آنطونين فاسيليفنا، فنزلت وراء أمي، وخرجنا إلى درج الباب. وكنت أعلم أن الآخرين ينظرون إلينا الآن من النافذة. والتفتت أمي إلى الكنيسة، فرسمت إشارة الصليب ثلاث مرات بخشوع، وكانت شفتاها تختلجان. ورنَّ جرس جهير في أعلى برج الناقوس رنات قوية منتظمة. فالتفت أمي إليَّ، ثم لم تطق صبراً فإذا هي تضع يديها على رأسي وتجهش باكية بكاء غزيراً.

ـ كفى يا ماما، هذا يخجلني... إنهم يروننا من النافذة...

فارتدت أمي إلى وراء، وأسرعت تريد الانصراف وقالت:

ـ طيب!... الرب... الرب معك!... ملائكة السماء تحرسك، ومريم العذراء والقديس نيقولا...

وظلت تردد بسرعة، وهي لا تزال ترسم إشارة الصليب، وتحاول أن تضع عليَّ مزيداً من الصلبان بمزيد من السرعة:

ـ الرب... الرب... حبيبي... عزيزي... ولكن انتظر قليلاً...

وأسرعت تدس يدها في جيبها فتستل منها منديلاً... منديلاً أزرق ذا مربعات قد عقد في طرفه عقداً قوياً... وأخذت تحاول حلَّ العقدة... ولكنها لم تفلح، فقالت:

ـ طيب... لا بأس... خذ المنديل أيضاً... إنه نظيف كل النظافة... قد تستعمله. إن في العقدة أربعة نقود كبيرة فيما أظن، فعسى أن تنتفع بها في شيء. لا تحقد عليَّ يا بني، ليس معي أكثر من ذلك... لا تزعل مني يا حبيبي.

Twitter: @ketab_n

أخذت المنديل. وقد أردت أن أنبِّهها إلى «أن مسيو توشار وآنطونين فاسيليفنا يعاملاننا أحسن معاملة، وأننا لا يعوزنا شيء»، ولكنني أمسكت عن الكلام وقبلت المنديل.

ورسمت عليَّ إشارة الصليب مرةً أخرى، وتمتمت أيضاً بدعاء لا أدري ما هو، ثم إذا هي تحييني بانحناءة كبيرة بطيئة طويلة على حين فجأة، تماماً كما حيَّت توشار وامرأته فوق. لن أنسى هذه التحية ما حييت! لقد ارتعشت من قمة رأسي إلى أخمص قدميَّ، لا أدري أنا نفسي لماذا! ماذا قصدت من هذه التحية؟ أكانت «تعترف بخطيئتها أمامي» كما تخيلت ذلك كثيراً فيما بعد؟ لا أدري. ولكنني شعرت حينذاك بمزيد من الخجل والخزي، «لأنهم كانوا هناك في أعلى ينظرون، وقد يضربني لامبرت بعد قليل».

وانصرفت أخيراً.

كانت البرتقالات وأقراص الحلوى قد التهمها أبناء الكونتات وأعضاء مجلس الشيوخ حتى قبل أن أعود، وسرعان ما انتزع مني لامبرت النقود الأربعة الكبيرة. فاشتروا بها كتلة كبيرة من الشوكولاتة والجاتوه من عند بائع الحلوى، ولم يذيقوني شيئاً مما اشتروا.

انقضت ستة أشهر. نحن الآن في شهر تشرين الأول (أكتوبر). رياح وأمطار. نسيت أمي نسياناً تاماً. والكره، الكره الأسود العميق لكل شيء، قد نفذ إلى قلبي واستولى عليه استيلاء كاملاً. وما زلت أنفض الغبار عن ثياب توشار بالفرشاة، لكنني أكرهه الآن بكل ما أملك من قوى، وما زال كرهي يزداد شدة وتأججاً. وذات يوم، في ساعة الغسق الحزينة، بينما كنت أنبش علبتي، إذا أنا أبصر المنديل الأزرق في الركن الذي دسسته فيه منذ أعطتنيه أمي.

Twitter: @ketab_n

فأخرجته وأخذت أتأمله باهتمام. إن طرفه لا يزال يحتفظ بآثار العقدة، بل لا يزال يحتفظ بأثر قطعة نقدية مستديرة. ولكنني لم ألبث أن أعدت المنديل إلى مكانه وأغلقت العلبة. كان ذلك في عشية عيد، وقد أخذت الأجراس تقرع مؤذنة بقداس الليل. وكان التلاميذ قد ذهبوا إلى أسرهم بعد الغداء، ولكن لامبرت قد بقي في هذه المرة، لأن أهله لم يرسلوا أحداً يصطحبه. أنه لا يزال يضربني كما كان يفعل من قبل، ولكنه أصبح يبوح لي بأشياء كثيرة، وأصبح في حاجة إليَّ. لبثنا طوال السهرة نتكلم عن مسدسات لوباج التي لم يسبق لأحد منا أن رآها، وعن السيوف الشركسية، وانتقل لامبرت أخيراً إلى حديثه المفضَّل، وهو حديث سافل كنت أحب أن أصغي إليه رغم ما أشعر به من دهشة بيني وبين نفسي. ولكنني في هذه المرة وجدت الحديث كريهاً لا يطاق، فقلت للامبرت إنني أشعر بصداع في رأسي، ومضينا إلى النوم. فغمرت رأسي بالغطاء، واستللت المنديل الأزرق من تحت المخدة: كنت قد عدت إلى إخراجه من العلبة قبل ساعة، فما أن رُتِّب سريرانا حتى وضعته تحت المخدة. شددت المنديل إلى وجهي وأخذت أقبّله. وهمست أقول وقد استولت عليَّ ذكرى أمي وانقبض صدري كأنه مضغوط بين فكي ملزمة: «ماما، ماما». وتراءى لي وجهها وأنا مغمض عينيَّ، تراءى لي بشفتيه المختلجتين حين كانت ترسم على نفسها إشارة الصليب أمام الكنيسة، ثم ترسم إشارة الصليب عليَّ أنا، فأقول لها: «إنني أشعر بخجل، إنهم يروننا». وتابعت هتافي لماما: «ماما، ماما الحبيبة، لقد جئت إليَّ مرةً على الأقل... أين أنت الآن يا زائرتي البعيدة؟ هل تذكرين الآن ابنك الصغير المسكين الذي جئت تزورينه؟... تعالي إليَّ مرةً أخرى،

Twitter: @ketab_n

تعالي إليَّ في الحلم على الأقل، لأقول لك إنني أحبك حباً عظيماً، وأنني أصبحت لا أشعر منك بخجل وخزي، وإنني كنت أحبك في ذلك الوقت أيضاً، وأن قلبي كان يتألم حين كنت أقبع هناك كخادم! لن تستطيعي أبداً يا ماما أن تقدري كم كنت أحبك حينذاك! ماما الحبيبة، أين أنت الآن؟ هل تسمعينني؟ ماما، ماما، هل تتذكرين الحمامة، في الكنيسة؟...».

دمدم لامبرت من قرارة سريره يقول:

ـ شيطان يأخذه! ماذا دهاه؟ انظر قليلاً! إنه يمنع الناس من النوم...

وها هو ذا يثب عن سريره أخيراً، فيركض إلى سريري، وينزع عني الغطاء، ولكنني أتشبث بالغطاء تشبثاً قوياً وأظل مطوقاً رقبتي به.

ـ تبكي؟ ماذا دهاك حتى أخذت تئن يا أبله؟ خذ هذه لك!

قال ذلك وأخذ يكيل لي اللكمات على ظهري وعلى أضلاعي، ويؤلمني مزيداً من الإيلام عند كل ضربة... وفجأة فتحت عينيَّ...

النهار قد طلع تماماً؛ والجليد يسطع على الثلج وعلى الجدار... وأنا جالس متجمع على نفسي نصف ميت، متخدر في معطفي. وهذا رجل يقف أمامي يحاول أن يوقظني من نومي بشتائم مقذعة، ويركلني على الأضلاع بطرف قدمه اليمنى. فأنهض وأنظر: هو رجل يرتدي معطفاً ثميناً من جلد الدب، ويدثر رأسه بقبعة من الفراء، له عينان سوداوان، وأسنان بيض مسددة إليَّ. إنه أبيض اللون، محمر الخدين، يشبه وجهه أن يكون قناعاً... لقد مال عليَّ حتى كاد وجهه يلامس وجهي، فكلما زفر زفرة خرج من فمه بخار متجلد:

Twitter: @ketab_n

ـ لقد تجمدت من البرد يا سكير، يا أبله! لسوف تفطس هنا من التجلد كما يفطس كلب! قم! قم!

صرخت أقول:

ـ لامبرت.

ـ من أنت؟

ـ دولجوروكي.

ـ أيُّ دولجوروكي؟

ـ دولجوروكي فحسب!... ذلك الذي غرزت في فخذه شوكة...

فهتف وهو يبتسم ابتسامة طويلة، ابتسامة من يتذكر:

ـ آ... آ... آ... هذا أنت إذن؟ أنت؟

(أتراه نسيني؟).

وأنهضني، وأوقفني على قدميَّ، فكنت أترنح وأجد في الوقوف والحركة مشقة، فقادني وهو يسندني بيده. كان ينظر في عينيَّ كمن يريد أن يتذكر وأن يفهم، وكان ينصت إلى كلامي بكل ما أوتي من قوة؛ وكنت أنا أتمتم بكل ما أوتيت من قوة أيضاً، فأتكلم وأتكلم بدون انقطاع، وأشعر بسرور لأنني أتكلم ولأنه لامبرت. ألأنه بدا لي «خلاصاً» مما أنا فيه، أم تراني ارتميت عليه ارتمائي على إنسان من عالم آخر؟ لا أدري. لم أكن في ذلك الوقت أفكر. لقد ارتميت عليه بغير تفكير. ماذا قلت؟ لا أتذكر البتة. ولا شك أن ما قلته كان مفككاً. بل لا شك أن نطقي لم يكن واضحاً. ولكنه كان يصغي إليَّ إصغاء شديداً. واستوقف أول عربة مرت بنا، فما انقضت بضع دقائق حتى كنت في دفء غرفته.

Twitter: @ketab_n

3

إن كل إنسان، أياً كان، يحتفظ حتماً بذكرى حادثة شخصية يعدُّها أو يميل إلى أن يعدَّها غير مألوفة، خارقة، كأنها تنتمي إلى عالم الخيال، كأنها معجزة من المعجزات؛ وهذه الحادثة تكون حلماً رآه أو لقاءً وقع له، أو نبوءة تنبأ بها، أو إحساساً سابقاً بأمر سيقع، أو شيئاً من هذا القبيل. وإني محمول حتى الآن إلى اعتبار لقائي هذا بصاحبي لامبرت مشتملاً على شيء من ذلك... على الأقل إذا نحن نظرنا إلى ظروف هذا اللقاء وإلى ما كان له من نتائج ضخمة. ولقد حدث هذا كله حدوثاً بسيطاً غاية البساطة، من أحد الجوانب على الأقل: لقد كان لامبرت عائداً من إحدى مهماته الليلية (سنرى ماذا كانت تلك المهمة)، وكان نصف سكران، فلما توقف لحظةً أمام باب من الأبواب، أبصرني. ولم يكن قد انقضى على وجوده ببطرسبرج إلا بضعة أيام.

الغرفة التي نُقلت إليها غرفة صغيرة، أثاثها بسيط جداً، مزودة بما تزوَّد به غرفة بطرسبرجية عادية من الدرجة الثانية. أما لامبرت نفسه فكان يرتدي ثياباً فاخرة باذخة. وكان على أرض الغرفة حقيبتان لم تفرغا إلا من نصف ما فيهما. وكان ركن من الغرفة محجوباً بحاجز يخفي وراءه السرير.

صاح لامبرت منادياً:

ـ آلفونسين!

فأجاب من وراء الحاجز صوت نسوي مرتعش يقول بلغة فرنسية باريسية اللهجة:

ـ نعم!

Twitter: @ketab_n

وسمعت من وراء الحاجز حفيف قدمين عاريتين، وما هي إلا لحظة حتى ظهرت «مدموازيل آلفونسين» بقميص النوم. إنسانة عجيبة؛ طويلة القامة نحيلة كعود يابس، فتية، سمراء، طويلة الوجه، عيناها تنطنطان، وخداها خاسفان. مخلوقة بالية بلى رهيباً.

ـ أسرعي! (قالها بالفرنسية). لا بد أن عندهم سماوراً يعيرونه. أسرعي. هاتي ماءً ساخناً ونبيذاً أحمر وسكراً، وقدحاً، وأسرعي، فإنه متجلد من البرد. هو صديقي وقد قضى الليل في الثلج.

فهتفت تقول بالفرنسية وهي تلوي يديها بحركة مسرحية:

ـ مسكين!

ـ هيا أسرعي، واصمتي، هشش...

كذلك صرخ لامبرت كأنه يكلم كلباً، ولوَّح لها بأصبعه مهدِّداً. فسرعان ما كفَّت عن حركاتها، وركضت تنفذ ما أمرها به.

وأخذ لامبرت يفحصني ويلمسني ويجس نبضي ويلمس صدغيَّ. ثم جمجم يقول: «غريب أنك لم تتجمد تجمداً تاماً... ولكنك كنت مدفوناً في معطفك إلى ما فوق رأسك، فكان لك معطفك كجحر...».

ووصل كأس الماء المغلي. ابتلعته بشراهة، فسرعان ما أنعشني، وعدت أتمتم. كنت مضطجعاً في الركن على الديوان نصف اضطجاع، وكنت أتكلم نشوان بالكلام، ولكنني لا أكاد أتذكر الآن ماذا كنت أقول، بل إن هناك صفحات من ثرثرتي قد امحت الآن من ذاكرتي امحاءً تاماً. هل فهم من كلامي شيئاً؟ لا أدري. ولكنني أدركت فيما بعد أنه لا بد أن يكون قد فهم على الأقل أن لقاءه هذا بي أمر لا ينبغي له أن يهمله، وأن الإبقاء على علاقته بي يمكن أن يجلب له منافع. وسأشرح فيما بعد ما لعله أجراه من حساب.

Twitter: @ketab_n

لم أنتعش انتعاشاً قوياً فحسب، بل أظن أنني كنت في بعض اللحظات مرحاً. إنني أتذكر الشمس التي أضاءت الغرفة فجأة حين أزيحت الستائر، وأتذكر المدفأة التي طقطقت نيرانها حين أشعلت. أما من أشعل المدفأة وكيف أشعلها فلا أدري. وأتذكر الكلب الصغير الأسود الذي كانت مدموازيل آلفونسين تمسكه بيديها وتشده إلى قلبها بغنج ودلال. لقد سلّاني هذا الكلب وأضحكني كثيراً، حتى إنني انقطعت عن الكلام ومددت إليه يدي مرتين، ولكن لامبرت أومأ إيماءة فإذا بآلفونسين وكلبها يختفيان فوراً وراء الحاجز.

وكان لامبرت شديد الصمت، جالساً أمامي ينصت إلى كلامي إنصاتاً قوياً وقد مال عليَّ فلا يبتعد عني. وكان يبتسم في بعض الأحيان ابتسامة طويلة بطيئة، ويكشف عن أسنانه ويطرف بعينيه كمن يبذل جهداً من أجل أن يفهم وأن يحزر. أذكر أنني حين رويت له قصة «الوثيقة» لم أفلح في أن أعبِّر تعبيراً واضحاً وأن أعرض قصة متسقة، فكنت أرى في وجهي أنه لا يستطيع أن يفهم عني. حتى لقد جازف مرةً فألقى سؤالاً، وكان هذا شيئاً خطراً، لأنني كنت أغير موضوع الحديث متى أُلقي عليَّ سؤال، وأنسى ما كنت بصدد الكلام عنه. كم قضينا من الوقت على هذه الحال مسترسلين في الحديث؟ لا أدري، وها هو ذا ينهض فجأةً وينادي آلفونسين فيقول لها:

ـ إنه في حاجة إلى هدوء. وقد نحتاج إلى استدعاء طبيب. افعلي كل ما يطلب، أعني... «تفهمين يا بنيتي؟ هل معك مال؟ لا؟ خذي إذن!»

قال ذلك وأخرج من جيبه ورقة مالية بعشرة روبلات، ثم همس

Twitter: @ketab_n

يقول لآفونسين وهو يلوِّح لها بإصبعه مهدِّداً ويقطب حاجبيه بقسوة:
ـ «هل تفهمين؟ هل تفهمين؟».
ورأيت أنها كانت ترتعد أمامه ارتعاداً شديداً. وأردف يقول:
ـ سأرجع.
ثم اتجه إليَّ فقال لي مبتسماً:
ـ أما أنت فعليك أن تنام. هذا خير ما تفعله.
وتناول قبعته. فصاحت آلفونسين تقول له بلهجة عاطفية:
ـ «ولكنك لم تنم البتة يا موريس!».
فأجابها بقوله:
ـ «اسكتي! سأنام فيما بعد».
وخرج.
همست تقول لي بنبرة التأثر وهي تريني ظهرها:
ـ أُنقذت!
وسرعان ما أخذت تخطب قائلة وقد انتصبت في وسط الغرفة (بالفرنسية):
ـ سيدي، سيدي، ما من رجل كهذا الرجل كان قاسياً هذه القسوة كلها، وكان بسماركاً إلى هذا الحد، فنظر إلى المرأة نظرته إلى قاذورة، ما امرأة في عصرنا هذا؟ «اقتلها!» هذه هي الكلمة الأخيرة التي قالتها خطيبتنا الفرنسية!
حملقت بعينيَّ. إنني أرى الشخص شخصين. إنني أرى آلفونسين اثنتين. ولاحظت فجأة أنها تبكي. فارتعشت وأدركت أنها كانت تكلمني منذ مدة طويلة وأنني كنت إذن نائماً طوال ذلك الوقت، أو كنت مغشياً عليَّ.
وصاحت تكمل خطابها (بالفرنسية):

Twitter: @ketab_n

ـ . . . «واأسفاه يا سيدي، فيم كان يمكن أن يفيدني أن أكتشفه في وقت مبكر. . . أفلم يكن من الخير لي أن أظل كاتمةً عاري طوال حياتي؟ قد لا يشرِّف فتاةً أن تشرح ما يدور في نفسها بمثل هذه الحرية أمامك يا سيدي، ولكنني أعترف لك بأنني إذا سُمح لي أن أريد شيئاً، فسوف يكون هذا الشيء هو أن أغمد في قلبه خنجري، ولكن عليّ أن أشيح عنه بصري، مخافة أن أرى نظرته فترتعش ذراعي وتتجمد عزيمتي! لقد اغتال ذلك الكاهن الروسي يا سيدي، ونتف لحيته الحمراء من أجل أن يبيعها لفنان عند «جسر المارشالات» بقرب متجر مسيو آندريو ـ أزياء راقية، بضائع باريسية، ملابس داخلية، قمصان أنيقة، تعرف يا سيدي، أليس كذلك؟ آه يا سيدي، حين تضم الصداقة، على مائدة واحدة، زوجةً وأولاداً وأخوات وأصدقاء، ويشتعل في القلب فرح قوي. . . هل هناك يا سيدي سعادة أفضل من هذه السعادة التي ينعم بها جميع الناس؟ ولكنه يضحك يا سيدي، هذا الشيطان الكريه العجيب الذي لا يتصوره العقل. يميناً يا سيدي، لولا وساطة مسيو آندريو، لما. . . آه. . . مستحيل، لما كنت. . . ولكن ماذا يا سيدي، ماذا بك؟ ماذا بك يا سيدي؟

كذلك هتفت تسألني، ثم اندفعت إليَّ. لعلني كنت أرتعد، بل لعلني قد أغمى علي. لا أستطيع أن أصف الشعور الشاق الأليم الذي أحدثته في نفسي هذه المخلوقة نصف المجنونة. ولعلها تخيلت أن عليها أن تسليني وتسري عني. المهم أنها لم تتركني لحظة واحدة. ولعلها كانت تمثِّل في الماضي. لقد كانت تنشد كلامها إنشاداً، وتدور على نفسها، وتتكلم بدون انقطاع، على حين كنت قد صمتّ منذ مدة طويلة. كل ما استطعت أن أفهمه من

Twitter: @ketab_n

أقوالها هو أنها كانت لها «علاقات وثيقة بمتجر مسيو آندريو ـ أزياء راقية، بضائع باريسية، الخ»، وأنها لعلها كانت تخرج من عند مسيو آندريو»، ولكن «هذا الشيطان الحانق الذي لا يتصوره العقل قد انتزعها من مسيو أندريو إلى الأبد»، وتلك هي مأساتها... إنها تشهق وتنتحب، ولكن بدا لي أنها لا تفعل ذلك كله إلا تقيداً بالشكل. وشعرت في بعض اللحظات أنها توشك أن تتهاوى متهشمة كهيكل عظميّ. وكانت تتكلم بصوت مختنق فيه ارتعاش ومط، فالألف الممدودة تخرج من حلقها كأنها ثغاء شاة. وحين أفقت من غيبوبتي رأيتها تستدير في وسط الغرفة على رجل واحدة، ولكن دون أن ترقص، لأن استدارتها هذه كانت تمثيلاً يتصل بقضيتها. واندفعت فجأة نحو بيانو صغير قديم غير مدوزن، كان بالغرفة، ففتحته وأخذت تنقر على أصابعه وتغني... أظن أنني غبت عن وعيي عشر دقائق أو أكثر، وأنني نمت، ولكن الكلب الصغير نبح ففتحت عينيَّ، وعاد إليَّ شعوري كاملاً فأضاءني بنوره كله لحظةً، فانتفضت مذعوراً، وأنا أقول لنفسي: «لامبرت، إنني عند لامبرت»، وتناولت قبعتي وارتميت على معطفي.

قالت لي آلفونسين اليقظة:

ـ «إلى أين تذهب يا سيدي؟».

فأجبتها:

ـ أريد أن أنصرف، أريد أن أذهب، لا تمنعيني!

فقالت آلفونسين مؤيدةً بقوة وهي تندفع لتفتح لي باب الدهليز:

ـ نعم يا سيدي!

ثم هتفت تقول بصوت عالٍ حتى يُسمع كلامها في الدهليز كله:

ـ «ولكن المكان ليس بعيداً يا سيد، فلا داعي إلى ارتداء

Twitter: @ketab_n

الفروة. إنه قريب يا سيدي!».

فلما خرجت من الغرفة، انعطفتُ يمنةً. فصاحت آلفونسين تقول بكل ما تملك من قوة وهي تتشبث بمعطفي بأصابعها الطويلة المعروفة وتدلني باليد الأخرى على مكان في يسار الممر لم أكن في حاجة إلى الذهاب إليه البتة:

ـ «من هنا يا سيدي، المكان من هنا!».

ولكنني أفلت منها وركضت إلى باب الخروج نحو السلم. فأخذت آلفونسين تصرخ قائلة بصوت مكسَّر وهي تركض ورائي:

ـ «إنه ينصرف! إنه ينصرف! ولكنه سيقتلني يا سيدي، سيقتلني!».

ولكنني صرت على السلم، واستطعت أن أفتح الباب في أسفل رغم أنها كانت تلاحقني على الدرجات، ووثبت إلى الشارع، وسارعت أرتمي في أول عربة، ذاكراً للحوذي عنوان أمي...

4

لكن شعوري ما إن أضاء لحظةً حتى انطفأ. فلا أكاد أذكر الآن كيف نُقلت إلى بيت أمي، وهناك لم ألبث أن غبت عن الوعي على الفور تقريباً. وفي الغد، كما قيل لي هذا فيما بعد (وإنني لأتذكر ذلك أنا نفسي على كل حال) أضاء عقلي مرةً أخرى لحظة. فرأيتني في غرفة فرسيلوف على ديوانه، ورأيت حولي وجوه فرسيلوف وماما وليزا. وإني لأتذكر تذكراً واضحاً كل الوضوح كيف كلمني فرسيلوف عن تسرشتشيكوف والأمير، وكيف أراني رسالةً وحاول أن يهدئني. وقد رووا لي فيما بعد أنني كنت لا أنفك ألقي أسئلة مذعورة عن شخص أسميه لامبرت، ولا أنفك أسمع نباح كلب

Twitter: @ketab_n

صغير. ولكن هذا الشعاع الضئيل من الشعور لم يلبث أن أظلم، فلما كان المساء من ذلك اليوم الثاني كانت الحمى قد اجتاحتني اجتياحاً تاماً. ولكنني أحب أن أستبق الأمور فأذكر الواقعة التالية رغم أنني لم أستطع أن أعيها على الفور.

في ذلك المساء الذي طُردت فيه من عند تسرشتشيكوف، وحين هدأ في الصالة كل شيء، واستأنف تسرشتشيكوف اللعب، أعلن فجأة بصوت مدوٍ، أن خطأ مؤسفاً قد وقع: فالمال المفقود، أي الأربعمائة روبل، قد عثر عليه في كومة أخرى من المال، وأجريت حسابات البنك فاتضح أنها كاملة لم ينقص منها شيء. فإذا بالأمير، وكان قد بقي في الصالة، إذا به يقترب من تسرشتشيكوف ويلح عليه أن يعلن براءتي على رؤوس الأشهاد، وأن يعبِّر لي عدا ذلك عن اعتذاره كتابة. ورأى تسرشتشيكوف أن هذا الطلب مشروع، وتعهد أمام الجميع بأن يبعث إليّ في الغد رسالة إيضاح واعتذار. وقد زوَّده الأمير بعنوان فرسيلوف منذ الغد فعلاً، وتلقى فرسيلوف من تسرشتشيكوف رسالةً موجهةً إليَّ، ومعها مبلغ يزيد على ألف وثلاثمائة روبل، هو مالٌ لي نسيته على مائدة الروليت. كذلك انتهت قضية تسرشتشيكوف. وقد أسهم هذا النبأ المفرح في إبلالي من المرض حين عاد إليَّ شعوري.

أما الأمير فإنه حين رجع من صالة القمار كتب في تلك الليلة رسالتين، إحداهما إليَّ والثانية إلى الكتيبة التي كان ينتمي إليها والتي وقعت له فيها تلك الحادثة مع حامل الراية ستيبانوف. وقد بعث الرسالتين كلتيهما في الصباح. وبعد الرسالتين كتب تقريراً إلى رؤسائه، وجاء إلى الكولونيل في الصباح حاملاً تقريره بنفسه، فأعلن للكولونيل أنه «مجرم من مجرمي الحق العام، وشريك في

Twitter: @ketab_n

جناية تزييف أسهم، فهو لذلك يسلِّم نفسه للعدالة، ويطالب بأن يحكم عليه القضاء»، وفي الوقت نفسه سلَّم التقرير الذي يعرض فيه كل شيء كتابةً. فأودع السجن.

وإليكم نص الرسالة التي كتبها لي في تلك الليلة كلمةً كلمة:

عزيزي الغالي آركادي ماكاروفتش!

«إنني، وقد جرَّبت المخرج «العامي»، فقد فقدت الحق في أن أواسي نفسي أية مواساة بأنني استطعت أخيراً أن أعزم أمري على القيام بعمل شجاع وعادل. إنني مجرم في حق الوطن وفي حق السلالة التي أنحدر منها وأنتمي إليها، لذلك أعاقب نفسي بنفسي، أنا آخر أفراد هذه السلالة. لست أفهم كيف أمكنني أن أتشبث بغريزة البقاء الدنيئة، وأن أفكر لحظةً في أن أفدي نفسي بمالٍ أدفعه لشركائي في الجريمة. فلو فعلت ذلك لبقيت في نظر نفسي مجرماً رغم كل شيء. ولو ردَّ إليَّ أولئك الناس رسائلي لظللت قلقاً طوال حياتي، فلا راحة! ماذا يبقى لي لو فعلت ذلك؟ أعيش معهم، وأرافقهم طوال عمري: ذلك هو المصير الذي كان ينتظرني! فما كان لي أن أرضى بهذا. وأخيراً وجدت في نفسي من الصلابة أو ربما من اليأس ما يتيح لي أن أفعل ما أفعله الآن.

«لقد كتبت إلى كتيبتي السابقة ورفاقي القدامى مبرئاً ستيبانوف. وليس في هذا أي مأثرة تكفر عن ذنبي، ولا يمكن أن يكون فيه مأثرة تكفر عن ذنبي: وإنما هي وصية رجل سيموت غداً. هكذا يجب أن يُفهم عملي».

«اغفر لي أنني أشحت عنك في صالة القمار. ذلك أنني لم أكن في ذلك الوقت واثقاً بك. الآن وأنا رجل ميت، أستطيع أن أدلي بهذه الاعترافات. . . من العالم الآخر».

Twitter: @ketab_n

«مسكينة ليزا! إنها لم تعرف شيئاً عن هذا القرار. فقل لها ألا تلمني، بل أن تفكر. إنني لا أستطيع أن أبرىء نفسي، ولا أجد كلمات أشرح لها بها أي شيء. واعلم أيضاً، يا آركادي ماكاروفتش، أنني في صباح أمس، حين جاءت تزورني آخر مرة، كشفت لها عن خداعي، فاعترفت بأنني ذهبت إلى آنا آندرييفنا خاطباً. لم أستطع أن أبقي هذا السرَّ حملاً ثقيلاً على ضميري قبل قراري الأخير الذي كنت قد اتخذته، فلم يسعني إلا أن أكشف لها عنه حين رأيت حبها. وقد غفرت لي، غفرت لي كل شيء، لكنني لم أصدقها. ليس هذا منها غفراناً. فلو كنت في مكانها لما غفرت.

«تذكرني.

صديقك الأمير الأخير التعيس

سوكولسكي

وقد بقيت في سريري بلا شعور تسعة أيام تماماً.

Twitter: @ketab_n

الجُزءُ الثّالِث

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الأول

1

والآن فلنتكلم عن غير هذا تماماً.

الحق أنني أقول دائماً «فلنتكلم عن غير هذا». ثم إذا أنا أعود إلى الكلام عن نفسي. كنت قد أعلنت مع ذلك ألف مرة أنني لا أنتوي أبداً أن أحكي عن نفسي، وكنت قد عزمت أمري على ذلك جازماً حين بدأت تدوين هذه الأمور: إنني أدرك حق الإدراك أن ما يحدث لي لا يهم القارىء في شيء. فأنا أصف غيري وأريد أن أصف غيري، فإذا كان شخصي يعود فيندس تحت قلمي دائماً، فليس ذلك إلا خطأ يؤسف له، ويستحيل الإفلات منه رغم كل ما أملك من إرادة ورغبة. ومما يحز في نفسي خاصةً أنني حين أروي أحداث حياتي بمثل هذه الحرارة المتأججة كلها أوهم القارىء بذلك أنني لا أزال الآن كما كنت في ذلك الوقت. ولكن القارىء يتذكر على كل حال أنني هتفت أقول غير مرة: «آه... ليت المرء يستطيع أن يبدل الماضي وأن يبدأ كل شيء بداية جديدة!» فما كان لي أن أهتف ذلك الهتاف لولا أنني قد تبدلت الآن تبدلاً عميقاً، ولولا أنني أصبحت شخصاً آخر يختلف عن الشخص الأول كل الاختلاف. ذلك واضح وضوحاً قوياً. ولكن ليت القارىء يستطيع أن يتصور مدى ما أشعر به من ضيق حين أسوق جميع هذه

Twitter: @ketab_n

الاعتذارات وهذه المقدمات التي أضطر أن أدسَّها كلَّ لحظة في وسط هذه الصفحات التي أدونها.

ولأنتقل من بعد إلى الوقائع.

أفقت من غيبوبتي بعد تسعة أيام، أَفقت وقد بُعثت بعثاً جديداً، ولكنني لم أصلح. وكان انبعاثي حيوانياً على كل حال، إذا نحن فهمنا هذه الكلمة بمعناها الواسع، ولعل الأمر لو تمَّ الآن لجرى مجرى آخر. وكانت فكرتي أو عاطفتي لا تزال (كما كانت من قبل ألف مرة) تنصبّ على ضرورة أن «أتركهم» كلهم تركاً تاماً، تركاً حاسماً مطلقاً، لا كما حدث من قبل حين اتخذت هذا القرار ألف مرة دون أن أفلح في تنفيذه أبداً. يميناً لم أكن أريد أن أنتقم من أحد، رغم أنني كنت أشتكي منهم جميعاً. وكنت أهيىء نفسي للرحيل من دون اشمئزاز، ومن دون لعن، وإنما أريد أن تكون لي قوتي الشخصية، قوتي الحقيقية في هذه المرة، قوتي المستقلة «عنهم» جميعاً وعن العالم بأسره! إنني لا أسجل هذا الحلم كفكرة بل كإحساس عارم لا يغالب سيطر عليَّ في ذلك الوقت. وكنت لا أريد أن أصوغ ذلك الحلم في كلام ما بقيت راقداً في السرير. كنت أحس وأنا مريض خائر القوى راقد في غرفة فرسيلوف مهجور «منهم» جميعاً، كنت أحس مدى ما هويت إليه من عجز، فيؤلمني ذلك إيلاماً شديداً: كنت قشةً ملقاة على سرير، لا إنساناً! ولم يكن المرض وحده سبب ذلك، فما أشد ما أورثنيه هذا من عذاب! هكذا أخذ يصعد من أعماق كياني احتجاج قوي، فكنت أختنق في قرارة نفسي نوعاً من وقاحة مغالبة وتحدٍ شديد. لا أذكر أن عهداً من عهود حياتي قد حفل بمشاعر الاستعلاء والتكبر مثلما حفلت بها هذه الأيام الأولى من نقاهتي، أعني الفترة التي كانت فيها القشة ملقاة على السرير.

Twitter: @ketab_n

ولكنني كنت بانتظار تحقيق حلمي ألتزم الصمت، حتى لقد قررت ألا أفكر في شيء! كنت أسبر وجوههم محاولاً أن أحزر فيها كل ما كنت في حاجة إليه. وكان واضحاً أنهم هم أيضاً كانوا لا يحبون أن يسائلوني، ولا أن يظهروا بمظهر المستطلعين، وإنما هم يكلمونني في أمور ليست بذات بال. فكان هذا يرضيني ويحزنني في آن واحد. ولن أحلل هذا التناقض. وكنت أرى ليزا أقل مما أرى ماما، رغم أنها تجيء إليَّ كل يوم، وربما جاءت في اليوم مرتين. وقد استخرجت من شذرات من أحاديثهم ومن هيئتهم كلها أن لليزا هموماً ومتاعب كثيرة، وأنها تغيب عن البيت أحياناً كثيرة جداً بسبب مشاغلها، فكان مجرد تفكيري في أن لها «مشاغل» خاصة بها يجرح شعوري ويؤذي نفسي. ولكن هذه الإحساسات كانت إحساسات مرضية على كل حال، إحساسات فزيولوجية صرفة، فلا داعي إلى وصفها. وكانت تاتيانا بافلوفنا أيضاً تجيء إليَّ كل يوم تقريباً؛ ولئن لم تكن تعاملني برقة ولطف، فإنها لم تكن تشتمني كما كانت تفعل من قبل، وهذا أمر أغاظني كثيراً، حتى لقد عبَّرت لها عن غيظي بسذاجة فقلت لها: «أنت يا تاتيانا بافلوفنا تكونين مملة مضجرة إذا لم تنطقي بشتائم!» فإذا هي تجيبني بلهجة قاطعة: «لن أجيء إليك إذن!». وانصرفت. فسرَّني أنا أني طردت واحدة على الأقل.

ولكنني كنت أعذِّب أمي خاصة. كانت أمي هي التي تحنقني أكثر من غيرها. كانت قد استبدت بي شهوة الطعام استبداداً قوياً، فكنت أتذمر تذمراً شديداً من أن وجبتي تتأخر دائماً (وهذا ما لم يحدث في يوم من الأيام). وكانت أمي تتفنن في تخيل ما يرضيني. وقد جاءتني مرةً بالحساء، وأخذت تطعمنيه بيدها على عادتها،

Twitter: @ketab_n

فكنت أتذمر وأنا ألتهمه. وفجأة خجلتُ من تذمري وقلت لنفسي: «ربما كانت هي الوحيدة التي أحبها، ومع ذلك فهي التي أسومها سوء العذاب». ولكن فظاظتي لم تهدأ، ثم إذا بهذه الفظاظة تتحول إلى بكاء فجأة. فظنت المسكينة أنني أبكي حناناً ورقة، فمالت عليَّ وطفقت تقبلني. فصبرت، وتركت للزوبعة أن تنقضي، ولكنني في تلك اللحظة قد كرهت أمي في الواقع. والحق أنني قد أحببتها دائماً، وحتى في تلك اللحظة كنت أحبها، فليس صحيحاً أنني كرهتها، وإنما حدث عندئذ ما يحدث دائماً: أن الذي نحبه أكثر من غيره نعذبه قبل غيره.

والشخص الذي كنت أبغضه حقاً في تلك الأيام الأولى إنما هو الطبيب. كان هذا الطبيب شاباً متعجرف الهيئة، شرس اللهجة، بل قليل التهذيب. إن أمثال هذا الطبيب يصطنعون دائماً وضع من حقق في العلم اكتشافات خارقة مفاجئة بالأمس القريب، ولا يكون الأمس القريب قد شهد شيئاً ذا بال. ولكن هذا شأن «التافهين» و«العاميين». وقد صبرت عليه طويلاً ولكنني انفجرت أخيراً على حين بغتة، فأعلنت له أمام جميع من في الدار أنه يزعج نفسه في غير طائل، وأنني سأشفى بدون أن يكلف نفسه عناء مداواتي، وأنه رغم ما يتظاهر به من أنه واقعي، محشو العقل بالأوهام، وأنه لم يدرك حتى الآن أن الطب لم يشف أحداً من مرض في يوم من الأيام، وأنه في أغلب الظن جاهل جهلاً فاحشاً، «كسائر اختصاصيي هذا الزمان الذين يشمخون بأنوفهم كثيراً». وقد استاء الطبيب استياءً شديداً (فظهر بذلك على حقيقته)، ولكنه ظل يعودني. وقد أعلنت لفرسيلوف أخيراً أنني، إذا لم ينقطع الطبيب عن زيارتي، فلأقولنَّ له كلاماً أغلظ مما سبق أن قلته له عشرة

Twitter: @ketab_n

أضعاف. فأجابني أن قول كلام أغلظ ضعفين اثنين أمر مستحيل، فما بالك بكلام أغلظ عشرة أضعاف! فسرَّتني ملاحظة فرسيلوف هذه.

يا له من إنسان على كل حال! أقصد فرسيلوف. لقد كان وحده سبب كل شيء. ومع ذلك كان الوحيد الذي لم أغضب منه. وليست معاملته وحدها هي التي فتنتني، وإنما كان كل منا يحس أن عليه إيضاحات يجب أن يقدمها لصاحبه، فالأفضل لهذا السبب ألا يوضح أحد لأحد شيئاً قط. إنه لشيء ممتع في ظروف كهذه الظروف أن يعامل المرء رجلاً ذكياً! سبق أن قلت، في الجزء الثاني من روايتي، مستبقاً الأمور، أن فرسيلوف كلمني بإيجاز شديد عن رسالة بعثها إليَّ الأمير المعتقل، وعن تسرشتشيكوف واعتذاره لي، الخ. وإذ أنني كنت قد أزمعت الصمت، فقد ألقيت عليه، بأشد إيجاز ممكن، سؤالين أو ثلاثة أسئلة مقتضبة، فأجاب عنها إجابات واضحة دقيقة، ولكن دون أن تشتمل إجاباته على كلمات زائدة، ودون أن تشتمل على عواطف زائدة، وهذا أعلى قيمةً أيضاً. إن العواطف الزائدة هي ما كنت أخشاه في ذلك الحين.

ولست أقول شيئاً عن لامبرت، ولكن لا شك أن القارىء قد حزر أنني كنت أفكر فيه كثيراً. لقد تكلمت عن لامبرت أثناء الهذيان مراراً. ولكن حين أفقت من غيبوبتي، وألقيت بضع نظرات حولي، فإنني سرعان ما اعتقدت أن حكاية لامبرت لا تزال سراً، وأن أحداً لا يعرف عنها شيئاً، حتى فرسيلوف. فاغتبطت لهذا وانقضى خوفي. ولكن ما كان أشد دهشتي حين علمت فيما بعد أنني كنت مخطئاً في اعتقادي: لقد جاء لامبرت أثناء مرضي، غير

Twitter: @ketab_n

أن فرسيلوف لم يحدثني عن مجيئه بشيء، فاستنتجت من ذلك أنني الآن في نظر لامبرت قد انتقلت إلى العالم الآخر. ومع ذلك كنت أفكر فيه في كثير من الأحيان، أفكر فيه بغير اشمئزاز منه، بل أفكر فيه بمودة له، كأنني أحس فيه شيئاً جديداً يلبي ما أخذ ينشأ في نفسي من مشاعر جديدة وخطط جديدة. الخلاصة أنني قررت أن أفكر في لامبرت قبل أن أفكر في أي شيء آخر متى عقدت العزم على الشروع في التفكير. شيء غريب: لقد نسيت نسياناً تاماً أين يسكن، وفي أي شارع جرى كلُّ الذي جرى. كنت أتذكر كل شيء: الغرفة، آلفونسين، الكلب الصغير، الدهليز؛ حتى لقد كان يمكنني أن أرسم هذا كله لو شئت. ولكن أين جرت هذه الأحداث كلها؟ في أي شارع؟ في أية عمارة؟ لا أدري! نسيت نسياناً تاماً. والأغرب من هذا أنني لم أدرك ذلك إلا في اليوم الثالث أو الرابع من عودة شعوري إليَّ، أي بعد انقضاء مدة طويلة على شعوري بالقلق من لامبرت.

تلكم هي إذن إحساساتي الأولى بعد انبعاثي، لم أذكر منها إلا أكثرها سطحيةً، ولعلني لم أستطع أن أذكر منها الشيء الأساسي. والحق أن الشيء الأساسي لعله تحدد وتبلور في قلبي في ذلك الأوان نفسه؛ إنني لم أقض وقتي كله في الغضب والحنق من تأخر وصول حسائي. آه... إنني لأتذكر كم كنت حزيناً، وكم كان يستبد بي السأم أحياناً، ولا سيما حين أبقى وحيداً خلال مدة طويلة. كانوا قد لاحظوا، هم، أنني أضيق ذرعاً بهم وبشفقتهم، فكانوا يتركونني وحيداً فترات ما تنفك تزداد: إفراط في اللطف والذوق!

Twitter: @ketab_n

2

في اليوم الرابع من صحوي الكامل، كنت راقداً على سريري في نحو الساعة الثانية بعد الظهر، ولم يكن معي أحد. كان الجو رائقاً وكنت أعلم أن الشمس ستأفل بعد ثلاث ساعات، وأن شعاعاً مائلاً أحمر سيسقط على زاوية جداري، فيضيئها ببقعة متوهجة. كنت أعلم هذا من الأيام السابقة، وكنت أعلم أيضاً أن ذلك سيحدث بعد ساعة حتماً، فكان يقيني من ذلك يسخطني إلى حد الحنق الشديد. ولذلك رأيتني أنقلب إلى الجهة الأخرى بحركة متشنجة، فإذا أنا فجأةً، في الصمت العميق، أسمع هذه الكلمات على نحو واضح: «يا ربنا يسوع المسيح، يا إلهنا، ارحمنا» نُطقت هذه الكلمات بما يشبه الهمس، ثم انطلقت من صدر المتكلم زفرة عميقة، ثم عاد كل شيء إلى الصمت. فأنهضت رأسي بسرعة.

وكنت قبل ذلك، أمس، بل أمس الأول، قد لاحظت أن في غرفنا الثلاث، تحت، شيئاً خاصاً. فلا بد أن الغرفة الصغيرة التي كانت تقيم فيها ماما وليزا، على الجهة الأخرى من الصالة الكبيرة، تضم الآن شخصاً آخر. وكنت قد سمعت بعض الأصوات عدة مرات، في النهار وفي الليل، ولكن خلال لحظات قصار دائماً، لكن سرعان ما كان الصمت يخيم من جديد ساعات عدة، لذلك لم أحفل بالأمر ولا انتبهت إليه. وخطر ببالي أمس أن فرسيلوف هو الذي أحدث تلك الأصوات، لا سيما وأنه جاء إليَّ بعد لحظة. ومع ذلك كنت أعلم من أحاديثهم علم اليقين أن فرسيلوف قد انتقل أثناء مرضي إلى غرفة أخرى يبيت فيها. أما ماما وليزا فكنت أعلم منذ مدة طويلة أنهما انتقلتا كلتاهما (من أجل هدوئي وراحتي فيما

Twitter: @ketab_n

اعتقدت) إلى الطابق الأعلى، إلى «تابوتي» القديم، حتى لقد تساءلت بيني وبين نفسي ذات يوم: «كيف أمكنهما أن تقيما فيها كلتاهما؟». ثم هأنذا أتبيَّن فجأة أن غرفتهما التي كانتا تقيما بها إنما يسكنها اليوم شخص آخر، وأن هذا الشخص الآخر ليس فرسيلوف. وهأنذا، بخفة لم أكن أظنها في نفسي (إذ كنت أتصور حتى ذلك الحين أنني لا أملك أية قوة)، أُخرج ساقيَّ من السرير، وأدسهما في بابوجين، وألقي على كتفي ثوباً للمنزل رمادي اللون مصنوعاً من جلد الحمل كان على مقربة مني (ضحى به فرسيلوف)، وأسير عبر الصالون متجهاً إلى الغرفة التي كانت تسكنها أمي من قبل. إن ما رأيته هناك قد شدهني وأذهلني. لم أكن أتصور شيئاً مما رأيت، فوقفت في العتبة كالمتسمر.

إن في الغرفة شيخاً أشيب الشعر تماماً، له لحية بيضاء بياضاً هائلاً، كان واضحاً أنه مقيم هنا منذ مدة طويلة. ولم يكن الشيخ جالساً على السرير، وإنما هو جالس على كرسيٍّ ماما، مستند إلى السرير بظهره فحسب؛ وكان عدا ذلك منتصب الجذع في جلسته، فكأنه ليس في حاجة إلى أي استناد رغم ما به من مرض بيِّن لا يخفى. وكان يرتدي فوق قميصه سترةً مبطنة بفراء خروف، ويغطي ركبتيه بشالٍ لأمي، وينتعل بابوجين. لا بد أنه طويل القامة. وهو عريض المنكبين، تدل هيئته على شكيمة قوية، رغم مرضه ورغم شيء من الشحوب والنحول؛ وهو بيضوي الوجه، شعره غزير ولكنه ليس طويلاً جداً؛ ويبدو أنه تجاوز السبعين من عمره. وعلى مقربة منه، فوق مائدة صغيرة في متناول يده، ترقد ثلاثة كتب أو أربعة، ونظارتان من فضة. فما إن أبصرته حتى حزرت من هو، رغم أنني لم يخطر ببالي لحظةً واحدةً أن ألقاه، ولكنني

Twitter: @ketab_n

لم أستطع أن أفهم كيف أمكن أن يقضي هذا الوقت كله بجواري مستخفياً هذا الاستخفاء الذي بلغ من الشدة أنني لم يدر في خلدي وجوده.

لم يتحرك حين رآني، وإنما نظر إليَّ ملياً بصمت، ونظرت إليه أنا كذلك، مع فارق واحد هو أنني أظهرت دهشةً شديدة، أما هو فلم يظهر أية دهشة. حتى إنه بعد أن تفرس فيَّ خلال خمس ثوان أو عشر، ابتسم فجأة، بل ضحك ضحكة خفيفة لا تكاد تدرك، ضحكة سرعان ما انقضت، ولكن بقي أثرها المضيء الفرح في وجهه، ولا سيما في عينيه، الزرقاوين جداً، المشعتين، الواسعتين، اللتين يعلوها حاجبان منتفخان متهدلان من الشيخوخة، وتحيط بهما غضون صغيرة لا نهاية لعددها. إن ضحكته خاصةً هي التي أثرت في نفسي.

إنني أرى أن الإنسان حين يضحك يكون منظره منفِّراً في أكثر الأحيان. فالضحك يبرز في العادة لدى الناس نوعاً من العامية والتدني، وإن كان الضاحك لا يعرف شيئاً عن الأثر الذي يحدثه في نفوس الآخرين. إنه يجهل هذا الأثر جهل المرء بشكل وجهه أثناء النوم. فمن النائمين من تبقى وجوههم ذكيةً، ومنهم من تصبح أثناء النوم غبيةً فمضحكةً رغم أنهم أذكياء. لا أدري سبب هذه الظاهرة. كل ما أريد أن أقوله هو أن الضاحك، كالنائم، لا يعرف عن وجهه شيئاً في أكثر الأحيان. هناك كثرة كبيرة من الناس لا تجيد الضحك البتة. والحق أن الأمر ليس أمر إجادة يحصِّلها المرء بالمران، وإنما الضحك موهبة يؤتاها المرء فطرةً، فإذا أراد أحد أن يحصِّل هذه القدرة على إجادة الضحك كان عليه أن يربي نفسه تربية جديدة، وأن يحسِّن ذاته، وأن ينتصر على غرائزه السيئة، فإذا فعل ذلك فقد يتحسن ضحكه. ومن الناس من يفضحهم ضحكهم، فمتى رأيتهم

Twitter: @ketab_n

ضاحكين حزرت فوراً ما تخبئه بطونهم. فرب ضحكة ذكية حقاً ثم هي تنفرك مع ذلك أحياناً. إن الضحك يقتضي الصراحة قبل كل شيء: فأين الصراحة في البشر؟ والضحك يقتضي نفساً طيبة كريمة، والناس في أكثر الأحيان إنما يصدرون في ضحكهم عن خبث وشر. والضحك الصريح الذي لا شرّ فيه فرح: فأين الفرح في زماننا هذا وأين الناس الذين يعرفون كيف يفرحون؟ (هذه الملاحظة عن الفرح في زماننا إنما سمعتها من فرسيلوف فحفظتها). فرح الإنسان هو السمة التي تكشف عن خلقه أكثر من سائر سماته، إلى جانب رجليه ويديه. هناك طباع لا تستطيع أن تنفذ إليها، فإذا اتفق لأحد الذين يملكون طبعاً من هذه الطباع أن انفجر يضحك أمامك ضحكاً صريحاً ذات مرة، رأيت طبعه مبسوطاً أمام بصرك فوراً. لا أحد إلا أولئك الذين ينعمون برقيّ رفيع سعيد، يمكن أن يفرح فرحاً معبراً ينتقل للغير، فرحاً طيباً لا سبيل إلى مقاومة فتنته. ولست أقصد هنا رقيّ الذكاء والعقل بل رقيّ الطبع والخلق، أعني رقيّ الإنسان كله جملةً. لذلك إذا أردت أن تدرس امرأ وأن تعرف نفسه فلا تنتبه إلى طريقته في الصمت، أو في الكلام، أو في البكاء، أو حتى في تأثره بأنبل المعاني والأفكار؛ وإنما أنظر إليه حين يضحك. فإذا أحسن الضحك فهو امرؤ طيب. وعليك أن تلاحظ الفروق الطفيفة: يجب مثلاً ألا يبدو لك ضحكه غبياً بحال من الأحوال مهما يكن هذا الضحك صريحاً ومهما يكن بريئاً وساذجاً. فمتى لاحظت في ضحكه أية علامة من علامات الغباء فاعلم أنه إنسان محدود العقل، مهما يحفل عقله بأفكار كثيرة. وإذا لم يكن ضحكه غبياً، لكنه بدا لك هزلاً على حين فجأة، فاعلم أن هذا الإنسان لا يحترم نفسه احتراماً حقيقياً، أو لا يحترم نفسه احتراماً كاملاً. وإذا كان هذا الضحك معبراً وينتقل

Twitter: @ketab_n

للغير ولكن بدا لك عامياً مبتذلاً فاعلم أن طبيعة الرجل عامية، وأن كل ما تكون قد لاحظته فيه قبل ذلك من نبل وسمو إنما كان مقصوداً أو مصطنعاً أو مستعاراً على غير شعور منه، وأن الرجل سيرتد حتماً إلى طبيعته السيئة، فيهتم بما يعود عليه «بأرباح»، وينبذ آراءه السمجة الكريمة نبذاً لا هوادة فيه ولا رحمة، ويعدُّها من أخطاء الشباب وحماساته.

إذا كنت أسهب هذا الإسهاب الطويل في الكلام عن الضحك مضحياً بمواصلة سرد قصتي فلست أفعل ذلك استطراداً بغير نية. إنني أعد هذه الآراء نتيجةً من أثمن النتائج التي استخلصتها طوال حياتي. وإنني أوصي بها الفتيات المخطوبات اللواتي يوشكن أن يتزوجن الخطيب ولكنهن ما زلن يتفرسن فيه بشك وحيرة ولمَّا يعزمن أمرهن بعد. ألا لا تسخروا من مراهق يتصدى لإعطاء دروس في أمور الزواج التي لا يفهم منها شيئاً. إنني أعرف شيئاً واحداً لا أكثر: هو أن الضحك أضمن مقياس تُعرف به النفس. انظروا إلى الأطفال: إن بعضهم يحسنون الضحك إحساناً تاماً، وهذا هو السبب في أن المرء لا يستطيع أن يقاوم فتنتهم. إن الطفل البكّاء كريه إلى نفسي، أما الطفل الذي يضحك ويبتهج فإنه شعاع من الجنة، وإطلالة على المستقبل الذي سيصبح فيه الإنسان آخر الأمر طاهراً طهارَة طفل، ساذجاً سذاجة طفل.

ولقد كان في الضحكة العارضة التي ضحكها ذلك الشيخ شيء من طفولة لا حدود لفتنتها. فسرعان ما دنوت منه.

3

قال لي بلطف وهو يشير إلى مكان بقربه، ويرمقني بتلك النظرة

Twitter: @ketab_n

المشعة نفسها:

ـ اجلس، إجلس لحظةً، فلا تزال ساقاك ضعيفتين.

فجلست إلى جانبه وقلت له:

ـ إنني أعرفك. أنت ماكار إيفانوفتش.

ـ نعم يا عزيزي. حسن أنك تقف الآن على قدميك. إنك شاب. هذا حسن لك. للشيخ القبر، وللشاب الحياة.

ـ هل أنت مريض؟

ـ نعم يا صديقي، الساقان خاصةً. حملتني ساقاي المسكينتان حتى وصلت إلى هنا، ولكن ما لبثتا أن تورمتا منذ جلست. بدأ هذا يوم الخميس الماضي، حين وقف الترمومتر (ملاحظة: يقصد حين تجلد من البرد). كنت قبل ذلك أدهنهما بمرهم. الدكتور لشتن أدموند كارلوفتش هو الذي وصف لي ذلك المرهم بموسكو منذ ثلاث سنين، وكان ذلك المرهم ينفعني كثيراً. ومنذ أمس، سرى الوجع إلى الظهر، حتى لكأن الكلاب تنهش ظهري نهشاً... وصرت لا أنام الليل...

قاطعته قائلاً:

ـ وكيف لا يُسمع لك صوت هنا البتة؟

فنظر إليَّ وبدا مفكراً، ثم أضاف يقول كأنما وافته ذكرى مباغتة:

ـ حذار أن توقظ أمك. لقد ظلت تضطرب حولي طوال الليل، ولكن بدون أن يُسمع لها أي صوت، كما لا يسمع صوت لفراشة. وهي الآن ترتاح.

وتنهد قائلاً:

ـ شيء حزين أن يكون المرء شيخاً مسكيناً. لا أدري بمن تتشبث روحي، ولكنها لا تزال صامدة، وهي سعيدة بأن تبقى في

Twitter: @ketab_n

هذا العالم، بل لو كان عليها أن تستأنف حياتها كلها على هذه الأرض لما جزعت من ذلك. ولكن لعل مثل هذه الفكرة إثم.

ـ لماذا تكون إثماً؟

ـ هذه الفكرة حلم، وعلى الشيخ أن يمضي إلى نهايته. نعم إن استقبال الموت بتذمر أو استياء إثم كبير. على كل حال، إذا كان حب الحياة ناشئاً عن فرح روحي، فأظن أن الله سوف يغفره حتى لشيخ. يصعب على الإنسان أن يعرف الفرق بين ما هو إثم وما ليس بإثم. هذا سر يفوق العقل الإنساني. وعلى الشيخ أن يكون دائم الرضى، وأن يموت مغموراً بضياء روحه، سعيداً بما قضى من أيام، متطلعاً إلى ساعته الأخيرة، فرحاً بالرحيل كسنبلة تنضم إلى باقة السنابل، بعد أن حقق سرَّه.

ـ أراك تتكلم دائماً عن السر. فما الذي تعنيه بقولك: «حقق سره»؟

سألته هذا السؤال وأنا ألقي نظرة على الباب. كنت سعيداً بأننا وحيدان، وأن كل ما حولنا سكون وهدوء. وكانت الشمس تسطع قوية على النافذة قبل أفولها. وكان الشيخ يتكلم بشيء من التفخيم وبدون دقة كأنه كان فرحاً بوجودي حقاً. ولكنني لاحظت أنه يعاني من حمّى لا شك فيها، بل يعاني من حمى قوية. وكنت مريضاً أنا أيضاً، وكنت أشعر بحمى كذلك منذ دخلت عليه. قال:

ـ ما هو السر؟ كل شيء سر يا صديقي. سر الله موجود في كل مكان. كل شجرة. كل عشبة تشتمل على سر. أن يغرد طير صغير، وأن تسطع النجوم متلألئة في الليل، فذلك كله سر، ذلك كله سر واحد. ولكن ما ينتظر نفس الإنسان في العالم الآخر هو سر الأسرار، هو أكبر الأسرار. هكذا يا صديقي!

Twitter: @ketab_n

ـ لا أدري ماذا تعني. . . وثق أنني لا أقول هذا الكلام مناكدةً لك، وثق أنني أؤمن بالله. ولكن هذه الأسرار جميعها قد كشف عنها العقل منذ مدة طويلة، وما لم يكتشفه العقل فسوف يكتشفه يوماً ـ هذا مؤكد حتماً ـ وربما اكتشفه في وقت قريب. عالم النبات يعرف تماماً كيف تنبت الشجرة، وعالم الفيزيولوجيا وعالم التشريح يعرفان لماذا يغرد الطائر، أما النجوم فقد أحصى عددها، بل حُسبت كل حركة من حركاتها حتى ليمكن التنبؤ بظهور أي مذنب قبل ألف سنة من ظهوره بخطأ لا يتجاوز دقيقة واحدة. وحتى تركيب أبعد الكواكب صار الآن معروفاً. خذ مجهراً ـ المجهر عدسة مكبِّرة تضخم الأشياء مليون مرة ـ وانظر في قطرة ماء. ولسوف ترى في قطرة الماء عالماً كاملاً يعج بالمخلوقات الحية، وكان ذلك سراً فاكتشفناه.

ـ سمعت أناساً يتكلمون عن هذا مراراً كثيرة يا بني. لست أنكر أن ذلك شيء عظيم مدهش. كل شيء وُهب للإنسان بإرادة الله. ليس عبثاً أن أعطى الله الإنسان نسمة الحياة: «عش واعرف».

ـ هذه معان تلوكها جميع الألسن. ما أنت مع ذلك بعدو من أعداء العلم، ما أنت كهنوتي؟ أعني. . . لا أدري هل تفهم. . .

ـ لا يا بني، لقد احترمت العلم دائماً منذ أن كنت صبياً، وإذا كنت لا أعرف من العلم شيئاً فإنني لا أناصبه العداء. مالم يوهب لنا قد وُهب لآخرين. ولعل في هذا خيراً: كل امرىء ميسر لما خلق له. ذلك أن العلم يا بني ليس دائماً ميزة. فمن الناس من ينقاد للرغبة في إدهاش العالم، فلو كنت عالماً فقد أرغب في ذلك أكثر من سائر البشر. أما وأنني جاهل فكيف يمكنني أن أتباهى؟ ولكنك أنت شاب مليء ذكاء. وذلك قدرك. فعليك بالدراسة.

Twitter: @ketab_n

حاول أن تعرف كل شيء، فإذا لقيت رجلاً زنديقاً أو رجلاً تافهاً كان في وسعك أن ترد عليه، ولا يغرنَّك بأقوال باطلة تعكر عقلك الغض. أما تلك العدسة التي جئت على ذكرها فقد رأيتها منذ مدة ليست بالطويلة كثيراً.

قال ذلك واسترد أنفاسه وتنهد. ولا شك أن مجيئي إليه قد سرَّه سروراً عظيماً. كانت تعتمر في نفسه حاجة قوية إلى البوح، حاجة تكاد تكون مرضية. زد على ذلك أنني لا أظنني مخطئاً إذا قلت أنه كان في بعض اللحظات ينظر إليَّ نظرات تزخر بعاطفة قوية: كان يضع يده على يدي بحنان، ويلاعب كتفي... ولكن يجب أن أعترف أنه كان في لحظات أخرى يبدو كمن نسيني نسياناً تاماً، فكأنه وحيد في الغرفة، فإذا واصل كلامه بحماسة كان كمن يكلم نفسه.

تابع يقول:

ـ إن في دير جناديفا ـ بوستين، يا صديقي، رجلاً عظيم الذكاء، نبيل الأصل، واسع الثراء، برتبة ليوتنان كولونيل. لقد امتنع هذا الرجل عن الزواج منذ كان يعيش في المجتمع. وهو الآن في الدير منذ قرابة عشر سنين، انفصل عن الناس حباً بالسكون والوحدة وأراح حواسه من أباطيل الحياة الاجتماعية. إنه يلتزم جميع قواعد الحياة الرهبانية، ولكنه لا يريد أن يرتدي مسوح الرهبان. وما أكثر ما عنده من كتب يا صديقي! إنني لم أر هذا القدر من الكتب في أي مكان إلا عنده! ثمنها يبلغ ثمانية آلاف روبل. هو قال لي ذلك. اسمه بطرس فالريانتش. وقد علَّمني أشياء كثيرة في فترات مختلفة، فطالما كنت أحب أن أصغي إليه. قلت له ذات مرة: «كيف يا سيدي وأنت رجل عظيم الفكر يعيش منذ عشر سنين في

Twitter: @ketab_n

طاعة النظام وهجر الإرادة والتنازل عن الرغبة، كيف لا تتمنى أن ترتدي المسوح فتزداد كمالاً؟» فقال لي: «كيف يا شيخ تجرؤ أن تزعم لي فكراً عظيماً؟ لعل فكري هو الذي أسرني واستعبدني بدلاً من أن أروِّضه وأسيطر عليه. وما هذا الذي تقوله عن طاعتي؟ لعلني منذ مدة طويلة قد فقدت القصد والاعتدال! وتتكلم أيضاً عن هجري إرادتي وتنازلي عن رغبتي؟ فاعلم إذن أنني مستعد لأن أدع على الفور مالي، وأن أردَّ رتبي، وأن أضع على هذه المائدة جميع أوسمتي... ولكن غليوني... هأنذا منذ عشر سنين أخشى ألا أستطيع الاستغناء عنه! فأيَّ راهب يمكن أن أكون، وأين هجر الإرادة الذي تمدحه فيَّ؟» دُهشت عندئذ من هذا التواضع. وقد مررت بذلك الدير في الصيف الماضي يوم القديس بطرس ـ أراد الله لي ذلك ـ فماذا رأيت في الحجرة؟ رأيت ذلك الشيء الذي حدثتني عنه: مجهراً كان الرجل قد استقدمه من الخارج وتحمل في سبيل ذلك نفقات ضخمة. قال لي: «انتظر قليلاً، سوف أريك شيئاً مدهشاً لم تره في حياتك حتى الآن. هل ترى هذه القطرة من الماء؟ إنها صافية رائقة كدمعة. فانظر إذن إلى ما في داخلها. لتجدنَّ أن العلماء سيكشفون قريباً عن جميع أسرار الرب... فلا يدعون منها واحداً». هذا ما قاله وقد حفظته. وكنت أنا قد نظرت في المجهر قبل ذلك بخمسة وثلاثين عاماً عند مولانا الكسندر فلادميروفتش مالجاسوف، خال آندريه بتروفتش، الذي آلت أملاكه بعد وفاته إلى آندريه بتروفتش. لقد كان سيداً خطير الشأن، وكان جنرالاً كبيراً، وكان يملك رهطاً كبيراً من كلاب الصيد، وقد عملت عنده صياداً بالكلاب مدة طويلة. وكان قد أحضر هو أيضاً هذا المكروسكوب، فكان يدعو جميع الناس بعضاً وراء بعض،

Twitter: @ketab_n

رجالاً ونساءً، للنظر فيه، عارضاً تحت عدسته قملةً وبقة ورأس دبوس وشعرة وقطرة ماء. ما أكثر ما تسلينا وتضاحكنا! كنا نخاف أن نقترب من المكروسكوب، ولكننا كنا نخاف مولانا أيضاً إذا نحن لم نقترب، لأنه كان شديد الغضب. وكان بعضنا لا يعرف أن ينظر، فهم يغمضون أعينهم فلا يرون شيئاً. وكان آخرون يصرخون جزعاً وهلعاً. حتى أن العمدة سافين ماكاروف وضع يديه على عينيه صارخاً: «اصنع بي ما شئت فلن أنظر!»، فانطلق الضحك من كل صوب! كنت إذن قد رأيت هذا المكروسكوب قبل ذلك بمدة طويلة، قبل ذلك بأكثر من خمسة وثلاثين عاماً، كنت قد رأيت هذه المعجزة، ولكنني لم أقل هذا لبطرس فالريانوفتش، إذ كان يسره سروراً عظيماً أن يرينيها. حتى لقد تظاهرت بأنني أدهش وأرتاع. فتركني لحظةً ثم سألني: «فما قولك يا شيخ؟». قلت وأنا أنتصب: «الرب قال: كن يا ضياء فكان الضياء». فأجابني فجأةً: «لعل الظلمات هي التي كانت!» قال ذلك بطريقة غريبة دون أن يبتسم. وشعرت في تلك اللحظة باستغراب، أما هو فقد كاد يغضب ثم لم يقل بعدئذ شيئاً.

قلت له:

ـ الأمر بسيط جداً، إن صاحبك بطرس فالريانوفتش يقيم في الدير ليأكل كوتيا ويركع ويسجد، لكنه لا يؤمن بالله، وأنت إنما وقعت عليه وهو في لحظة من لحظات صراحته تلك. هذا كل شيء، ثم إنه شخص عجيب جداً: فلا شك أنه رأى هذا المكروسكوب عشر مرات، فلماذا جنَّ به في المرة الحادية عشرة؟ هذه حساسية عصبية... أغلب الظن أنه اكتسبها في الدير.

قال الشيخ باقتناع:

Twitter: @ketab_n

ـ إنه رجل طاهر القلب رفيع الفكر، وليس زنديقاً. إن له عقلاً واسعاً، ولكن قلبه قلق. وما أكثر أمثاله الذين يفدون علينا من عند هؤلاء السادة العلماء. ثم اسمع ما سأقوله لك: إن الرجل يعاقب نفسه. فلاحظ هؤلاء الناس، ولا تعذبهم، واذكرهم في صلواتك قبل النوم، لأنهم إنما يبحثون عن الله. هل تصلي قبل أن تنام؟

ـ لا. أنا أعتقد أن الصلاة طقس من الطقوس السخيفة لا طائل منه. ولكن يجب أن أعترف لك أن صاحبك بطرس فالريانوفتش يعجبني: فهو على الأقل ليس خرقة بل رجلاً، وهو يشبه بعض الشبه رجلاً آخر قريباً منا نعرفه كلانا.

لم ينتبه الشيخ إلا إلى الجزء الأول من جملتي. وأردف يقول:

ـ خطأ منك يا صديقي ألا تصلي. الصلاة شيء حسن يبهج القلب عند النوم وعند الصحو في الصباح وحين يستيقظ المرء في الليل. أنا أقول لك هذا. في صيف من الأصياف، في شهر تموز (يوليه)، كنا نحث الخطى نحو دير «العذراء» احتفالاً بعيد. فكلما اقتربنا من المكان ازداد عددنا، فإذا نحن نصبح مائتي شخص تقريباً، مسرعين إلى تقبيل الرفات المقدس للشهيدين آنيكي وجريجوار. كنا قد قضينا الليل في حقل من الحقول، وفتحت عينيَّ في الفجر حين كان الجميع لا يزالون نائمين وحين لم تكن الشمس قد خرجت بعد من الغابة. رفعت رأسي يا بني، وشملت الأفق بنظرة وتنهدت: كان كل شيء جميلاً جمالاً لا يوصف! كل شيء هادىء، الهواء نسيم، العشب ينبت ـ أنبت يا عشب الرب... والطائر الصغير يغرد ـ غرِّد يا طائر الرب... والطفل الصغير يزقزق على ذراعي أمه ـ ليحرسك الله أيها الرجل الصغير، اكبر وكن سعيداً! لعلني أدركت الجمال يومئذ أول مرة من حياتي! وعدت

Twitter: @ketab_n

أرقد، ونمت نوماً ما كان أخفه وأحلاه! العالم جميل يا صديقي! إذا تحسنت صحتي فسوف أستأنف طوافي متى طلع الربيع. إذا كان هناك أسرار، فمرحباً بالأسرار. صحيح أن الأسرار ترهب القلب وتثير فيه العجب، ولكن هذا الخوف يبهج القلب أيضاً: «كل شيء متجمع فيك أيها الرب، أنا نفسي موجود فيك، فخذني إليك!».

وأضاف يقول برقة وحنان:

ـ لا تتململ يا فتى! لأن يكون سر فذلك أجمل.

ـ «لأن يكون سر فذلك أجمل...». سوف أتذكر هذه الكلمات. الأسرار ترهب القلب، كما عبرتَ عن ذلك تعبيراً غير صحيح، ولكنني أفهم... إن ما يدهشني هو أنك تعرف وتدرك أموراً أكثر مما تستطيع التعبير عنها. ولكن كأنك تتكلم وأنت في حالة هذيان...

أفلتت مني هذه الجملة وأنا أرى عينيه المحمومتين ووجهه الشاحب. ولكن أظن أنه لم يسمعني.

واستأنف كلامه فقال كمن يتابع كلامه الذي انقطع:

ـ هل تعرف يا بني الصغير أن لذكرى الإنسان على هذه الأرض حداً؟ إن هذا الحد لا يتجاوز مائة سنة. قد تبقى ذكرى المرء عند أولاده أو أحفاده الذين رأوا وجهه. وإذا بقيت ذكراه مدة أطول، فإنما تكون بعد ذلك ذكرى شفهية، ذكرى عقلية، لأن جميع الذين رأوا وجهه الحي سوف يمضون وسوف يخفي العشب قبره في المقبرة، وتنكسر الشاهدة، وينساه جميع الناس حتى أعقابه، وأخيراً ينسون اسمه أيضاً، لأن الذين تبقى أسماؤهم في ذاكرة البشر قلة قليلة جداً. لا بأس! فلينس أعزائي. ولكنني سأظل أنا

Twitter: @ketab_n

أحبهم من قرارة قبري. أيها الأولاد الصغار، إنني أسمع أصواتكم الفرحة، وأسمع أصوات وقع أقدامكم على قبور آبائكم في يوم عيد الأموات، وسوف أصلي من أجلكم، وسوف أنزل إليكم في أحلامكم... إن الحب يبقى بعد الموت!...

كنت في حمى مثله. وبدلاً من أن أنصرف أو أن أحضه على أن يهدأ ويسكن، أو أن أرقده فوق سريره، لأنه كان يبدو في حالة هذيان كامل، أمسكت يده فجأةً، وقلت له وأنا أميل عليه وأشد على يده، قلت له بهمس متأثر ودموع في القلب:

ـ إنني سعيد برؤيتك. لعلني كنت أنتظرك منذ مدة طويلة. لا أحب أحداً: ليس في أحد منهم جمال... لن أتبعهم، ولا أعرف إلى أين أذهب، فسأمضي معك...

ولكن شاء حسن الحظ أن تدخل أمي في تلك اللحظة. فلولا ذلك لما عرفت كيف كان يمكن أن ينتهي الأمر. دخلت دخول شخص استيقظ الآن وأوجس خطراً. وكانت تحمل بيدها قارورة وملعقة. فلما رأتنا صاحت تقول:

ـ آ... توقعت هذا! لقد نسيت أن أجرِّعك جرعة الكينا فهاأنت ذا قد اعترتك حمى شديدة! نمتُ مدة طويلة يا ماكار إيفانوفتش، يا عزيزي!

نهضت وخرجت. وأعطته أمي جرعته وأرقدته على السرير. واندسستُ أنا أيضاً في سريري، ولكنني كنت مضطرباً أشد الاضطراب. لقد رجعت إلى غرفتي وأنا أشعر بدهشة كبيرة، وأخذت أفكر في هذا اللقاء بكل ما أملك من قوة. لا أدري ماذا كنت أنتظر من هذا التفكير. وأغلب الظن أنني كنت أفكر في الأمور تفكيراً مشوشاً لا تسلسل فيه، وأن ما كان يتلاحق في ذهني

Twitter: @ketab_n

لم يكن أفكاراً بل شذرات أفكار. كنت في اضطجاعي متجهاً برأسي إلى الجدار، فإذا أنا أرى البقعة المضيئة المتوهجة التي أسقطتها الشمس الغاربة على الزاوية، والتي كنت أنتظرها من قبل ساخطاً لاعناً. إنني أتذكر أن نفسي كلها قد اشتعلت حماسة في تلك اللحظة، كأن شعاعاً جديداً قد نفذ إلى قلبي. إنني أتذكر تلك اللحظة العذبة، ولا أريد أن أنساها. لم تكن إلا لحظة أمل جديد، وقوة جديدة... كنت قد بدأت فترة النقاهة طبعاً، فمن الجائز إذن أن تلك النوبات لم تكن إلا نتيجة لا مفرَّ منها لحالة أعصابي، ولكنني ما زلت إلى اليوم أؤمن بذلك الأمل المضيء الذي ملأ نفسي. ذلكم ما أردت اليوم أن أسجله وأن أحفظه. صحيح أنني كنت أعلم حق العلم أنني لن أصحب ماكار إيفانوفتش لأجوب الأرض مثله، وأنني كنت أجهل أنا نفسي ماذا كان ذلك التطلع الجديد الذي استولى على نفسي، ولكنني كنت قد نطقت بتلك الجملة، ولو في الهذيان: «ليس فيهم جمال!» قلت أحدث نفسي مفتتناً: «انتهى الأمر، سوف أبحث منذ هذه اللحظة عن الجمال، وهم ليس فيهم جمال، فسأتركهم». وسمعت حفيفاً ورائي، فالتفت. إنها ماما، تميل عليَّ وتنظر في عينيَّ مستطلعةً على خجل. فأمسكت يدها فجأة، وسألتها دون أن أتوقع أنا نفسي ماذا كنت سأقول:

ـ لماذا لم تقولوا لي شيئاً عن ضيفنا العزيز؟

فإذا بقلقها كله يختفي بغتةً، وإذا الفرح يضيء وجهها، ولكنها لم تجبني إلا بهذه الكلمات:

ـ لا تنس أيضاً ليزا، ليزا. إنك قد نسيت ليزا.

قالت ذلك بسرعة وقد احمر وجهها، وهمَّت بالانصراف

Twitter: @ketab_n

مستعجلةً، لأنها كانت هي أيضاً تكره أن تبسط عواطفها. إنها من هذه الناحية تشبهني، أعني أنها مغلقة على نفسها عَفة. هذا عدا أنها ما كانت لتريد أن تشرع في حديث معي عن هذا الموضوع: ماكار إيفانوفتش. كان ما استطعنا أن نتبادله من نظرات كافياً. ولكنني، أنا الذي أكره أن أعرض عواطفي، قد احتجزتها عنوةً بإحدى يديَّ، وأخذت أنظر في عينيها برقة، وأضحك برفق ولطف. وألامس باليد الأخرى وجهها العزيز وخديها الخاسفتين. فمالت عليَّ، ووضعت جبينها على جبيني، ثم قالت لي فجأة وهي تنتصب مشرقة المحيا:

ـ أبلَّ من مرضك فأكون لك شاكرة. إنه مريض، مريض جداً... إن حياته بين يدي الرب... آه! ما هذا الذي قلته؟ مستحيل!...

وانصرفت. لقد ظلت طوال حياتها خائفةً مرتعدة زاخرة النفس بالاحترام والتعظيم والتكريم لزوجها الشرعي، الجواب ماكار إيفانوفتش، الذي غفر لها إلى الأبد بنفس كبيرة وقلب عظيم.

Twitter: @ketab_n

الفصل الثاني

1

أنا ما نسيت ليزا. أخطأت ماما الظن. لقد رأت هذه الأم الحساسة أن هناك نوعاً من الفتور بين الأخ وأخته، ولكن هذا لم يكن وهناً طرأ على ما يربطهما من عاطفة، وإنما كان ضرباً من الغيرة. وهأنذا أشرح ما في نفسي ببضع كلمات.

إن المسكينة ليزا قد انتابها منذ اعتقال الأمير نوع من الاستعلاء المتغطرس، والتكبر الشديد الذي لا يكاد يحتمل. ولكن كل من في البيت قد أدرك الحقيقة، فعرف أنها تعاني عذاباً قوياً، ولئن حزنت أنا في أول الأمر وقطبت حاجبي، فإنما كان مرد ذلك إلى ما أتصف به من سرعة التأذي وفرط الحساسية، وهما أمران زاد المرض حدتهما عندي، أو هذا ما أقدِّره الآن. ولكنني لم أنقطع عن حب ليزا أبداً. بالعكس: اشتد في نفسي ما كنت أحمله لها من حب. كل ما هنالك أنني لم أشأ أن أقوم بالخطوة الأولى، رغم أنني أدركت أنها هي أيضاً لن تقوم بالخطوة الأولى في حال من الأحوال، مهما كلفها الأمر.

إن ليزا، منذ عُرفت قصة الأمير فور اعتقاله، سارعت تتخذ منا ومن جميع الناس موقف إنسان لا يمكن أن يحتمل أن يرثي أحد لحاله أو أن يشفق عليه أو أن يسري عنه بمحاولة تبرئة الأمير.

Twitter: @ketab_n

بالعكس: أصبحت، مع حرصها على ألا تفصح عما بنفسها وألا تجادل أحداً قط، تصطنع هيئة من يمجد سلوك خطيبها المسكين ويعده بطولة ما بعدها بطولة. لكأنها كانت تقول لنا جميعاً في كل لحظة (دون أن تنطق بكلمة، أكرر هذا): «لا أحد منكم يمكن أن يفعل ما فعله هو أبداً. لا أحد منكم يمكن أن يسلم نفسه مدفوعاً إلى ذلك بدواعي الشرف والواجب. ذلك أنكم لا أحد منكم يملك وجداناً يبلغ هذا المبلغ من الرهافة والطهارة. أما عن أعماله فأي إنسان من البشر لا تثقل على ضميره سيئة من السيئات؟ الآخرون يكتمون ويخفون أما هو فقد آثر أن يهلك على أن يفقد قيمته في نظر نفسه». ذلك ما كانت تعبِّر عنه كل حركة من حركات ليزا تعبيراً واضحاً. وأظن أنني لو كنت في مكانها لتصرفت هذا التصرف نفسه. ولا أدري هل هذه المعاني هي التي كانت راسخة في قرارة قلبها، في أعماق نفسها: وأغلب الظن عندي أنها في النصف الآخر من عقلها، في النصف المضيء، كانت تدرك حتماً كل تفاهة «بطلها». فمن ذا الذي يرفض اليوم أن يعترف أن هذا الإنسان الذي يمكن أن يعد من جهة أولى تعيساً شقياً، وأن يعد من جهة أخرى شهماً كريه النفس في نوعه، قد كان في الوقت نفسه أمرءاً تافهاً كل التفاهة؟ إن شدة تأذيها، وأن تأهبها الدائم للتهجم علينا، وإن ما كانت تحسه من اشتباه مستمر في أننا قد نرى فيه رأياً آخر، إن ذلك كله يدل على أنها في أعماق نفسها كان حكمها على صديقها حكماً آخر. ومع ذلك أسارع فأضيف أنها في نظري كانت على حق، أو على بعض الحق في أقل تقدير. إنها تُعذر أكثر منا جميعاً إذا هي ترددت في استخلاص نتيجة حاسمة ورأي قاطع. أنا نفسي أعترف من كل قلبي، بعد أن مضى وانقضى ذلك كله، إنني لا أدري على

Twitter: @ketab_n

وجه اليقين كيف أحكم حكماً قاطعاً وكيف أقدِّر تقديراً حاسماً ذلك المسكين الذي جعلنا جميعاً أمام لغز لا نعرف كيف نحله.

على أن المنزل قد استحال بسببها إلى جحيم صغير. إن ليزا التي أحبت حباً قوياً كان لا بد أن تتألم كثيراً. وكانت بحكم طبعها تفضِّل أن تتألم صامتة. إن طبعها يشبه طبعي، أعني أن يجنح بها إلى التحكم والتسلط والتكبر... وقد اعتقدت دائماً ولا أزال أعتقد إلى اليوم أنها قد أحبت الأمير مدفوعةً إلى ذلك بالرغبة في التسلط والتحكم، لأن الأمير كان بغير إرادة، ولأنه منذ الكلمة الأولى ومنذ الساعة الأولى قد خضع لها وانقاد لمشيئتها انقياداً تاماً. ذلك كله إنما يتم في القلب من تلقاء نفسه بدون أي حساب سابق. ولكن هذا الحب الذي يحمله قوي لضعيف يكون في بعض الأحيان أعنف كثيراً وأبعث على الألم كثيراً من حب يقوم بين اثنين متكافئين، ذلك لأن القوي يتحمل تبعة صديقه الضعيف رغم إرادته. أو هذا ما أعتقده أنا على الأقل. ولقد أحاطها أهل الدار منذ البداية بأكبر المراعاة وأشد المداراة، ولا سيما ماما. ولكنها لم ترق، ولم تستجب لهذه العاطفة، وتأبت على كل مساعدة. ولئن ظلت تكلم ماما في أول الأمر، فإنها أصبحت تبخل بالكلام مزيداً من البخل يوماً بعد يوم، وأصبحت أكثر فظاظة بل أكثر قسوة. وكانت تستشير في أول الأمر فرسيلوف، ولكنها لم تلبث أن اتخذت فاسين مستشاراً لها ومساعداً، وهذا أمر أدهشني حين عرفته فيما بعد. كانت تذهب كلَّ يوم إلى فاسين، وتركض إلى المحاكم، وتقابل رؤساء الأمير، وتراجع المحامين ووكيل النيابة. وفي النهاية صار ينقضي النهار كله دون أن يراها أحد في البيت تقريباً. وكانت تزور الأمير مرتين كل يوم طبعاً، في قسم النبلاء من السجن الذي

Twitter: @ketab_n

أودع فيه، ولكن هذه اللقاءات كانت قاسية شاقة على ليزا كما علمت ذلك من بعد. صحيح أنه ليس ثمة شخص ثالث يمكن أن يعرف شؤون حبيبين معرفة تامة. ولكنني أعلم مع ذلك أن الأمير كان يجرح شعورها جرحاً عميقاً في بعض الأحيان. كيف؟ بغيرة لا تنقطع. أمر عجيب! إن لنا إلى هذه النقطة عودة. غير أنني أحب أن أضيف هذه الفكرة: إنه لمن الصعب أن يقطع المرء في هذا السؤال: أيهما كان يعذب الآخر تعذيباً أشد؟ لعل ليزا التي كانت بيننا تعتز ببطلها، لعلها كانت تعامله معاملة أخرى، كما يجوز لي أن أفترض ذلك على أساس بعض الوقائع التي سنجيء على ذكرها فيما بعد أيضاً.

ففيما يتعلق بعواطفي وعلاقاتي بأختي ليزا، لم يكن كل ما يُرى ويلاحظ إلا كذباً مقصوداً عنيداً من الطرفين كليهما، والحق أننا لم نتحابَّ يوماً كما تحاببنا في تلك الفترة. يجب أن أضيف شيئاً آخر هو أن ليزا منذ أن جاء إلينا ماكار إيفانوفتش قد عاملته، بعد الاستغراب والفضول اللذين أحستهما في اللحظة الأولى، عاملته بنوع من الاحتقار بل الاستعلاء، وتعمدت أن تتظاهر بأنها لا توليه أيَّ انتباه.

عاهدت نفسي إذن على التزام الصمت، كما أوضحت ذلك في الفصل السابق، وقدَّرت نظرياً، أي في أحلامي، أنني سأفي بالعهد طبعاً. نعم، إنني لأوثر، مع فرسيلوف مثلاً، أن أتحدث في علم الحيوان، أو أن أتكلم عن أباطرة الرومان على أن أتكلم «عنها» أو عن ذلك السطر من رسالته، الذي يبلغها فيه أن «الوثيقة» لم تُحرق بل هي موجودة، وأنها يمكن أن تظهر إلى النور ـ ذلك السطر الذي أخذت أفكِّر فيه بيني وبين نفسي فوراً منذ صحوت من غيبوبتي وعاد

Twitter: @ketab_n

إليَّ رشدي بعد الحمى. ولكن واأسفاه! لقد أدركت منذ الخطوات العملية الأولى بل قبلها تقريباً، أدركت كم يصعب على المرء بل كم يستحيل عليه أن يتقيد بهذه القرارات التي تصورها خياله. إن ظرفاً لم يكن في الحسبان قد هزَّني هزاً قوياً رهيباً غداة لقائي بماكار إيفانوفتش.

2

كان الظرف الذي هزَّني هزاً قوياً هو زيادة داريا أونيسيموفنا، أم الفتاة أوليا التي انتحرت شنقاً. كنت قد عرفت من أمي أنها جاءت مرتين أثناء مرضي، وأنها كانت تهتم كثيراً بأنباء صحتي. أمن أجلي حقاً إنما جاءت تلك «المرأة الرائعة» كما كانت تصفها أمي بذلك دائماً، أم هي جاءت لزيارة أمي فحسب، جرياً على عادتها؟ إنني لم أسأل عن هذا. لقد كانت أمي تقص عليَّ أحداث المنزل دائماً، وكانت تقص عليَّ هذه الأحداث في العادة حين تجيء لتطعمني حسائي (قبل أن أصبح قادراً على تناول طعامي بنفسي)، وذلك تسليةً لي وتسريةً عني. وكنت أحرص في كل مرة على أن أظهر أنني لا أحفل بما ترويه لي، لذلك لم أسألها شيئاً من التفاصيل عن داريا أونيسيموفنا.

الساعة هي الحادية عشرة. وقد دخلت عليَّ داريا أونيسيموفنا حين كنت أهمُّ أن أنهض لأنتقل إلى مقعد بقرب المائدة. فلما دخلت تعمدت أن أبقى في السرير. كانت أمي منهمكة بالعمل فوق، فلم تنزل لتراها، فأمكننا أن نبقى وحيدين. جلست قبالتي، على كرسي بقرب الجدار، تبتسم ولا تنطق بكلمة. وتوقعت أن يطول الصمت. وكان مجيئها يحدث في نفسي ضيقاً وحنقاً واهتياجاً

Twitter: @ketab_n

في جميع الأوقات على كل حال. فلم أتجه إليها ولو بحركة من رأسي محيياً، وظللت أحدق إلى عينيها بنظرة ثابتة. ولكنها حدَّقت إليَّ هي أيضاً.

وسألتها فجأة وقد نفد صبري:

ـ لا شك أنك تضجرين الآن وحيدةً بعد غياب الأمير؟

فأجابت تقول:

ـ لا، إنني لا أقيم هنالك الآن. فأنا بفضل آنا آندرييفنا، أُعنى الآن بالطفل.

ـ أي طفل؟

ـ طفل آندريه بتروفتش.

قالت ذلك هامسةً، بلهجة البوح، وهي تنظر إلى الباب.

ـ ولكن هناك تاتيانا بافلوفنا...

ـ بل تاتيانا بافلوفنا وآنا آندرييفنا كلتاهما، وكذلك أليزابث ماكاروفنا، وأمك... إنهن جميعاً يشاركن. وقد انعقدت الآن أواصر صداقة قوية بين تاتيانا بافلوفنا وآنا آندرييفنا.

هذا نبأ!

وكانت المرأة تنتعش وتنشط أثناء كلامها. ونظرت إليها نظرة كره. وقلت لها:

ـ أرى أنك الآن أنشط مما كنت عليه إبان زيارتك الأخيرة لي في بيتي.

ـ آ... نعم!

ـ وأظن أنك سمنت؟

فألقت عليَّ نظرة غريبة. ثم قالت:

ـ إنني أحبها كثيراً، كثيراً.

Twitter: @ketab_n

ـ من هي؟

ـ آنا آندرييفنا طبعاً. أحبها كثيراً. إنسانة نبيلة، عاقلة...

ـ نعم، وكيف حالها الآن؟

ـ هادئة جداً، هادئة جداً.

ـ كانت دائماً هادئة.

ـ صحيح. دائماً.

ونفد صبري فهتفت أقول لها فجأة:

ـ إذا كنت قد جئت إليَّ لتروي لي أقاويل وتنقلي إليَّ نمائم، فاعلمي أنني الآن لا أتدخل في شيء، وإنني عزمت على أن أترك كل شيء وأن أترك جميع الناس... لقد استوت عندي الأمور كلها: إنني راحل!

قلت ذلك وصمت إذ ثاب إليَّ رشدي. إنني لا أريد أن أهبط إلى حيث أشرح لها أهدافي الجديدة. وقد أصغت إليَّ بدون اندهاش وبدون اضطراب، ولكن خيَّم صمت جديد. ثم إذا هي تنهض فجأة، فتتجه نحو الباب، وتلقي نظرةً على الغرفة المجاورة، حتى إذا اطمأنت إلى أن الغرفة خالية ليس فيها أحد، وأننا وحيدان، رجعت بهدوء شديد، وعادت تجلس في مكانها نفسه.

قلت وأنا أنفجر ضاحكاً:

ـ شيء لطيف!

سألتني فجأة وهي تميل عليَّ قليلاً وتخفض صوتها كأن هذا هو السؤال الأساسي الذي من أجله جاءت:

ـ مسكنك عند ذلك الموظف، أتنوي أن تحتفظ به أم لا؟

ـ مسكني؟ لا أعرف. قد أتركه... ما يدريني؟

Twitter: @ketab_n

ـ ذلك أن السكان ينتظرونك. الموظف ينتظرك بفارغ صبر، وكذلك زوجته... ولقد أكد لهما آندريه بتروفتش أنك عائد حتماً.

ـ ولكن فيم يهمك هذا الأمر؟

ـ آنا آندرييفنا أيضاً تريد أن تعرف. لقد سرَّها كثيراً أن تعلم أنك باق.

ـ من أين جاءتها هذه الثقة بأنني سأبقى في ذلك المسكن؟

وهممت أن أسألها: «وما شأنها هي في هذا الأمر؟» ولكنني امتنعت عن إلقاء هذا السؤال تكبراً واستعلاء.

ـ أكده لها مسيو لامبرت.

ـ من؟

ـ مسيو لامبرت. هو أيضاً أكَّد لآندريه بتروفتش تأكيداً قاطعاً بأنك باق، وطمأن كذلك آنا آندرييفنا.

اضطربت اضطراباً شديداً. ما هذه القصة أيضاً؟ إذن أصبح لامبرت يعرف فرسيلوف. إذن وصل لامبرت إلى فرسيلوف! لامبرت وآنا آندرييفنا: وصل لامبرت حتى إلى آنا آندرييفنا! وانتابتني حمى. لكنني صمت. وأغرق نفسي سيل رهيب من صلف، صلف أو شيء آخر. المهم أنني كنت كمن يقول لنفسه: «إذا طلبت كلمة إيضاح واحدة، كنت أقحم نفسي في هذا العالم من جديد، فلا أتركه بعد ذلك أبداً». واشتعل في قلبي كره شديد. وقررت جازماً أن أصمت، ولبثت في سريري ساكناً لا أتحرك. ولبثت هي أيضاً صامتة خلال دقيقة كاملة.

سألتها فجأةً بغير تمهيد:

ـ كيف حال الأمير نيقولا إيفانوفتش؟

ألقيت هذا السؤال بلهجة قوية لأغيِّر موضوع الحديث، فإذا أنا

Twitter: @ketab_n

ألقي السؤال الأساسي اعتباطاً كمن فقد عقله، فأرجع كالمجنون إلى ذلك العالم الذي كنت قد قررت مهتاجاً أن أهرب منه.

قالت:

ـ هو في تساركويه سيلو. إنه مريض قليلاً. المدينة ملأى الآن بهذه الحميات نصحه الجميع أن يعتزل في تساركويه سيلو بمنزله هناك نشداناً للهواء النقي.

لم أجب. وأردفت هي تقول:

ـ تزوره آنا آندرييفنا والجنرالة كلَّ ثلاثة أيام. تذهبان إليه معاً.

آنا آندرييفنا والجنرالة (أي «هي») صديقتان! تذهبان إليه معاً!

لم أقل شيئاً.

ـ ذلك أنهما أصبحتا صديقتين جداً. وآنا آندرييفنا تمدح كاترينا نيقولايفنا كثيراً...

بقيت صامتاً.

ـ عادت كاترينا نيقولايفنا إلى ولعها بالمجتمع، فهي تنتقل من حفلة إلى حفلة، تتلألأ... بل يقال إن كثيراً من رجال البلاط يهيمون بحبها، أما السيد بيورنج فقد انقطع الحبل بينه وبينها، فلن يتم الزواج. ذلك ما يؤكده جميع الناس... منذ تلك المرة...

أرادت أن تقول: منذ وصول رسالة فرسيلوف. وقد ارتعدت، لكنني لم أقل كلمة واحدة.

ـ ما أشد إشفاق آنا آندرييفنا على الأمير سرجي بتروفتش! وكذلك كاترينا نيقولايفنا! إنهما تتحدثان عنه دائماً، وتقولان إن القضاء سيبرئه وسيحكم على الآخر، ستيبلكوف...

نظرت إليها نظرة تفيض كرهاً. ونهضت فجأة ومالت عليَّ تقول لي بهمس:

Twitter: @ketab_n

ـ أوصتني آنا آندرييفنا بأن أستفسر عن صحتك، وأمرتني أن أرجوك أن تذهب إليها متى خرجت، فأرجو أن تبل من المرض. أستودعك الله.

وخرجت. فجلست على سريري. وأخذ عرق بارد يتصبب في جبيني. غير أن ما شعرت به لم يكن قلقاً. إن هذا النبأ الكريه الذي لم أستطع أن أفهمه، هذا النبأ عن لامبرت ومكائده، لم يروِّعني كما كانت تروِّعني، أثناء مرضي وفي الأيام الأولى من نقاهتي، ذكرى لقائي به في تلك الليلة. حتى إنني في تلك اللحظة الأولى من الاضطراب المبهم الذي أعقب انصراف داريا أونيسيموفنا، لم يشغل فكري لامبرت... وإنما استولى على ذهني ما أنبأتني به داريا عن القطيعة التي وقعت بين كاترينا نيقولايفنا وبين بيورنج، وعن سعادة كاترينا في المجتمع، وعن الحفلات التي تنتقل بينها، وعن النجاح الذي تلقاه، وعن تألقها. لقد قالت داريا أونيسيموفنا «إنها تتلألأ». وشعرت فجأة بأنني عاجز عن انتزاع نفسي من هذا الإعصار، رغم أنني استطعت أن أتجلد وأصمت، وألا ألقي على داريا أسئلةً بعد الأشياء المذهلة التي روتها لي. واجتاحني ظمأ شديد إلى تلك الحياة، «حياتهم»، و... واجتاحني كذلك ظمأ آخر لذيذ عذب، لا أدري ما هو، ظمأ أحسسته كالسعادة وأحسسته كالعذاب. وطفقت أفكاري تدور في رأسي كزوبعة... وتركت لها أن تدور هذا الدوران! كنت أقول لنفسي: «علام التفكير؟». ثم جعلت أفكِّر تفكيراً متقطعاً لا تسلسل فيه، فأقول لنفسي: «إن أمي نفسها قد أخفت عني مجيء لامبرت. ذلك أن فرسيلوف أمرها أن تسكت. إنني أفضل أن أموت على أن أسأل فرسيلوف عن لامبرت بحال من الأحوال!». ثم عدت أقول:

Twitter: @ketab_n

«فرسيلوف! فرسيلوف ولامبرت! أوه! ما أكثر ما حدثت من أمور جديدة عندهم! ما أمكر فرسيلوف هذا! لقد أخاف ذلك الألماني بيورنج بتلك الرسالة. لقد أذاع في حقه النمائم. . . «النميمة لا بد أن يبقى منها شيء دائماً». خاف الرجل من الفضيحة. آه. . . آه. . . درس حسن لها! «لامبرت! ولكن ألا يكون لامبرت قد وصل إليها هي أيضاً. لا بد أنه وصل إليها حتماً! ما عسى يحملها على أن ترفض عقد صلة به؟».

وهنا كففت فجأة عن إدارة هذه الأفكار المضطربة المشوشة في ذهني، وهويت برأسي على الوسادة من شدة الكرب واليأس. ثم صحت أقول بعزم مباغت: «ولكن لا!». ووثبت عن سريري ودسست قدمي في البابوجين، وألقيت عليَّ ثوب المنزل، ومضيت قُدُماً إلى ماكار إيفانوفتش كأن الشفاء من هذه الأفكار التي تحاصرني إنما يجب أن ألتمسه عنده، كأن لديه النجاة والخلاص، كأن عنده المرساة التي أستطيع أن أتشبث بها فلا أغرق.

وأغلب الظن أنني أحسست بهذه الفكرة إحساساً قوياً، وإلا فهل كنت أنهض هذا النهوض الذي لا سبيل إلى مغالبته، وهل كنت أسرع إلى ماكار إيفانوفتش وأنا على ما أنا عليه من تلك الحالة النفسية المضطربة؟

3

لكنني وجدت عند ماكار إيفانوفتش زواراً لم أكن أتوقعهم: ماما والدكتور. ولأنني كنت أتصور حين مضيت إلى الشيخ أنني سألقاه وحيداً كما حدث أمس، فقد وقفت في العتبة متحيراً تحيراً غبياً. ثم ما إن قطبت حاجبي حتى وصل أيضاً فرسيلوف، ووصلت وراءه

Twitter: @ketab_n

ليزا. التأم الشمل كله إذن عند ماكار إيفانوفتش «في وقت غير مناسب»!

قلت وأنا أتجه إلى ماكار إيفانوفتش رأساً:

ـ جئت أسأل عن صحتك.

ـ شكراً يا بني، كنت أعلم أنك ستأتي! هذه الليلة أيضاً فكرت فيك.

وكان ينظر في عيني برقة وحنان، فرأيت أنه ربما كان يحبني أكثر من الآخرين جميعاً. ولكنني لاحظت فوراً برغم إرادتي أنه إذا كان وجهه فرحاً فإن مرضه قد تفاقم في الليل كثيراً. وكان الطبيب قد فحصه منذ لحظة فحصاً دقيقاً جداً. وقد علمت فيما بعد أن هذا الطبيب (وهو الطبيب الشاب الذي تشاجرت معه يداوي ماكار إيفانوفتش منذ وصوله) قد عامل مريضه بكثير من الاهتمام، وهو يشخِّص لديه جملة معقدة من الأمراض المتنوعة لا أستطيع أن أسميها بلغتهم الطبية. وقد انعقدت بين ماكار إيفانوفتش وبين الطبيب علاقات فيها كثير من الصداقة كما أدركت ذلك منذ أول نظرة، فلم يعجبني هذا كثيراً في تلك اللحظة. ثم إنني كنت آنئذٍ معتكر المزاج جداً.

سأل فرسيلوف قائلاً:

ـ فماذا يا ألكسندر سيمونوفتش؟ كيف صحة مريضنا العزيز اليوم؟

لولا أنني كنت مضطرباً لجعلت أول همي أن أدرس، باهتمام شديد وشغف كبير، علاقات فرسيلوف مع هذا الشيخ. وقد خطر ذلك ببالي منذ الأمس. والشيء الذي خطف بصري الآن خاصة هو ما كان يعبر عنه وجهه في الظاهر من لطف وبشاشة. أظن أنني

Twitter: @ketab_n

سبق أن أشرت إلى أن هيئة فرسيلوف تصبح جميلة جمالاً مدهشاً متى كان بسيطاً بعض البساطة.

أجاب الطبيب يقول:

ـ نحن لا نفتأ نتشاجر.

ـ تتشاجر مع ماكار إيفانوفتش؟ لا أصدِّق شيئاً من هذا: لا يستطيع المرء أن يتشاجر معه.

ـ لكنه لا يريد أن يطيعني: إنه لا ينام الليل...

ـ دعك من هذا الكلام يا ألكسندر سيمونوفتش، كفى تقريعاً!

كذلك قال ماكار إيفانوفتش ضاحكاً. وتابع كلامه سائلاً آندريه بتروفتش:

ـ هيه آندريه بتروفتش العزيز؟ ما صنعت بآنستنا؟

ثم أضاف وهو يشير إلى أمي:

ـ لقد ظلت مضطربةً قلقة طول الصباح.

فهتفت أمي تقول بقلق شديد فعلاً:

ـ نعم يا آندريه بتروفتش، حدثنا بسرعة عما فعلوا بصاحبتنا المسكينة! ماذا قرروا في حقها؟

فقال:

ـ حكموا عليها.

ـ أوه!

ـ هدئي روعك، لن تُنْفى إلى سيبيريا: حكموا عليها بدفع غرامة مقدارها خمسة عشر روبلاً. مهزلة!

قال ذلك وجلس. فجلس الطبيب أيضاً. كانوا يتكلمون عن تاتيانا بافلوفنا. ولم أكن أعرف شيئاً عن تلك القصة بعد. كنت على يسار ماكار إيفانوفتش. وجلست ليزا أمامي على اليمين. كان

Twitter: @ketab_n

واضحاً أنها تعاني ألماً خاصاً جاءت تفضي به إلى أمي. كان وجهها ينم عن اضطراب واستياء. وقد تبادلنا نظرة في تلك اللحظة، فقلت لنفسي فجأة: «كلانا تلطخ شرفه، وعليَّ أنا أن أقوم بالخطوة الأولى نحوها». لقد رقَّ قلبي لها فجأة. وفي تلك الأثناء أخذ فرسيلوف يروي ما جرى في الصباح.

لقد مثلت تاتيانا بافلوفنا في هذا الصباح أمام قاضي الصلح مع طباختها. وكانت القضية مضحكة جداً. سبق أن ذكرت أن الفنلندية المتعبة كانت إذا غضبت تلزم الصمت في بعض الأحيان أسابيع متصلة فما تجيب بكلمة واحدة عن أسئلة مولاتها. وذكرت أيضاً أن تاتيانا بافلوفنا ضعيفة تجاهها، فهي تحتمل منها كل شيء، ولا يمكن أن تطردها من خدمتها بحال من الأحوال. إن جميع هذه النزوات النفسية التي تلاحظ في العوانس أمور تستحق الاحتقار في نظري ولا تستحق أي اهتمام، وإذا كنت قد قررت أن أروي هذه القصة هنا، فإنما يدفعني إلى ذلك إن هذه الطباخة سيكون لها في روايتي دور مشؤوم لا يمكن إغفاله. وأعود إلى حكايتها فأقول إن تاتيانا بافلوفنا قد نفد صبرها أخيراً وضاقت ذرعاً بهذه الفنلندية العنيدة التي لم تجب عن أسئلتها بكلمة واحدة منذ عدة أيام، فإذا هي تضربها فجأة وذلك ما لم يسبق أن حدث من قبل أبداً. وقد صمتت الفنلندية عندئذ ولم تقل شيئاً البتة بل لم يصدر عنها أي صوت، ولكنها اتصلت في ذلك اليوم نفسه بمستأجر كان يقيم في مكان يطل على سلم الخدم نفسه، تحت، وهو الملازم البحري المتقاعد أوستروف الذي كان يعمل وسيطاً في جميع أنواع القضايا، وكان يرفع إلى المحاكم قضايا من هذا النوع، طلباً للرزق في الكفاح من أجل البقاء. وكانت النتيجة أن طُلبت تاتيانا إلى

Twitter: @ketab_n

المثول أمام قاضي الصلح، واستدعى فرسيلوف شاهداً.

روى فرسيلوف هذه الحكاية كلها بلهجة بلغت من المرح والطرب أيضاً أن أمي نفسها أخذت تضحك. وقد قلد شخصيات تاتيانا بافلوفنا والملازم البحري والطباخة. فذكر كيف أعلنت الطباخة للقاضي أنها تطالب بتعويض مالي وكيف عقبت على ذلك قائلة: «وإلا فلمن أهيىء العشاء إذا هي سُجنت؟». وروى كيف أن تاتيانا بافلوفنا قد أجابت عن أسئلة القاضي بكثير من التكبر حتى إنها أبت أن تبرر فعلتها وانتهت إلى القول: «ضربتها ولسوف أضربها أيضاً»، فكان أن حُكم عليها بغرامة قدرها ثلاثة روبلات لعدم توقيرها القاضي. وأخذ يصف الملازم البحري، وهو شاب متخلع المشي نحيل الجسم، فذكر كيف اندفع يلقي خطاباً طويلاً في مدح صاحبته الطباخة، ولكنه لم يلبث أن ارتبك ارتباكاً مخجلاً فأخذت القاعة كلها تضحك. وسرعان ما انتهت المناقشات فحكم على تاتيانا بافلوفنا بأن تدفع خمسة عشر روبلاً لطباختها ماري، التي أساءت إليها وأهانتها. فما كان من تاتيانا بافلوفنا إلا أن استلت محفظة نقودها فوراً بدون انتظار، وعدَّت المبلغ، فإذا بالملازم البحري ينبجس حالاً ويمد يده، ولكن تاتيانا بافلوفنا دفعت يده بقوة حتى كادت أن تضربها ضرباً، والتفتت نحو ماري تريد أن تنقدها المبلغ، فقالت لها ماري: لا تكترثي يا سيدتي، وأضيفي المبلغ إلى حسابي، أما هذا السيد فسأقوم أنا بدفع أجره»، فقالت تاتيانا بافلوفنا: «أرأيت يا ماري ما أغبى الرجل الذي اتخذته مدافعاً عنك؟». قالت تاتيانا بافلوفنا ذلك وهي تومىء إلى الملازم البحري، فرحةً أعظم الفرح بأن ماري قد فتحت فمها أخيراً. فأجابت ماري وهي تنظر نظرة ماكرة: «هو غبي فعلاً يا سيدتي.

Twitter: @ketab_n

أظن أنك أمرتني اليوم بأضلاع مشوية وبازلاء، أليس كذلك؟ إنني لم أسمع كلامك حين كنا في البيت إذ كنت أستعجل المجيء إلى هنا». فأجابتها تاتيانا بافلوفنا: «بل أمرتك بأضلاع وكرومب يا ماري، وإياك أن تحرقيها كما فعلت أمس!» فقالت ماري: «سأكون شديدة الانتباه يا سيدتي، ولا سيما اليوم. هاتي يدك». وقبلت ماري يد مولاتها دليلاً على المصالحة. فكانت الصالة كلها أثناء ذلك تضحك.

ـ يا لها من امرأة غريبة الأطوار!

كذلك قالت ماما وهي تهز رأسها، راضية مع ذلك بالنبأ، مغتبطةً أيضاً بما قصه آندريه بتروفتش. ولكنها كانت تختلس النظر إلى ليزا قلقة.

قال ماكار إيفانوفتش وهو يضحك:

ـ هكذا كانت الآنسة منذ طفولتها.

فقال الدكتور:

ـ هذا من أثر الصفراء والفراغ.

ـ إياي تعنون؟ عني تجيئون على ذكر الصفراء والفراغ؟

إن تاتيانا بافلوفنا هي التي دهمت الغرفة، وكان واضحاً أنها راضية عن نفسها جداً. وأردفت تقول مخاطبة الطبيب:

ـ يا ألكسندر سيمنوفتش، خير لك ألا تقول هذه السخافات. لقد عرفتني حين لم تكن قد بلغتَ العاشرة من عمرك، فلا بد أنك تعلم هل أنا في بطالة وفراغ حقاً. أما عن الصفراء فإنك تداويني منذ سنة كاملة ولا تفلح في شفائي. كان عليك أن تخجل من هذا! هيًّا هيًّا، لقد سخرتم مني سخراً كافياً. شكراً يا آندريه بتروفتش لأنك رضيت أن تجيء إلى المحكمة شاهداً. أما أنت أيها العزيز

Twitter: @ketab_n

ماكار، فمن أجلك إنما جئت. لقد جئت لأعودك أنت لا لأعود هذا (أشارت إليَّ، ولكنها لم تلبث أن ربتت على كتفي بمودة. إنني لم أرها مشرقة المزاج إلى هذا الحد في يوم من الأيام).

وختمت كلامها تقول وهي تلتفت فجأة إلى الطبيب وتقطب حاجبيها مهمومة:

ـ فماذا يا دكتور؟

ـ لا يريد أن يبقى راقداً، وهو بالجلوس يرهق نفسه.

فجمجم ماكار إيفانوفتش يقول بهيئة متضرعة كطفل:

ـ ولكنها لحظة نقضيها مع الأصدقاء...

فانبرت تاتيانا بافلوفنا تقول:

ـ نعم نحن نحب هذا، نحب أن نثرثر مع الناس؛ نحب أن يتحلق حولنا جمهور. إنني أعرف صاحبنا ماكار.

وابتسم الشيخ مرة أخرى وقال ملتفتاً إلى الطبيب:

ـ وما أشد إصراره. انتظر قليلاً، دعني أتكلم: لسوف أرقد على السرير، ولكن المثل عندنا يقول: «من يرقد فقد لا ينهض». ذلك بعينه هو ما يتربص بي يا صديقي.

ـ هوه! هي الأوهام الشعبية ما تنفك تعشش في عقولنا «إذا رقدت فقد لا أنهض»، ذلك ما تخشاه عامة الشعب في أكثر الأحيان، فيؤثر الرجل أن يقضي فترة مرضه واقفاً على أن يذهب إلى المستشفى. أما أنت يا ماكار إيفانوفتش فإن ما يستولي على نفسك الآن هو الضجر، هو التحسر على الحرية، هو الشوق إلى السفر والتجول والتجواب. مرضك كله هو أنك فقدت عادة الإقامة في مكان. نعم، إن التشرد ضرب من هوى جارف يستبد بشعبنا. لاحظت هذا مراراً. إن شعبنا هو أكثر شعوب الأرض حباً للتشرد.

Twitter: @ketab_n

قالت تاتيانا بافلوفنا:

ـ في رأيك إذاً إن ماكار متشرد؟

ـ لا، ليس متشرداً بهذا المعنى. لقد استعملت الكلمة بمعناها العام. إن ماكار متشرد عن تدين وتقى، ولكنه متشرد على كل حال. صحيح أنه متشرد بمعنى حسن، بمعنى نبيل، ولكنه متشرد... من وجهة النظر الطبية...

التفتّ فجأة نحو الدكتور، وقلت:

ـ أؤكد لك أننا أنا وأنت وسائر الحضور هنا، أولى بأن نُعدَّ متشردين من هذا الشيخ الذي يحق له أن يلقننا كثيراً من الدروس لأن له في حياته مبدأ ثابتاً، أما حياتنا نحن جميعاً فنتشرد على غير هدى في كل اتجاه... ولكنك في الواقع لا تستطيع أن تفهم!

لا شك أنني تكلمت بخشونة، ولكن من أجل هذا إنما جئت والحق أنني لا أدري لماذا بقيت، ولكنني كنت خارجاً عن طوري حتى لكأنني جننت.

فنظرت إليَّ تاتيانا وقد بدا في هيئتها الاستياء، وقالت تسألني:

ـ ماذا أصابك؟

ثم قالت تسأل ماكار إيفانوفتش مشيرة بيدها إليَّ:

ـ كيف تجده؟

فأجاب ماكار إيفانوفتش:

ـ باركه الله. إن له فكراً متقداً.

ولكن الحضور ما إن سمعوه يصفني بأن لي فكراً «متقداً» حتى طفقوا يضحكون. فكظمت غيظي. وكان الدكتور أشدهم ضحكاً. من المؤسف أنني كنت أجهل في ذلك الحين ما كانوا قد تواطؤوا عليه. إن فرسيلوف والطبيب وتاتيانا بافلوفنا قد تعاهدوا، قبل ثلاثة

Twitter: @ketab_n

أيام، على أن يصرفوا أمي عن توجساتها السيئة وأن يبعدوها عن مخاوفها على ماكار إيفانوفتش الذي كان مرضه أخطر كثيراً وأشد استعصاءً على المداواة مما كنت أظن حينئذاك. ذلك هو السبب في أن الجميع كانوا يمزحون وكانوا يحاولون أن يضحكوا. غير أن الطبيب كان أحمق، وكان بطبيعته لا يعرف كيف يمزح. هذا هو السبب في كل ما أعقب ذلك. فلو كنت على علم بما اتفقوا عليه لتصرفت تصرفاً آخر. وكانت ليزا لا تعلم أيضاً.

ظللت أصغي بجزء من سمعي، فكانوا يتكلمون ويضحكون؛ أما أنا فكان رأسي مشغولاً بشيء آخر: داريا أونيسيموفنا وما ذكرته لي من أنباء؛ وكنت لا أستطيع أن أتحرر مما كان يدور في رأسي. إنها تتراءى لي هناك، جالسةً تنظر إليَّ، ثم قائمة بحذر لتلقي نظرة على الغرفة الأخرى. وانفجروا يضحكون ضحكاً عالياً على حين فجأة. كانت تاتيانا بافلوفنا قد وصفت الطبيب بأنه ملحد قائلة له: «هذا معروف، ما أنتم جميعاً يا أطباء النحس إلا ملاحدة».

فهتف الدكتور يقول متظاهراً تظاهراً غبياً بأنه أهين، مطالباً بأن يُنصف:

ـ ماكار إيفانوفتش! هل أنا ملحد؟ نعم أم لا؟

ـ أنت ملحد؟ لا، لست ملحداً!

بذلك أجابه الشيخ وهو يحدق إليه بنظرة ثابتة، وأضاف يقول هازاً رأسه بوقار:

ـ لا، الحمد لله. أنت إنسان مرح.

فسأله الدكتور بسخرية:

ـ وإذا كان الإنسان مرحاً فلا يمكن أن يكون ملحداً؟

قال فرسيلوف بدون أن يضحك:

Twitter: @ketab_n

ـ هذا رأي!

فهتفت أقول على غير إرادة مني وقد فتنت بهذه الفكرة:

ـ رأي قوي!

وكان الطبيب ينظر فيما حوله مستفهماً.

فبدأ ماكار إيفانوفتش يتكلم فقال وقد خفض عينيه قليلاً:

ـ هؤلاء المثقفون، هؤلاء الأساتذة (أغلب الظن أنهم كانوا قد قالوا شيئاً عن الأساتذة من قبل) كنت في البداية أخشاهم كثيراً: كنت إذا لقيتهم أتهيبهم، لأنني لا أخاف أحداً كما أخاف الملاحدة. كنت أقول لنفسي: «إنني لا أملك إلا نفساً واحدة، فإذا ضيعتها فلن أجد عنها عوضاً»، ولكنني استرددت شجاعتي بعد ذلك فقلت لنفسي: هيَّا، ما هم آلهة على كل حال، هم بشر مثلنا، لهم ما لنا من أهواء!» ثم استبد بي حب الاطلاع قوياً شديداً، فقلت لنفسي: «أريد أن أعرف أخيراً ما الإلحاد». ولكن حب الاطلاع هذا قد انقضى هو أيضاً يا صديقي.

صمت ماكار إيفانوفتش لحظة، ولكنه ظل عاقداً عزمه على الكلام، مبتسماً تلك الابتسامة الوقور الرصينة نفسها. إن هناك سُذَّجاً يركنون إلى جميع الناس وإلى كل إنسان دون أن تخطر السخرية لهم ببال. وهؤلاء يكونون سُذَّجاً، فهم مستعدون لأن يخرجوا من قلوبهم أثمن ما تخفي. ولكن يبدو لي أن ماكار إيفانوفتش كان يتصف بشيء آخر غير السذاجة وأن براءة البساطة لم تكن هي الشيء الوحيد الذي يدفعه إلى الكلام. إنه يملك شيئاً من صفات الدعاة. ولقد سرَّني أن ألاحظ فيه استهزاءً لا يخلو حتى من بعض المكر، تناول به الدكتور، وربما فرسيلوف أيضاً. وكان واضحاً أن هذا الحديث تتمة لأحاديث سابقة جرت بينه وبينهم هذا

Twitter: @ketab_n

الأسبوع. ولكن شاء سوء الحظ أن تفلت تلك الكلمة المشؤومة التي كهربتني بالأمس، فأهاجتني اليوم هيجاناً ما زلت آسف له.

تابع الشيخ كلامه متجمع الفكر فقال:

ـ «الملحد ـ الإنسان»، ربما كنت أخشاه إلى الآن. ولكن هذا الملحد ـ الإنسان، يا ألكسندر سيمنوفتش، لم يتفق لي أن لقيته مرة واحدة في يوم من الأيام، وإنما أنا لقيت «الملحد ـ المشوش». نعم هكذا يجب أن يسمى. أناس من كل نوع، لا يستطيع المرء حتى أن يرى رؤية واضحة من هم. بينهم كبار وصغار، وبينهم حمقى وعلماء، وبينهم حتى أفراد من عامة الشعب. وهم جميعاً مشوشون. إنهم يقضون حياتهم كلها في القراءة والاستدلال والتفكير، وقد امتلأت نفوسهم افتتاناً بالكتب، ولكنهم يظلون دائماً في الشك، ولا يستطيعون أن يعزموا أمرهم على شيء. منهم من تبعثروا تبعثراً تاماً فأصبحوا لا يلاحظون أنفسهم، ومنهم من جمدوا فكانوا كالصخر على امتلاء قلوبهم بالأحلام. ومنهم خفاف يحسون ولا يكترثون ولا يهمهم إلا أن يطلقوا السخريات تلو السخريات. ومنهم لا يقطفون من الكتب إلا الزهرة، ولكنهم يقطفون الزهرة التي يريدون، ثم يظلون مشوشين لا يستقرون على حال. اسمع ما سأقوله لك: إن في هذا كله ضجراً كثيراً. الإنسان البسيط يعيش في عوز، فهو في حاجة إلى خبز، ولا يملك ما يقدمه للصغار، وينام على قش خشن، ولكن في قلبه فرح خفيف دائماً. قد يرتكب خطايا ويقول كلاماً غليظاً، ولكن قلبه يبقى مرحاً خفيفاً. أما الإنسان الذي له شأن خطير فهو يتخم شراباً وطعاماً، وينام على أكداس ذهبه، ولكن قلبه يبقى مترعاً بالضجر.

إن بين هؤلاء من طافوا بجميع العلوم، ولكن الضجر بقي في

Twitter: @ketab_n

قلوبهم. أعتقد أن الواحد منهم كلما كان أكثر فكراً كان أكثر ضجراً. انظر في هذه النقطة: لقد وجد التعليم منذ وجد العالم. فهل جاء التعليم بما يجعل مسكناً جميلاً عامراً بالأفراح؟ بل إنني لأقول لك: هؤلاء ليس فيهم جمال، ولا يريدون الجمال. هم جميعاً أموات، ولكن كلاً منهم يتباهى بموته، ولا يخطر بباله أن يتجه إلى الحقيقة «الوحيدة». أن يعيش المرء بغير إله فذلك عذاب. وربما لعن البشر ما قد ينير لهم الطريق، حتى دون أن يفطنوا إلى ما يفعلون. أين العقل والحكمة في هذا؟ إن الإنسان لا يستطيع أن يعيش بغير سجود. بغير سجود لا يمكن أن يحتمل الإنسان نفسه. ما من أحد قادر على هذا. فإذا جحد الله سجد لمعبود من خشب أو من ذهب، أو سجد لمعبود صنعه له الخيال. إنهم جميعاً وثنيون لا ملحدون. هكذا يجب أن نسميهم. ولكن كيف لا يكون هناك ملحدون! إن بعض الناس ملحدون حقاً، وهؤلاء أبعث على الخوف والرهبة من الآخرين، لأن اسم الله ماثل في أفواههم دائماً. سمعت عن هؤلاء مراراً، ولكنني لم ألتقِ أحداً منهم يوماً. هم موجودون يا صديقي، وأظن أنهم لا بد أن يوجدوا.

انبرى فرسيلوف يقول مؤيداً:

ـ موجودون يا ماكار إيفانوفتش و«لا بد أن يوجدوا»!

ـ موجودون حتماً و«لا بد أن يوجدوا»!

أفلتت مني هذه الجملة بغير إرادتي حارةً ملتهبةً لا أدري لماذا. ولكن لهجة فرسيلوف كانت قد أهاجتني، كما أن فكرةً فتنتني في قوله: «لا بد أن يوجدوا». ما كنت أتوقع هذا الحديث أبداً. وحدث في تلك اللحظة شيء لم يكن بالمتوقع البتة أيضاً.

Twitter: @ketab_n

4

كان النهار مضيئاً جداً. وقد جرت العادة في غرفة ماكار إيفانوفتش أن تسدل الستارة طوال النهار بأمر من الطبيب. غير أن ما كان مسدلاً على النافذة لم يكن ستارة بل حجاباً، فلم يكن أعلى النافذة مغطى. ذلك أن الشيخ تضايق حين كان لا يرى الشمس أبداً بسبب الستارة القديمة. وقد بقينا معه إلى أن سقط شعاع من الشمس على وجهه رأساً. وإذ كان منهمكاً في الحديث فإنه لم ينتبه إلى ذلك في أول الأمر، ولكنه أشاح وجهه مراراً بغير شعور وهو مستمر في الكلام، لأن الشعاع الساطع كان يضايقه ويهيج عينيه المريضتين. وكانت أمي واقفةً أمامه، فنظرت إلى النافذة عدة مرات في قلق. وكان ينبغي أن تغطي النافذة تماماً، ولكن أمي، من حرصها على ألا تقطع حبل الحديث، بدا لها أن تزحزح المقعد الذي كان يجلس عليه ماكار إيفانوفتش، أن تزحزحه نحو اليمين بدفعة خمسة عشر سنتيمتراً أو عشرين في أكثر تقدير. وقد مالت عدة مرات لتفعل ذلك فلم تفلح، إذ أبى المقعد أن يتزحزح. وأحس ماكار إيفانوفتش بجهودها، ولكن على غير شعور البتة، وذلك من شدة انجرافه في الحديث، وحاول أن ينهض عدة مرات، ولكن ساقيه لم تسعفاه. وظلت ماما مع ذلك تواصل بذل جهودها وتشد المقعد. فإذا بهذا كله يثير حنق ليزا في نهاية الأمر. إنني أتذكر بعض نظراتها الملتهبة الساخطة. ولكنني في اللحظة الأولى لم أستطع أن أعزو هذه النظرات إلى سبب، هذا عدا أنني كنت مشغولاً بالحديث عن كل ما عداه. وفجأةً دوَّى هذا النداء العنيف الذي يشبه الصراخ، متجهاً إلى ماكار إيفانوفتش:

Twitter: @ketab_n

ـ ولكن هلاً نهضت قليلاً! ألا ترى كم تبذل ماما من جهد؟

فنظر الشيخ إلى ليزا بسرعة، وفهم على الفور، وحاول في الحال أن يطيعها، ولكنه لم يفلح، فإنه ما أن ارتفع عن المقعد عشرة سنتمترات حتى تهاوى عليه ثانية. فقال يجيب ليزا بصوت شاك وهو ينظر إليها بمذلة:

ـ لا أقدر يا ابنتي!

ـ تقدر أن تتدفق في كلام يملأ كتاباً بكامله، أما أن تتحرك قليلاً فلا تقدر، هه؟

فصرخت تاتيانا بافلوفنا تنهر ليزا:

ـ ليزا!

وعاد ماكار إيفانوفتش يبذل جهداً خارقاً من أجل أن ينهض. فصاحت ليزا تقول له من جديد:

ـ تناول عكازتك فاستعن بها. ها هي على الأرض!

فقال الشيخ، وهو يسرع إلى تناول عكازته:

ـ حقاً.

فانبرى فرسيلوف يقول وهو ينهض:

ـ بل ننهضه وكفى!

وتحرك الطبيب، واندفعت تاتيانا بافلوفنا، ولكنهما لم يصلا إلى ماكار إيفانوفتش إلا وقد توكأ على عصاه، ونهض فجأة، ووقف على ساقيه ناظراً حوله، فرحاً بانتصاره، ضاحكاً في مرحه، قائلاً بما يشبه الظفر:

ـ استطعت مع ذلك. شكراً يا ابنتي، لقد رددتني إلى الصواب وكنت أظن أن ساقيَّ أصبحتا عاجزتين لا تصلحان لشيء!

ولكنه لم يلبث واقفاً مدة طويلة. وما كاد ينهي جملته حتى

Twitter: @ketab_n

انزلقت العكازة التي كان يستند إليها بكل وزنه، انزلقت على السجادة فجأةً، فإذا هو يسقط على الأرض بجسمه كله. كان المنظر رهيباً. إنني أتذكر ذلك. صاح الجميع بصوت واحد: «أوه!»، وأسرعوا يرفعونه عن الأرض. ولكن شاء حسن الحظ ألا يحدث له أي كسر. صحيح أن ركبتيه قد صدمتا الأرض صدماً قوياً فأحدث سقوطه صوتاً قوياً، ولكنه كان قد استطاع أن يقدم يده اليمنى وأن يستند إليها. وأنهضوه وأرقدوه على السرير. كان وجهه شاحباً، لا من الخوف، بل من الهزة (كان الطبيب قد اكتشف لديه مرضاً في القلب عدا الأمراض الأخرى) واضطربت أمي أشد الاضطراب هلعاً. وإذا بماكار إيفانوفتش الذي لا يزال شاحب اللون ولا يزال جسمه يهتز اهتزازاً قوياً، ولم يكد يثوب إلى نفسه، إذا هو يلتفت إلى ليزا ويقول لها بصوت رقيق يكاد يكون حنوناً زاخراً بالعاطفة:

ـ لا يا ابنتي. أصبحت ساقاي لا تحملاني، كما ترين.

لا أستطيع أن أصف الشعور الذي أحسسته. إن أقوال الشيخ المسكين لم يكن في نبرتها أي شكوى أو ملامة. بالعكس: كان واضحاً أنه منذ البداية لم ير في كلمات ليزا أي سوء، وأنه عدَّ صراخها شيئاً واجباً، أي تقريعاً يستحقه خطؤه. وقد أثر هذا في ليزا تأثيراً رهيباً أيضاً. لقد وثبت لحظة سقوطه كما وثب الجميع، ووقفت في مكانها كالميتة، متألمةً طبعاً لأنها كانت سبب كل ما حدث. لكنها حين سمعت هذه الكلمات احمرت احمراراً شديداً من الخجل والندم.

قالت تاتيانا بافلوفنا آمرة:

ـ كفى! سبب هذا كله هو هذه الأحاديث. فليرجع كل واحد

Twitter: @ketab_n

إلى حيث كان. ولكن ما العمل إذا كان الطبيب نفسه هو الذي يبدأ الثرثرة؟

فقال ألكسندر سيمنوفتش وهو يسعى حول المريض منهمكاً:

ـ حقاً يا تاتيانا بافلوفنا. معذرة. إنه في حاجة إلى راحة.

ولكن تاتيانا بافلوفنا كانت قد انقطعت عن الإصغاء: إنها منذ نصف دقيقة تنعم النظر إلى ليزا صامتة. ثم قالت فجأة:

ـ تعالي يا ليزا وقبّليني، قبّلي العجوز الحمقاء، إذا أردت طبعاً!

وقبَّلتها، لا أدري لماذا، وكان هذا ما يجب فعله حقاً، حتى إنني أوشكت أنا نفسي أن أندفع إلى تاتيانا بافلوفنا فأقبّلها. كان يجب فعلاً ألا تُسحق ليزا باللوم، وإنما يجب أن تُستقبل العاطفة الطيبة الجديدة التي ستنشأ في نفسها بالمرح والتهنئات.

ولكنني لم أسلك هذا السلوك في الواقع. لقد نهضت فجأة، وقلت وأنا أقطع كلماتي بغية أن تكون بارزة واضحة:

ـ ماكار إيفانوفتش، إنك قد استعملت مرةً أخرى هذه الكلمة: «الجمال»، وكانت هذه الكلمة تعذبني بالأمس، وتعذبني طوال هذه الأيام الأخيرة. بل إنها عذبتني في جميع أيام حياتي، ولكنني لم أكن أعرف في الماضي ماذا كان عذابي. فأنا أعد هذه المصادفة قدراً بل أكاد أعدها معجزة. . . إنني أعلن هذا بحضورك.

ولكنهم أوقفوني عن الكلام. أكرر أنني كنت أجهل ما تواطؤوا عليه بصدد ماما وماكار إيفانوفتش. وقياساً على ما عرفوا من أفعالي الماضية، حكموا بأنني لا أتورع عن أية فضيحة.

غضبت تاتيانا بافلوفنا غضباً شديداً، وزأرت تقول:

ـ أسكتوه!

وأخذت ماما ترتجف. وذعر ماكار إيفانوفتش هو أيضاً حين

Twitter: @ketab_n

رآهم جميعاً مذعورين. وصرخ فرسيلوف يقول بقسوة:

ـ اسكت يا آركادي.

ولكنني لم أسكت بل أردفت أقول بصوت أعلى:

ـ يشدهني ويقززني يا سادتي أن أراكم جميعاً بقرب هذا الطفل (أشرت بيدي إلى ماكار). ليس هنا إلا قديسة واحدة هي ماما، ولكنها هي أيضاً...

قال الدكتور ملحاً:

ـ إنك تروِّعها!

فتمتمت أقول:

ـ أعلم أنني عدو الجميع...

أو قلت كلاماً من هذا المذاق. ثم التفت إلى فرسيلوف ألقى عليه نظرة تحدٍ واستفزاز. فصرخ فرسيلوف قائلاً:

ـ آركادي... سبق أن حدث بيننا هنا مشهد من هذا النوع. فسيطر على نفسك الآن. أرجوك!

لا أستطيع أن أصف العاطفة القوية التي ظهرت على فرسيلوف وهو ينطق بهذه الجملة. لقد عبَّر وجهه عندئذ عن حزن خارق، صادق، كامل. ومما يدعو إلى الدهشة أكثر من ذلك أن هيئته كانت هيئة إنسان نادم: فالآن أنا القاضي وهو الجاني. فكان من شأن ذلك كله أن أخرجني عن طوري. فهتفت أجيبه قائلاً:

ـ نعم، حدث هذا يوم كنت قد دفنت فرسيلوف، يوم كنت قد انتزعته من قلبي... ولكن جاء يوم الحشر بعد ذلك وبُعث الموتى... أما الآن فقد انتهى كل شيء. ولسوف ترون جميعاً، جميعاً، ما أنا قادر عليه! إنكم لا تتوقعون ما أستطيع أن أفعله.

قلت ذلك، واندفعت إلى غرفتي. فهرع فرسيلوف ورائي.

Twitter: @ketab_n

5

انتكست بعد إبلال: انتابتني حمى شديدة، وفي المساء كنت أهذي. ولكن لم يكن كل شيء هذياناً، فقد رأيت أحلاماً كثيرة غريبة، حفظت واحداً منها إلى آخر حياتي، أو قل حفظت شذرات واحد منها أرويه الآن بدون تفسير. لقد كان في ذلك الحلم تنبؤ، فلا أستطيع أن أغفله.

رأيتني في غرفة واسعة عالية وقد امتلأ قلبي فجأة بنيةٍ عظيمة نبيلة. أين؟ لا أدري. ولكن لم أكن عند تاتيانا بافلوفنا. وأقول سلفاً: إنني أتذكر تلك الغرفة تذكراً واضحاً كل الوضوح. ورغم أنني كنت وحيداً، فقد كنت أحس ـ متألماً قلقاً ـ إنني لست وحيداً وأنني أنتظر، وأن شيئاً يُتوقع مني، ففي مكان وراء الباب أشخاص ينتظرون ما سأفعله. إحساس لا يطاق: «آه. . . ليتني كنت وحيداً». وها «هي» ذي تدخل فجأة. إنها تنظر إليَّ خجلةً، خائفةً خوفاً شديداً، باحثةً عن عينيَّ. و«الوثيقة بين يديَّ». وابتسمت لتغريني، والتصقت بي. فأشفقت عليها. ولكنني أخذت أشعر باشمئزاز. وفجأة غطت وجهي بيديها، فرميت الوثيقة على المائدة باشمئزاز لا يوصف: «لا تسأليني شيئاً. خذي. لا أطالبك بشيء! بالاحتقار أنتقم لنفسي من كل الإهانات التي تحملت».

وخرجت من الغرفة شاعراً بكبرياء قوية واعتزاز شديد. ولكن لامبرت يوقفني على العتبة في الظلام، ويهمس قائلاً لي وهو يمسك ذراعي بقوة: «أحمق، أبله! سوف تنشىء في فاسيلي أوستروف مدرسة داخلية لبنات النبلاء (يعني لتستطيع أن تجني رزقها إذا علم أبوها بأمر الوثيقة فحرمها من الميراث وطردها من

Twitter: @ketab_n

بيته. إنني أسجل تعابير لامبرت بنصها كما سمعتها في الحلم).

ـ آركادي ماكاروفتش يسعى وراء «الجمال».

ذلك صوت آنا آندرييفنا النحيل سمعته قريباً مني على السلم. ولكن هذه الكلمات لم تكن مدحاً بل كانت سخرية لا تطاق. وأعود إلى الغرفة مع لامبرت. فإذا «هي»، حين تراه، تأخذ تضحك مستهزئة. إن الشعور الأول الذي أحسسته كان ارتياعاً رهيباً، ارتياعاً بلغ من الهول أنني توقفت ورفضت أن أتقدم. ونظرت إليها فلم تصدق عيناي ما رأيت. لكأن قناعاً كان على وجهها فانحسر القناع فجأة: لا تزال قسمات وجهها كما هي، غير أن كل واحدة منها قد شوهتها وقاحة لا حدود لها. وصاح لامبرت يقول لها: «الفدية يا سيدتي، الفدية!»، فإذا ضحكهما كليهما يشتد. وكف قلبي عن الخفقان. «هل يُعقل أن تكون هذه المرأة الوقحة هي المرأة نفسها التي كان يكفيني أن تنظر إليَّ حتى يشتعل قلبي فضيلة؟».

ويهتف لامبرت قائلاً:

ـ هذا ما يفعله هؤلاء المتعجرفون من أبناء المجتمع الراقي في سبيل المال!

ولكن الوقحة لم تضطرب. وهي إنما تضحك لأنني مروَّع. آه! إنها مستعدة للفدية، و... و... ماذا يحدث في نفسي! أصبحت لا أشعر بشفقة، بل باشمئزاز. وأرتعش كما لم أرتعش في حياتي من قبل... واستولت عليَّ عاطفة أخرى لا سبيل إلى وصفها، عاطفة لم أعرفها في يوم من الأيام، عاطفة قوية قوة الكون. أصبحت لا أقوى على الانصراف. لن أنصرف بحال من الأحوال. آه... لشد ما يسعدني أن يبلغ الأمر هذه الدرجة من الخلاعة! وها

Twitter: @ketab_n

أنذا أمسك يديها. إن ملامسة يديها تهز نفسي هزاً أليماً. وها أنذا أقرب شفتيَّ من شفتيها الوقحتين، القرمزيتين، اللتين ترتجفان ضحكاً وتنادياني.

يا لهذه الذكرى المخزية! سحقاً لهذا الحلم اللعين! أحلف لكم أنني قبل هذا الحلم الدنيء لم يراود خيالي أي شيء يشبه هذه الفكرة المخجلة! لا، لم يراود خيالي شيء من ذلك حتى في أحلام من هذا النوع بغير إرادة (وإن كنت قد احتفظت «بالوثيقة» مخيطةً في جيبي، وكنت أتحسسها من حين إلى حين مبتسماً ابتسامة غريبة). فمن أين جاءني هذا فجأة؟ جاءني من أن لي نفس عنكبوت! أعني أن هذا كله كان قائماً في نفسي منذ مدة طويلة على حال بذرة، وكان ثاوياً في قلبي الفاسق، فكنت «أشتهي»، ولكن الخجل كان لا يزال يصدّ قلبي، وكان فكري لا يجسر، بعدُ، أن يتصور شيئاً من هذا القبيل تصوراً واعياً. أما في الحلم فإن النفس قد عرضت كل ما كان قائماً في قلبي، فجاءت هذه اللوحة الكاملة الواضحة الدقيقة، وكانت نبوءة. هل «هذا» ما كنت أريد أن أبرهن لهم عليه حين ولَّيت في الصباح من عند ماكار إيفانوفتش؟ ولكن كفى! لا كلمة عن هذا الأمر قبل أن يحين الحين! إن هذا الحلم الذي رأيته هو من أغرب مغامرات حياتي.

Twitter: @ketab_n

الفصل الثالث

1

بعد ثلاثة أيام نهضت في الصباح فشعرت فجأة، حين وقفت على قدميَّ، أنني لن ألزم السرير بعد اليوم. لقد أحسست في كياني كله باقتراب الشفاء. لعل هذه التفاصيل كلها لا تستحق أن تسجّل. لقد تتالت أيام لم يحدث فيها شيء ذو بال، ولكنها بقيت في ذاكرتي بتمامها شيئاً هادئاً فرحاً: هذا أمر نادر في ذكرياتي. لا أريد الآن أن أصف حالتي النفسية. فلو عرف القارىء ماذا كانت لما صدَّق. فالأفضل أن يبرز هذا من الوقائع فيما بعد. ولكنني بانتظار ذلك أقول: ليتذكر القارىء ما هي «نفس عنكبوت»، ما هي نفس عنكبوت لدى إنسان يريد أن يتركهم، «هم» والعالم كله سعياً وراء «الجمال»! صحيح أن ظمئي إلى الجمال كان في ذروته، ولكن كيف تحالف هذا الظمأ إلى الجمال مع أنواع أخرى من الظمأ يالها من أنواع! ذلك ما يبقى لغزاً أعجز عن حله. ولقد كان لغزاً على الدوام، وطالما أدهشني أن يستطيع الإنسان (الإنسان الروسي خاصةً) أن يهدهد في قلبه أسمى شيء وأدنأ شيء في آن واحد، صادقاً مع ذلك صدقاً كاملاً. هل مرد هذا إلى «رحابة الفكر» التي تُعزى إلى الروسي أم مرده إلى حطة لا أكثر؟ ذلك هو السؤال.

ولكن دعونا من هذا. المهم أنه كان ثمة هدنة. لقد أدركت أن

Twitter: @ketab_n

علي أن أسترد عافيتي بأي ثمن، وبأقصى سرعة ممكنة، لأبدأ العمل في أقرب وقت، كذلك قررت أن أعيش ملتزماً قواعد الصحة، وأن أطيع الطبيب (كيف كان)، وأن أرجىء نيات القتال والعدوان بكل حكمة (وهذه ثمرة رحابة الفكر) إلى أن أخرج، أي إلى أن أشفى. كيف أمكن أن تجتمع مشاعر المسالمة ومباهج الهدنة تلك كلها مع خفقات قلبي العارمة الجامحة الأليمة ألماً لذيذاً، ومع توجس القرارات العاصفة الهوجاء التي أزمع أن أتخذها؟ لا أدري. ولكنني أعزو ذلك إلى «رحابة الفكر». أصبحت لا أشعر بالقلق الذي كنت أحسه من قبل. لقد أرجأت كل شيء إلى وقته المعيّن، دون أن أرتجف من تصور المستقبل كما كنت أرتجف من قبل أيضاً، وإنما أنا الآن أمام المستقبل رجل غني واثق بما يملك من موارد وقوى. وكانت مشاعر الغطرسة والتحدي تجاه المصير ما تنفك تزداد، ولعل ذلك يرجع قليلاً إلى شفائي الذي أصبح الآن واقعاً ملموساً، وإلى أنني استرددت طاقاتي الحيوية. وما زلت إلى الآن أتذكر، بكثير من الارتياح والسرور، تلك الأيام التي كنت قد شفيت فيها شفاء حاسماً بالفعل.

وكانوا قد غفروا لي كل شيء، غفروا لي اندفاعتي العنيفة وأقوالي القاسية هم الذين وصفتهم أمامهم أبشع وصف! هذا ما أحبه في الناس، هذا ما أسميه ذكاء القلب. أو قل إنني افتتنت بهذا الموقف على الفور، بعض الافتتان طبعاً. فمع فرسيلوف مثلاً ظللت أتحدث كما يتحدث صديقان قديمان، ولكن إلى حد لا نتجاوزه: فمتى أسرفنا في إظهار عواطفنا (وكان هذا يحدث)، أمسكنا عن الكلام كلانا فوراً، وشعرنا بشيء من الخجل. ثمة حالات لا يستطيع فيها الغالب أن يمتنع عن الخجل من المغلوب،

Twitter: @ketab_n

لا لشيء إلا لأنه غلبه. ولقد كنت أنا الغالب طبعاً، فكنت أحْمَرُّ من ذلك خجلاً.

وفي ذلك الصباح، أعني يومَ نهضت عن سريري بعد الانتكاس، جاء فرسيلوف إليَّ وعندئذ إنما علمت منه أول مرة ما كانوا قد تواطؤوا عليه في شأن ماما وماكار إيفانوفتش. وقد أضاف فرسيلوف أن الشيخ تحسنت صحته ولكن الطبيب لا يضمن شفاءه. فوعدته من كل قلبي بأن أكون في المستقبل أكثر حذراً وتروياً. وحين كان فرسيلوف يروي لي هذا كله، لاحظت فجأةً، أول مرة، أنه كان هو نفسه قلقاً على الشيخ، وأن قلقه صادق لا اصطناع فيه، أي كان قلقه يفوق كثيراً ما كان يمكن أن أتوقعه من رجل مثله، ولاحظت أنه يعده رجلاً عزيزاً، عزيزاً عليه هو، بغض النظر عن أمي. وقد شاقني هذا الأمر، بل أدهشني تقريباً. فأنا أعترف بأنني لولا فرسيلوف لفاتتني أشياء كثيرة ما كنت لأقدرها حق قدرها عند ذلك الشيخ الذي خلَّف في قلبي ذكرى من أقوى الذكريات وأبقاها وأكثرها أصالةً.

وكان يبدو على فرسيلوف أنه قلق من علاقاتي بماكار إيفانوفتش، أو قل إنه كان لا يركن إلى ذكائي ولا إلى كياستي، فلذلك ارتاح كل الارتياح فيما بعد حين أدرك أنني أيضاً قادر في بعض الأحيان على أن أفهم كيف يجب التصرف مع إنسان له آراء وتصورات مختلفة عن آرائنا وتصوراتنا كل الاختلاف، أي إنني أستطيع عند اللزوم أن أكون إنساناً مسالماً مصالحاً منفتح النفس واسع النظرة. وأعترف أيضاً (دون أن أخفض قدر نفسي فيما أظن) بأنني وجدت في هذا الإنسان الآتي من صفوف الشعب شيئاً جديداً عليَّ كل الجدة من ناحية العواطف والأفكار، شيئاً أجهله، شيئاً هو

Twitter: @ketab_n

أوضح كثيراً وأدعى إلى العزاء والسلوى كثيراً من أسلوبي في فهم الأشياء من قبل. ولكن كان يستحيل عليَّ مع ذلك ألا أغضب في بعض الأحيان حين كنت أراه يتشبث بأوهام قاطعة يؤمن بها إيماناً هادئاً ويطمئن إليها اطمئناناً ثابتاً لا يتزعزع. على أن ذلك إنما يرجع طبعاً إلى نقص ثقافته. أما نفسه فقد كانت في الواقع تنعم باتساق ونظام ما رأيت أحداً يفوقه فيهما.

2

إن ما كان يجذبني إليه قبل كل شيء آخر، كما سبق أن ذكرت ذلك، هو بساطته القصوى وخلوه من الأنانية خلواً تاماً، حتى ليحس المرء أن له قلباً بلا خطيئة تقريباً. كان قلبه عامراً «بالفرح»، وعامراً إذن «بالجمال». وكان يحب كلمة «الفرح» هذه حباً كثيراً، وكان يستعملها في كلامه كثيراً. صحيح أنه كان ينتابه في بعض الأحيان نوع من هياج مرضي، نوع من حنان مرضي لعله يرجع إلى أن الحمى لم تبارحه طوال هذه المدة. ولكن ذلك كان لا يمنع الجمال الروحي من أن يتألق فيه. وكان يتصف عدا ذلك بصفات متناقضة: فإلى جانب السذاجة الشديدة التي كانت تجعله عاجزاً عن ملاحظة السخرية عجزاً تاماً (وكان هذا يحزنني)، كان يتصف بنوع من مكر مرهف يستعمله خاصةً في المناوشات الجدلية. كان يحب الجدال، ولكنه بين الفينة والفينة، وعلى طريقته الخاصة. إن المرء يلاحظ أنه جاب في أرجاء روسيا كثيراً، وسمع كثيراً. ولكنني أعود فأقول إنه يحب الحنان أكثر من أي شيء آخر، ويحب إذن كل ما يؤدي إلى الحنان، ويحب أن يقص أموراً تثير الحنان. وكان يحب كثيراً أن يقص. لقد سمعت من فمه عدداً كبيراً من القصص عن

Twitter: @ketab_n

أسفاره، وأنواعاً من الأساطير عن الحياة الخفية التي عاشها قدامى النساك. وهذه أمور ليست معروفة عندي أو مألوفة لي، ولكنني أظن أنه كان يمزج بهذه الأساطير أشياء كثيرة جاءه معظمها مما يتناقله شعبنا فيُروى شفاهياً. كان في قصصه أشياء لا يقبلها العقل حقاً. ولكن إلى جانب هذه التحريفات الواضحة أو التلفيقات البينة كان يشيع في قصصه الزاخرة بالعاطفة الشعبية والمثيرة للحنان دائماً، شيء مضيء قوي راسخ. لقد حفظت من قصصه، مثلاً، تلك الحكاية الطويلة التي تسمي «حياة ماريا المصرية». لم أكن أعرف حتى ذلك الحين شيئاً عن حياة ماريا المصرية هذه، ولا عن حياة أحد غيرها تقريباً. ولكنني أستطيع أن أقول بصراحة: إنه يستحيل على المرء أن يسمع قصة حياة ماريا المصرية دون أن تترقرق الدموع في عينيه، لا بتأثير ما تثيره في النفس من حنان، بل بتأثير نوع من حماسة غريبة: إن المرء يحس في هذه القصة بشيء خارق حار كرمل الصحراء المحرقة التي تملؤها الأسود والتي كانت ماريا تجوبها. ولكن ليس هذا ما أريد أن أتكلم عنه، ولست من أهل الاختصاص في هذا الميدان على كل حال.

ومما أعجبني في ماكار إيفانوفتش، عدا الحنان، أنه كانت له آراء أصيلة كل الأصالة في مسائل لا تزال موضع خلاف كبير بين الناس في عصرنا هذا. ففي ذات يوم، مثلاً، روى لي قصة حديثةً عن جندي انتهت خدمته، وقد شهد ماكار الحادثة بنفسه تقريباً، فقال إن هذا الجندي حين عاد إلى بلده، وجد نفسه بين فلاحين، لم يعجبوه ولا أعجبهم. فأخذ الرجل المسكين يفقد صوابه شيئاً بعد شيء، وأخذ يشرب ويسرف في الشراب، وقام ذات يوم بعمل سلب ونهب. ولم يكن ثمة أدلة قاطعة على ارتكابه هذه الجريمة،

Twitter: @ketab_n

ولكنه اعتقل أثناء ذلك وحوكم. وقد أخذ المحامي يدافع عنه وكاد يثبت براءته لعدم توفر الأدلة، فإذا بالرجل الذي كان يصغي إلى دفاع المحامي ينهض فجأة فيقاطع المحامي قائلاً: «لا، انتظر قليلاً»، ثم طفق يروي الوقائع من أولها إلى آخرها، ويعترف بذنبه باكياً نادماً. فانسحب المحلفون وأغلقوا عليهم باب القاعة، ثم عادوا يخرجون ليعلنوا بأن «المتهم بريء». فتعالت صيحات الفرح من كل صوب. ولكن الجندي بقي جامداً في مكانه كأنه استحال عموداً، لأنه لم يفهم شيئاً، لا ولا فهم ما قاله له رئيس المحكمة حين أفرج عنه. وانصرف الجندي أخيراً وهو لا يصدق عينيه ولا يدرك ما يحدث له. واستبد به الضجر، وغرق في التفكير والتأمل، فهو لا يأكل ولا يشرب ولا يكلم من الناس أحداً. وبعد خمسة أيام شنق نفسه. قال ماكار إيفانوفتش خاتماً حديثه: «فانظر كيف تكون الحياة حين تثقل على ضمير المرء خطيئة». صحيح أن القصة لا قيمة لها، وأن أعمدة جميع الصحف في أيامنا هذه تمتلىء بحكايات من هذا النوع، ولكن الشيء الذي أعجبني إنما هو اللهجة. ومما أعجبني أكثر من اللهجة أيضاً ما كان يستعمله ماكار إيفانوفتش من ألفاظ تعبر عن فكرة جديدة حقاً. من ذلك أنه حين روى لي كيف لم يعجب الجندي الفلاحين عند عودته إلى القرية قال: «معروف ما الجندي: الجندي فلاح فسد»؛ وحين تكلم بعد ذلك عن المحامي الذي كاد يربح الدعوى قال أيضاً: «معروف ما المحامي: المحامي ضمير للتأجير». لقد وقع ماكار إيفانوفتش على هذين التعبيرين عرضاً بدون أي عناء، وبدون أن ينتبه هو نفسه إليهما. ولكنهما يشتملان على جملة تصوره لهذين الموضوعين، وهو تصور إن كان لا يمثل رأي الشعب كله فإنه يمثل رأي ماكار

Twitter: @ketab_n

إيفانوفتش تمثيلاً رائعاً. إن هذه الأحكام الجاهزة التي يصدرها الشعب في موضوع من الموضوعات تكون في بعض الأحيان حافلة بأصالة باهرة حقاً.

سألته في هذه المناسبة:

ـ ماكار إيفانوفتش، ما رأيك في خطيئة الانتحار؟

فأجابني وهو يتنهد:

ـ الانتحار أكبر خطيئة يرتكبها الإنسان. ولكن الرب هو الحاكم الوحيد، لأنه وحده يعرف كل شيء، مقاييسَ وحدوداً. وواجبنا نحن هو أن ندعو الله لأمثال هؤلاء الخطاة الكبار. فإذا سمعت عن خطيئة كهذه الخطيئة، فادع لمرتكبها دعاءً حنوناً قبل أن تنام، وتشفّع له عند الرب ولو كنت لا تعرفه، وإذا كنت لا تعرفه فإن شفاعتك تكون أجدى أيضاً.

ـ هل ينفعه الدعاء وقد حكم عليه؟

ـ ما يدريك؟ إن أناساً كثيرين لا يؤمنون، فيضلّون من لا يعلمون. فلا تستمع لهؤلاء، فإنهم لا يعرفون إلى أين هم ماضون. إن صلاة صادرة عن إنسان حي من أجل إنسان ميت تصل إلى الرب فعلاً. ولكن ما عسى يصير إليه من ليس له أحد يصلي من أجله؟ لذلك يجب عليك، حين تصلي قبل النوم، أن تضيف هذا الدعاء: «ارحم يا يسوع أيضاً جميع أولئك الذين ليس لهم أحد يصلي من أجلهم». إن هذا الدعاء نافع جداً، مبهج جداً. بل صلٍّ كذلك من أجل الخطاة الذين لا يزالون أحياء. قل «ربِّ أنقذ جميع السادرين في ذنوبهم بما تعرف من وسائل». هذه أيضاً صلاة حسنة.

وعدته بأن أتلو هذه الصلوات، لأنني أحسست أن هذا الوعد سيسره سروراً عظيماً. وقد سطع الفرح في وجهه فعلاً حين قطعت

Twitter: @ketab_n

له على نفسي هذا العهد. ولكن يجب عليَّ أن أسارع فأضيف أن ماكار إيفانوفتش كان في مثل هذه الأحوال لا ينظر إليَّ من عل، كناسك يخاطب مراهقاً غراً. بالعكس: كان يحب في كثير من الأحيان أن يصغي إليَّ، وأن ينصت إلى كلامي بدون كلل في مواضيع شتى، وكان يرى أنه إذا كان يتفوق عليَّ بالسن فإنني أتفوق عليه كثيراً بالثقافة. من ذلك مثلاً أنه كان يحب في أحيان كثيرة أن يتكلم عن النساك، وكان يضع «عزلة الصحراء» في منزلة أعلى كثيراً من منزلة «جوب الآفاق»، فكنت أوجه إليه اعتراضات شديدة حارة، وأُلِحُّ على أنانية هؤلاء الناس الذين يهجرون العالم، ويتركون ما يستطيعون أن يقدموه للإنسانية من خير، لا لشيء إلا خلاص أنفسهم. فلم يفهمني في أول الأمر، بل لعله لم يفهمني في لحظة من اللحظات، ولكنه ظل يدافع عن عزلة الصحراء قائلاً: «إن المرء يشفق على نفسه في أول الأمر طبعاً (أي حين يستقر في الصحراء)، ثم يغتبط يوماً بعد يوم، ولا يزال يزداد اغتباطه إلى أن يرى الرب آخر الأمر». فأخذت أصوِّر له تصويراً كاملاً ما يقوم به العالم والطبيب وصديق الإنسانية عامةً من عمل مفيد، فاستطعت أن أصل به إلى حماسة صادقة، لأنه أخذ هو نفسه يتكلم عن هذا بحرارة، وكان يؤيدني في بعض اللحظات قائلاً: «نعم يا بني نعم، باركك الله، إنك على حق!». ولكنه، حين فرغت من كلامي، لم يوافقني مع ذلك موافقة تامة، وقال متنهداً تنهداً عميقاً: «هذا كله حسن، ولكن هل هم كثيرون أولئك الذين يصمدون ويواظبون على الاهتمام بسعادة الآخرين؟ إذا لم يكن المال إلهاً فهو نصف إله. إنه إغراء كبير. ثم هناك المرأة أيضاً، ثم هناك الشك، ثم هناك الحسد. فإذا بالمرء ينسى القضية الأساسية، ويمضي يهتم بالأمور

Twitter: @ketab_n

الصغيرة. وليس الأمر كذلك في عزلة الصحراء. ففي عزلة الصحراء يقوّي المرء نفسه للقيام بجميع المبرات والأعمال المقدسة. نعم يا صديقي. أما في العالم فماذا يحدث؟» ثم هتف يقول بعاطفة خارقة: «أليس العالم حلماً لا أكثر؟ خذ رملاً وابذره على حصى، فإذا نبت الرمل الأصفر فوق الحصى فسوف يتحقق حلمك في العالم». هذا ما يقولونه عندنا. أما عند المسيح فيقال: «إمض وزِّع ثروتك، واجعل نفسك خادماً للجميع»، فتصبح عندئذ أغنى مما كنت ألف مرة. ذلك أن السعادة لا يصنعها الطعام وحده، ولا الثياب الثمينة، ولا الزهو والحسد، وإنما يصنعها حب لا نهاية له. إن ما ستكسبه حينذاك ليس ثروة ضئيلة، ولا مائة ألف، ولا مليوناً، وإنما أنت ستكسب الكون بأسره! نحن الآن نجمع المال بدون شبع، ونتلفه بجنون. أما حينذاك فلن يبقى يتامى ولا فقراء، لأن الجميع لي أنا، لأن الجميع أقربائي، كسبتهم جميعاً، اشتريتهم إلى آخرهم. ليس بالأمر النادر أن نرى اليوم أناساً أغنياء أو أناساً من أصحاب الشأن لا يهتمون بعدد أيامهم، ولا يعرفون هم أنفسهم ما عساهم يخترعون من تسليمات. أما حينذاك فإن أيامك وساعاتك ستتضاعف ألف مرة، لأنك لن تريد أن تضيِّع دقيقة صغيرة واحدة، وستشعر في كل دقيقة من حياتك بالفرح في قلبك. وعندئذ سوف تكتسب الحكمة لا من الكتب وحدها، لأنك ستكون مع الرب نفسه وجهاً لوجه. وسوف تتألق الأرض عندئذ أكثر مما تتألق الشمس، ولا يكون حزن ولا يكون تأوه، ولا يبقى إلا جنة واحدة لا تُقَدَّر بثمن. . .».

تلك هي نوبات الحماسة التي كان يحبها فرسيلوف فيما أظن حباً عظيماً. ولقد اتفق أن كان فرسيلوف هذه المرة في الغرفة.

Twitter: @ketab_n

قاطعت ماكار إيفانوفتش فجأة لأقول وقد فارت حماستي أنا أيضاً (إنني أتذكر تلك السهرة):

ـ ماكار إيفانوفتش! إن ما تنادي به وتدعو إليه هو الشيوعية، هو شيوعية حقيقية!

وإذ كان لا يعرف أي شيء عن المذهب الشيوعي، حتى إنه يسمع هذه الكلمة الآن أول مرة، فقد أخذت أعرض له كل ما كنت أعرفه عن المذهب الشيوعي. أعترف أن ما كنت أعرفه ضئيل وغامض، وأنني حتى الآن لست حجةً في هذا الموضوع، غير أن القليل الذي كنت أعرفه قد عرضته بحرارة وحماسة رغم كل شيء. ما زال يسرني أن أتذكر التأثر الخارق الذي أحدثته في الشيخ، بل أستطيع أن أقول إن ما أحدثته فيه لم يكن تأثراً بل كاد يكون هزة. وقد اهتم بالتفاصيل التاريخية، فكان لا ينفك يسألني: «أين؟ كيف من فعل هذا؟ من قال هذا؟ . . . وكنت قد لاحظت على كل حال أن هذه خاصة من خصائص الشعب: إن الشعب متى اهتم بشيء اهتماماً كبيراً، لم يكتف بالفكرة العامة بل طالب بالتفاصيل حتماً. ولقد أربكتني التفاصيل وتهت في شعابها، وإذ كان فرسيلوف يستمع إلى حديثي، فقد خجلت منه قليلاً، ولكنني ازددت من ذلك حماسة واندفاعاً. وأصبح ماكار إيفانوفتش في النهاية، وقد ذاب حناناً، لا يزيد على أن يعقب على كل كلمة من كلماتي بقوله: «نعم نعم»، ولكن كان واضحاً أنه لا يفهم عني ولا يتابع سلسلة حديثي. وقد ضايقني هذا، ولكن فرسيلوف قاطعني فجأةً، ونهض معلناً أنه آن أوان النوم. وكانت الأسرة كلها مجتمعة، وقد طالت السهرة. وحين جاء فرسيلوف بعد بضع دقائق يلقي نظرة على غرفتي أسرعت أسأله عن نظرته إلى ماكار إيفانوفتش، وعن رأيه فيه عامةً. فضحك

Twitter: @ketab_n

ضحكة فرحة (ليست تهكماً على أخطائي في حديثي عن الشيوعية، فإنه لم يتكلم عن هذا الأمر). أعود فأقول: إن فرسيلوف كان شديد الالتصاق بماكار إيفانوفتش، وكثيراً ما فاجأت على وجهه ابتسامة فتانة حين كان ينصت إلى الشيخ. ولكن هذه الابتسامة كانت لا تمنع النقد. بادر فرسيلوف يقول:

ـ قبل كل شيء، ليس ماكار إيفانوفتش فلاحاً، وإنما هو قن خادم كان أبوه قناً خادماً. فهؤلاء الأقنان الخدم كانوا يشاركون أسيادهم جوانب كثيرة من حياتهم الخاصة الفكرية والروحية، في العهد الماضي. لاحظ أن ماكار إيفانوفتش لا يزال حتى اليوم يهتم اهتماماً خاصاً بوقائع حياة الأسياد والأرستقراطية. إنك لا تعلم بعدُ مدى ولعه وشغفه ببعض الأحداث التي جرت في بلادنا في الآونة الأخيرة. هل تعلم أنه شديد الاهتمام بالسياسة؟ هذا رجل لا يكفيه أن تحكي له كلاماً عاماً، وإنما يجب عليك أن تذكر له كل شيء: من الذي قام بالحرب؟ هل سنقوم بالحرب أيضاً...؟ ما أعظم البهجة التي هيأتها له في الماضي بأحاديث من هذا النوع! وهو يحترم العلم كثيراً؛ ومن بين جميع العلوم يفضّل علم الفلك. عدا هذا يجب أن نذكر أن له في الأمور آراء مستقلة يستحيل أن تزحزحه عنها. إن له اقتناعات ثابتة وواضحة... ومخلصة! ورغم جهله فإنه قادر على أن يدهشك فجأةً بمعرفته بأمور ما كان لك أن تتصور أن يعرفها. هو يمدح لك عزلة الصحراء بحماسة ولكنه لن يعتكف في الصحراء بحال من الأحوال، لا ولن يدخل الدير، فإنما هو خاصةً «متشرد»، كما سماه بهذا الاسم اللطيف ألكسندر سيمنوفتش الذي يجب أن أذكر لك في هذه المناسبة أنك تخطىء إذا أنت آخذته وحقدت عليه. ماذا أيضاً؟ هو كذلك فنان قليلاً، له

Twitter: @ketab_n

كلمات من ابتداعه وكلمات ليست من ابتداعه. منطقه ليس سليماً كل السلامة. إنه تارةً يسبح في عالم مجرد، وتارة يغوص في عاطفية شديدة، ولكن عاطفيته عاطفية شعبية صافية، أو قل إنها نوبات من ذلك الحنان الذي يتصف به شعبنا ويدخله في شعوره الديني ولن أتكلم عن نقاء قلبه وطيب نفسه: فليس الحديث عن هذا من شأننا نحن...

3

كي أنتهي من رسم صورة ماكار إيفانوفتش، سأنقل الآن قصة من قصصه، مستمدةً من حياته الخاصة. إن لقصص ماكار إيفانوفتش طابعاً غريباً، بل قل إنها لا يجمعها طابع مشترك. يستحيل عليك أن تستخرج منها أخلاقاً معينة أو اتجاهاً عاماً، اللهم إلا كونها مثيرة للحنان جميعاً. غير أن بينها قصصاً لا تتصف بهذه الصفة، حتى إن بينها قصصاً مرحة فكهة تشتمل على سخريات من بعض الرهبان الفاسدين، وهذه قصص كانت روايتها تسيء إلى فكرته، وقد نبهته أنا إلى هذا، ولكنه لم يفهم ماذا أردت أن أقول. وكان يصعب على المرء أحياناً أن يحزر ما الذي كان يدفعه إلى رواية هذه القصص، حتى لقد استغربت منه هذا الإكثار من الكلام، فعزوته إلى شيخوخته وإلى حالته المرضية.

همس فرسيلوف يقول لي يوماً:

ـ ليس الآن كما كان في الماضي. إن وفاته قريبة، إنها أقرب كثيراً مما نظن. فيجب أن نكون متأهبين.

نسيت أن أقول إن «سهرات» مطردة كانت قد استقرت عادة عقدها عنده؛ فعدا ماما التي كانت لا تترك ماكار إيفانوفتش، كان

Twitter: @ketab_n

يأتي فرسيلوف إلى غرفته كل مساء، وكنت آتي أنا أيضاً، ولم يكن ثمة مكان آخر أذهب إليه على كل حال؛ وفي الأيام الأخيرة أصبحت تأتي ليزا في العادة ولو أنها تصل متأخرة عن الآخرين وتظل صامتةً طوال الوقت تقريباً؛ وكانت تأتي تاتيانا بافلوفنا، وكان يجيء الطبيب أيضاً ولكن مجيئه نادر. ولا أدري كيف رأيتني أصبح قريباً من الطبيب. صحيح أنني لم أقترب منه كثيراً، ولكنني على كل حال أصبحت لا أثور عليه كما كنت من قبل. إن ما أعجبني فيه نوع من بساطة لاحظتها أخيراً، ونوع من التعلق بأسرتنا، فقررت أن أغفر له غروره الطبي، وعلمته عدا ذلك أن يغسل يديه وأن يعنى بأظافره، أما أن يلبس قميصاً نظيفاً فذلك أمر لم أفلح في أن أحمله عليه. وقد أفهمته أنني لا أطلب منه هذا حرصاً على الأناقة، وتعلقاً «بالفنون الجميلة»، وإنما أنا أطلبه منه لأن النظافة جزء من وظائف الطبيب نفسها مبرهناً له على ذلك بالحجة الدامغة. وكانت لوكيريا تأتي من مطبخنا في أحيان كثيرة فتقف وراء الباب منصتةً إلى ما يرويه ماكار إيفانوفتش. وقد دعاها فرسيلوف يوماً أن تدخل فتجلس معنا. فأعجبني منه هذا. ولكنها انقطعت منذ ذلك اليوم عن المجيء. إن لها طبعها!

أحب أن أسوق الآن قصة من قصص ماكار إيفانوفتش وقع عليها اختياري عرضاً لسبب واحد هو أنني أحفظها أكثر مما أحفظ القصص الأخرى. هي قصة تاجر، وأظن أن مدننا الكبيرة والصغيرة تجري فيها آلاف من القصص تشبهها، فيكفي أن نحسن النظر حتى نراها. وللقارىء أن يقفز فوق هذه القصة إذا شاء، لا سيما وأنني أرويها بأسلوب صاحبها.

4

Twitter: @ketab_n

حدث هذا عندنا، بمدينة آفيميافو. سأحكي لكم الآن هذه المعجزة. كان يوجد تاجر اسمه سكوتوبوينيكوف، مكسيم إيفانوفتش. لم يكن في المقاطعة أحد أغنى منه. كان قد بنى مصنع نسيج يشغِّل مئات من العمال. وهذا كبَّر رأس الرجل. ويجب أن نذكر أن جميع الناس كانوا يخضعون لأوامره. وكانت السلطات لا تضع له العصي في العجلات. وكان الأرشمندريت يشكر له همته وحماسته، إذ كان يقدم للدير هبات كثيرة، وكان في بعض الأحيان، إذا بدا له أن يفعل ذلك، يتكلم كثيراً عن الروح، ويهتم اهتماماً شديداً بالحياة الآخرة. وكان أرمل، ولم يكن له أولاد. عن زوجته كانت تجري شائعات تقول إنه أساء معاملتها كثيراً في السنة الأولى من زواجهما، مستعملاً قبضتي يديه في أكثر الأحيان. أما أن يتزوج مرة أخرى فذلك أمر لا يخطر له ببال. وكان يحب الشراب أيضاً. فإذا شرب رآه الناس يركض في أرجاء المدينة ثملاً، خالعاً ثيابه، صارخاً. والمدينة صغيرة، فجميع الناس يعرف بعضهم بعضاً. حتى إذا صحا من سكره عاد رجلاً جاداً، كلُّ رأي يراه فهو الصواب، وكل أمر يصدره فهو يعرف كيف يصدره. مع الناس كان يصفي حساباته كما يشاء هواه. ها هو ذا يمسك عدادته ويضع نظارتيه ـ: «أنت يا فوما، كم لك عليَّ؟» فيجيبه فوما: «لم أقبض شيئاً منذ عيد الميلاد يا مكسيم إيفانوفتش. لي عليك تسعة وثلاثون روبلاً». فيقول: «لا، هذا كثير! هذا كثير عليك! أنت لا تساوي تسعة وثلاثين روبلاً. هذا لا يناسبك أبداً! يجب أن نخصم عشرة روبلات. خذ هذه تسعة وعشرون!». فلا يقول فوما شيئاً. لا أحد يمكن أن يتفوه بكلمة. صمت عام.

ـ أنا أعرف كم يجب أن يُدفع له. هذا هو التصرف الواجب مع

Twitter: @ketab_n

هؤلاء الناس. الناس هنا فاسدون لولاي أنا لماتوا جوعاً منذ زمن طويل. لماتوا كلهم بدون استثناء. أكرر لكم أنهم جميعاً لصوص: عيونهم أكبر من بطونهم. وليس لهم قلوب تتحرك. زد على ذلك أنهم سكِّيرون: متى دفعت لهم راتبهم حملوه إلى الحانة ثم لم يخرجوا منها إلا عرياً لا يستر جسمهم شيء، عرياً كدودة. ثم إنهم أوغاد: اجلس على صخرة أمام الحانة واسمع أنينهم وشكواهم: «لماذا ولدتني يا أمي العزيزة، أنا السكير المسكين؟ لماذا ولدت هذا السكِّير؟ كان الأفضل أن تخنقيه منذ ولد!». أهذا إنسان؟ بل هو حيوان لا إنسان. يجب أن نربيه أولاً، وبعد ذلك نعطيه مالاً. أنا أعرف متى يجب أن يُعطى أحدهم مالاً.

هكذا كان يتكلم مكسيم إيفانوفتش عن أهل آفيميافو. لم يكن ذلك حسناً منه. ولكنه ليس وحده مخطئاً. كان سكان مدينتنا ضعافاً لا يملكون قوة الإرادة.

وكان يوجد في تلك المدينة نفسها تاجر آخر. ولكن هذا التاجر الآخر مات. كان شاباً وطائشاً، فأفلس وفقد كل رأس ماله. كان في السنة الأخيرة يخبط كسمكة على الرمل، ولكن ساعته كانت قد حانت. وكانت علاقاته بمكسيم إيفانوفتش شجاراً مستمراً، وكان مديناً له بمبالغ كبيرة. حتى وهو على فراش الموت، حين كان يلفظ أنفاسه الأخيرة، كان يلعن مكسيم إيفانوفتش. ومات الرجل تاركاً زوجة شابة وأطفالاً خمسة وأماً أرملة؟ سنونو بلا مأوى. هذه محنة قاسية، ولا سيما مع خمسة أولاد لا تعرف الأم من أين تطعمهم. وكان كل ما بقي لهم بيتاً صغيراً من خشب انتزعه مكسيم إيفانوفتش سداداً لديونه. وإليكم ما فعلته الأرملة: صفَّت أطفالها الخمسة أمام باب الكنيسة: إن أكبرهم صبي عمره ثماني سنين؛

Twitter: @ketab_n

والأطفال الآخرون كلهم بنات صغيرات. كبراهن عمرها أربع سنين، صغراهن لا تزال ترضع. فلما انتهى القداس، خرج مكسيم إيفانوفتش من الكنيسة، فركع الأطفال الأربعة أمامه (كانت أمهم قد علمتهم هذا الدرس)، وضم كل منهم يديه الصغيرتين متضرعاً، وانحنت الأم إلى الأرض وهي تحمل الطفل الخامس على ذراعيها، انحنت محيية مكسيم إيفانوفتش قائلةً له على مسمع من جميع الناس: «يا سيدي الطيب مكسيم إيفانوفتش، ارحم أطفالاً يتامى، ولا تنتزع منهم آخر لقمة، لا تطردهم من عش أبيهم!». جميع الذين رأوا المشهد ذرفوا دموعاً. أحسنت الأم تعليم أطفالها الدرس. قدَّرت أن مكسيم إيفانوفتش لا بد أن يخجل أمام الناس، فيغفر ويرد البيت إلى اليتامى. ولكن حدث غير هذا. وقف مكسيم إيفانوفش وقال: أيتها الأرملة الشابة، أنت تريدين زوجاً، وليس من أجل الأطفال تبكين. زوجك لعنني وهو على فراش الموت! ومضى مكسيم إيفانوفتش ولم يردَّ البيت. قال: «كيف تنطلي عليَّ ألاعيبهم؟ إن أنت أكرمت اللئيم تمردا لا يفيد هذا كله في شيء، ولا يؤدي إلا إلى فوضى!». وكان يتناقل الناس في المدينة أن مكسيم إيفانوفتش، قبل عشر سنين، قد عرض على هذه الأرملة التي كانت يومئذ فتاة بارعة الجمال، مبلغاً ضخماً من المال، ناسياً أن هذه الخطيئة كخطيئة تدمير كنيسة من كنائس الرب. ولكنه لم يظفر منها بشيء. وكان قد ارتكب أعمالاً قذرة من هذا النوع في المدينة بل في المقاطعة كلها. ولكنه في هذه المرة جاوز الحدود.

أخذت المرأة تعول مع صغارها. وطرد مكسيم إيفانوفتش الأيتام من البيت، لا حباً بالشر فحسب، بل لأن المرء في بعض الأحيان يجهل هو نفسه سبب عناده وإصراره على فكرته. وقد هبَّ بعض

Twitter: @ketab_n

الناس إلى مساعدة الأرملة في البداية، ثم مضت بعد ذلك تلتمس عملاً. ولكن ما عسى يجني المرء من العمل عندنا في غير المصنع؟ تغسل أرضاً هنا، وتعزق حديقة هناك، وتوقد حماماً هنالك، وعلى ذراعيها طفل يبكي وفي الشارع أربعة صغار يركضون عراةً إلا من قميص؟ حين أركعتهم أمام الكنيسة كانوا لا يزالون ينتعلون أحذيتهم الصغيرة، ويرتدون معاطفهم الصغيرة، كأولاد التجار. أما الآن فإنهم يركضون حفاة. تعلمون أن الثياب تبلى بسرعة بسبب نموّ أجسام الأطفال. وعلى كل حال فالأطفال لا يحتاجون إلى أشياء كثيرة ما ظلت الشمس تطلع. هم في ذلك الفصل لا يحسون بالبؤس، بل ينطلقون سعداء، يزقزقون كالعصافير، وترن أصواتهم رنين الأجراس الصغيرة. كانت الأرملة تقول: «سيأتي الشتاء فما عساني صانعة بكم؟» ليت الرب يأخذكم إليه!» ولكنها لم تضطر إلى الانتظار حتى حلول الشتاء. انتشر في مقاطعتنا مرض سعال أطفال، فكان يسري من طفل إلى طفل. فماتت البنت الرضيع أولاً، ومرض الآخرون فماتت البنات الأربع في ذلك الخريف نفسه. ولكن واحدةً منهن لم تمت من المرض بل ماتت لأن عربة داستها في الشارع. فماذا الذي تظن أنه حدث؟ دفنت الأم بناتها باكية معولة. كانت قبل ذلك تلعنهن وتدعو لهن بالموت، فلمّا أخذهن الرب إليه؛ طفقت تنتحب وتتشنج. هكذا قلوب الأمهات!

لم يبق لها إلا ابنها البكر. فكانت ترتعش خوفاً عليه، حتى لتكاد تختنق اختناقاً. وكان الولد نحيلاً رقيقاً، وكان له وجه لطيف كأنه بنت. مضت بالولد إلى المصنع، فعهدت به إلى عرّابه الذي كان مديراً. وذهبت هي تعمل خادمةً في بيت أحد الموظفين. وفي

Twitter: @ketab_n

يوم من الأيام كان الولد يركض في الحوش، فإذا بمكسيم إيفانوفتش يصل راكباً عربته، وكان مخموراً كأنما بمصادفة. وكان الولد قد هبط السلم، فانزلق وصدمه لحظة كان ينزل من عربته، ووضع كلتا يديه على بطنه. فأمسك مكسيم شعر الولد، وصاح يسأل: «لمن هذا الولد؟ هاتوا السياط! اجلدوه فوراً، أمامي». كاد الولد أن يموت خوفاً، وأخذوا يجلدونه، فكان يصرخ. قال مكسيم: «تصرخ أيضاً؟ اجلدوه إلى أن يكف عن الصراخ!». جلدوه مزيداً من الجلد، إلى أن أشرف على الموت فعلاً. فتوقفوا عن جلده، وارتاعوا: أصبح الطفل لا يتنفس، وظل راقداً مغشياً عليه. لقد قيل فيما بعد أنه لم يجلد كثيراً، ولكنه كان طفلاً شديد الخوف جداً. وارتاع مكسيم إيفانوفتش نفسه. وسأل: «لمن هذا الولد؟». فقالوا له من هو. فقال: «هكذا إذن! إحملوه إلى أمه. ماذا جاء به إلى المصنع يسرح فيه ويمرح؟». وبعد يومين سأل: «ما أخبار الولد؟». وكانت الأخبار سيئة: كان الولد مريضاً، راقداً في ركن عند أمه، لأن أمه تركت عملها في هذه المناسبة. كان الولد مصاباً باحتقان في الرئة. قال مكسيم: «عجيب! لماذا؟ إنه لم يُضرب كثيراً. وإنما خُوِّف تخويفاً فحسب. لقد ضربت جميع الأولاد الآخرين مثلما ضربته، فلم يحدث شيء». وكان يتوقع أن تشكو المرأة أمرها إلى القضاء. فكان يتكبَّر ويتعالى. ولكن أنَّى للمرأة أن تشتكي! لم تجرؤ. عندئذ أرسل إليها خمسة عشر روبلاً، وأوفد لها طبيباً. فعل هذا لا لأنه كان خائفاً، بل فعله هكذا، بعد تفكير. ثم أصابته نوبة إقبال على الخمر، فلم يصح من سكره مدة ثلاثة أسابيع.

وانقضى الشتاء. حتى إذا كان الفصح، سأل في يوم العيد مرة

Twitter: @ketab_n

أخرى: «ما أخبار الولد؟». لقد صمت طول الشتاء لا يسأل أبداً. قيل له: «الولد شفي، وهو عند أمه، والأم تعمل خادمة في النهار». ذهب مكسيم إيفانوفتش إلى الأرملة، ولكنه لم يدخل البيت، بل استدعاها إلى المدخل، وبقي في عربته. قال لها: «اسمعي أيتها الأرملة المحترمة، أنني أريد لابنك الخير، أريد أن أكون المحسن إليه، وأن أغدق عليه نعمي بغير حدود: آخذه إلى منزلي منذ اليوم. فإذا أعجبني قليلاً تركت له مبلغاً كبيراً، وإذا أعجبني إعجاباً تاماً جعلته وريثي بعد موتي وتركت له كل ثروتي كأنه ابني، ولكنني أفعل هذا بشرط واحد: أن لا تجيئي إلى بيتي أبداً، إلا في الأعياد الكبيرة. قال هذا وانصرف. وبقيت الأم كالمجنونة. سمع الناس كلام مكسيم، فقالوا للأم: «حين يكبر الولد فسوف يلومك كثيراً إذا أنت حرمته من هذا الحظ». فظلت الأم تبكي ابنها طول الليل، حتى إذا طلع الصبح اصطحبته إلى مكسيم. فكان الولد أقرب إلى الموت منه إلى الحياة.

ألبسه مكسيم إيفانوفتش كما يلبس سيد صغير، واستأجر له معلماً، ووضعه بين الكتب منذ تلك اللحظة. أصبح لا يحوِّل عنه بصره، ويجلسه إلى جانبه دائماً. فمتى تثاءب الطفل انبرى يقول له: «خذ كتاباً وادرس! أريد أن أجعلك رجلاً». ولكن الولد كان ضعيفاً هزيلاً منذ طفولته، منذ جُلد بالسياط. وكان يسعل. فكان مكسيم إيفانوفتش يقول مدهوشاً: «إذن فالحياة عندي لا تروقه. كان عند أمه يركض حافي القدمين، ولا يأكل إلا كسرات خبز، ثم ها هو ذا الآن أشد هزالاً مما كان». فقال له المعلم: «الأطفال يحتاجون إلى الركض، ولا يستطيعون أن يقضوا الوقت كله في الدرس، فلا بد لهم من الحركة...». شرح له ذلك كله مدعوماً

Twitter: @ketab_n

بالحجج. فقال مكسيم إيفانوفتش: «ما تقوله حق». المعلم هو بطرس ستيبانوفتش حفظه الله. رجل طيب يشبه أن يكون «مجذوباً». كان يحب الشراب، بل كان يسرف قليلاً في الشراب، لذلك طرد من جميع الوظائف التي عين لها، فكان يعيش على الصدقات تقريباً. ولكنه كان دماغاً كبيراً، كان قوياً في العلوم. حتى لقد كان يقول بينه وبين نفسه: «هذا ليس مكاني، فإنما يجب أن أكون أستاذاً بالجامعة. أما هنا فأنا في الوحل «حتى صارت ثيابي تتقزز مني». وهذا مكسيم إيفانوفتش ينادي الطفل صارخاً فيقول له: «هيَّا اركض»، وكان الطفل لا يكاد يستطيع التنفس أمامه. حتى لقد صار لا يستطيع أن يحتمل صوته. فأخذ يرتجف. فازدادت دهشة مكسيم إيفانوفتش وقال: «أخرجته من الوحل، وألبسته ناعم الثياب، ونعلته بأحسن الجلد، وجعلت له قميصاً مطرزاً، وعاملته كما يعامل ابن جنرال، ثم هو لا يزال غير متعلق بي! ما باله ينظر إليَّ كما ينظر صغير الذئب؟». منذ مدة طويلة أصبح لا يندهش أحد من صدور أي شيء عن مكسيم إيفانوفتش. ولكن الناس عادوا يدهشون: إنه مرتبط بالولد أشد الارتباط، لا يستطيع أن يفارقه، ولا يعرف ماذا يتخيل من أجله. وكان يقول: «إني أفضِّل أن أُشنق على أن أعجز عن تغيير طبعه. لقد لعنني أبوه وهو على فراش الموت بعد أن تناول القربان المقدس. إنه صورة أبيه!».

لم يجلده مرةً واحدة (كان خائفاً أشد الخوف منذ المرة الأولى) وكان الطفل مروَّعاً بدون جلد، فما الحاجة إلى جلده؟

حينئذ حدث الحادث. ففي ذات يوم، بعد أن خرج مكسيم من الغرفة، ترك الطفل كتابه وصعد على كرسي، ليأتي بشيء له وقع على خزانة ملابس، فأراد أن يلتقطه، ولكن كمه اشتبكت بمصباح

Twitter: @ketab_n

من الخزف كان على الخزانة، فسقط المصباح على الأرض وتهشم متناثراً ألف قطعة. دوّى صوت سقوط المصباح في المنزل كله، وكان المصباح تحفة ثمينة من خزف ساكس. سمع مكسيم صوت سقوط المصباح من الغرفة الثالثة، فأخذ يزأر. ذعر الولد ذعراً شديداً، وأسرع يولي هارباً إلى الشرفة، ثم اجتاز الحديقة، وخرج من الباب الخلفي حتى صار على رصيف النهر. كان هناك شارع تزينه شجيرات مزهرة. مكان رائع الجمال. وهرع الولد إلى الماء، ورآه الناس، حتى إذا صار على حافة النهر، في الموضع الذي ترسو فيه معدية، باعد ذراعيه، ثم لعله خاف من الماء فبقي جامداً في مكانه. المكان عريض، والنهر سريع، والقوارب تمر؛ وفي الجهة الأخرى دكاكين وميدان وكنيسة ذات قباب من ذهب يسطع. وفي تلك اللحظة كانت الكولونيلة فرتسنج تهبط نحو النهر مع ابنتها. كان بمدينتنا كتيبة مدفعية. وابنة الكولونيلة صبية في الثامنة من عمرها هي أيضاً، ترتدي فستاناً أبيض. نظرت إلى الولد وضحكت. وكانت تحمل بيدها قفصاً صغيراً من خشب فيه قنفذ. قالت لأمها: «انظري إلى الصبي كيف يتطلع إلى قنفذي يا ماما». فقالت الأم: «لا بل هو خائف من شيء ما. لماذا تبدو خائفاً هذا الخوف الشديد أيها الصبي اللطيف؟ ما أحسن ثيابه! من أنت يا ابني؟» (هذا ما رُوي فيما بعد). ولم يكن هو قد رأى قنفذاً من قبل. فاقترب ونظر. نسي ما كان فيه. هكذا الأولاد! قال يسأل: «ما هذا الذي معك؟». أجابت الآنسة: «قنفذ. اشتريناه منذ قليل من فلاح وجده في الغابة». قال الصبي: «وما القنفذ؟». وضحك. وأراد أن يلمسه بإصبعه، فانتفش القنفذ، وضحكت البنت، وقالت: «سنأخذه إلى البيت فنؤنِّسه». قال الصبي «أعطيني قنفذك!» طلب

Twitter: @ketab_n

منها ذلك هكذا، بلطف. ولكن ما أن أنهى جملته حتى كان مكسيم إيفانوفتش يصرخ من أعلى: «آ. . . هذا أنت! أوقفوه!» (كان مكسيم قد بلغ من شدة الغضب أنه خرج من البيت بدون قبعة). تذكر الطفل كل شيء، وصرخ، وتقدم نحو الماء ضاماً يديه الصغيرتين إلى صدره، ونظر إلى السماء (رأوه ينظر إلى السماء)، وألقى نفسه في النهر. فتعالى الصراخ في كل صوب، واندفع ناس من المعدية يلقون أنفسهم في النهر عسى أن ينتشلوه، ولكن الماء كان قد جرفه، فالنهر سريع، حتى إذا أخرجوه كان قد فارق الحياة. لم يتحمل الماء بسبب ضعف صدره. لم يحتج إلى وقت طويل حتى يموت. ما يسمع الناس في بلادنا قبل ذلك اليوم عن طفل مات منتحراً. خطيئة كبرى! ما عساها تقول للرب في السماء، هذه النفس الصغيرة؟

منذ ذلك الحين أخذ مكسيم إيفانوفتش يفكر في المسألة. وتبدلت حاله، حتى صار المرء ينكره ولا يعرفه. حزن حزناً كبيراً. وأخذ يشرب. أخذ يشرب كثيراً. ثم انقطع عن الشراب: لم ينفعه شيء. وانقطع أيضاً عن الذهاب إلى المصنع. وأصبح لا يصغي إلى أحد. إذا كلموه لم يجب، أو حرك يده مشيراً إلى أنهم يضجرونه. وانقضى شهران، ثم صار يكلم نفسه. صار يسير وهو يكلم نفسه. وشبت النيران في قرية فاسكوفا، بقرب المدينة، فالتهمت تسعة بيوت. ذهب مكسيم إلى الحريق ليرى. نظر إليه المصابون وأخذوا ينتحبون: فوعد بأن يمد إليهم يد المعونة، وأصدر أمره بذلك، حتى إذا رجع إلى بيته استدعى وكيله وألغى كل ما وعد به، قائلاً له: «لا تعطهم شيئاً»، ولم يذكر السبب. قال يحدث نفسه: «إن الرب خلقني شيطاناً، وجعلني بليةً لسائر البشر،

Twitter: @ketab_n

فليكن ذلك! وقد طارت سمعتي في الناس سريعة كالريح». وجاءه الأرشمندريت بنفسه في يوم من الأيام: إنه راهب عجوز قاس أدخل على الدير أسلوب الحياة المشتركة. قال له الأرشمندريت بلهجة قاسية: «ما هذا السلوك الذي تسلكه»، فأجابه مكسيم: «هكذا!» وفتح له كتاباً وأشار له إلى فقرة من الكتاب:

«من أعثر أحد هؤلاء الصغار المؤمنين بي فخير له أن يعلَّق في عنقه حجر الرحى ويُغرق في لجة البحر» (إنجيل متى، الإصحاح الثامن عشر، 6).

قال الأرشمندريت:

ـ نعم، هذا لم يُذكر في هذه المناسبة، رغم أن ثمة علاقة. ما أشقى الإنسان الذي يتجاوز الحدود! إنه يضيع نفسه. وأنت قد أسرفت في الارتفاع.

تصلب مكسيم إيفانوفتش، حتى لكأنه أصيب بداء التيتانوس.

قال له الأرشمندريت:

ـ اسمع واحفظ. لقد قيل: «كلام المكروب اليائس تحمله الرياح». وتذكر أيضاً ما يلي: ملائكة السماء نفسها ليست كاملة، والكامل الوحيد المبرأ من الخطيئة إنما هو الرب، يسوع المسيح، الذي تخدمه الملائكة. ثم إنك لم تشأ موت ذلك الطفل. كل ذنبك أنك كنت متهوراً قليل التبصر والتروي. غير أن هناك ما يملأ نفسي دهشة: لقد سبق أن ارتكبت سيئات كثيرة أخرى؛ ما أكثر الذين جعلتهم متسولين متشرّدين، ما أكثر الذين أفسدت أخلاقهم، ما أكثر الذين دفعتهم إلى الموت دفعاً، فكأنك قتلتهم! وأولئك البنات الصغيرات، أخواته، ألم يمتن قبله هن الأربع على مرأى منك تقريباً؟ فلماذا ينفرد هو بإدخال الاضطراب إلى نفسك؟ أتراك نسيت

Twitter: @ketab_n

جميع السوابق ناهيك عن الأسف لها والندم عليها؟ ما بالك ترتاع هذا الارتياع الشديد كله لموت هذا الطفل الذي لم تكن أنت مسؤولاً عن موته كل المسؤولية؟

تمتم مكسيم إيفانوفتش يقول:

ـ لأنني أراه في المنام.

ـ ثم ماذا؟

ولكن مكسيم إيفانوفتش لم يكشف للأرشمندريت عن شيء، وظل صامتاً. فدهش الأرشمندريت وانصرف: لا فائدة!

عندئذ أرسل مكسيم إيفانوفتش من يستدعي له المعلم، بطرس سيتبانوفتش. إنهما لم يلتقيا منذ حدث الحادث.

قال له:

ـ هل تتذكر؟

ـ أتذكر.

ـ سمعت أنك رسمت لوحات بالزيت للمطعم، وأنك تنسخ الآن صورة للمطران. هل تقدر أن ترسم لي لوحةً بالألوان؟

ـ نعم، أقدر. إنني أملك جميع المواهب، وأقدر على كل شيء.

ـ ارسم لي إذن لوحة، أكبر لوحة ممكنة، لوحةً تحتل الجدار كله. ضع فيها النهر، والمنحدر، وجميع الناس الذين رأوا المشهد. ضع الكولونيلة وابنتها والقنفذ. وارسم الشاطىء الآخر كله بحيث يراه الناظر كما هو: الكنيسة والميدان والدكاكين والمكان الذي ترابط فيه العربات، ارسم كل شيء كما هو في الواقع. وارسم الولد أمام المعدية، على ضفة النهر، في ذلك المكان نفسه، واجعل يديه مضمومتين إلى صدره. وأمامه، على

Twitter: @ketab_n

الشاطىء الآخر، شُقَّ السماء، وصوِّر جميع الملائكة في النور السماوي وهم يطيرون إلى لقائه. هل تقدر أن ترسم هذا؟

ـ أقدر أن أفعل كل شيء.

ـ اسمع، أستطيع أن أستقدم أكبر رسَّام من موسكو وحتى من لندن، بدلاً من الاعتماد على مخربش مثلك. غير أنك، أنت، تتذكر وجهه. فإذا جاءت صورة وجهه لا تشبهه، أو لا تشبهه شبهاً كافياً أعطيتك خمسين روبلاً، أما إذا جعلتها تشبهه كل الشبه فسأعطيك مائتي روبل.

تذكر عينيه الصغيرتين الزرقاوين... ولتكن اللوحة أكبر لوحة ممكنة.

وأبرما اتفاقهما. وأخذ بطرس ستيبانوفتش يعمل، ولكنه جاء إلى التاجر يقول له في ذات يوم:

ـ لا سبيل إلى رسم ما ذكرت.

ـ لماذا؟

ـ لأن هذه الخطيئة، خطيئة الانتحار، هي أكبر الخطايا جميعاً، فكيف يمكن أن تستقبله الملائكة بعد أن ارتكب هذه الخطيئة؟

ـ لكنه طفل. ليس مسؤولاً.

ـ لا، لم يكن طفلاً صغيراً. كان قد بلغ سن الرشد. كان عمره ثماني سنين حين حدث الحادث. فهو مسؤول قليلاً رغم كل شيء.

ازداد مكسيم إيفانوفتش ارتياعاً. قال:

ـ وجدت حلاً: لا تشق السماء ولا ترسم ملائكة، حسبك أن تسقط عليه من السماء شعاعاً. هذا شيء على كل حال.

فعل الرسام ما تخيله مكسيم إيفانوفتش. أسقط على الطفل شعاعاً من السماء. وقد رأيت اللوحة بنفسي، فيما بعد، مع الشعاع

Twitter: @ketab_n

والنهر الأزرق، رأيتها تغطي الجدار كله. كان فيها الطفل ضاماً ذراعيه الصغيرتين إلى صدره، وكان فيها الآنسة الصغيرة والقنفذ، كان فيها كل شيء. ولكن مكسيم إيفانوفتش لم يسمح لأحد برؤية اللوحة: أغلق عليها مكتبه بالمفتاح. هرع الناس من المدينة كلها يريدون أن يروا اللوحة، ولكنه طردهم جميعاً. وتكلم الناس في الأمر كثيراً. وتغيرت حال بطرس ستيبانوفتش حتى لكأنه شخص آخر. أصبح يقول لنفسه: «أنا الآن أقدر على كل شيء. مكاني الذي أستحقه هو البلاط في بطرسبرج». إن بطرس ستيبانوفتش من أحب الناس إلى القلب. ولكنه كان يحب أن يعظم نفسه كثيراً. وسرعان ما وافته منيته: فإنه بعد أن قبض المائتي روبل، هرع يشرب ويطلع الناس على ماله تباهياً، فقتل ذات ليلة ثملاً. قتله بورجوازي كان يشرب معه، وأخذ ماله. واكتُشف هذا كله في الصباح.

أما تتمة القصة فلا يزال جميع الناس يذكرونها هناك: في ذات يوم جاء مكسيم إلى الأرملة راكباً عربته. كانت الأرملة تسكن كوخاً صغيراً في آخر المدينة. وقد دخل هذه المرة إلى فناء البيت. وتسمَّر أمام المرأة ثم حيَّاها منحنياً حتى الأرض. وكانت المسكينة مريضة منذ حدوث تلك الأحداث كلها، فهي لا تكاد تستطيع أن تجر نفسها جراً. قال لها: «تعالي أيتها العزيزة، أيتها الأرملة المحترمة، تعالي تزوجيني رغم أنني شيطان رجيم، ردِّي إليَّ القدرة على الحياة. نظرت إليه المرأة لا حيةً ولا ميتة. قال لها: «أريد أن يكون لنا صبي صغير آخر، فإذا وُلد لنا صبي آخر، كان معنى ذلك أن الأول قد غفر لنا كلينا، أنا وأنت. هو الذي أمرني بذلك». لاحظت المرأة أن الرجل لا يملك صوابه كاملاً، وأنه خارج عن

Twitter: @ketab_n

طوره، ومع ذلك لم تطق صبراً فقالت له:

ـ هذه سخافات وحقارة. بسبب هذه الحقارة فقدت جميع صغاري. لا أستطيع حتى أن أراك أمامي، ناهيك عن أن أحكم على نفسي بمثل هذا العذاب إلى الأبد؟

انصرف مكسيم إيفانوفتش، ولكنه لم يهدأ. ذُهلت المدينة كلها من هذه المعجزة. أرسل مكسيم إيفانوفتش إلى الأرملة نساءً يتشفعن له عندها. واستدعى من بلده عمتين له، قد تكونان عمتيه وقد لا تكون عمتيه، ولكنهما بورجوازيتان من قريباته على كل حال، أي امرأتان لهما وزن وقيمة. أخذت النساء تنصحها، وتمدحها، ولا تخرج من عندها. وأرسل أيضاً أشخاصاً من المدينة: أرسل تجاراً، وامرأة الأرشمندريت، وزوجات موظفين. المدينة كلها راحت تتقرب منها وتتزلَّف إليها. ولكنها احتقرتهم جميعاً. كانت تقول: «لو كان هذا يبعث يتاماي أحياء فقد أقبل، أما وأنهم لن يبعثوا فعلام أفعل؟ إذا رضيت لأثمت في حق أولادي اليتامى!».

وقد استطاع مكسيم إيفانوفتش أن يحمل الأرشمندريت نفسه على الشفاعة لديها، فقال لها الأرشمندريت: «سوف تخلقين منه إنساناً جديداً». فارتاعت. وكان الناس يدهشون من سلوكها: «كيف يمكن أن ترفض امرأة مثل هذه السعادة؟». وإليكم الطريقة التي استطاع بها أخيراً أن يقنع المرأة: قال لها: «لقد قتل نفسه رغم كل شيء. ولم يكن طفلاً صغيراً. كان قد بلغ سن الرشد. كان في سن يستطيع فيها أن يتناول القربان المقدس بدون اعتراف. فهو إذن مسؤول عن خطيئة الانتحار بعض الشيء. فإذا تزوجتني نذرت لأبنينَّ كنيسة جديدة لترتاح نفسه راحةً أبدية». أذعنت المرأة لهذه الحجة، وارتضت أن تتزوج مكسيم إيفانوفتش، وتمَّ الزواج.

Twitter: @ketab_n

دهش جميع الناس من نتيجة هذا الزواج. لقد عاش الزوجان منذ اليوم الأول في وئام كامل صادق، كان كل منهما وفياً للآخر وفاء عظيماً، فكأنهما نفس واحدة حلت جسدين. وحملت المرأة في ذلك الشتاء نفسه، وطفق الزوجان يزوران الكنائس ويتقون غضب الرب. وذهبا إلى ثلاثة أديرة يسمعان النبوءات. وقام مكسيم إيفانوفتش ببناء الهيكل الذي وعد ببنائه، وأنشأ في المدينة مستشفى وملجأ. ووهب جزءاً من ثروته لأرامل ويتامى. وتذكر جميع أولئك الذين أساء إليهم، وحاول أن يرد إليهم ما اغتصبه منهم. ولكنه أخذ يبدد المال بغير اعتدال، حتى إن امرأته والأرشمندريت اضطرا أن يصداه عن ذلك: «كفى! ما فعلته كافٍ». وانصاع مكسيم إيفانوفتش. لكنه قال: «لقد غششت فوما مرةً». ورد إلى فوما حقه. وذرف فوما دموع التأثر، وقال: «لا داعي إلى هذا... أخذنا منك كثيراً، فنحن شاكرون لك فضلك إلى الأبد». وتشبع جميع الناس بهذه الروح. حقاً إن الإنسان يتأثر بالقدوة الصالحة. إن الناس في بلدنا طيبو القلب.

وتولت الزوجة إدارة المصنع، بلغت من حسن إدارتها أن الناس لا يزالون يتذكرون ذلك. ولم ينقطع هو عن الشراب، لكنها كانت تراقبه، وحاولت أن تشفيه. وأصبحت أحاديثه رصينة حتى لقد تغير صوته. وصار رحيماً رؤوفاً حتى بالحيوانات: في ذات يوم رأى من نافذته رجلاً يضرب حصانه بالسوط، فأرسل من يشتري الحصان بضعفي ثمنه. ووهبت له القدرة على البكاء: ففيما هو يتكلم مع أحد الناس، تغرق عيناه بالدموع فجأة. ولما حان الموعد استجاب الرب لدعائهما فرزقهما غلاماً، فإذا بمكسيم إيفانوفتش يشرق وجهه بالفرح أول مرة بعد الشقاء الذي أصابه. ووزع صدقات كثيرة، وردَّ

Twitter: @ketab_n

ديوناً كثيرة، ودعا المدينة كلها إلى حفلة التعميد. ولكن وجهه كان في الغد مكفهراً.

ورأته زوجته مهموماً، فجاءته بالوليد وقالت له: «إن ابني غفر لنا، فدموعنا وصلواتنا أثرت في قلبه». يجب أن نذكر أنهما لم يتحدثا عن هذا الموضوع بكلمة واحدة طول السنة. وكان كل منهما يحتفظ به لنفسه. نظر مكسيم إيفانوفتش إليها مظلم الوجه كالليل، وقال لها: «اسمعي. إنه لم يجئني طول هذه السنة. ولكنني رأيته في الحلم الليلة». وقد وصفت الزوجة بعد ذلك ما انتابها من شعور حينذاك فقالت: «عندما سمعت هذه الكلمات الغريبة، نفذ الرعب في قلبي».

لم يكن عبثاً أن الولد ظهر لمكسيم في الحلم. وما أن نطق مكسيم بهذه الكلمات حتى مرض الوليد في تلك اللحظة نفسها. ودام مرضه ثمانية أيام، فكانوا يصلون من أجله بغير انقطاع، واستدعوا له الأطباء. حتى لقد استقدموا من موسكو بالقطار أكبر طبيب. وقال الطبيب غاضباً: «إنني أكبر طبيب، وموسكو كلها تنتظرني. ووصف للمريض قطرات دواء وأسرع عائداً إلى موسكو، بعد أن قبض ثمانمائة روبل. ومات الطفل في المساء.

ماذا حدث بعد ذلك؟ ترك مكسيم إيفانوفتش ثروته كلها لزوجته العزيزة، سلَّمها جميع أمواله وأوراقه، متنازلاً لها عن ذلك كله وفقاً للأصول المرعية والأنظمة الشرعية، ثم وقف أمامها وانحنى يحييها حتى الأرض، وقال لها: «يا زوجتي، يا أغلى ما في الحياة عندي، دعيني أمضي لإنقاذ روحي ما دمت أملك الآن سبيلاً إلى ذلك. فإذا قضيت هذا الوقت دون أن أظفر بطائل، فلن أعود. لقد كنت قاسي القلب. ولقد سمت الآخرين سوء العذاب. ولكنني أظن

Twitter: @ketab_n

أن الآلام التي سأتحملها في المستقبل، وحياة التجواب التي سأعيشها، قد تشفع لي عند الرب فيهب لي رحمته، ذلك أن ترك هذا كله ليس صليباً صغيراً ولا ألماً صغيراً». حاولت زوجته أن تثني عزمه بالدموع. قالت له: «ليس لي الآن على هذه الأرض أحد غيرك، فمن ذا الذي سيرعاني؟ لقد انفتح قلبي في هذه السنة للمحبة والحنان». وظلت المدينة كلها تنصحه خلال شهر كامل. تضرعوا إليه، قرروا أن يحتجزوه بالقوة. ولكنه لم يصغ إلى أحد. وتسلل فجأة في ذات ليلة ومضى ثم لم يعد. يقال إنه لا يزال إلى الآن يجوب الآفاق ويتحمل العذاب، ويزور امرأته الغالية مرةً كلَّ شهر.

Twitter: @ketab_n

الفصل الرابع

1

الآن أصل إلى الكارثة النهائية التي تختتم هذه المذكرات. ولكنني قبل أن أواصل الكتابة أراني مضطراً إلى أن أستبق الحوادث فأشرح أمراً ما كنت أعرفه في حينه وإنما أنا عرفته وأدركته بعد ذلك بمدة طويلة، أي بعد أن انتهى كل شيء. وإذا لم أفعل ذلك فلن يكون حديثي واضحاً، بل سيكون ألغازاً لا تُفهم. ومن أجل هذا التوضيح التمهيدي سوف أضحي في سبيل الوضوح والإيجاز بكل ما يسمى إثارة فنية أو تشويقاً فنياً، فكأن الذي يكتب ليس أنا، وكأن قلبي لا يشارك فيه أية مشاركة. سيكون ما أقوله غير شخصي، فهو أشبه «بمقالة صغيرة» في جريدة.

كان في وسع رفيق طفولتي، لامبرت، أن ينتمي انتماءً تاماً إلى عصابة من تلك العصابات الرهيبة التي تتألف من متآمرين حقيرين يتواطئون على القيام بما يطلق عليه اليوم اسم «الابتزاز»، وما يقع الآن تحت طائلة العقوبة في بعض مواد القانون المدني. والعصابة التي شارك لامبرت في أعمالها بعض المشاركة إنما تكونت بموسكو، وارتكبت عدداً كبيراً من المكائد (واكتشف شيء من أمرها في النهاية). .وقد علمت فيما بعد أن أعضاءها كان لهم بموسكو، خلال فترة من الزمن، رئيس واسع الخبرة جداً، ليس

Twitter: @ketab_n

بالغبي، وليس بالشاب اليافع، وإنما هو رجل متقدم في السن. وكان أفراد العصابة ينفذون مشروعاتهم جماعةً واحدة في بعض الأحيان أو ينفذونها زمراً زمراً في أحيان أخرى. وعدا الجرائم القذرة الكثيرة التي ارتكبوها (والتي تحدثت عنها الصحف) كانوا بقيادة رئيسهم يقدمون على أعمال معقدة غاية التعقيد، ماكرة أشد المكر. وقد عرفت بعض هذه الأعمال فيما بعد. لكنني لا أحب أن أدخل في التفاصيل. فحسبي أن أذكر سمة بارزة من سمات أسلوبهم في العمل: إنهم يحاولون أن يكتشفوا أسرار أناس يكونون شرفاء جداً في بعض الأحيان، وتكون لهم في المجتمع منزلة عالية. فإذا عرفوا هذه الأسرار ذهبوا إلى أولئك الأشخاص فهددوهم بنشر بعض الوثائق (وهي وثائق ليست في حوزتهم أحياناً) ويطالبونهم بأن يدفعوا لهم مبالغ من المال ثمناً لسكوتهم. إن هناك أموراً لا توجب العقاب، وليس فيها شيء من إجرام، ولكن أشرف الناس وأشدهم ثباتاً وصلابة يخشون نشرها. وكان أفراد العصابة يستغلون الأسرار العائلية في أكثر الأحيان. فمن أجل أن أبيِّن للقارىء مدى الحذق والمكر في ما كانوا يقومون به من أعمال، سأروي مكيدة من مكائدهم، دون أن أدخل في التفاصيل. لقد حدث في أسرة كريمة من الأسر شيء يؤسف له حقاً، بل شيء يمكن أن يوصف بأنه جريمة، وهو أن زوجة رجل معروف مرموق قامت علاقة بينها وبين ضابط غني شاب. وقد ترامى هذا السر إلى علم أفراد العصابة، فإليكم ما فعلوه: ذهبوا إلى الشاب وهددوه بأنهم سيبلغون الزوج. لم يكن لديهم أي برهان. ولكن كل حذقهم في اللجوء إلى استعمال هذا الأسلوب وكل براعتهم في الحساب إنما يقومان على أن الزوج، إذا بلغه الأمر، ولو لم يكن هناك

Twitter: @ketab_n

براهين، سيتصرف تصرف من يملك البراهين القاطعة، وسيتخذ الإجراءات التي يتخذها من توفرت له الأدلة الدامغة. فهم قد بنوا حسابهم على معرفتهم بطبع الزوج ومعرفتهم بظروف الأسرة. وكان بين أفراد العصابة شاب من المجتمع الراقي استطاع أن يحصل سلفاً على معلومات مفيدة. فطالبوا العشيق بمبلغ ضخم من المال، دون أن يتعرضوا من ذلك لأي خطر، لأن الضابط الذي وقع فريسة لهم كان هو نفسه لا يهمّه إلا كتمان الأمر.

إن لامبرت، رغم مشاركته في أعمال تلك العصابة المسكوبية، لم يكن ينتمي إليها انتماء تاماً. لكنه وقد استطاب هذه الصنعة، أخذ يجرب العمل لنفسه شيئاً فشيئاً. يجب أن أبادر فأقول إنه لم يكن قادراً على السير في هذا الطريق كل القدرة. صحيح أنه لم يكن غبياً، وصحيح أنه كان حيسوباً، ولكنه كان شديد الاندفاع، وكان عدا ذلك مسرفاً في البساطة أو قل في السذاجة: فهو لا يعرف البشر ولا يعرف المجتمع. أظن مثلاً أنه كان لا يدرك الدور الذي يقوم به رئيس تلك العصابة بموسكو، فكان يتخيل أن إدارة مثل هذه الأعمال وتنظيمها هما من الأمور السهلة جداً. وكان عدا ذلك كله يكاد يحسب جميع الناس أوغاداً جبناء مثله، فإذا لاحظ مثلاً أن فلاناً من الناس خاف في ظرف خاص، تخيَّل أنه سيخاف في كل ظرف لأنه جبان. كان هذا عنده بديهية من البديهيات.

أحسب أنني لا أحسن التعبير عما أريد أن أقوله. وهذه الأمور كلها ستوضحها الوقائع فيما بعد. ولكنني أعتقد أن لامبرت كان سيىء الخلق، فهناك عواطف سامية نبيلة لا يصدق أن تكون موجودة، بل لا يخطر له وجودها على بال.

وقد جاء إلى بطرسبرج لأنه كان يحلم منذ مدة طويلة بأن مجال

Twitter: @ketab_n

العمل فيها أوسع من مجال العمل بموسكو، ولأنه كان قد وقع له بموسكو حادث مزعج، فكان يلاحقه ويطارده هنالك شخص يضمر له أسوأ النيات. فلما وصل إلى بطرسبرج أسرع يتصل برفيق من رفاقه القدامى. ولكنه لم يلبث أن وجد مجال النشاط محدوداً ووجد الأعمال ضئيلة تافهة. ثم اتسعت دائرة معارفه، ولكنه لم يصل إلى ثمرة. وقد قال لي فيما بعد: «الناس هنا خرق بالية وصبية صغار لا أكثر». وها هو ذا في ذات صباح، عند طلوع النهار، يلقاني متجلداً من البرد في محاذاة جدار، ثم يكتشف مما قلته أثناء هذياني أنه وقع على «قضية هامة جداً» يمكن أن تدر عليها أرباحاً طائلة، أو هذا ما قدّره.

لقد استخرج هذه القضية كلها مما رويته له حين كنت أتدفأ في بيته وأنا في حالة هذيان حتماً. فمن كل ما أفلت من لساني ذلك اليوم كان يتضح أن الإهانة الكبرى إنما وقعت عليَّ من بيورنج، ومنها «هي»: وإلا لكان يمكن أن يدور هذري على ما جرى لي عند تسرشتشيكوف. ولكنني لم أهذر إلا في الأمر الأول، وهذا ما عرفته بعد ذلك من لامبرت نفسه. ثم إنني كنت متحمساً، وكنت في ذلك الصباح الرهيب أعد لامبرت وآلفونسين منقذين ومحرِّرين. وحين تساءلت بعد ذلك، أثناء نقاهتي، وأنا لا أزال في السرير: ما عسى عرف لامبرت من أحاديثي إبان الهذيان، وإلى أي مدى أفضيت إليه بأسراري، لم يخطر ببالي أبداً أنه ربما عرف أشياء كثيرة! صحيح أنني كنت أقدِّر ـ وهذا ما تدل عليه مشاعر الندامة التي أخذت بخناقي ـ أنني قد أكثرت من الكلام حتماً، ولكن أعود فأقول إنني لم يدر في خلدي قط أن أكون قد بلغت من كثرة الكلام ذلك المبلغ كله! وقد أمَّلت أيضاً ـ وكنت أعوِّل على هذا ـ أن

Twitter: @ketab_n

أكون قد عجزت في ذلك الوقت، بسبب ضعفي ووهني، عن النطق بكلام واضح. وهذا ما أتذكره الآن تذكراً واضحاً. ولكن تبيَّن في الواقع أنني قلت كلاماً أوضح كثيراً مما كنت أقدِّر وأؤمل. ولكن المهم أن هذا كله لم يتكشف لي إلا بعد مدة طويلة، وذلك كان سبب بلائي.

استطاع لامبرت أثناء هذياني أن يعرف من هذري وتمتماتي وحماساتي وما إلى ذلك، استطاع أن يعرف أولاً: جميع الأسماء تقريباً، وحتى بعض العناوين، معرفةً دقيقة. واستطاع ثانياً أن يكوِّن لنفسه فكرة قريبة من الواقع عن دور كل شخص من الأشخاص (الأمير العجوز، بيورنج، هي، آنا آندرييفنا، وحتى فرسيلوف). واستطاع أن يعرف ثالثاً أنني أُهنت وأنني هدَّدت بالانتقام. واستطاع رابعاً وأخيراً أن يعلم أن في حوزتي وثيقة سرية مخبأة هي رسالة يكفي أن يُطلع عليها أمير عجوز نصف مجنون حتى يعرف أنها مكتوبة بخط بنته التي تصفه في هذه الرسالة بأنه مجنون وتستشير فيها أناساً من رجال القانون من أجل أن توقع حجراً عليه، فإما أن يجنَّ نهائياً وإما أن يطردها من بيته ويحرمها من الميراث أو يتزوج آنسة تسمى فرسيلوفا يفكر فيها منذ الآن ولكنهم لا يسمحون له بالزواج منها. الخلاصة أن لامبرت عرف أشياء كثيرة. ولا شك أن هناك أشياء كثيرة بقيت غامضة في ذهنه، ولكنه قد أمسك بالخيط ووضع قدمه في الطريق. وحين فررت بعد ذلك من عند آلفونسين استطاع أن يعرف عنواني فوراً (بأبسط وسيلة: مكتب العناوين). ثم أسرع يجمع المعلومات اللازمة، فعرف أن جميع الأشخاص الذين سميتهم موجودون فعلاً. فبادر عندئذ إلى القيام بأول مسعى.

كان الشيء الأساسي هو أن هناك وثيقة، وأن الوثيقة في حوزتي

Twitter: @ketab_n

أنا. ولم يخامر لامبرت أي شك في أن لهذه الوثيقة قيمة كبيرة. هنا أسكت عن ظرف يستحسن أن أرجىء ذكره إلى أن يحين وقته. ولكنني أشير إلى أن هذا الظرف قد عزز اقتناع لامبرت بأن الوثيقة موجودة فعلاً وبأن لها قيمة كبيرة (وأبادر فأقول حالاً إن الظرف كان حاسماً، ولم يكن في إمكاني أن أتخيله في ذلك الوقت، حتى ولا إلى آخر القصة، أي إلى اللحظة التي انهار فيها كل شيء دفعةً واحدة واتضح من تلقاء نفسه). حتى إذا تم له الاقتناع بهذه النقطة الأساسية مضى يزور آنا آندرييفنا قبل كل شيء.

لا يزال هنالك لغز يحيِّرني: كيف استطاع هذا الرجل، لامبرت، أن يتسلل فيصل إلى إنسانة صعبة المأخذ رفيعة مثل آنا آندرييفنا؟ صحيح أنه حصل على معلومات، ولكن ما قيمة هذا؟ وصحيح أنه كان حسن الهندام وأنه كان يتكلم بلهجة باريسية ويسمى باسم فرنسي، ولكن كيف لم تدرك آنا آندرييفنا على الفور أنه وغدٌ منحطّ؟ أم ترانا يجب أن نفترض أن هذا الوغد هو ما كانت بحاجة إليه في ذلك الوقت؟ هل هذا ممكن؟

لم أشأ في يوم من الأيام أن أعرف تفاصيل اللقاء الذي تم بينهما. ولكنني تصورت المشهد بعد ذلك مراراً كثيرة. أغلب الظن أن لامبرت منذ البداية، قد مثَّل بأقواله وحركاته، دور صديق الطفولة القلق على رفيق عزيز. وأغلب الظن أنه أشار في الوقت نفسه إشارة واضحة إلى «الوثيقة» التي في حوزتي، وأنه أفهم آنا آندرييفنا أن هذه الوثيقة سر لا يعرفه أحد غيره، هو لامبرت، وأنني أعوِّل على هذه الوثيقة للانتقام من الجنرالة آخماكوفا، إلى آخر ما هنالك. واستطاع خاصةً أن يشرح لها ما لهذه الورقة من شأن كبير وقيمةً عظيمة، شرحا فيه كل ما يجب من دقة، وكانت آنا آندرييفنا

Twitter: @ketab_n

في ذلك الأوان نفسه تمر بظرف لا يمكنها فيه إلا أن تتشبث بمثل هذا النبأ، وإلا أن تنصت إليه بانتباه شديد... وإلا أن تعلق بالفخ ـ انقياداً لدافع «الصراع من أجل البقاء».

كانوا، في ذلك الأوان نفسه، قد انتزعوا منها خطيبها، ونقلوه إلى تساركويا تحت الوصاية، ووضعوها هي نفسها تحت الوصاية. ثم إذا بحظ مواتٍ يعرض لها: فالأمر الآن ليس أمر نمائم يهمس بها همساً، ولا أمر شكاوي ترافقها دموع، ولا أمر أقاويل ووشايات، إنما الأمر الآن أمر رسالة، رسالة مكتوبة بالخط، أي برهان قاطع على سوء ما تضمره ابنة الأمير لأبيها من نيات دنيئة، وما يضمره جميع الذين انتزعوا الأمير منها من مثل هذه النيات. هو برهان قاطع على أنه ينبغي للأمير أن ينقذ نفسه ولو بالهروب، وأن يجيء إليها هي آنا آندرييفنا، وأن يتزوجها في غضون أربع وعشرين ساعة، وإلا أودعوه مستشفى للمجانين.

ومن الجائز أيضاً ألا يكون لامبرت قد عمد إلى المكر مع هذه الآنسة دقيقة واحدة، وإنما قال لها فجأة منذ أول كلمة: «يا آنسة، إما أن تبقي عانساً. وإما أن تصبحي أميرة ومليونيرة: هناك وثيقة، سأستلمها من ذلك الشاب، وأسلِّمها إليك... فهاتي ثلاثين ألفاً». بل إني لأظن أن هذا هو ما حدث. نعم، لقد كان لامبرت يتصور جميع الناس أوغاداً مثله. أكرر مرةً أخرى أن لامبرت يتصف بما يتصف به الوغد من سذاجة، وبراءة. ومن الجائز جداً كذلك، أن آنا آندرييفنا لم تضطرب لهذه الهجمة لحظة واحدة، وعرفت كيف تسيطر على نفسها سيطرة تامة، وكيف تصغي إلى الرجل المبتز الذي يتكلم بلغته إصغاء كاملاً، وذلك بفضل «رحابة الفكر». ولعلها احمرت في أول الأمر قليلاً، ولكنّها تجلدت وأنصتت إلى

Twitter: @ketab_n

النهاية. ما أوضح الصورة التي أتخيلها لهذه المرأة الصعبة المأخذ، ذات الكبرياء، الرصينة حقاً، التي تملك فكراً واسعاً، وهي تمد يدها إلى يد رجل مثل لامبرت! نعم... فكراً واسعاً! فكراً روسياً بعيد الأفق، شغوفاً «بالرحابة»، هو إلى ذلك فكر امرأة تمر بمثل هذه الظروف.

سألخص الآن: لقد كان لامبرت، في يوم خروجي بعد المرض، يقف الموقفين التاليين (الآن إنما أعرف هذا معرفة اليقين): فهو أولاً يريد أن يطلب من آنا آندرييفنا ثلاثين ألف روبل على الأقل، ثمناً للوثيقة. وهو يريد ثانياً أن يساعدها في تخويف الأمير، واختطافه، وتزوجه فوراً، أو شيء من هذا القبيل. حتى لقد تم وضع خطة مقررة. ولكن تنفيذ الخطة ينتظرني أنا، أي ينتظر الوثيقة.

ولكن لامبرت كان في ذهنه مشروع آخر أيضاً؛ هو أن يخون آنا آندرييفنا، فيتركها ويبيع الوثيقة للجنرالة آخماكوفا، إذا كان ذلك يعود عليه بربح أكبر. وفي هذه الحالة يكون التعويل على بيورنج. ولكن لامبرت لم يكن قد التقى بالجنرالة بعد، وإنما هو يتتبع خطاها. وهنا أيضاً يجب انتظاري أنا.

آه... ما كان أشد حاجته إليَّ، لا إليَّ أنا، بل إلى الوثيقة! وكان لامبرت يتصور أن يتبع معي إحدى خطتين أيضاً. فأما الخطة الأولى فهي، إذا لم يمكن سلوك سبيل آخر، أن نتعاون معاً، فنتقاسم الربح بعد أن يكون قد استولى عليَّ جسماً وروحاً. وأما الخطة الثانية ـ وهي تغريه إغراءً أشد ـ فقوامها أن يغرِّر بي كما يغرر بصبي صغير، فيسرق مني الوثيقة، أو ينتزعها مني عنوةً وقسراً. وكان يحب هذه الخطة الثانية ويداعبها في أحلامه. أكرر

Twitter: @ketab_n

مرةً أخرى أن ثمة ظرفاً معيناً كان يجعله لا يشك في نجاح هذه الخطة الثانية تقريباً، ولكن سبق أن ذكرت أنني سأشرح هذا الظرف فيما بعد. ومهما يكن من أمر، فقد كان لامبرت ينتظرني نافد الصبر، فكل شيء متوقف عليَّ: المساعي التي يجب أن يقوم بها، والخطة التي يجب أن يختارها.

ويجب أن أنصفه فأقول: إنه رغم نفاد صبره قد سيطر على نفسه إلى اللحظة الأخيرة. فلم يأتِ إليَّ أثناء مرضي أبداً، ولكنه مرَّ بالبيت مرةً وكلَّم فرسيلوف. لم يرهقني، ولم يخفني، حتى لقد ظلَّ إلى ساعة خروجي يظهر عدم المبالاة. وكان على يقين من أنني لن أكلم عن الوثيقة أحداً، ولن أسلمها إلى أحد، ولن أتلفها بحال من الأحوال. لقد استطاع أن يستخلص من أقوالي نفسها في بيته أنني أحتفظ بالوثيقة سراً مكتوماً، بل أخاف أن يفتضح أمرها. وكان لا يشك في أنني متى شفيت فسيكون هو أول من أسعى إليه فوراً، وإنني لن أسعى إلى أحد قبله. وقد عادتني داريا أونيسيموفنا تنفيذاً لأوامره، فكان يعلم إنني خائف وأنني أحترق شوقاً إلى معرفة ما حدث، وأنني لن أصمد... وكان عدا ذلك قد اتخذ جميع التدابير، واستطاع أن يطَّلع حتى على اليوم الذي سأخرج فيه، بحيث لا يمكنني أن أفلت منه ولو أردت.

ولكن إذا كان لامبرت ينتظرني، فلقد كانت آنا آندرييفنا تنتظرني أكثر منه أيضاً. ويجب أن أقول بصراحة إنَّ لامبرت كان على حق في تأهبه لخيانتها والغدر بها، وكان الذنب في ذلك ذنبها هي. فرغم تفاهمهما المحقق (وأنا أجهل صورة ذلك التفاهم، لكنني أعرف أنه حدث) ظلت آنا آندرييفنا إلى آخر دقيقة لا تلتزم في تعاملها معه جانب الصراحة التامة، ولم تكشف عمَّا تضمره كشفاً

Twitter: @ketab_n

كاملاً. وإنما هي تكتفي بالإشارة والتلميح. لقد لمَّحت له بكل أنواع الموافقة، ولمَّحت له بكل أنواع الوعود، ولكن كلامها كان تلميحاً فحسب. لعلها أصغت إلى جميع تفاصيل خطته، ولكنها لم توافق عليها إلا بالصمت. إن هناك أسباباً قوية تدفعني إلى الاعتقاد بهذا. وكان يحضها على اتباع هذا الأسلوب أنها كانت «تنتظرني». لا بد أنها كانت تفضِّل أن تتعامل معي على أن تتعامل مع وغد مثل لامبرت؛ وهذا أمر بديهي ومفهوم. ولكن المصيبة هي أن لامبرت أدرك ذلك أخيراً. فلو أخذت آنا آندرييفنا الوثيقة مني بالاتفاق معي رأساً، لألحق ذلك به خسارة كبيرة. وكان هو مقتنعاً بضخامة «الصفقة». ولو كان غيره في مكانه لخاف ولظلت تساوره الشكوك. ولكن لامبرت شاب، وجريء، وظامىء إلى الربح السريع، ولا يعرف البشر كثيراً، ويتصور قلة الشرف في جميع الناس. فليس في وسع إنسان مثله أن يشك، لا سيما وأنه قد حصل من آنا آندرييفنا على تأييدها للنقاط الأساسية فيما يعزم عليه.

ثمة أمر آخر له شأن كبير: هل كان فرسيلوف، في ذلك اليوم، يعرف شيئاً ما؟ هل كان يشارك لامبرت في بعض الخطط ولو من بعد؟ كلا، ثم كلا! إنه في «ذلك الوقت» لم يكن يشارك بعد. لعل كلمةً طائشة قد أفلتت منه. ولكن كفى كفى! حسبي استباقاً للأحداث!

ثم ماذا عني أنا؟ هل كنت أعرف شيئاً يوم خروجي؟ لقد ذكرت حين بدأت بكتابة هذه الزاوية من حديثي أنني كنت يوم خروجي لا أعرف شيئاً، وأنني عرفت كل شيء فيما بعد. هذا صحيح. ولكن هل صحيح كل الصحة؟ الحق أنني كنت أعرف شيئاً ما، بل كنت أعرف أشياء كثيرة. ولكن كيف؟ فليتذكر القارىء «حلمي» الذي

Twitter: @ketab_n

رأيته. إذا كان حلم من هذا النوع قد أمكن أن أراه في نومي، وأن ينبجس من نفسي في هذه الصورة، فإن هذا يدل على أنّني كنت لا أزال أجهل أموراً كثيرة، ولكنه يدل على أنني كنت «أتوجس» هذه الأمور، كما يستدل على ذلك مما شرحته هنا من أشياء لم أعرفها في الواقع إلا بعد أن كان قد «انتهى كل شيء». صحيح أنني كنت لا أعلم شيئاً علم اليقين، ولكن قلبي كان يخفق بتوجسات تتنبأ بما سيحدث، وكانت الأرواح الشريرة قد غزت أحلامي واستولت عليها. ذلك هو الرجل الذي هرعت إليه وأنا أعرف من هو، وأخاف جميع التفاصيل. لماذا هرعت إليه؟ تخيلوا أنني، الآن، في هذه اللحظة، وأنا أكتب هذه الأسطر، يبدو لي أنني منذ ذلك الحين، كنت أعرف، بأدق التفاصيل، لماذا سعيت إليه مسرعاً، رغم أنني في واقع الأمر لم أكن أعرف شيئاً كما سبق أن ذكرت. قد يفهم القارىء عني هذا الكلام. ولننتقل إلى الوقائع، ولنذكرها بعضها وراء بعض.

2

بدأ كل شيء هكذا: قبل خروجي الأول بيومين، دخلت ليزا مضطربةً أشد الاضطراب. كانت منزعجةً انزعاجاً شديداً. لقد حدث لها في الواقع شيء لا يطاق.

سبق أن أشرت إلى صِلاتها بفاسين. لقد ذهبت إليه لا لتبيِّن لنا أنها في غير حاجة إلينا فحسب، بل لأنها كانت تقدره فعلاً. كانا قد تعارفا بمدينة لوجا. وقد لاح لي دائماً أن فاسين ليس غير مكترث بها وكانِ طبيعياً، وهي فيما هي فيه من شقاء، أن ترغب في طلب النصح من إنسان يملك عقلاً راجحاً، ويتمتع بالهدوء،

Twitter: @ketab_n

ويتسم بسمو النفس، وهذا كله كانت تفترضه في فاسين. ثم إن النساء لا يملكن بصيرة نافذة في تقدير شخص يعجبهن. حتى لقد يرين في المفارقات الغريبة آراء سديدة، متى جاءت تلك المفارقة مطابقة لرغباتهن. ولقد كانت ليزا تحب في فاسين اهتمامه بحالتها الراهنة وعطفه على الأمير، كما بدا لها ذلك منذ المرات الأولى. وإذ كانت من جهة أخرى تحس بما يحمله لها من عواطف، فقد كان يستحيل عليها ألا تحترم فيه تقديره لمنافسه والأمير، حين باحت له هي نفسها بأنها تستشير فاسين أحياناً، أحس بقلق شديد، وشعر بغيرة قوية عليها. فجرح هذا شعور ليزا. وأصبحت تواصل زيارة فاسين متعمدةً منذ ذلك الحين. فسكت الأمير، ولكنه صمت على مضض وظل مكفهر الوجه. وقد اعترفت لي ليزا فيما بعد (بعد مدة طويلة جداً) أن فاسين سرعان ما أصبح لا يعجبها. لقد كان هادئاً، وهذا الهدوء المستمر المطرد الذي أعجبها كثيراً في البداية قد أصبح يغيظها بعد ذلك. صحيح أن فاسين كان رجلاً عملياً، وأنه أسدى إليها فعلاً بعدد من النصائح التي يوهم ظاهرها بأنها نصائح رائعة، ولكن هذه النصائح جميعها قد تبيَّن بما يشبه المصادفة أنها لا يمكن تنفيذها. وكان في بعض الأحيان ينظر إلى الأمور نظرة مسرفة في التعالي، وأخذ خجله أمام ليزا يقل شيئاً بعد شيء. وقد عزت هي ذلك إلى أن اهتمامه بحالها أخذ يتضاءل مزيداً من التضاؤل على غير شعور منه. وفي ذات مرة شكرت له أنه لا يزال يلقاني ويحدثني حديث الند للند رغم تفوقه عليَّ في الفكر (وهي بذلك قد أبلغته كلماتي نفسها)، فما كان منه إلا أن أجابها بقوله:

ـ ليس الأمر ما تظنين، بل هو أبسط من ذلك كثيراً. فأنا لا

Twitter: @ketab_n

أرى أيَّ فرق بينه وبين سائر الناس. ولا أعده أغبى من الأذكياء ولا أسوأ من الأخيار. لذلك أعامل الناس كلهم معاملة واحدة، لأنهم في نظري متماثلون لا يختلف بعضهم عن بعض.

ـ كيف؟ ألا ترى بين الناس فروقاً؟

ـ بلى. إن الناس يختلف أحدهم عن الآخر في هذه النقطة أو تلك، ولكن هذه الاختلافات لا وجود لها في نظري لأنها لا تتعلق بي ولا شأن لي بها. هم عندي متساوون جميعاً. والأمور كلها تستوي عندي. وذلك هو السبب في أنني أعامل الناس كافةً معاملة حسنة.

ـ ولا تضجر من هذا؟

ـ لا، أنا راض عن نفسي دائماً.

ـ وليس لك رغبات؟

ـ بلى، ولكن رغباتي ليست كثيرة. لست في حاجة إلى شيء، أو لا أكاد أكون في حاجة إلى شيء، لست في حاجة حتى إلى روبل واحد زيادة على ما معي. يستوي عندي أن ألبس ذهباً وأن أبقى كما أنا. الملابس الذهبية لا تضيف إلى فاسين شيئاً. والطعام الفاخر لا يغريني. وهل المناصب والأمجاد تعطيني قيمتي؟

لقد حلفت لي ليزا بشرفها أنه قال لها هذا الكلام بنصه يوماً. والحق أننا قبل أن نقطع برأي، يجب أن نعرف الظروف التي قيلت فيها هذه الكلمات.

إن تسامح فاسين تجاه الأمير (وهو تسامح اقتنعت ليزا أخيراً بأنه لا يرجع إلى ما يحمله لها من عاطفة، وإنما يرجع إلى قلة الاكتراث التي يتخذها فاسين عقيدة له ومذهباً) قد أخذ يفسد شيئاً فشيئاً حتى استحال إلى نوع من سخرية فيها احتقار. وقد أحنق هذا

Twitter: @ketab_n

ليزا، ولكن فاسين أمعن فيه. وكان يعبر عن آرائه دائماً برقة ولطف، بل كان يتهم ويدين بغير إظهار شيء من الاستياء أو الامتعاض، وإنما هو يستعمل البراهين المنطقية وحدها ليحكم بأن بطل ليزا رجل تافه لا قيمة له. وفي هذا المنطق إنما كانت تثوي السخرية. وبرهن لها أخيراً على أن حبها للأمير «يجافي العقل»، وأنها تُكره نفسها عليه إكراهاً وتقسرها عليه قسراً. وختم كلامه قائلاً: «لقد ضلَّت في عواطفها، وعلى المرء حين يدرك ضلاله أن يتداركه بالإصلاح حتماً».

حدث هذا في ذلك اليوم. وقد استاءت ليزا، ونهضت لتنصرف، فما الذي فعله واستنتجه هذا الإنسان العاقل؟ انبرى يعرض عليها الزواج بنبل، وحتى بعاطفة! فما كان من ليزا إلا أن بادرت تصفه على الفور بأنه غبي أحمق! قالت له ذلك وجهاً لوجه. وخرجت.

أن يعرض على امرأة أن تخون إنساناً شقياً لأن هذا الإنسان الشقي «لا يستحقها»، وأن يعرض هذا على امرأة حبلى من هذا الإنسان الشقي، ذلك هو ذكاء هؤلاء الناس من أمثال فاسين! إنني أسمي هذا انحباساً في النظريات وجهلاً مطلقاً بالحياة مردُّه إلى زهو وغرور. وقد أدركت ليزا، من جهة أخرى، إدراكاً واضحاً كل الوضوح، أن اعتزاز فاسين بإقدامه على هذا العرض إنما يرجع إلى معرفته بأنها حامل. وسرعان ما ذهبت إلى الأمير وقد فاض دمعها استياءً واستنكاراً، فإذا بالأمير يتفوق على فاسين سخافة. كان ينبغي له، بعد الذي قصته عليه من أمر فاسين، أن يقتنع بأن غيرته لا محل لها. ولكن نقيض هذا هو ما حدث. فقد طاش صوابه عندئذ تماماً. وكذلك شأن جميع الغيورين على كل حال! لقد شاجرها شجاراً عنيفاً، وصدَّع رأسها تصديعاً رهيباً، وأثخن شعورها

Twitter: @ketab_n

بالجراح وأهانها حتى أوشكت أن تقطع كل علاقة لها به على الفور.

ومع ذلك رجعت إلى البيت كاظمةً غيظها مسيطرةً على نفسها، ولكنها لم تستطع إلا أن تبوح لأمها بما حدث. فذاب الجليد، وعادت المرأتان إلى سابق عهدهما، فتعانقتا كما كانتا تتعانقان من قبل، وبكت كل منهما بين ذراعي الأخرى على عادتهما، وبدا أن ليزا قد هدأ روعها وإن ظلت مكفهرة الوجه مظلمة النفس. وفي المساء بقيت جالسةً عند ماكار إيفانوفتش دون أن تنطق بكلمة، ولكن دون أن تغادر الغرفة. وأصغت كثيراً إلى ما كان يقوله ماكار إيفانوفتش. إنها منذ وقع له حادث السقوط عن المقعد أصبحت تحترمه احتراماً كبيراً يمازجه شيء من خجل، وإن ظلت قليلة الكلام.

ولكن ماكار إيفانوفتش قد غير الحديث في هذه المرة تغييراً غريباً لم يكن في الحسبان. يجب أن أذكر أن فرسيلوف والطبيب كانا قد تحدثا في الصباح عن صحته، فكان يبدو على وجهيهما هم وقلق. ويجب أن أذكر أيضاً أن البيت كان منذ عدة أيام يستعد للاحتفال بعيد ميلاد ماما الذي سيكون موعده بعد خمسة أيام تماماً، وأن جميع أهل البيت كانوا يتكلمون عن هذا الاحتفال. ففي هذه المناسبة اندفع ماكار إيفانوفتش يستعيد ذكرياته فجأة، وتذكر طفولة ماما، أيام «كانت لا تحسن الوقوف على ساقيها بعد». قال: «كنت لا أتركها أبداً. وكنت أعلمها المشي: أضعها في ركن على بعد ثلاث خطوات مني، ثم أناديها، فتجتاز الغرفة مترنحة بلا خوف، ضاحكة، وتركض إليَّ، وترتمي بين ذراعي، وتقبل عنقي. ثم كنت أقص عليك حكايات يا صوفيا آندرييفنا، إذ

Twitter: @ketab_n

كنت تعشقين الحكايات عشقاً. كانت تبقى على ركبتيَّ ساعتين، تصغي إليّ. وكان جميع من بالكوخ يدهشون فيقولون: «انظروا ما أشد تعلقها بماكار» أو كنت أمضي بك إلى الغابة يا صوفيا آندرييفنا، فأعثر على شجرة عليق، فأجلسك هناك، ثم أصنع لك صفارة من خشب. حتى إذا ارتوينا من النزهة، عدنا إلى البيت والطفل نائم على ذراعي. وفي ذات يوم، خافت من الذئب، فارتمت عليَّ مرتجفة مرتعدة، ولم يكن ثمة ذئب.

ـ قالت ماما:

ـ هذا أتذكره!

ـ تتذكرينه؟ لا يمكن...

ـ بل أتذكر أشياء كثيرة أيضاً.

وأضافت تقول بصوت متأثر وقد احمرت احمراراً شديداً:

ـ كلما أوغلت في تذكر الماضي رأيتك ورأيت ما كنت تحمله لي من حب وحنان.

انتظر ماكار إيفانوفتش لحظةً ثم قال:

ـ وداعاً يا أولادي، أنا راحل. الآن حان حيني. لقد وجدت في شيخوختي عزاء عن جميع آلامي. شكراً يا أصدقائي.

هتف فرسيلوف متأثراً بعض التأثر:

ـ دعك من هذا الكلام يا ماكار إيفانوفتش، يا عزيزي. لقد قال لي الطبيب منذ قليل إنَّ صحتك تحسنت تحسناً كبيراً.

وكانت أمي تصغي إلى الحديث مرتاعة.

قال ماكار إيفانوفتش مبتسماً:

ـ وما يُدري صاحبك ألكسندر سيمينتش؟ صحيح أنه لطيف، ولكن هذا كل شيء. أم تراكم تظنون يا أصدقائي أنني خائف أن

Twitter: @ketab_n

أموت؟ في هذا الصباح، بعد أن تلوت صلاتي، راود قلبي إحساس بأنني لن أخرج من هنا حياً. أحد قال لي هذا. هيا! تبارك اسم الرب! ولكنني أتمنى لو أظل أراكم جميعاً. كان أيوب المعذب يتعزى عن آلامه برؤية أحفاده الجدد، ولكن هل كان ينسى أولاده السابقين، وهل كان يستطيع أن ينساهم. كلا، ذلك مستحيل! على أن الحزن يمتزج بالفرح كلما مضت السنون، ثم يستحيل إلى زفرة سعيدة. هكذا تجري الأمور في هذا العالم: كل نفس تُمتحن وتتعزى.

وأردف ماكار إيفانوفتش يقول وهو يبتسم ابتسامة عذبة جميلة لن أنساها ما حييت:

ـ قررت يا أولادي أن أقول لكم كلمة، كلمة لا أكثر...

ثم التفت نحوي فجأة وقال:

ـ أنت يا عزيزي، اعمل للكنيسة بهمة وحماسة، ومت في سبيلها إذا دعا الداعي.

ثم أضاف يقول ضاحكاً:

ـ ولكن انتظر. لا تخف! أنا لا أقول هذا لتفعله الآن. إنك اليوم لا تفكر في هذا الأمر، وقد تفكر فيه في المستقبل. غير أن هناك شيئاً آخر أيضاً: إذا أردت أن تفعل خيراً، فافعله في سبيل الله، ولا تفعله انقياداً لنزوة. كن رابط الجأش صلب العود، ولا تدع لنفسك أن تسترسل في أنواع من الجبن. ولكن تمهل في عملك، ولا تتسرع ولا تهرع واثباً. ذلك هو كل ما أنت في حاجة إليه. شيء آخر: تعوَّد أن تتلو صلاتك كل يوم حتماً. أقول لك هذا عرضاً ولعلك تتذكره في يوم من الأيام.

ثم التفت إلى فرسيلوف فقال له:

Twitter: @ketab_n

ـ لك أيضاً يا آندريه بتروفتش، يا عزيزي، أريد أن أقول بضع كلمات. إن الرب سيهدي قلبك دون أن أتكلم أنا على كل حال. لقد كففنا عن الكلام في ذلك الأمر منذ مدة طويلة، منذ أن نفذ ذلك السهم في قلبي. أما وأنني الآن راحل فأحب أن أذكِّرك... بالوعد الذي قطعته لي على نفسك حينذاك.

نطق بهذه الكلمات همساً وهو خافض رأسه، وأردف يقول:

فهتف فرسيلوف متأثراً وهو ينهض:

ـ ماكار إيفانوفتش!

ـ طيب طيب، لا تضطرب يا عزيزي. ما هذه إلا ذكرى...

إن أكبرنا إثماً أمام الله في هذه القضية هو أنا. كان ينبغي ألا أسمح بما حدث رغم أنك كنت مولاي. فلا تضطربي أنت أيضاً يا صوفيا، لا تدعي لنفسك أن تسرف في الاضطراب، لأن الإثم إثمي أنا، ولأنني أعتقد أنك كنت في ذلك الأوان لا تعرفين ماذا تفعلين.

هنا ابتسم ماكار إيفانوفتش واختلجت شفتاه من ألم. ثم تابع كلامه فقال:

ـ كان يمكنني يا زوجتي أن ألقنك درساً في ذلك الحين ولو باستعمال العصا، بل كان يجب عليَّ أن أفعل. ولكنني أشفقت عليك حين ارتميت أمامي باكية، واعترفت لي بكل شيء وأنت تقبِّلين قدميَّ. ليس فيما أقول لك الآن لوم أو مؤاخذة، ولكنني أريد أن أذكر آندريه بتروفتش... وإنَّك يا عزيزي لتتذكر عهد الشرف الذي قطعته على نفسك. إن الزواج يستر كل شيء. أقول لك هذا أمام أولادي...

كان ماكار إيفانوفتش منفعلاً إلى أقصى حدود الانفعال، وكان

Twitter: @ketab_n

ينظر إلى فرسيلوف منتظراً منه أن يقول كلمة تأكيد. أكرر أن هذا كله لم يكن في الحسبان، فبقيت جالساً على كرسيي بلا حراك. وكان فرسيلوف لا يقلّ عنه انفعالاً بل يزيد عليه: وها هو ذا يدنو من ماما صامتاً فيقبِّلها. وها هي ذي ماما تتقدم من ماكار إيفانوفتش، صامتةً كذلك، فتحييه بانحناءة شديدة.

الخلاصة أن المشهد كان يبعث في النفس أشد التأثر. ولم يكن بالغرفة في هذه المرة غريب، ولا تاتيانا بافلوفنا. وكانت ليزا منتصبة الجذع فوق كرسيها تصغي صامتة. فها هي ذي تنهض فجأة، وتقول لماكار إيفانوفتش بلهجة ثابتة قوية: باركني أنا أيضاً يا ماكار إيفانوفتش، لأتحمل المحنة الكبيرة التي تنتظرني. غداً يتقرر مصيري كله. فادعُ اليوم لي.

قالت ليزا ذلك وخرجت. إنني أعرف أن ماكار إيفانوفتش كان على علم بأمر ليزا، فقد أطلعته ماما عليه. ولكنني في ذلك المساء رأيت فرسيلوف وماما أول مرةً معاً. أما قبل ذلك فلم أكن أرى إلى جانبه إلا عبدة. ثمة أشياء كثيرة كنت لا أزال أجهلها ولم أكن قد لاحظتها لدى هذا الرجل الذي كنت قد أدنته. لذلك رجعت إلى غرفتي مضطرباً. يجب أن أذكر أنني في تلك اللحظة نفسها قد تكاثفت شكوكي فيه مزيداً من التكاثف. إنه لم يبد لي في يوم من الأيام أقرب إلى السر واللغز مما يبدو لي الآن. ولكن ها هي كل القصة التي أكتبها: ولسوف يأتي كل شيء في حينه.

قلت محدثاً نفسي وأنا أرقد على سريري: «لقد قطع لماكار إيفانوفتش على نفسه عهد الشرف ليتزوجنّ أمي متى ترمَّلت. ولكنه لم يقل لي شيئاً عن هذا الأمر من قبل حين كلمني عن ماكار إيفانوفتش».

Twitter: @ketab_n

في الغد غابت ليزا عن المنزل طول النهار، فلما عادت كان الوقت متأخراً، فمضت إلى غرفة ماكار إيفانوفتش رأساً. وكنت لا أريد أن أدخل حتى لا أضايقهما، ولكنني لاحظت أن ماما وفرسيلوف كانا قد دخلا فدخلت. كانت ليزا جالسةً بجانب الشيخ تبكي على كتفه. وكان الشيخ يلاعب رأسها صامتاً حزين الوجه.

وقد شرح لي فرسيلوف (في غرفتي بعد ذلك) أن الأمير يلح على أن يتزوج ليزا متى أمكن ذلك، حتى قبل صدور قرار المحكمة؛ وأن ليزا مترددة لمَّا تعزم أمرها بعد رغم أنها لم يبق لها حق في التردد تقريباً. وكان ماكار إيفانوفتش «يأمرها» أيضاً بأن تتزوجه. وهذا كله كان ينبغي أن يتم من تلقاء نفسه فتوافق ليزا على الزواج من تلقاء نفسها أخيراً، بلا تردد ولا أوامر، ولكنها الآن تشعر بأن الرجل الذي تحبه قد أهانها إهانة شديدة، وأن حبها يذلّها حتى في نظر نفسها، فكان يصعب عليها أن تعزم أمرها. ولكن هناك شيئاً غير الإهانة، قد تدخل في الموضوع وما كان ليخطر لي ببال.

أضاف فرسيلوف يسأل فجأة:

ـ هل جاءك نبأ شباب بطرسبورسكايا الذين اعتقلوا أمس؟

فهتفت:

ـ ماذا؟ درجاتشيف؟

ـ نعم. وفاسين أيضاً.

ذُهلت، ولا سيما من سماع اسم فاسين.

ـ هل له دخل في شيء؟ ما عساهم يصنعون بهم! رباه! ويحدث هذا في الوقت الذي تشتكي فيه ليزا من فاسين! ما عسى يحدث لهم في رأيك؟ يميناً أن لستيبلكوف يداً في الأمر!

قال فرسيلوف وهو يرشقني بنظرة خاصة، كما ينظر إلى امرىء

Twitter: @ketab_n

لا يفهم شيئاً ولا يحزر شيئاً:

ـ دعنا من هذا الآن! ما أدرانا بما وقع، وما يدرينا بما سيُصنع بهم؟ ليس هذا ما كنت أريد أن أقوله: لقد علمت أنك تريد أن تخرج غداً. فهل تذهب إلى الأمير سرجي بتروفتش؟

ـ سأذهب إليه قطعاً، رغم أن هذه الزيارة تشق على نفسي وتؤلمني، أعترف بذلك. هل تريد أن أنقل إليه شيئاً على لسانك؟

ـ لا، لا شيء. سأراه بنفسي. إنني أرثي لحال ليزا. أية نصيحة يستطيع ماكار إيفانوفتش أن يسديها إليها. إنه هو نفسه لا يدرك شيئاً لا من أمور الناس ولا من أمور الحياة! شيء آخر يا عزيزي (كان منذ مدة طويلة قد انقطع عن مخاطبتي بقوله: «يا عزيزي»). إن في القضية أيدي عدد من الشبان... أحدهم رفيقك القديم لامبرت. يخيَّل إليَّ أنهم جميعاً أوغاد رهيبون... أردت تنبيهك فحسب... هذا شأنك وحدك. أنا أعلم أنني ليس من حقي أن...

فرأيتني أمسك يده فجأة دون أن أفكر، مدفوعاً إلى هذا بما يشبه الحماسة والإلهام، كما يحدث لي كثيراً (وقد حدث هذا كله في ظلام كامل)، ورأيتني أقول له:

ـ آندريه بتروفتش، لقد صَمَتّ أنا حتى الآن، وأنت تعرف لماذا صمتّ. صمتّ لأتحاشى أن أتدخل في أسرارك التي قررت ألا أطّلع عليها في يوم من الأيام. إنني جبان. إنني أخشى أن تنتزعك هذه الأسرار من قلبي انتزاعاً تاماً، وذلك ما لا أريده. أفلا ينبغي لك والحالة هذه أن تعاملني بمثل ما أعاملك به، فتتركني وشأني أمضي حيث أريد! أليس هذا صحيحاً؟

فقال لي وهو يتركني:

ـ إنك على حق. ولكن أرجوك: لا تزد على هذا كلمةً واحدة!

Twitter: @ketab_n

وهكذا تكاشفنا عرضاً. كانت مكاشفة ضئيلة جداً، ولكنها كافية لمضاعفة اضطرابي إزاء الخطوة الجديدة التي سأقوم بها غداً. لذلك قضيت الليل متأرقاً. ولكنني تخففت من بعض ما كان يجثم على صدري.

3

حين خرجت في الغد من البيت، كانت الساعة العاشرة. لكنني بذلت كل جهودي من أجل أن أنصرف خفيةً بدون وداع وبدون كلمة واحدة. تسللت تسللاً. لماذا؟ لا أدري. ولكن لو اتفق أن رأتني أمي عند خروجي فحاولت أن تكلمني، لكان يمكن أن أغلظ لها القول. فلما صرت في الشارع وتنسمت الهواء الطري، رأيتني أهتز من إحساس قوي جداً، يكاد يكون حيوانياً، وأستطيع أن أصفه بإنه إحساس «وحش ضار». لماذا أذهب وإلى أين أذهب؟ كان إحساسي شيئاً لا يمكن تحديده، ولكنه ضارٍ شديد الضراوة. كنت خائفاً منه وفرحاً به في آن واحد.

ـ أأتدنس اليوم أم لا أتدنس؟

كذلك تساءلت بيني وبين نفسي، على علمي بأن الخطوة التي سأخطوها هذا النهار ستكون، متى تمت، حاسمة في حياتي كلها. ولكن لماذا الكلام بألغاز؟

مضيت إلى سجن الأمير رأساً. كنت قد حصلت منذ ثلاثة أيام على رسالة من تاتيانا بافلوفنا إلى مدير السجن، فاستقبلني استقبالاً حسناً جداً. لا أدري أهو رجل طيب أم لا، ولكنني أظن أن هذا السؤال نافل لا داعي إليه. المهم أن المدير أذن لي بلقاء الأمير، بل تلطف فأخلى لنا غرفته ليتم فيها اللقاء. كانت الغرفة كجميع

Twitter: @ketab_n

الغرف، غرفةً عادية لموظف متوسط يسكن على نفقة الدولة. أظن أن لا حاجة لأن أصف الغرفة. وهكذا خلوت إلى الأمير.

طلع الأمير بلباس لا هو عسكري ولا هو مدني، بل هو بين بين، لكن قميصه نظيف، ورباط عنقه أنيق، وقد غسل وجهه ومشط شعره، ولكنه نحل نحولاً رهيباً، واصفر اصفراراً شديداً، وقد لاحظت هذا الاصفرار حتى في عينيه. الخلاصة أنه بلغ من التغير أنني وقفت مشدوهاً مذهولاً. وهتفت أقول:

ـ لشد ما تغيرت!

فقال مزدهياً بعض الشيء:

ـ لا قيمة لهذا! اجلس يا عزيزي!

وأشار لي إلى كرسي، وجلس قبالتي. وأردف يقول:

ـ لنناقش النقطة الأساسية: ها أنت ذا ترى يا عزيزي ألكسي ماكاروفتش...

فقاطعته مصححاً:

ـ آركادي!

ـ ماذا؟ آ... نعم. طيب طيب. لا قيمة لهذا. آ... نعم...

أدرك خطأه في تلك اللحظة، فأضاف يقول:

ـ معذرة يا عزيزي. ولننتقل إلى النقطة الأساسية...

كان يتعجل الوصول إلى غايته تعجلاً شديداً. لكأن فكرة أساسية كانت تتلبسه من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، فهو يريد أن يعبّر عنها وأن يعرضها. وكان يتكلم بغزارة، وبسرعة، وكان يبذل في الكلام جهداً ويعاني منه عذاباً، ويستعين عليه بالاشارات والحركات. ولكنني لم أفهم منه في أول الأمر أي شيء إطلاقاً.

وختم يقول:

Twitter: @ketab_n

ـ الخلاصة... (كان قد استعمل هذه الكلمة عشر مرات في أقل تقدير)... الخلاصة: لئن أزعجتك يا آركادي ماكاروفتش فألححت على ليزا بالأمس إلحاحاً شديداً أن تأتي بك، فلأن الأمر مستعجل. ولكن لما كان القرار الذي يجب اتخاذه قراراً استثنائياً ونهائياً، فإن علينا...

قاطعته قائلاً:

ـ اسمح لي يا أمير. تقول إنك طلبت أمس أن أجيء إليك؟ إن ليزا لم تبلغني شيئاً.

فهتف يقول وهو يقف عن الكلام فجأة، ويدهش دهشة شديدة، حتى ليكاد يرتاع ارتياعاً:

ـ كيف؟

ـ لم تبلغني شيئاً البتة. لقد عادت إلى البيت بالأمس مضطربة اضطراباً يبلغ من الشدة أنها لم تقل لي كلمة واحدة.

انتفض الأمير.

ـ هل تقول الحقيقة يا آركادي ماكاروفتش؟ إذن...

ـ ولكن ماذا هنالك من أمر يبلغ هذا المبلغ من...؟ ما لي أراك قلقاً هذا القلق كله، لا بد أنها نسيت أن تبلغني، أو أن شيئاً ما قد...

جلس الأمير، ولكنه ظل كالأبله. لكأن نبأ أن ليزا لم تبلغني رغبته، قد سحقه سحقاً. ثم سرعان ما عاد يتكلم محركاً ذراعيه، ولكن كلامه بقي مضطرباً فيستحيل على المرء أن يفهمه.

وقال مقاطعاً:

ـ انتظر!...

ثم سكت رافعاً إصبعه في الهواء. ثم استأنف كلامه مجمجماً،

Twitter: @ketab_n

فقال وهو يبتسم ابتسامة رجل مهووس:

ـ هذه... هذه... إذا لم يخطىء ظني... هذه مكائد!... معنى ذلك أن...

قاطعته قائلاً:

ـ ليس لهذا كله أي قيمة! ولست أفهم لماذا تقلق هذا القلق كله لأمر تافه. آه يا أمير، منذ تلك الليلة، هل تتذكر كيف...

فصرخ يقول متضايقاً من مقاطعته:

ـ أية ليلة؟ ماذا؟

ـ عند تسرشتشيكوف، حيث التقينا آخر مرة، قبل رسالتك... لقد كنت في تلك الليلة أيضاً مضطرباً اضطراباً مخيفاً. ولكن شتان بين اضطرابك في تلك الليلة واضطرابك الآن. إنني الآن أراك فأرتعد خوفاً... أم تراك لا تتذكر...

ـ فأجاب بصوت رجل من أبناء المجتمع الراقي وكأنه تذكر كل شيء فجأة:

ـ آ... نعم... نعم... ذلك المساء... لقد سمعت أن... كيف صحتك الآن، كيف حالك بعد تلك القصص كلها يا آركادي ماكاروفتش؟... ولكن فلنرجع إلى النقطة الأساسية. ذلك أنني ألاحق ثلاثة أهداف. إن أمامي ثلاثة أغراض، فأريد...

وعاد يتكلم عن «نقطته الأساسية»، فأدركت أخيراً أنني أمام رجل يجب أن توضع على رأسه خرقة مبلولة بالخل فوراً، أو يجب إسعافه بالفصد حالاً. كان حديثه المشوّش يدور في أغلب الظن على الدعوى وما قد تنتهي إليه، وعلى قيام قائد الكتيبة بزيارته بنفسه ومحاولته ثني عزمه عن خطوة يريد أن يخطوها ولكنه لم يصغ إليه، وعلى رسالة بعث بها إلى جهة ما، وعلى وكيل

Twitter: @ketab_n

نيابة، وعلى أنه سينفى حتماً إلى مكان بشمال روسيا مجرداً من حقوقه، وعلى أن من الممكن أن يستوطن طشقند مسترداً رتبته، وعلى الدروس التي سيلقنها لابنه (ابنه الذي ستلده له ليزا)، وما سيسلمه إياه هناك «في الفلاة، في أرخارنجل، وفي خولموجوري». لئن أردت أن أعرف رأيك يا آركادي إيفانوفتش، ثق كل الثقة أنني أقدر عاطفتك قدراً كبيراً... ليتك تعلم يا آركادي إيفانوفتش، يا عزيزي، يا أخي العزيز، ليتك تعلم ماذا تمثّل ليزا عندي، ماذا كانت ليزا لي هنا طول هذا الوقت!» كذلك صاح فجأة وهو يمسك رأسه بيديه.

ـ سرجي بتروفتش، هل يُعقل أن تريد لها الموت باصطحابها إلى خولموجوري!

أفلتت هذه الجملة من لساني برغم إرادتي. لقد تراءى لي ارتباط مصير ليزا بهذا المهووس مدى الحياة واضحاً كل الوضوح أول مرة، فجزعت. فنظر إليَّ، ونهض مرةً أخرى، ومشى خطوة، وأدار ظهره، ثم عاد يجلس وهو لا يزال ممسكاً رأسه بيديه.

قال فجأة:

ـ إنني أحلم دائماً بعناكب.

ـ أنت في اضطراب رهيب يا أمير. أنصحك بأن ترقد في سريرك وأن تستدعي الطبيب فوراً.

ـ لا، اسمح لي، فيما بعد. وإنما استدعيتك خاصةً لأشرح لك... مسألة الزواج. إن الزواج، كما تعلم، سيتم هنا، سبق أن قلت هذا. لقد أُعطيت الإذن بالزواج، حتى إنني أُشجّع عليه. أما ليزا...

صحت أقول:

Twitter: @ketab_n

ـ ارحم ليزا يا أمير، يا عزيزي: لا تعذبها بغيرتك، الآن على الأقل!

فهتف قائلاً وهو يصوِّب إليَّ عينين محملقتين، ويبتسم ابتسامةً متشنجة فيها استفهام أبله:

ـ كيف؟

كان واضحاً أن كلمة «الغيرة» قد فاجأته مفاجأة قويّة.

ـ معذرة يا أمير، قلت هذا الكلام برغم إرادتي. اسمع: لقد تعرفت في الآونة الأخيرة إلى شيخ عجوز... هو أبي الشرعي... لو رأيته لأصبحت أكثر هدوءً وسكينة. إن ليزا أيضاً تقدره قدراً كبيراً.

ـ آ... نعم... ليزا... آ... نعم... هو أبوك؟ نعم... معذرة يا عزيزي. هناك شيء... أتذكر الآن... حدثتني ليزا عن هذا. شيخ طيب... أنا متأكد، أنا أيضاً عرفت شيخاً طيباً. ولكن دعنا من هذا الآن. إن الأمر الأساسي هو أن نوضح جوهر المسألة، يجب...

قمت لأنصرف. كان يؤلمني منظره. فلما رآني أهمُّ أن أنصرف، قال بقسوة ووقار:

ـ لست أفهم!

فقلت:

ـ يؤلمني أن أراك على هذه الحال.

ـ كلمة أخرى يا آركادي ماكاروفتش، كلمة أخرى.

وأمسك كتفيَّ بحركة مختلفة كل الاختلاف، وقد تبدلت هيئته كل التبدل، وأجلسني على المقعد، وأردف يقول وهو يميل عليَّ:

ـ هل جاءك نبأ أولئك الناس؟ أقصد...

Twitter: @ketab_n

ـ نعم، درجاتشيف.

ولم أستطع أن أسيطر على نفسي فأضفت أقول صائحاً:

ـ لا بد أن ستيبلكوف هو الواشي!

- نعم، ستيبلكوف... ألا تعلم؟

وتوقف عن الكلام، وحدَّق إليَّ مرة أخرى بعينين محملقتين وابتسامة متشنجة عريضة فيها استفهام أبله، وما تنفك تزداد عرضاً. وأخذ وجهه يشحب شيئاً فشيئاً. فإذا برعدة تسري في جسمي على حين فجأة، إذ تذكرت نظرة فرسيلوف حين أنبأني أمس باعتقال فاسين. وهتفت أقول مذعوراً:

ـ هل يُعقل هذا؟

ـ اسمع يا آركادي ماكاروفتش، أنا إنما استدعيتك لأشرح لك...

وأضاف هامساً بصوت خافت:

ـ أردت أن...

فصحت أقاطعه قائلاً:

ـ أنت الواشي بفاسين!

ـ لا، وإنما كان هناك مخطوطة؛ وقد سلم فاسين المخطوطة إلى ليزا قبل اليوم الأخير... لتحفظها. وتركتها لي ليزا هنا لأتصفحها، وبعد ذلك حدث أن تخاصما في اليوم التالي...

ـ فأرسلت أنت المخطوطة إلى السلطات؟...

ـ آركادي ماكاروفتش! آركادي ماكاروفتش!

صحت أقول واثباً من مكاني مقطعاً كلماتي:

ـ هكذا إذن، بدون أي دافع آخر، وبدون أي هدف آخر عدا الغيرة. لأن فاسين المسكين غريمك، سلَّمت إلى السلطات

Twitter: @ketab_n

المخطوطة التي عُهد بها إلى ليزا! إلى من سلَّمتها؟ إلى من؟ إلى وكيل النيابة؟

ولكن لم يتسع الوقت لأن يجيب عن أسئلتي. وبماذا كان يمكنه أن يجيب؟ لقد تسمر أمامي كتمثال وهو لا يزال يبتسم تلك الابتسامة المَرَضيَّة، ويحملق تلك الحملقة الجامدة. وإنه لكذلك إذا بالباب ينفتح فتدخل ليزا. فلما رأتنا معاً كادت تسقط مغشياً عليها. وصرخت تقول وقد انقلب وجهها فجأة وأمسكت يديَّ:

ـ أنت هنا؟ إذن. . . «علمت»؟

لقد قرأت في وجهي أنني «علمت». وقبلتها بسرعة، قبل أن تستطيع الاعتراض، قبَّلتها بقوة، بقوة. لقد أدركتُ في تلك اللحظة، أول مرة، إدراكاً كاملاً، مدى الحزن القاتم الذي لا مخرج منه ولا حدود له، مدى العذاب الرهيب الذي سيجثم إلى الأبد على حياة هذه الإنسانة. . . الباحثة عن الآلام!

قالت وهي تنتزع نفسها مني فجأة:

ـ ولكن هل يجوز للمرء أن يكلمه الآن؟ هل يجوز للمرء أن يبقى معه؟ لماذا جئت إلى هنا؟ انظر إليه، انظر إليه، هل يمكن أن يدان؟

كان وجهها يفيض ألماً وشفقة لا حدود لهما، حين أشارت لي بيدها إلى الرجل المسكين وهي تهتف ذلك الهتاف. كان جالساً على المقعد دافناً وجهه في يديه. إنها على حق: لقد كان يعاني من حمى حارة، فهو غير مسؤول عن أعماله. ولعله كان غير مسؤول عن أعماله منذ ثلاثة أيام. وقد أودع المستشفى في ذلك الصباح نفسه، ولم يحل المساء حتى تكشفت إصابته في الدماغ.

Twitter: @ketab_n

4

تركت الأمير مع ليزا في نحو الساعة الواحدة بعد الظهر، ومضيت من هناك إلى مسكني القديم. نسيت أن أذكر أن الجو كان رطباً، معتماً، وأن الجليد كان قد بدأ يذوب، وأن ريحاً فاترة كانت تهب فتثير حتى أعصاب فيل. استقبلني المؤجر فرحاً، وأخذ يسعى ويتحرك حولي كثيراً، وهذا شيء أكرهه وأمقته في مثل هذه الأحوال. ولقد أظهرت له شيئاً من الجفوة، واتجهت إلى غرفتي رأساً، ولكنه تبعني: كان لا يجرؤ أن يسألني عن شيء، ولكن حب الاطلاع كان يلتمع في عينيه، وكانت هيئته هيئة إنسان من حقه أن يستطلع. كان ينبغي لي أن ألاطفه، في سبيل مصلحتي. ولكنني رغم حاجتي القصوى إلى معرفة شيء ما (وكنت أعلم أنني لو لاطفته لعرفت شيئاً ما)، كرهت أن أسترسل في سؤال وجواب. واكتفيت بأن سألته عن صحة زوجته، ثم ذهبنا إليها. فاستقبلتني بلطف ومودة، ولكنها حافظت على رصانتها وكانت قليلة الكلام. فهدأني هذا قليلاً. على أنني علمت في النهاية أموراً تثير أكبر الدهشة.

كان لامبرت قد جاء طبعاً، ثم جاء مرتين أخريين، «وطاف بجميع الغرف» قائلاً إنه قد يستأجر غرفة. وجاءت داريا أونيسيموفنا عدة مرات. فكان أهل البيت يتساءلون: «لماذا تجيء؟». وقد أضاف المؤجر قوله: «كانت شديدة حب الاطلاع أيضاً». غير أنني لم أسرَّه فأسأله عن حب الاطلاع عندها ماذا كان! وكنت على وجه العموم لا ألقي على الرجل سؤالاً، وإنما كان يتكلم وحده، وكنت أتظاهر بأنني أنبش في حقيبتي (التي لم يكن قد بقي منها شيء تقريباً). ولكن الشيء المزعج أنه قد ارتأى هو أيضاً أن يعمد إلى

Twitter: @ketab_n

السر والتعمية، وأنه حين لاحظ امتناعي عن سؤاله اعتقد أن من واجبه هو أيضاً أن يقتضب كثيراً، حتى ليكاد كلامه أن يصبح ألغازاً.

أضاف يقول وهو يلقي عليَّ نظرة غريبة:

ـ جاءت آنسة أيضاً.

ـ أية آنسة؟

ـ آنا آندرييفنا. جاءت مرتين. وتعرفت بزوجتي. إنسانة لطيفة، بشوشة. إن معرفة آنسة مثلها شيء ثمين يا آركادي ماكاروفتش...

قال هذه الكلمة وهو يتقدم مني خطوة: كان يرغب رغبة قوية في أن يُفهمني شيئاً!

قلت مدهوشاً:

ـ مرتين؟ غير معقول...

ـ وكانت في المرة الثانية مع أخيها.

قلت في نفسي: «إنه لامبرت».

ـ لا، ليس هو لامبرت، بل هو أخوها... شاب اسمه فرسيلوف. أظن أنه يعمل في البلاط.

لقد حزر الرجل ما تصورته، كأن عينيه قد نفذتا إلى قرارة نفسي.

اضطربت اضطراباً شديداً. وكان ينظر إليَّ وهو يبتسم ابتسامة تودد كريه. ثم أضاف:

ـ آ... نعم... وجاءت آنسة أخرى تسأل عنك، الآنسة الفرنسية، مدموازيل آلفونسين دو فردان. آه... ما أحسن غناءها! ما أجمل إنشادها الشعر! ولقد ذهبت خفيةً إلى تسارسكويا لترى الأمير نيقولا إيفانوفتش، فتبيعه كلباً صغيراً نادراً، حالك السواد،

Twitter: @ketab_n

لا يزيد حجمه على حجم قبضة الكف. . .

رجوته أن يتركني وحيداً بحجة أنني أعاني من صداع. فأطاعني فوراً، قبل أن ينهي جملته، وبدون غضب، بل بابتهاج، محركاً يده بإشارة غريبة كأنها تقول: «أفهم، أفهم!». وخرج على رؤوس الأصابع من غير أن ينطق بكلمة واحدة، متيحاً لنفسه هذه المسرة. إن على سطح هذه الأرض أناساً يثيرون الأعصاب فعلاً!

بقيت وحدي أفكر، ساعةً ونصف ساعة. بل قل إنني لم أفكر، وإنما أخذت أحلم. كنت مضطرباً، ولكنني لم أكن مدهوشاً. حتى لقد كنت أتوقع المزيد، وأنتظر عجائب أكبر. قلت أحدث نفسي: «لا بد أنهم عملوا أشياء كثيرة منذ الآن!». كنت مقتنعاً كل الاقتناع، منذ مدة، منذ كنت في البيت، أن آلتهم قد تحركت وأنها تعمل بسرعة. وقلت لنفسي أيضاً، وأنا أشعر بنوع من الرضى العصبي اللذيذ: «لا ينقصهم الآن إلا أنا، إنهم ينتظرونني على أحر من الجمر، إنهم يريدون أن يدبروا أمراً في مسكني، هذا واضح وضوح النهار، أيكون الأمر الذي يدبرونه هو زواج الأمير العجوز؟ إنهم ينصبون له فخاً، ولكن هل أسمح أنا بهذا يا سادة؟ ذلك هو السؤال». كذلك ختمت حديثي إلى نفسي مزدهياً.

«إذا دخلت في هذا الأمر، فسرعان ما سيجرفني الإعصار كما يجرف قشة. أأنا حُرٌّ في هذه اللحظة أم لم أعُد حراً؟ ألا أزال أستطيع حين أعود إلى ماما في هذا المساء أن أقول لنفسي كما أقول في كل يوم: «أنا ما أنا»؟».

ذلك هو جوهر أسئلتي أو قولوا جوهر خفقات قلبي أثناء تلك المدة التي دامت ساعةً ونصف ساعة، والتي قضيتها في ركن على السرير، واضعاً كوعيَّ على ركبتيّ، جاعلاً رأسي في يديَّ؟ ولقد

Twitter: @ketab_n

كنت أعلم منذ ذلك الحين أن هذه الأسئلة كلها ليست إلا ترهات، فإنما كانت «هي» التي تجذبني وتجرني، «هي»، «هي» وحدها! أخيراً أقول هذا واضحاً قاطعاً، وأسجله على الورق بأحرف بارزة؛ إنني حتى في هذا اليوم، وأنا أكتب بعد انقضاء سنة، لا أزال أجهل الاسم الذي يجب أن أسمي به العاطفة التي كانت تختلج في نفسي آنذاك!

صحيح أنني كنت أشعر بشفقة على ليزا، وكنت أعاني ألماً صادقاً! وكان يمكن لهذا الألم وحده أن يهدّئ أو أن يمحو من نفسي، ولو إلى حين قصير، ما كان يجيش فيها من شعور وحشي ضار (ها أنا أستعمل هذا التعبير مرة أخرى). ولكن كان يجرفني استطلاع رهيب وخوف غامض، وكانت تجرفني عاطفة أخرى لا أعرف ما هي، ولكنني كنت منذ ذلك الحين أعرف أنّها ليست عاطفة طيبة، بل هي عاطفة فاسدة. لعلّني كنت أصبو إلى أن أترامى عند قدميها، ولعلني كنت أريد كذلك أن أغرقها في جميع أنواع العذاب وأن أبرهن لها على شيء ما «بسرعة». فلم يكن لأي ألم أو أي عطف على ليزا أن يوقف اندفاعي. هيا، هل أستطيع أن أنهض فأعود إلى البيت... وأجلس إلى ماكار إيفانوفتش؟

«ولكن هل يستحيل عليَّ حقاً أن أذهب إليهم، فأعرف منهم كل ما يُدبَّر، ثم أتركهم فجأةً إلى الأبد، فأكون قد مررت بالعجائب والشياطين سليماً لم يمسسني سوء؟».

في الساعة الثالثة، إذ ثبت إلى نفسي ورأيت أنني كدت أتأخر، خرجت مسرعاً، فركبت عربة وطرت إلى آنا آندرييفنا.

Twitter: @ketab_n

الفصل الخامس

1

ما أن أبلغوا آنا آندرييفنا بوصولي حتى تركت شغلها وأسرعت تستقبلني في الغرفة الأولى، وتلك حفاوة لم ألق مثلها من قبل. وقد مدَّت إليَّ يديها كلتيهما، واحمرَّ وجهها بسرعة. وقادتني إلى حجرتها صامتة، وعادت تتناول شغلها، وأجلستني بجانبها. لكنها كفت عن التطريز، وظلت تتفرس فيَّ باهتمام حار دون أن تقول شيئاً.

قلت فجأة وقد تضايقت قليلاً من هذا الاهتمام المتصنِّع رغم أنه طاب لي كثيراً:

ـ أرسلت إليَّ داريا أونيسيموفنا؟...

فسرعان ما شرعت في الكلام دون أن تجيب عن سؤالي، فقالت:

ـ لقد قصوا عليَّ ما وقع لك، فعرفت كل شيء. يالها من ليلة رهيبة!... ما أشد العذاب الذي لا بد أنك عانيته! هل صحيح، هل صحيح أنهم وجدوك في غيبوبة، وكنت توشك أن تتجمد؟

فجمجمت أقول وقد احمرَّ وجهي:

ـ هل... لامبرت...؟

ـ حكى لي كل شيء في ذلك الوقت. ولكنني كنت أنتظرك. لقد

Twitter: @ketab_n

جاءني مرتاعاً. عندك... في البيت الذي كنت راقداً فيه على سرير المرض، رفضوا أن يراك. وقد استقبلوه استقبالاً سخيفاً... لا أدري في الواقع كيف وقع لك ما وقع. ولكنَّه حدَّثني كثيراً عن تلك الليلة. وقال لي إنك حين فتحت عينيك قد ذكرت اسمي. فأثرَّ هذا في قلبي تأثيراً قوياً، لقد ترقرقت الدموع في عينيَّ من شدة التأثر يا آركادي ماكاروفتش. وإني لا أدري حقاً ماذا فعلتُ حتى أستحق منك هذه العاطفة كلّها، ولا سيما في حالة كالحالة التي كنت فيها. قل لي: هل مسيو لامبرت رفيق طفولتك؟

ـ نعم، ولكنني أعترف بأنني... بعد ذلك الحادث... كنت متهوراً فلعلَّني قلت له أكثر ممّا كان ينبغي أن أقول.

ـ ولكنني كنت سأعرف تلك المكيدة السوداء الرهيبة دون أن يروي هو لي شيئاً! لقد كنت أحسّ دائماً، دائماً، أنهم سيوصلونك إلى هذا! قل لي: هل صحيح أن بيورنج تجرأ أن يرفع يده عليك؟

إنها تتكلم كلام من يعتقد أنني لم يُعثر عليَّ عند الجدار إلا بسبب بيورنج وبسببها «هي». وقد قلت لنفسي: «الواقع أنها على حق». ولكنني انفجرت أقول مع ذلك:

ـ لو رفع عليَّ يده لما تركته بغير عقاب، ولما وجدتني الآن أمامك قبل أن أثأر لنفسي.

لقد أحسست أنها تريد أن تغيظني، وأن تثير حنقي على شخص ما (أعرف من هو)، ومع ذلك رأيتني أنقاد لاستثارتها، فقلت:

ـ تقولين إنك كنت قد أدركت أنني بسببها سأصل إلى ما وصلت إليه. فأحب أن أذكر لك أن ما وقع بيني وبين كاترينا نيقولايفنا ليس إلا سوء تفاهم، وإن يكن صحيحاً أنها سرعان ما تغيَّرت عواطفها نحوي في أعقاب سوء التفاهم...

Twitter: @ketab_n

ـ تماماً. سرعان ما تغيَّرت عواطفها!

كذلك قالت آنا آندرييفنا متعاطفة. ثم تابعت:

ـ آه... ليتك تعرف المكيدة التي تُدبَّر الآن! لا شك أن حالتك لا تساعدك في هذا الوقت على أن تدرك حراجة وضعي كل الإدراك...

قالت ذلك وقد احمرَّ وجهها وغضَّت طرفها. واستطردت تقول:

ـ إنني في ذلك الصباح نفسه الذي التقينا فيه آخر مرة، قد خطوت خطوة لا يستطيع جميع الناس أن يفهموها وأن يقدِّروها كما يمكن أن يفهمها وأن يقدِّرها رجل له ذكاؤك السليم وقلبك المحب الغض الذي لم يفسد. ثق يا صديقي أنني أحسن تقدير عاطفتك، وأعرف كيف أكافئك عليها بالشكر والامتنان إلى الأبد. لا شك أن الناس في المجتمع الراقي سيرمونني بحجر، بل لقد رموني بالحجر فعلاً. ولكن هبهم على حق من وجهة نظرهم الرهيبة، فمن ذا الذي يستطيع، من ذا الذي يجرؤ منهم أن يدينني؟ لقد هجرني أبي منذ طفولتي. إننا، آل فرسيلوف، الأسرة العريقة النبيلة، أناس مغامرون، وأنا الآن آكل خبز الآخرين فضلاً منهم وإحساناً. أفليس طبيعياً إذن أن أتَّجه إلى ذلك الذي كان لي منذ طفولتي بمنزلة الأب، وأغرقني بحسناته سنين طويلة؟ الله وحده يرى ما أحمل لهذا الرجل من عواطف، والله وحده يحق له أن يحكم على الخطوة التي خطوتها. إنني لا أقبل حكم البشر على هذه الخطوة. وعدا ذلك، حين تحاك أدنأ وأحقر مكيدة، حين يوشك أن يقع أب شهم كريم ضحيةً لمؤامرة تدبِّرها له ابنته، فهل يستطيع المرء أن يحتمل هذا؟ لا، إني لأوثر أن أضيِّع سمعتي على ألا أنقذه. إني مستعدة أن أكون له خادمةً وحارسةً وممرضة، ولكنني لن أدع لحساب دنيء وضيع كريه أن ينتصر!

Twitter: @ketab_n

كانت تتكلم بحرارة شديدة، قد يكون نصفها مفتعلاً، ولكنها حرارة صادقة رغم كل شيء، فليس يخفى أن اهتمامها بهذه القضية اهتمام شديد. ولقد أحسست بأنها كانت تكذب (تكذب كذباً صادقاً، فالمرء يمكن أن يكذب كذباً صادقاً)، وأحسست بأن كل ما فيها زيف وزور. ولكن ما أغرب ما يحدث للمرء مع النساء: إن هذه النبرة الراقية، وهذه الأنفة الشماء، وهذه العفة الفخور، إن هذا كله كان يذهلني عن نفسي ويحيِّرني في أمري، فإذا أنا أوافقها على جميع النقاط، ما بقيت معها. لا شك أن الرجل تستعبد المرأة روحه، ولا سيما إذا كان رجلاً شهماً ذا أريحية! إن امرأة كهذه المرأة تستطيع أن تنتصر على أي رجل كريم. قلت أحدِّث نفسي وأنا أنظر إليها مرتبكاً متحيِّراً: «هي ولامبرت! رباه!». على أنني سأقول كل شيء: إنني لا أزال حتى هذا اليوم عاجزاً عن أن أقطع فيها برأي. إن الله وحده قادر على أن يرى عواطفها، ثم إن الإنسان جهاز يبلغ من التعقيد أن المرء لا يستطيع أن يفهم من أمره شيئاً، ولا سيما إذا كان هذا الإنسان امرأة.

سألتها بلهجة جازمة:

ـ فماذا تنتظرين مني يا آنا آندرييفنا؟

ـ ما تعني بهذا السؤال يا آركادي ماكاروفتش؟

قلت مرتبكاً:

ـ يبدو لي... ممَّا سمعته... ومن اعتبارات أخرى أيضاً، أنك إنما أرسلت تستدعينني لأنك تنتظرين مني شيئاً. فما الذي تنتظرينه مني على وجه التحديد؟

ولكنها لم تجب عن سؤالي، وإنما سارعت تستأنف كلامها، بمثل تلك السرعة وبمثل تلك الحرارة:

Twitter: @ketab_n

ـ ولكنني لا أستطيع، إنني أشدّ إباءً وكبرياءً من أن أدخل في إيضاحات ومساومات مع أناس لا أعرفهم مثل مسيو لامبرت. فأنت من كنت أنتظر، لا مسيو لامبرت. إن وضعي حرج رهيب، يا آركادي ماكاروفتش! فأنا مضطرة إلى الحيلة والمكر، لأنني محاطة بمؤامرات تحوكها لي هذه المرأة. وهذا لا يطاق. إنني أتدنى إلى مستوى المكيدة، فكنت أنتظرك كما يُنتظر منقذ مخلِّص. ما ينبغي أن أُتَّهم لأنني أنظر فيما حولي بشراهة عسى أن أكتشف صديقاً واحداً على الأقل، وهذا هو السبب في أنني لم أستطع إلا أن أفرح حين وقعت على هذا الصديق؛ إن الذي أمكنه، حتى في تلك الليلة، وهو يكاد يكون متجمداً من البرد، أن يتذكرني وألا يردد إلا اسمي لهو صديق مخلص حتماً. ذلك ما قلته لنفسي، وهذا هو السبب في أنني كنت أعوِّل عليك.

كانت تنظر في عينيَّ نافذة الصبر شوقاً إلى سماع جوابي. ومرةً أخرى أعوزتني الشجاعة اللّازمة لأبدد أوهامها ولأذكر لها بصراحة أن لامبرت خدعها وأنني لم أزعم له أبداً أن صداقتي لها تبلغ هذا المبلغ كلّه من القوة، وإنني لم أردّد اسمها وحدها. فكان صمتي بمثابة تأكيد لكذب لامبرت. وأنا أعلم أنها كانت هي نفسها تدرك حق الإدراك أن لامبرت قد بالغ وغالى، بل لعلّه كذب عليها أيضاً، لا لشيء إلا أن يجد عذراً كريماً لمجيئه إليها وعقد صلة بينه وبينها. ولئن كانت تنظر في عينيَّ نظرة الموقن بصدق أقوالي وقوة صداقتي، فإنما مرد ذلك طبعاً إلى أنها كانت تعلم أنني لن أجرؤ على التكذيب، بحكم ذوقي وأدبي، وبحكم سني أيضاً. على أنني أتساءل: هل هذا الافتراض صحيح أم هو غير صحيح، فلا أجد لهذا السؤال جواباً. ولعلني أمرؤ فاسد فساداً رهيباً.

Twitter: @ketab_n

وانبرت تقول فجأة بحرارة شديدة حين رأت أنني لا أجيب:

ـ إن أخي سيدافع عني.

تمتمت أقول مضطرباً:

ـ قيل لي أنك جئت تزورينني معه.

ـ ذلك أن هذا المسكين، الأمير نيقولا إيفانوفتش لم يكد يبقى له ملجأ يعصمه من هذه المؤامرة أو قل يحميه من ابنته إلّا مسكنك، أعني إلا مسكن صديق. ألا يحق له فعلاً أن يعدّك صديقاً، أنت على الأقل؟ فإن كنت تستطيع أن تصنع له شيئاً فاصنعه، اصنعه إذا استطعت، إذا كان لك قلب كبير زاخر بالجرأة والشجاعة، وإذا كنت «قادراً على أن تصنع شيئاً بالفعل». إنني لا أسألك هذا من أجلي. لا. لا أسألك هذا من أجلي، بل من أجل شيخ تعيس أحبَّك وحده حباً صادقاً، وتعلَّق بك تعلُّقه بابنه، ولا يزال يضجره بعدك عنه إلى الآن. من أجلي أنا لا أنتظر شيئاً، لا أنتظر شيئاً حتى منك، بعد أن رأيت أن أبي نفسه قد دبَّر لي مكيدة دنيئة!

قلت:

ـ يخيَّل إليَّ أن آندريه بتروفتش...

فقاطعتني قائلة وهي تبتسم مرة:

ـ إن آندريه بتروفتش قد أجاب عن سؤالي الصريح بأن حلف لي بشرفه أنه لم يضمر لكاترينا نيقولايفنا شيئاً في يوم من الأيام، ولا طمع في شيء منها أبداً، فصدَّقته أنا كل التصديق فخطوت خطوتي. ثم اتضح أنه لم يحافظ على هدوئه إلا إلى الوقت الذي جاءه فيه ذلك النبأ عن رجل اسمه بيورنج.

هتفت أقول:

Twitter: @ketab_n

ـ ليس هذا هو الأمر. أنا أيضاً ظننت في لحظة من اللحظات أنه يحب تلك المرأة. ولكن ليس هذا هو الأمر... وحتى لو صدق أن هذا هو الأمر، فإن في إمكانه الآن أن يبقى هادئاً وألا يحرك ساكناً بعد أن انسحب ذلك السيد.

ـ أي سيد؟

ـ بيورنج.

فقالت وهي تضحك ضحكة ساخرة:

ـ من قال لك إنّه انسحب؟ لعل هذا السيد لم يكن في يوم من الأيام قوياً كقوته الآن.

وبدا لي الآن أنها كانت تحدجني أنا أيضاً بنظرة ساخرة.

تمتمت أقول وقد اضطربت اضطراباً لم أقدر أن أخفيه ولا شك أنها لاحظته:

ـ داريا أونيسيموفنا قالت لي هذا.

ـ داريا أونيسيموفنا إنسانة طيبة، ولست أملك طبعاً أن أمنعها عن حبي، ولكنها لا تستطيع أن تعرف ما لا يتعلق بها.

انقبض صدري. وكما كانت تنوي أن تلهب استيائي فقد التهب استيائي فعلاً، ولكن هذا الاستياء لم ينصب على المرأة «الأخرى» بل انصب على آنا آندرييفنا نفسها، فنهضت وقلت:

ـ إن من واجبي، كرجل شريف، أن أنبهك يا آنا آندرييفنا إلى أن الآمال التي تعقدينها عليَّ قد تكون أوهاماً باطلة لا جدوى منها...

فحدقت إليَّ بنظرة ثابتة وقالت:

ـ إنني أنتظر أن تحميني... أن تحمي إنسانة هجرها الجميع... أن تحمي أختك يا آركادي ماكاروفتش!

وكادت أن تجهش باكية.

Twitter: @ketab_n

فتمتمت أقول وأنا أشعر بألم شديد:

ـ الأفضل ألا نقول على هذا، لأن «من الجائز» أن لا يحدث شيء.

ـ ماذا يجب أن أفهم من أقوالك هذه؟

ألقت هذا السؤال بكثير من التروي والحذر. فإذا أنا أصرخ قائلاً بما يشبه الغضب:

ـ افهمي من أقوالي أنني سأبتعد عنكم جميعاً، وكفى! أما «الوثيقة»... فسوف أمزقها. أستودعك الله!

حييتها وخرجت صامتاً لا أجرؤ حتى أن أنظر إليها. ولكن ما إن بلغت أسفل السلم حتى أدركتني داريا أونيسيموفنا وهي تحمل ورقة من ورق الرسائل مطويةً نصفين. من أين جاءت داريا أونيسيموفنا؟ أين كانت مختبئةً فيما كنت أكلم آنا آندرييفنا؟ ذلك ما لم أستطع أن أفهمه. وقد أعطتني الورقة دون أن تقول كلمة واحدة، وعادت أدراجها مسرعة. وفضضت الورقة، فإذا أنا أقرأ فيها عنوان لامبرت مكتوباً بأحرف جلية دقيقة، فكان واضحاً أن كل شيء قد تمَّ إعداده وتحضيره منذ بضعة أيام. تذكرت فجأة أنني، يوم جاءت إليَّ داريا أونيسيموفنا، قد أفلت مني أنني لا أعرف أين يقيم لامبرت، ولكنني إنما قلت هذا الكلام بمعنى أنني «لا أعرف ولا أريد أن أعرف». وأنا الآن أعرف عنوانه بعد أن كلفت ليزا بالحصول عليه من «مكتب العناوين». بدت لي هذه المبادرة من آنا آندرييفنا بليغة الدلالة بل شديدة السخرية: فإنها، رغم رفضي التعاون معها، ترسلني إلى لامبرت رأساً، فكأنها تُفهمني أنها لا تصدقني أي تصديق. كان واضحاً جداً أنها على علم بقصة «الوثيقة» كاملةً. ومن عسى يعلمها بها غير لامبرت الذي ترسلني إليه ليتم التفاهم بيني وبينه؟

Twitter: @ketab_n

قلت لنفسي مستاءً: «إنهم جميعاً يعدونني صبياً صغيراً لا إرادة له ولا حزم عنده، فيستطيعون أن يفعلوا به ما يشاؤون!».

2

مع ذلك ذهبت إلى لامبرت. وهل كان يمكنني أن أرضي حب الاطلاع الذي تملَّكني إلا عنده؟ إن لامبرت يسكن بعيداً جداً، في شارع كوسوي بيريؤلوك، بقرب «حديقة الصيف»، في ذلك البيت المفروش نفسه. ولكني حين ولَّيت هارباً من عنده لم أنتبه إلى طول المسافة، حتى إذا زوَّدتني ليزا بعنوانه بعد أربعة أيام، دهشت ولم أكد أصدق أنه يسكن هناك. وفيما كنت أصعد السلم بصرت أمام باب البيت المفروش، في الطابق الثالث، بشابين اعتقدتُ أنهما قرعا الجرس قبلي فهما ينتظران أن يُفتح لهما الباب. وكانا كلاهما يتفرسان فيَّ أثناء صعودي، وقد أدارا للباب ظهرهما. قلت لنفسي حين وصلت إليهما: «هذا بيت مفروش، فلا بد أنهما آتيان إلى مستأجرين آخرين غير لامبرت». كان يمكن أن يزعجني جداً أن ألقى أحداً عنده. ومددت يدي إلى الجرس لأقرعه، محاولاً ألا أنظر إليهما. فإذا بأحدهما يصيح قائلاً لي:

ـ انتظر!

وقال الآخر بصوت رنان رقيق، ممطوط قليلاً:

ـ انتظر من فضلك. سنقرع الجرس معاً متى انتهينا، إذا تكرمت.

فأمسكت عن قرع الجرس. إنهما شابان في ريعان الشباب، يبلغان من العمر عشرين عاماً أو اثنين وعشرين، قد وقفا أمام الباب منهمكين في عمل غريب حاولت أن أفهمه مدهوشاً. إن الذي

Twitter: @ketab_n

صاح يقول: «انتظر»، مديد القامة جداً، يبلغ طوله مائة وتسعين سنتيمتراً في أقل تقدير، وهو شديد النحول، لكنه بارز العضلات، إلى رأس صغير جداً بالقياس إلى طول القامة، هذا عدا وجه مجدور قليلاً، مكفهر اكفهراراً مضحكاً، لكنه ينم عن ذكاء، بل يكاد يكون محبباً. إن عينيه تحدقان تحديقاً، بصلابة لا محل لها بل لا داعي إليها. وهو سيىء الهندام، يرتدي معطفاً عتيقاً مبطناً بقطن، ذا ياقة صغيرة من فراء مكشوط، معطفاً قصيراً مسرفاً في القصر بالنسبة إلى طول قامته ـ فلا شك أنه مستعار ـ وهو ينتعل حذاءين تكاد تكون من أحذية الفلاحين، ويضع على رأسه قُبعة عالية مشقرة، بالية رهيبة البلى. هو على وجه الإجمال وسخ، يداه اللتان لا يسترهما قفازان قذرتان، وأظافره الطويلة مسودَّتان. لكن رفيقه لم يكن هكذا: إنه أنيق إلى أبعد حدود الأناقة: معطف خفيف من فراء ابن عرس، قبعة جميلة، قفازان نضران زاهيان على أصابع رقيقة ناعمة. إنه في مثل طولي، على محيًّا فتان ووجه فتيٍ غض.

كان الشاب الطويل ينزع عن عنقه كرافتته، وهي شريط مهترىء كل الاهتراء، متسخ بالدهن، كاد يستحيل إلى خيوط؛ على حين أستلّ رفيقه من جيبه كرافتة أخرى سوداء، جديدة كل الجدة، اشتُريت من المتجر منذ هنيهة، وراح يعقدها له على رقبته. فكان الأول يمد رقبته الطويلة طائعاً معبِّراً بوجهه عن أكبر الجد، تاركاً لمعطفه أن يسقط عن جسمه.

قال الشاب الأنيق.

ـ لا، مستحيل. القميص وسخ جداً. وسيظهر بالتضاد أشد اتساخاً. ألم أقل لك أن تلبس ياقة مضافة؟ لا أستطيع. . .

Twitter: @ketab_n

ثم التفت إليَّ وقال يسألني:

ـ ألا تستطيع أنت؟

ـ ماذا؟

ـ أن تعقد له كرافتته منتفخةً بحيث لا يظهر تحتها قميصه الوسخ، وإلا فقدت كل قيمتها وتأثيرها. لقد اشتريتها له خصيصاً من عند الحلاق فيليب، ودفعت ثمنها روبلاً.

تمتم الطويل يقول:

ـ هل هو روبلك أنت؟

ـ نعم. ولم يبق معي كوبكاً واحد. هيه؟ ألا تستطيع؟ يجب أن نسأل آلفونسين.

وسألني الطويل بغتةً في غلظة:

ـ هل أنت آتٍ إلى لامبرت؟

فأجبته بمثل لهجته وأنا أحدق إلى عينيه:

ـ نعم، إلى لامبرت.

فعاد يسأل بتلك اللهجة نفسها وذلك الصوت نفسه:

ـ دولجوروفكي؟

فقلت أجيبه بفظاظة كفظاظته:

ـ لا، لست كوروفكين.

لقد سمعت خطأ.

فقال كمن يصرخ صراخاً ويتقدم نحوي خطوة كمن يهددني:

ـ دولجوروفكي؟

فانفجر رفيقه ضاحكاً، وقال شارحاً:

ـ إنه دولجوروفكي ولا يقول كوروفكين. أنت تعلم أن الفرنسيين في «جريدة الجدال» يشوهون الأسماء الروسية دائماً.

Twitter: @ketab_n

فقال الطويل مصححاً مقرعاً:

ـ بل جريدة «الاستقلال».

ـ . . . غير مهم. جريدة «الاستقلال» أيضاً. فاسم دولجوروكي مثلاً يكتبونه دولجوروفكي. قرأت هذا بنفسي. واسم فـ. . . ـوف يكتبونه دائماً كونت فالونييف.

صاح الطويل:

ـ دوبويني!

ـ نعم، هناك أيضاً اسم دوبويني. قرأته بنفسي، وضحكنا جميعاً: هي امرأة يقال لها مدام دوبويني، روسية في الخارج. . .

ثم أضاف يقول ملتفتاً إلى الطويل:

ـ ولكن علام ذكرهم جميعاً؟

وعاد يكلمني فقال:

ـ معذرة. هل أنت السيد دولجوروكي؟

ـ نعم، دولجوروكي. ولكن من أين عرفت اسمي؟

هنا همس الطويل في أذن رفيقه اللطيف ببعض الكلام، فقطب هذا حاجبيه وحرك يده بإشارة نفي. ولكن الطويل التفت إليَّ فجأة وقال يسألني بالفرنسية:

ـ «سيدي الأمير، هلاَّ أعطيتنا روبل فضة، لا روبلين، بل روبلاً واحداً!».

فصرخ القصير يقول مؤنباً:

ـ يا للحيوان!

وعاد الطويل يكلمني فقال وهو ينطق الكلمات الفرنسية نطقاً رديئاً أخرق:

ـ «سنرد إليك».

Twitter: @ketab_n

وانفجر القصير يضحك، وقال:

ـ هذا فتى رقيع! هل تظن أنه لا يحسن الكلام بالفرنسية؟ إنه ليتكلم كما يتكلم باريسي، ولكنه يقلد الروس من أبناء المجتمع الراقي الذين تتملكهم رغبة جنونية في التخاطب بلغة لا يجيدونها...

فانبرى الطويل يقول محدِّداً:

ـ «في حافلات القطار».

ـ طيب. في حافلات القطار أيضاً. إنك لمضجر حقاً. ما الداعي إلى مزيد من الشرح. أية لذة تجد في تمثيل دور الغبي؟

في أثناء ذلك كنت قد أخرجت روبلاً ومددته إلى الطويل. فقال وهو يضع الروبل في جيبه (بالفرنسية)

ـ «سنرده إليك».

ثم التفت فجأة إلى الباب بهيئة ساكنة كل السكون جادة كل الجد، وأخذ يدقه بطرف حذائه الضخم، ولكن بدون أي اهتياج أو حنق. فقال له القصير قلقاً:

ـ سوف تتشاجر مرة أخرى مع لامبرت. الأفضل أن تقرع الجرس.

وقرعت أنا الجرس، ولكن ذلك لم يمنع الطويل من مواصلة دق الباب بقدمه.

وفجأة دوَّى صوت لامبرت وراء الباب قائلاً:

ـ هوه! يا للَّعين!

وفتح لامبرت الباب بسرعة، وصرخ يقول للطويل (بالفرنسية):

ـ «قل لي، أتراك تريد أن أهشم لك رأسك؟».

فقال الطويل بجد ووقار وهو يواجه لامبرت الذي احمرّ غضباً:

ـ «يا صديقي، هذا دولجوروكي! أما الثاني فهو صديقي!».

Twitter: @ketab_n

فما أن رآني لامبرت حتى تغير تغيراً كاملاً وهتف يقول:

ـ هذا أنت يا آركادي! أخيراً! كيف حال صحتك؟ هل شفيت؟

وتناول يديَّ كلتيهما، وشدَّ عليهما شداً قوياً. الخلاصة أنه بلغ من صدق الحماسة للقائي أنني سرعان ما رقَّ قلبي له، وافتتنت به. قلت:

ـ هذه أول زيارة أقوم بها!

فصرخ لامبرت منادياً:

ـ «آلفونسين»!

فوثبت آلفونسين من وراء الحاجز، فقال لها لامبرت:

ـ «هو ذا!».

فصاحت آلفونسين مصفقةً بيديها:

ـ «إنه هو»!

ثم عادت تباعد يديها واندفعت إليَّ لتقبِّلني، ولكن لامبرت حماني منها، إذ صاح يقول لها كمن يخاطب كلباً صغيراً:

ـ هيه! هيه! على مهلك!

ثم التفت إليَّ فقال:

ـ «اسمع يا آركادي، لقد اتفقنا، عدداً من الأشخاص، على أن نتعشى اليوم في مطعم التَّتر». فلن أتركك. ستصحبنا. سنتعشى معاً. وسأصرف هذين حالاً، ثم نأخذ نتحدث. ادخل. سنخرج على الفور. دقيقة واحدة لا أكثر...

دخلت، وتسمرت في وسط الغرفة، أنظر إلى ما حولي وأستعيد ذكرياتي. كان لامبرت قد أخذ يرتدي ثيابه وراء الحاجز. وقد دخل الشاب الطويل ورفيقه وراءنا، رغم ما قاله لامبرت. فكنا نحن الثلاثة وقوفاً.

Twitter: @ketab_n

خار الطويل يقول لآلفونسين:

ـ «مدموازيل آلفونسين! بوسيني!».

وقال الصغير وهو يتقدم ويريها الكرافتة الجديدة:

ـ «مدموازيل آلفونسين!».

ولكنها هجمت عليهما كليهما حانقة مسعورة وقالت:

ـ «آه... يا للسافل! لا تقترب مني، لا توسخني!».

قالت هذا للشاب القصير، فهو الذي كانت حاقدةً عليه.

ثم اتَّجهت إلى الطويل فقالت له:

ـ «وأنت أيها الأبله الطويل! لسوف أطردكما كليكما ركلاً بقدميَّ... هل تعرف هذا؟».

ورغم أنها أشاحت عن القصير بازدراء واحتقار، كأنها تخشى حقاً أن يوسخها (وهذا ما لم أفهمه، لأنه كان نظيفاً كل النظافة، وقد ظهر حسن هندامه واضحاً حين خلع معطفه)، رغم ذلك رجاها القصير ملحاً أن تعقد للطويل الأبله كرافتته، وأن تعيره قبل ذلك ياقة نظيفة من ياقات لامبرت. فأوشكت آلفونسين أن تضربهما استياءً من هذا الطلب، ولكن لامبرت الذي سمع الكلام، صاح من وراء الحاجز يطلب منها ألا تبقيهما وأن تعطيهما ما يريدان، و«إلا فلن يدعانا هادئين»، فسرعان ما تناولت آلفونسين ياقة وأخذت تلبسها الشابَّ الطويل بدون أي اشمئزاز. ومدَّ الطويل لها رقبته وهي تعقد له كرافتته، كما فعل لرفيقه حين كانا على السلَّم أمام الباب.

قال يسألها بغتةً:

ـ «مدموازيل آلفونسين، هل بعت البولونيا الذي كان عندك».

ـ «ما البولونيا هذا؟».

Twitter: @ketab_n

فانبرى القصير يشرح لها أن «البولونيا» كلب صغير.

ـ «هه! ما هذه الرطانة؟».

ـ «إنني أتكلم كما تتكلم سيدة روسية في مدينة من مدن المياه المعدنية».

بذلك أجابها «الطويل الأبله» وهو لا يزال ماداً رقبته. فقالت له:

ـ «ماذا، سيدة روسية في مدينة من مدن المياه المعدنية؟».

ثم أضافت تخاطب القصير وهي تلتفت إليه فجأة:

ـ «و... أين ساعتك الجميلة التي أعطاك إياها لامبرت؟».

فصاح لامبرت يقول من وراء الحاجز ساخطاً:

ـ ماذا؟ من دون ساعة مرةً أخرى؟

فدمدم «الأبله الطويل» قائلاً:

ـ أكلنا بثمنها!

وأضاف القصير يجيب لامبرت مبرراً عمله بدون حرارة:

ـ بعتها بثمانية روبلات. هي من فضة مذهبة، وليس ذهباً كما زعمت. أمثال هذه الساعات تباع الآن في المتاجر بستة عشر روبلاً.

فتابع لامبرت كلامه بمزيد من السخط قائلاً:

ـ يجب أن يوضع حد لهذا. يا صديقي، إذا كنت أشتري لك ثياباً وأعطيك أشياء ثمينة، فإنني لا أفعل ذلك من أجل أن تبيعها فتنفق ثمنها على صاحبك الطويل الأبله... ما قصة هذه الكرافتة التي اشتريتها له أيضاً؟

ـ هذه ثمنها روبل واحد لا أكثر. ولم أدفع ثمنها من مالك أنت. لم يكن عنده كرافتة، ولا يزال يحتاج إلى قبعة.

Twitter: @ketab_n

قال لامبرت وقد استعر غضبه في هذه المرة:

ـ كفى حماقات! لقد أعطيته ما يكفي لشراء قبعة أيضاً. ولكنه سرعان ما ينفق المال في أكل محار وشرب شمبانيا. إن رائحته عفنة. إنه قذر. لا يستطيع المرء أن يصطحبه إلى أي مكان. كيف أصطحبه إلى العشاء؟

جمجم «الطويل الأبله» يجيب قائلاً:

ـ في عربة! «إن معنا روبل فضة اقترضناه من صديقنا الجديد».

فصرخ لامبرت يقول:

ـ لا تعطهما شيئاً يا آركادي، لا تعطهما شيئاً البتة!

قال القصير فجأة وقد احمّر احمراراً شديداً فتضاعف جماله:

ـ إسمح لي يا لامبرت. إنني أطالبك بعشرة روبلات فوراً. ولا تقل سخافات كهذه التي قلتها الآن لدولجوروكي! أطالبك بعشرة روبلات، لأرد الروبل إلى دولجوروكي حالاً، ثم أشتري بالباقي قبعة لآندرييف، وسترى.

خرج لامبرت من وراء الحاجز، وقال:

ـ إليك ثلاث ورقات صفر، ثلاثة روبلات، ولن أعطي شيئاً آخر قبل يوم الثلاثاء القادم، ولا أحب أن أراكما قبل ذلك الموعد. وإلا . . .

انتزع «الطويل الأبله» من يديه الورقات الثلاث. فمدَّ روبلاً إلى دولجوروكي قائلاً له:

ـ «دولجوروكي، إليك روبلاً، نرده شاكرين أجزل الشكر».

ثم صاح يقول لرفيقه:

ـ هلمَّ بنا يا بييرو!

وفجأة رفع الورقتين الأخريين يلوّح بهما في الهواء، وأنشد يقول

Twitter: @ketab_n

بأعلى صوته وهو ينظر إلى لامبرت وجهاً لوجه:

ـ «أوهيه لامبرت! أين لامبرت؟ هل رأيت لامبرت؟».

فزأر لامبرت ينهره بغضب رهيب:

ـ اسكت! أسكت!

وأدركت أن وراء هذا كله قصة قديمة أجهلها كل الجهل، فكنت أنظر إلى المشهد مدهوشاً. ولكن الطويل لم يترك فيه غضب لامبرت أي خوف. بالعكس: أخذ يزأر منشداً بصوت أعلى: «أوهيه لامبرت!» الخ.

وخرج الشابان وصارا في السلم، وركض لامبرت يلاحقهما، ولكنه لم يلبث أن عاد أدراجه. وقال:

ـ لسوف أطردهما! سوف أطردهما قريباً! إنهما يكلفاني نفقات أكبر مما يعودان عليَّ به من أرباح. هلمَّ بنا يا آركادي! لقد تأخرت. ينتظرني هنالك شخص... شخص مفيد!

وهتف يقول مرة أخرى وهو يكز أسنانه:

ـ أوباش! سَفَلة!

لكنه لم يلبث أن سيطر على نفسه فجأة. وقال:

ـ يسعدني أنك جئت أخيراً. يا آلفونسين! لا يخطرن ببالك أن تخرجي! هلمَّ بنا يا آركادي!

أمام الباب، كانت تنتظره عربة فخمة. ركبنا العربة. ولكنه ظل طوال الطريق لا يفلح في تهدئة حنقه على ذينك الشابين تهدئة تامة. وقد أدهشني أن أراه يأخذ الأمر مأخذ الجد الشديد، وأدهشني أن رأيتهما يعاملان لامبرت بغير احترام، حتى لقد كاد لامبرت يرتعد أمامهما. لقد كان يخيَّل إليَّ دائماً، بالاستناد إلى شعور قديم من مشاعر الطفولة، أن لامبرت شخص لا بد أن يخشاه جميع الناس،

Twitter: @ketab_n

حتى لقد كنت أنا نفسي، رغم كل ما أتصف به من استقلال، أشعر بخوف منه في تلك اللحظة قطعاً.

استمر لامبرت يعبِّر عن غضبه، فقال:

ـ أقول لك إنهما سافلان رهيبان. صدقني: إن هذا الطويل قد سامني سوء العذاب منذ ثلاثة أيام في مجتمع راق. وقف أمامي ينشد صائحاً: «أوهيه لامبرت». في مجتمع راق. وأخذ الناس جميعاً يضحكون. كانوا يعلمون أنه إنما يفعل ذلك لأعطيه مالاً. رأيت المشهد هنا بنفسك. وقد أذعنت فأعطيته. آه... إنهم أوغاد. كان تلميذ ضابط. فطردوه من المدرسة. تستطيع أن تتصور. وهو مثقف. نشأ في أسرة كريمة. في أسرة كريمة، صدقني. وله أفكار. كان في وسعه أن...! ذلك أنه قوي قوة هرقل. إنه يقدِّم بعض الخدمات الصغيرة، ولكن بغير همة وحماسة. وقد رأيت بعينك: إنّه لا يغسل يديه. ذات مرة أوصيت به سيدة من السيدات، سيدة عجوزاً من الطبقة الأرستقراطية، وزعمت لها أنه شاب نادم يريد أن ينتحر من شدة ما يلقى من عذاب الضمير. فذهب إليها، وجلس عندها، وطفق يصفر! أما الآخر، الفتى، فهو ابن جنرال. أسرته تخجل أن يكون ابنها. خلصته من المحكمة، أنقذته، فانظر كيف يكافئني! ليس ههنا رجل! ولكنني سأطردهما، سأشدهما من جلد الرقبة وأضعهما على الباب.

ـ إنهما يعرفان اسمي. فهل أنت الذي حدثتهما عني؟

ـ ارتكبت هذه الحماقة. في أثناء العشاء، سيطر على نفسك، أرجوك، ابق في مكانك. سيجيء إلى العشاء وغد آخر رهيب. ذاك سافلٌ فظيع، ماكر مكراً فظيعاً. ليس ههنا إلا سفلة على كل حال.

Twitter: @ketab_n

ما من رجل واحد شريف! ولكن سنتخلص منهم... ثم، ماذا تحب من طعام فاخر؟ لا قيمة لهذا السؤال على كل حال. جميع وجبات العشاء طيبة. أنا الذي سأدفع، لا تهتم! من حسن الحظ أنك ترتدي ثياباً حسنة. أستطيع أن أعطيك مالاً. ليس عليك إلا أن تجيء وتطلب. تصور أنني أتخمتهما شراباً وطعاماً. في كل يوم فطائر. وتلك الساعة التي باعها هي الساعة الثانية. ذلك القصير تريشاتوف ـ رأيت كيف تشمئز آلفونسين حتى من رؤيته وكيف تمنعه أن يقترب منها ـ ما إن يجد نفسه في مطعم، ومن حوله ضباط، حتى يأخذ يصرخ: «أريد حجلاً». فأطلب له حجلاً! لكنني سأنتقم.

ـ هل تذكر يا لامبرت... يوم ذهبنا معك إلى المطعم بموسكو، فطعنتني بشوكة في فخذي! كان معك خمسمائة روبل في ذلك اليوم!

ـ نعم، أذكر. طبعاً أذكر. إنني أحبك. صدقني. لا أحد يحبك. لكنني أنا أحبك. وحدي، تذكَّر هذا. إن الرجل الذي سيجيء إلى العشاء، الرجل المجدور، هو أمكر الأوغاد قاطبة. حذار منه. إذا كلمك فاصمت، وإذا أخذ يسألك فأجبه بسخافات، لا تقل شيئاً...

إن اضطرابه قد منعه على الأقل من أن يلقي علي أسئلة أثناء الطريق. وقد جرح شعوري أن أراه واثقاً بي هذه الثقة كلها، وألا يخطر بباله أن يشكَّ فيَّ أي شك. إنه يتصور، استناداً إلى طواعيتي القديمة له، حين كنا في مدرسة توشار، أنه لا يزال يستطيع أن يأمرني فأصدع بأمره. وقلت لنفسي ونحن ندخل المطعم: «هو فوق ذلك كله جاهل جهلاً فظيعاً، فلا أثر فيه لثقافة».

Twitter: @ketab_n

3

هذا المطعم، في شارع مورسكايا، كنت قد ترددت إليه في أيام سقوطي المخزي. . . فلما رأيت هذه الصالات وهؤلاء الخدم الذين حيُّوني وعرفوا فيَّ واحداً من رواد المطعم؛ وأحسست بالغرابة في جو رفاق لامبرت، وفي جو هؤلاء الصحب الذين رأيتني بينهم على حين فجأة وكأنني واحد منهم؛ وخالجني توجس غامض بأنني مقبل على أمور قذرة وأنني سأنتهي في أغلب الظن إلى ارتكاب عمل سيىء، شعرت بطعنة تنفذ في قلبي دفعة واحدة، حتى هممت في لحظة من اللحظات أن أنصرف، ولكن تلك اللحظة مرت، وبقيت.

إن «المجدور» الذي يخشاه لامبرت تلك الخشية كلّها كان قد وصل قبلنا فهو ينتظرنا. هو واحد من أولئك الناس الذين يبدو عليهم انهماك غبي في العمل، والذين أكرههم كرهاً شديداً منذ أن كنت طفلاً. هو في نحو الخامسة والأربعين من العمر، متوسط القامة، أشيب الشعر قليلاً، أمرد الوجه إلى حد الفحش، مع عارضين شائبين مقصوصين حلقاً، كأنهما نقانق على خدين في وجه مسطح كريه. وهو طبعاً مضجر، شديد الرصانة، صموت، بل هو على عادة أمثاله متعال متكبر. وقد تفرس فيَّ بانتباه، ولكن من دون أن ينطق بكلمة. وشاءت خراقة لامبرت وهو يجلسنا على مائدة واحدة ألا يعرِّف أحدنا بالآخر. فكان يمكن لهذا الرجل أن يعدَّني واحداً من أولئك المبتزين الذين يرافقون لامبرت. وقد وصل الشابان لحظة وصولنا تقريباً، فلم يخاطبهم الرجل أيضاً بكلمة واحدة طول مدة العشاء، ولكن كان واضحاً أنه يعرفهما معرفة وثيقة. لم يكلم إلا لامبرت، بل لم يكلمه إلا بما يشبه أن يكون

Twitter: @ketab_n

همساً. وكان لامبرت يكاد ينفرد بالكلام على كل حال. أما المجدور فكان يكتفي بإجابات مقتضبه وكلمات غاضبة مستفزة. كان هو متغطرساً متعجرفاً، وكان لاذعاً وساخراً، أما لامبرت فلم يكن كذلك، فقد كان يبدو شديد الاهتياج، وكان كأنه يستحثه على أمر من الأمور لا شك أنه الاشتراك في مشروع من المشروعات. وقد مددت يدي إلى قارورة النبيذ مرة، فإذا بالمجدور يتناول زجاجة من خمر الخريز، فيمدها إليَّ. لم يكن قد خاطبني قبل ذلك أبداً. وها هو ذا يقول لي الآن:

ـ جرِّب هذا!

فحزرت عندئذ أنه هو أيضاً كان يعرف عني كل شيء، اسمي وتاريخي، وربما الخطط التي يعوِّل لامبرت في تنفيذها عليَّ. فلما تصورت أنه يعدّني مستخدماً عند لامبرت، استعر حنقي مرة أخرى؛ ومنذ أن كلمني هذا الرجل المجدور، قرأت في وجه لامبرت قلقاً شديداً فيه كثير من الحماقة. ولاحظ المجدور نفسه ذلك، فانفجر يضحك. قلت لنفسي: «لا شك أن لامبرت مستعبد لهم جميعاً»، وكرهته عندئذ بكل قلبي. هكذا انقسمنا قسمين، رغم أننا نجلس إلى مائدة واحدة: قسماً مكوَّناً من المجدور ولامبرت جلسا بقرب النافذة متقابلين، وقسماً هو أنا والطويل الوسخ آندرييف بجانبي وتريشاتوف أمامي. وكان لامبرت يستعجل انتهاء العشاء فهو ما ينفك يستحث الخادم. حتى إذا جيء بالشمبانيا، قطع حديثه مع المجدور، ومدَّ كأسه نحوي قائلاً:

ـ نخبك. فلندقّ الأقداح!

فعقَّب تريشاتوف اللطيف قائلاً وهو يمد نحوي قدحه من فوق المائدة:

Twitter: @ketab_n

ـ اسمح لي أنا أيضاً أن أدق قدحي بقدحك.

وكان تريشاتوف، إلى حين وصول الشمبانيا، واجماً صامتاً. أما «الأبله» فكان لا يقول شيئاً البتة، وإنما هو يأكل ساكتاً ويأكل كثيراً.

أجبت تريشاتوف بقولي:

ـ يسرني هذا!

ودققنا القدحين وشربنا. فقال «الأبله» فجأةً وهو يلتفت إليَّ:

ـ أما أنا فلن أشرب نخب صحتك، لا لأنني أتمنى لك الموت، بل لتكف عن المزيد من شرب الخمر هذا اليوم.

قال هذه الكلمات مربد الوجه متصنع اللهجة. وتابع يقول:

ـ أنت تكفيك ثلاثة أقداح!

ثم أردف وهو يضع قبضة يده على المائدة:

ـ أرى أنك تنظر إلى قبضة يدي الوسخة. إنني لا أغسلها، بل أؤجرها على حالتها هذه غير مغسولة، أؤجرها للامبرت، لكسر رؤوس الآخرين في القضايا التي تفتح شهيته.

قال هذه الكلمات وضرب المائدة بقبضة يده ضربة بلغت من القوة أن الأطباق والأقداح انقلبت وسقطت. وكان في القاعة أربع موائد أخرى قد جلس إليها طاعمون من ضباط وسادة محترمين. إنه مطعم من المطاعم الشهيرة. فإذا بجميع المحادثات تنقطع، وإذا بجميع الأنظار تتجه إلى الركن الذي نحن فيه. وكنا قد أثرنا فضول الناس قبل مدة طويلة على كل حال. اصطبغ وجه لامبرت بحمرة شديدة. وقال بهمس حانق يخاطب آندرييف:

ـ آ. . . ها هو ذا يستأنف أظن يا نيقولا سيمنوفتش أنني رجوتك أن تسيطر على نفسك.

Twitter: @ketab_n

فرشقه الرجل بنظرة طويلة بطيئة وقال:

ـ لا أريد لصديقي الجديد «دولجوروفكي» أن يسرف اليوم في شرب الخمر.

ازداد احمرار لامبرت. وكان المجدور يصيخ بسمعه صامتاً، ولكن كان واضحاً أنه راض مغتبط. لقد أعجبته ثورة آندرييف. أنا وحدي لم أدرك لماذا كان يجب عليَّ ألا أشرب.

قال لامبرت وهو يكز أسنانه:

ـ إنه لا يفعل هذا إلا ليأخذ مالاً. سأعطيك سبعة روبلات. هل تسمع؟ سأعطيك سبعة روبلات بعد العشاء. ولكن دعنا نفرغ. لا تخزنا.

فزأر «الأبله» منتصراً:

ـ آ. . . آ. . .

وابتهج المجدور قطعاً، فها هو ذا يضحك.

وقال تريشاتوف لصديقه بقلق، بل بما يشبه الألم، راغباً في صدِّه طبعاً:

ـ اسمع، إنك تسرف!

فصمت آندرييف، ولكن صمته لم يطل، فإن ما فعله لم يشف غليله. كان يتعشى على مائدة ثانية تبعد عنا خمس خطوات سيدان منهمكان في حديث حار. إنهما سيدان متقدمان في السن، يبدو عليهما أنهما حساسان سريعا التأذي. أحدهما طويل سمين جداً، والثاني سمين أيضاً لكنه قصير. كان الرجلان يتكلمان باللغة البولندية عن الأحداث الأخيرة التي وقعت بباريس. وكان «الأبله» ينظر إليهما منذ مدة طويلة باستطلاع وفضول، ويصيخ بسمعه إلى حديثهما. وأغلب الظن أن البولندي القصير قد بدا له رجلاً سخيفاً مضحكاً،

Twitter: @ketab_n

فسرعان ما أبغضه، شأنه في ذلك شأن جميع الأشخاص الصفراويين المصابين بمرض في الكبد، الذين يحدث لهم هذا بغتةً بدون أي سبب. واتفق أن نطق البولندي القصير فجأةً باسم النائب ماديه دومونجو، لكنه نطق الاسم بلكنة بولندية على عادة كثير من البولنديين، أي أنه شدَّد المقطع السابق على المقطع الأخير من الاسم، فجاء نطق الاسم هكذا: مآديه دو موونجو. ولم يكن «الأبله» في حاجة إلى أكثر من ذلك، فها هو ذا يلتفت إلى البولنديين، ثم ينتصب بوقار، ويقول بصوت عال واضح وكأنه يلقي سؤالاً:

ـ مآديه دو موونجو؟

فالتفت البولنديان حانقين. وسأله البولندي الطويل السمين مهدداً:

ـ ماذا تريد؟

وكان «الأبله» ينتظر هذه اللحظة. فكرَّر سؤاله بصوت عال جداً ليسمعه كل من بالصالة:

ـ مآديه دو موونجو؟

كرر سؤاله هذا فوراً بغير مزيد من الإيضاح، تماماً كما فعل معي من قبل أمام الباب حين كرر سؤاله لي وهو يتقدم مني: «دولجوروفكي؟» فانتفض البولنديان. ونهض لامبرت وهمَّ أن يهجم على آندرييف، لكنه سرعان ما تركه واندفع نحو البولنديين يقدم لهما الاعتذارات.

فأخذ البولندي القصير يقول باحتقار وقد احمَّر احمراراً شديداً حتى صار لون وجهه كلون جزرة:

ـ هؤلاء مهرِّجون، يا سيد، هؤلاء مهرِّجون. قريباً سيستحيل على المرء أن يجيء إلى هنا.

Twitter: @ketab_n

واضطربت الصالة كلها، وسُمعت من كل مكان دمدمات تذمر، ولكن الضحكات كانت أكثر من الدمدمات.

تمتم لامبرت يقول وقد طاش صوابه، محاولاً أن يدفع آندرييف إلى خارج الصالة:

ـ اخرج، أرجوك...

فوافق آندرييف على الخروج بعد أن ألقى على لامبرت نظرة فاحصة فأدرك أنه سيعطيه مالاً. لا شك أنه قد سبق له مراراً أن ابتز منه مالاً بهذا الأسلوب. وأراد تريشاتوف أن يركض وراءهما، ولكنه نظر إليَّ وتوقف. ثم قال وهو يخفي عينيه بأصابعه اللطيفة الناعمة:

ـ آه... شيء كريه!

فقال المجدور هامساً وقد ظهر الاستياء في وجهه هذه المرة:

ـ كريه فعلاً!

ورجع لامبرت في أثناء ذلك مصفرَّ الوجه، وهمس في أذن المجدور بعض الكلام محركاً يديه بإشارات عنيفة! وكان المجدور قد أمر أن يؤتى بالقهوة حالاً. وقد أصغى إلى لامبرت باحتقار. وكان واضحاً أنه يود الانصراف. ولم تكن القضية كلها مع ذلك إلا عبثاً صبيانياً. وحمل تريشاتوف فنجان قهوته وجاء يجلس بجانبي. وأخذ يتكلم بهيئة صريحة كأنما نحن قد بحثنا هذا الموضوع مراراً.

ـ إنني أحبه كثيراً، آندرييف هذا. لا تستطيع أن تتصور مدى تعاسته. لقد بدَّد مهر أخته في الشراب والطعام، بل بدَّد في الطعام والشراب كل ما يملكه أهله، وذلك في أثناء خدمته العسكرية. وأنا أرى الآن كيف يتعذب عذاباً شديداً. إذا كان لا يغتسل فإنما مرد ذلك إلى الكمد واليأس. تراوده أفكار جنونية: يقول لك على حين فجأة سيان أن يكون المرء وغداً سافلاً أو رجلاً شريفاً، فلا فرق

Twitter: @ketab_n

بين الأمرين. يجب على المرء ألا يفعل شيئاً، لا خيراً ولا شراً. في وسع المرء أن يفعل الخير وأن يفعل الشر، فكلاهما سواء. ولكن الأفضل من هذا أن يظل راقداً مدة شهر كامل لا يخلع ثيابه، وإنما هو يأكل ويشرب وينام لا أكثر. ولكن صدِّق أن هذا الكلام كله إنما يقوله بغير جد. بل إني لأعتقد أن ما فعله اليوم إنما فعله لينتهي من لامبرت ويقطع صلته به قطعاً تاماً. بالأمس كان يحدثني في هذا. هل تصدِّق أنه في الليل، أو حين يخلو إلى نفسه مدة طويلة، يأخذ يبكي. وهو إذا بكى فإنما يبكي كما لا يبكي إنسان آخر غيره. إنه يعول عويلاً رهيباً، وهذا أبعث على الشفقة. تصور رجلاً يبلغ مبلغه من الطول ومن القوة، ثم هو يبكي معولاً! إنه بائس، أليس كذلك؟ أريد أن أنقذه، ولكنني أنا نفسي شخص حقير، فتى ضائع، لعلك لا تصدق! هل تسمح لي بالدخول يا دولجوروكي إذا أنا جئت أزورك أحياناً؟

ـ طبعاً! أنا أحبك كثيراً.

ـ لماذا تحبني؟ شكراً على كل حال! اسمع. فلنشرب كأساً أخرى. ماذا أقول؟ لا، لا تشرب! لقد صدقك القول: يجب أن تكف عن الشراب هذه الليلة.

قال ذلك وهو يلقي علي نظرة معبرة. وأردف يقول:

ـ أما أنا فسأشرب مع ذلك. أصبح الشراب لا يؤثّر فيّ، وأصبحت لا أستطيع أن أمنع نفسي عن شيء. انصحني اليوم بأن أمتنع عن تناول العشاء في المطاعم، تجدني في الغد مستعداً لكل شيء في سبيل أن أتعشى في المطاعم. أؤكد لك أننا نود، مخلصين، أن نصبح شرفاء، ولكننا نرجىء ذلك دائماً إلى الغد. وما ينفك الغد يتراجع.

Twitter: @ketab_n

وتمضي السنون تليها السنون ويغني ربيع القمر

ولكنني أخاف عليه هو. سوف يشنق نفسه. سوف يمضي يشنق نفسه دون أن يقول لأحد شيئاً. هذه طبيعته. ما أكثر الذين يشنقون أنفسهم في هذه الأيام! من يدري؟ لعل أمثالنا كُثُر. أنا مثلاً لا أستطيع أبداً أن أحيا بدون أن يكون معي فضل من المال. أنا أحوج إلى المال الزائد مني إلى المال اللازم. اسمع، هل تحب الموسيقى؟ أنا أحبها حباً جنونياً. سأعزف لك شيئاً حين أجيء إليك. إنني أجيد العزف على البيانو إجادة كبيرة. درست العزف زمناً طويلاً. دراسة جادة. لو أتيح لي أن أؤلف أوبرا لاخترت موضوع «فاوست». إنني أحب هذا الموضوع كثيراً. فتراني دائماً أبني بخيالي مشهداً في كاتدرائية: أتصور كاتدرائية قوطية، وأتصور جوقات المغنين والأناشيد. وتدخل جرتشن. الجوقات من القرون الوسطى، حتى يشعر المرء بجو القرن الخامس عشر. جرتشن حزينة مكتئبة، في البداية تُسمع تلاوة منغمة، بصوت جهير، لكنه صوت رهيب، معذِّب. ثم يدوي صوت الجوقات بغناء قاتم، قاس، غير مكترث:

هذا يوم الغضب

وفجأة يعلو صوت الشيطان، يغني الشيطان. إنه لا يرى، ولكن يُسمع صوته، إلى جانب الأناشيد، ينطبق عليها تقريباً، ولكنه مختلف عنها كل الاختلاف. ذلك ما يجب التوصل إليه. وغناء الشيطان طويل، لا يتعب، وهو تينور، تينور حتماً. يكون في البداية رقيقاً، رقيقاً: «هل تذكرين يا جرتشن أيام كنت لا تزالين بريئة، أيام كنت لا تزالين طفلة، كيف كنت تجيئين مع أمك إلى هذه الكاتدرائية وتتمتمين بصلوات تقرأينها بصوت عميق؟». ولكن

Twitter: @ketab_n

الغناء يقوى ثم يقوى، وما ينفك يزداد حرارة واندفاعاً. أصبحت النغمات أعلى: يحس فيها السامع دموعاً، يحس فيها ضجراً، ضجراً لا ينتهي، لا مخرج منه، ثم يأتي اليأس: «لا غفران يا جرتشن، لا غفران لك هنا!». وتريد جرتشن أن تصلّي وتدعو، ولكن من صدرها لا تخرج إلا صرخات ـ أتعرف هذا النوع من الصرخات؟ الصرخات التي تنطلق كتشنجات من صدر أترع دموعاً. ويظل الشيطان يغني. إنه لا يصمت، ويظل ينفذ في النفس إلى أعماق أبعد، ثم إذا هو، على حين فجأة، ينقطع مرة واحدة بهذه الصرخة: «انتهى كل شيء، انصبت عليك اللعنة!». وتتهاوى جرتشن على الأرض راكعة، ضامةً يديها أمامها. وتنطلق عندئذ صلاتها، صلاة قصيرة جداً، هي قراءة منغَّمة، ولكنها ساذجة، لا يُصطنع فيها فن، هي تلاوة تترجع فيها آثار القرون الوسطى قوية. أربعة أبيات، أربعة أبيات فقط ـ عند ستراديلا نغمات كهذه! ـ ثم الإغماء، بعد آخر نغمة! ويحدث هرج ومرج. وتُرفع جرتشن، وتنقل. فإذا بالجوقة يُرعد غناؤها فجأة. لكأنّها صاعقة تنزل. غناء فيه إلهام، غناء ظافر، ساحق، شيء من نوع نشيدنا، نشيد الملائكة الصغار. يهتز كل شيء حتى أساسه، ويفضي كل شيء إلى تسبيحة «المجد لله!». لكأنه صراخ الكون كله، بينما هي تُحمل وتُنقل. تُنقل جرتشن، وتسدل الستارة. حقاً لو كنت أستطيع لفعلت شيئاً ما. ولكنني أصبحت لا أصلح لشيء. فإنما أنا أكتفي بأن أحلم. أحلم بهذا طول الوقت. أحلم. حياتي كلها ليست الآن إلا حلماً. وفي الليل أحلم أيضاً. آه! دولجوروكي، هل قرأت كتاب ديكنز «مخزن العاديات»؟.

ـ نعم قرأته، فماذا؟

Twitter: @ketab_n

ـ لا شك أنك تتذكر. . . انتظر. سأفرغ كأساً أخرى. لا شك أنك تتذكر ذلك الجزء من أواخر القصة. . . الذي نراهما فيه، ذلك الشيخ المجنون وتلك البنيّة الصغيرة، حفيدته، التي عمرها ثلاث عشرة سنة، نراهما، بعد هروبهما العجيب وتجوالهما الطويل، يجدان ملجأ يأويان إليه بمكان في أقاصي إنجلترا، قرب كاتدرائية قوطية قديمة، وترى البنت الصغيرة تحصل هناك على وظيفة دليل ويُرى الزائرين الكاتدرائية، ففي ذات يوم تغرب الشمس، فإذا بالطفلة، الواقفة في فناء الكاتدرائية، وقد غمرتها أواخر أشعة النهار، إذا بها تنظر إلى الشمس الغاربة وقد امتلأت نفسها، نفس الطفلة، نفسها المدهوشة، امتلأت تأملاً هادئاً وتفكراً عميقاً، كأنما هي تقف أمام لغز من الألغاز، لأن الشيئين كليهما، الشمس التي هي فكر الله، والكاتدرائية التي هي فكر البشر، إنما هما لغزان حقاً؟. . . أليس هذا صحيحاً؟ آه. . . إنني لا أجيد التعبير. ولكن الرب يحب هذه الخواطر الأولى التي تملأ نفوس الأطفال. وهناك، على مقربة منها، فوق الدرجات، كان ذلك الشيخ المجنون، جدُّها، يتأملها بنظرة جامدة. صحيح أن هذا كله ليس فيه شيء خارق، هذا المشهد الذي رسمه ديكنز، ولكن المرء لا يمكن أن ينساه أبداً. وقد بقي في أوروبا كلها. لماذا؟ لأن هذا هو الجمال. لأن في هذا براءة. آه. . . أنا لا أدري ما الذي يشتمل عليه هذا، ولكنني أحس فيه جمالاً. كنت في المدرسة الثانوية أكثر من قراءة الروايات. إن لي أختاً في الريف، تكبرني بسنة واحدة. . . الآن بيع كل شيء هناك، ولم يبق لنا أملاك! كنا واقفين على الشرفة معاً ذات يوم، نقرأ هذه الرواية، تحت أشجار الزيزفون في دارنا، وكانت الشمس تغرب أيضاً، فإذا نحن ننقطع عن

Twitter: @ketab_n

القراءة، ويقول كل منا للآخر: نحن أيضاً سنكون خيِّرين، سنكون جميلين... كنت أستعد حينذاك لدخول الجامعة. إن لكل إنسان ذكرياته يا دولجوروكي...

وفجأة مال برأسه الجميل على كتفي، وطفق يذرف دموعاً غزيرة. فأشفقت عليه، أشفقت عليه كثيراً. صحيح أنه كان قد شرب كثيراً، ولكنه كان يكلمني بصدق كبير، وأخوة خالصة، وعاطفة طاهرة.

وفي تلك اللحظة سمعنا من الشارع صرخة، وسمعنا قرعات قوية على زجاج النافذة (كانت كل نافذة من النوافذ قطعة واحدة من الزجاج، وكانت كبيرة، وكانت في الطابق الأرضي، فيستطيع المرء أن يبلغها من الشارع). إنه آندرييف الذي طُرد.

ـ «أوهيه لامبرت! أين لامبرت؟ هل رأيت لامبرت؟».

داهمتنا هذه الصرخة من الشارع. فهتف الفتى وهو يثب عن مكانه مندفعاً:

ـ لا يزال هنا إذن! إنه إذن لم ينصرف!

وصاح لامبرت يقول للخادم:

ـ الحساب!

وكانت يداه ترتجفان غضباً وهو يدفع الحساب. ولكن المجدور لم يسمح له بأن يدفع عنه.

ـ لماذا؟ أنا الذي دعوتك وقد قبلت أنت الدعوة.

ـ لا، اسمح لي.

وأخرج المجدور محفظة نقوده، ودفع حصته بعد أن حسب ما عليه. قال له لامبرت:

ـ إنك تهينني يا سيمون سيدوروفتش!

ـ هذا ما أريده.

Twitter: @ketab_n

بذلك أجاب سيمون سيدوروفتش. وتناول قبعته، وخرج من الصالة وحده دون أن يودع أحداً. فقذف لامبرت باقي الحساب للخادم وأسرع يركض وراء المجدور، حتى لقد نسيني من شدة اضطرابه. وخرجنا أنا وتريشاتوف آخر من خرج. كان آندرييف متسمراً أمام الباب، كنصب، ينتظر تريشانوف.

قال له لامبرت الذي أصبح لا يستطيع كظم غيظه:

- سافل!

فإذا بآندرييف يزأر صائحاً:

- هيه!

ثم إذا هو يقلب له قبعته بقفا يده، فتسقط القبعة على الرصيف. ويسرع لامبرت إلى التقاطها بمذلة.

- «خمسة وعشرون روبلاً».

كذلك قال آندرييف لتريشانوف وهو يريه الورقة النقدية التي استطاع أن ينتزعها من لامبرت. فصرخ تريشانوف قائلاً له:

- كفى! لماذا الجرسة دائماً؟ ولماذا أخذت منه خمسة وعشرين روبلاً؟ إنه لا يدين لك إلا بسبعة روبلات.

- لماذا؟ لأنه وعدنا بأن نتعشى وحدنا مع نساء، فإذا هو يعشينا مع هذا المجدور بدلاً من النساء. هذا عدا أنني لم أفرغ من طعامي، وقد تجمدت من البرد على الرصيف بما يساوي ثمانية عشر روبلاً، فيكون المجموع خمسة وعشرين.

زأر لامبرت يقول:

- شيطان يأخذكما! إنني أطردكما كليكما ولسوف أريكما...

فصرخ آندرييف قائلاً:

- لامبرت، أنا الذي أطردك، وأنا الذي سوف أريك!...

Twitter: @ketab_n

«الوداع يا أميري»! لا تزد على ما شربت. هلمَّ يا بييرو! إلى الأمام، سر! «أوهيه لامبرت! أين لامبرت؟ هل رأيت لامبرت؟»".

كذلك ردَّد مرة أخيرة وهو يبتعد بخطى عملاق!.

تمتم تريشانوف يقول لي بسرعة وهو يتعجل اللحاق بصديقه:

ـ إذن سأجيء إليك، هل تسمح؟

وبقيت وحدي مع لامبرت. قال وهو لا يكاد يستطيع أن يسترد أنفاسه، وكأنه فقد صوابه:

ـ هيَّا بنا!

فأسرعت أصيح قائلاً له بلهجة متحدية مستفزة:

ـ إلى أين؟ لا، لن أصحبك إلى أي مكان!

فسألني قلقاً وقد ثاب إلى نفسه فجأة:

ـ كيف هذا؟ إنني لم أكن أنتظر إلا أن نبقى وحدنا.

ـ إلى أين؟

يجب أن أعترف بأن رأسي كان يدور قليلاً بعد أن شربت ثلاث أقداح من الشمبانيا، وكأسين من خمرة الخريز.

ـ إلى هنا، إلى هنا، هل ترى؟

ـ ولكن في هذا المحل محاراً طازجاً كما ترى. مكتوب ذلك. فالرائحة إذن كريهة.

ـ هذا ما نحتاجه بعد العشاء. إنه محل ميليوتين. المحار لن نأكله. ولكنني سأقدم لك الشمبانيا.

ـ مستحيل. أنت تريد أن تُسكرني.

ـ هما اللذان قالا لك هذا. ضحكا عليك. أتصدق هذين الوغدين؟

ـ لا، ليس تريشانوف وغداً. ثم إنني أعرف بنفسي كيف أكون حذراً.

Twitter: @ketab_n

ـ لك إذن إرادة قوية؟

ـ نعم، لي إرادة قوية، أقوى من إرادتك على الأقل، فأنت يستعبدك أول قادم! لقد جللتنا بالعار. مضيت تعتذر لذينك البولنديين ذليلاً كخادم. لا بد أنك كثيراً ما ضربت في المطاعم.

صاح يقول باحتقار وقد نفد صبره نفاداً معناه: «وأنت أيضاً؟».

ـ ولكن بيننا كلام يا غبي! أتراك خائفاً؟ أأنت صديقي أم لا؟

ـ لست صديقك، ما أنت إلا سافل دنيء. على كل حال، هيَّا بنا! أريد أن أبرهن لك على أنني لست خائفاً منك. هوه! ما أبشع هذه الرائحة! رائحة جبن عفن! أي قذارة!

Twitter: @ketab_n

الفصل السادس

1

أحبّ أن أذكِّر مرةً أخرى بأن رأسي كان يدور قليلاً. وإلا لكنت تصرفت وتكلمت على غير هذا النحو.

في قاعة خلفية من تلك الدكان كان يؤكل محار فعلاً. وقد جلسنا إلى مائدة عليها غطاء وسخ. وأمر لامبرت بشامبانيا. فإذا أمامي قدح مملوءة بخمرة باردة لونها كلون الذهب، تنظر إليَّ وتغريني بنفسها. لكنني كنت مستاءً مهموماً.

ـ هل تعلم يا لامبرت ما الذي يسوءني منك خاصة؟ أنك تتصور نفسك قادراً حتى الآن على أن تأمرني فأطيع، كما كان الحال في مدرسة توشار، مع أنك أنت المستعبد لهم جميعاً هنا!

ـ غبي! هيَّا! لندق الأقداح!

ـ لا تريد حتى أن تجبر نفسك على شيء. ليتك تحاول على الأقل أن تخفي عني أنك تريد أن تسكرني!

ـ إنك تقول سخافات، وإنك لسكران. يجب أن تشرب المزيد فتصبح أكثر مرحاً. هيَّا تناول قدحك. ما بالك لا تتناول قدحك؟

ـ أتناول قدحي؟ أنا منصرف. ذلك كل ما ستحصل عليه مني!

وهممت أن أنصرف فعلاً. ولكن ها هو ذا يغضب غضباً شديداً:

Twitter: @ketab_n

ـ إن تريشانوف هو الذي أثارك عليَّ: رأيتكما، كنتما تتهامسان. ما أنت إلا غبي. إن آلفونسين تشمئز منه إذا هو اقترب منها... إنه مقزز. سأحكي لك عنه فتعرف ما قيمته!

ـ سبق أن حكيت لي. ليس في فمك إلا اسم آلفونسين! إنك لمحدود العقل حقاً!

ـ محدود؟

وأردف يقول:

ـ ها هما الآن مع المجدور. ذلك هو السبب في أنني طردتهما. إن هذا المجدور رجل دنيء. سوف يفسدهما. أما أنا فكنت أطالبهما بأن يلتزما الشرف والنبل في سلوكهما دائماً.

جلست، وتناولت القدح بغير شعور، وجرعت جرعة. قلت له:

ـ أنا بثقافتي أعلى منك كثيراً!

ولكنه كان قد امتلأ فرحاً بأنني عدت أجلس. وسرعان ما ملأ لي القدح مرة أخرى. تابعت كلامي لأغيظه (ولا شك أنني كنت عندئذ أبعث منه على الاشمئزاز)، فقلت:

ـ ولكنك خائف منهما، أليس كذلك؟ أسقط آندرييف قبعتك عن رأسك، فكافأته على ذلك بخمسة وعشرين روبلاً.

ـ نعم، ولكنه سينال عقابه. إنهما يتمردان، ولكنني سأعرف كيف أقتصّ...

ـ والمجدور يعذبك. أظن أنك لم يبق لك أحد غيري. فجميع آمالك معقودة عليَّ أنا الآن، هه؟

ـ نعم يا عزيزي آركادي. هذا صحيح جداً: لم يبق لي صديق غيرك. صدقت!

قال ذلك وربت على كتفي.

Twitter: @ketab_n

ما العمل برجل يبلغ هذا المبلغ من الغباء! إنه بعقله المحدود يحسب السخرية مديحاً.

تابع كلامه وهو ينظر إليَّ برقة وعاطفة:

ـ في وسعك أن تجنبني كثيراً من المنغصات، وأن تخلصني من ورطة إذا كنت رفيقاً مخلصاً يا آركادي!

ـ كيف ذلك؟

ـ أنت تعرف. ما لم أساعدك فستظل غبياً طول حياتك، لكنني أستطيع أن أهيىء ثلاثين ألف روبل نقتسمها نصفين، نصفاً لك ونصفاً لي. انظر ماذا أنت الآن: إنك لا تملك شيئاً، لا اسماً ولا أسرة. فإذا قبلت ما أعرضه عليك صرت غنياً في طرفة عين. وبثروة كهذه الثروة تستطيع أن تشق لنفسك طريقاً...

ذهلت من هذا الأسلوب. كنت أتصور أنه سيعمد إلى المكر والحيلة، ثم ها هو ذا يمضي إلى الهدف رأساً فيكلمني بلا لف ولا دوران كما يكلِّم صبي صغير. قررت أن أصغي إليه، من باب رحابة الفكر... وبتأثير الفضول الشديد أيضاً!

قلت له بلهجة ثابتة صارمة:

ـ اسمع يا لامبرت، قد لا تفهم ما سأقوله لك، لكنني سأقوله: إنني أقبل أن أصغي إلى كلامك لأنني منفتح ومتسامح.

وجرعت جرعة أخرى، فسرعان ما عاد لامبرت يملأ الكأس. وقال:

ـ اسمع يا آركادي: لو أن رجلاً مثل بيورنج قد أباح لنفسه أن يشتمني وأن يضربني بحضور سيدة أعبدها، لما عرفت ماذا كان يمكن أن أفعل! أما أنت فقد تحملت. ولذلك أحتقرك: ما أنت إلا خرقة بالية!

Twitter: @ketab_n

فهتفت أقول وقد اصطبغ وجهي بحمرة شديدة:

ـ تجرؤ أن تقول أن بيورنج ضربني؟ أنا الذي ضربته، وليس هو الذي ضربني!

ـ بل هو الذي ضربك ولست أنت الذي ضربته!

ـ كذاب! حتى إنني دست على قدمه!

ـ لكنه دفعك عنه بيده وأمر الخدم أن يقتادوك... وكانت هي في العربة تنظر إليك وتضحك عليك! هي تعلم أنك ليس لك أب، وأنك تبلع كل إهانة!

ـ يخيَّل إليَّ يا لامبرت أننا نتكلم الآن كما يتكلم تلاميذ مدرسة. وإنني لأشعر عنك بخزي وعار. أنت تقول هذا كله لتستثيرني، وتقوله بغلظة شديدة وفظاظة صريحة... أتراك تحسبني صبياً في السادسة عشرة من عمري؟

ثم هتفت أقول وأنا أرتعش غضباً وأشرب كأسي جرعات بغير شعور:

ـ إنك تفاهمت مع آنا آندرييفنا!

ـ آنا آندرييفنا وغدة ماكرة، ستضحك علينا أنا وأنت والعالم بأسره! وأنا إنما انتظرتك لأنك تستطيع أن تتفق مع الأخرى.

ـ من الأخرى؟

ـ السيدة آخماكوفا. إنني أعرف كل شيء. أنت نفسك قلت لي إنها تخشى الرسالة التي في حوزتك...

ـ أية رسالة؟... أنت كذاب!

وتمتمت أقول مضطرباً أشد الاضطراب:

ـ هل رأيتها؟

ـ رأيتها. جميلة، «جميلة جداً». إن لك ذوقاً رفيعاً!

Twitter: @ketab_n

ـ أعرف أنك رأيتها. ولكنك لم تجرؤ أن تكلمها. ولا أريد أن تتكلم عنها.

ـ إنك ما زلت فتى غراً، وهي تضحك عليك وتسخر منك لا أكثر. عرفنا فاضلة من هذا النوع بموسكو. ما كان أشد شموخها بأنفها! ولكن ما أن هُدِّدت بفضح كل شيء حتى أخذت ترتجف، وسرعان ما أصبحت طيِّعة! فنلنا منها كل ما أردنا: المال وغير المال. هل تفهم؟ لقد عادت الآن إلى المجتمع، وأصبح الوصول إليها مستحيلاً، وصارت تحلِّق عالياً. ما أفخم العربة التي تركبها! ليتك رأيت الماخور الذي تمَّ فيه هذا كله! إنك لم تعش بعد. ليتك تعرف المواخير التي لا يخشين فيها أن...

تمتمت أقول بغير إرادة:

ـ خطر ببالي هذا!

ـ إنهن فاسقات حتى نخاع العظام! إنك لا تعرف كيف لا يتورعن عن شيء! لقد عاشت آلفونسين في بيت من تلك البيوت، فما كان أشد اشمئزازها!

فقلت أؤيده مرةً أخرى:

ـ فكرت في هذا!

ـ أتضرب ثم تأخذك شفقة؟...

فأدركت قصده على الفور، فصرخت أقول له وأنا أرتجف غضباً:

ـ لامبرت، أنت وغد، أنت سافل لئيم! لقد رأيت هذا كله في المنام. حلمت بك جالساً بجانب آنا آندرييفنا... آه... إنك سافل دنيء! أكنت تحسبني حقيراً إلى هذا الحد؟ لقد رأيت هذا في المنام لأنني كنت أعلم منذ ذلك الحين أنك ستحدثني هذا

Twitter: @ketab_n

الحديث. ثم إن الأمور ليست بسيطة هذه البساطة كلها فتحدثني عنها بمثل هذه الصراحة، وبمثل هذه البساطة!

ـ أرأيت؟ ها هو ذا يغضب! هيء هيء هيء...

أخذ لامبرت يضحك منتصراً. وتابع كلامه فقال:

ـ اسمع يا عزيزي آركادي. عرفت الآن ما أنا في حاجة إليه. لهذا إنما كنت أنتظرك، استمع إلى ما أقول: أنت تحبها، وتريد أن تنتقم من بيورنج. هذا ما كنت أريد أن أعرفه. ولقد كنت أقدِّره أثناء هذا الانتظار. «إذا كان الأمر كذلك، فقد تغيرت المسألة» (وردت بالفرنسية). وفي هذا خير. ذلك أنها تحبك هي أيضاً. فتزوجها بلا إبطاء. هذا خير ما تفعل. ثم إنك لا تستطيع أن تفعل غير هذا. لقد اخترت أفضل حل. ثم اعلم يا آركادي أن لك صديقاً. أنا الصديق الذي تستطيع أن تفعل به ما تشاء. إن هذا الصديق سيساعدك وسيزوجك. سأجد كل شيء. سأمضي أبحث تحت الأرض عن كل ما تحتاجه، يا عزيزي آركادي. وفي مقابل ذلك تعطي رفيقك القديم ثلاثين ألف روبل أجراً على ما بذل من جهد، هه؟ سأساعدك. لا تقلق. أنا في مثل هذه الأمور أعرف جميع المداخل والمخارج... ستنال المهر كله، فإذا أنت غني، وإذا باب المستقبل اللامع ينفتح أمامك.

كان رأسي يدور. ولكن هذا لا ينفي أنني كنت أنظر إلى لامبرت مدهوشاً. لقد كان جاداً فيما يقول، أو قل إنني كنت أرى رؤية واضحة أنه كان يصدِّق هو نفسه أن في إمكانه أن يزوجني، بل إنه يتبنى هذه الفكرة بحماسة. وكنت أدرك كذلك طبعاً أنه يستدرجني إلى فخ كأنني طفل صغير (لا شك أنني قد أدركت هذا منذ ذلك الحين). ولكن فكرة هذا الزواج كانت بلغت من قوة النفاذ إلى

Twitter: @ketab_n

كياني كله أنني رغم اندهاشي من أن يستطيع لامبرت تصديق هذا الخيال، قد اندفعت أنا نفسي إلى تصديقه تصديقاً لا سبيل إلى مقاومته، دون أن أفقد، خلال لحظة واحدة، شعوري بأن هذا أمر لا يمكن تحقيقه طبعاً. لا أدري كيف أمكن أن تجتمع هذه المشاعر المتناقضة في نفسي معاً.

تمتمت أسأله:

ـ ولكن هل هذا ممكن؟

ـ لم لا؟ تريها الوثيقة فتخاف فتتزوجك حتى لا تضيِّع الميراث.

قررت ألا أصدَّ لامبرت عن المضي في هذه الحقارات، لأنه كان يعرضها أمامي بسذاجة كبيرة، ولا يخطر بباله أنه من الممكن أن يثور عليه حنقي فجأة. ومع ذلك دمدمت أقول له إنني لا أحب على كل حال أن أتزوج بقوة التهديد وحدها:

ـ مستحيل، لن أتزوج عنوةً. كيف يدور في خلدك أن أكون من الخسة بحيث لا أتورع عن هذا؟

ـ هوه! ولكنها ستجيء إليك من تلقاء نفسها، لا أنت بل هي. ستخاف فتتزوجك!

ثم استدرك يقول:

ـ ثم إنها ستتزوجك لأنها تحبك.

ـ كذاب. أنت تسخر مني. كيف عرفت أنها تحبني؟

ـ أعرف هذا طبعاً. آنا آندرييفنا تفترضه أيضاً. إنني جاد فيما أقول. إنني أقول الحقيقة: آنا آندرييفنا تتصور هذا. سأحكي لك شيئاً آخر حين تجيء إليَّ، فترى أنها تحبك. لقد ذهبت آلفونسين إلى تسارسكويا. وحصلت هي أيضاً على معلومات...

ـ ماذا استطاعت أن تعلم هناك؟

Twitter: @ketab_n

ـ لنذهب إلى البيت: ستحكي لك هي نفسها، فيكون ذلك أمتع لك وأحلى. ثم هل أنت أقلُّ من غيرك؟ إنك جميل، ومتعلم...

دمدمت أقول:

ـ نعم، متعلم...

كنت أتنفس بمشقة، وكان قلبي يخفق خفقاناً شديداً حتى ليكاد يتحطم، ولم تكن الخمرة هي السبب الوحيد طبعاً...

ـ أنت جميل وأنيق.

ـ نعم أنيق.

ـ وطيب...

ـ نعم طيب...

ـ فكيف لا ترضاك إذن زوجاً؟ إن بيورنج لن يتزوجها بدون أن يكون لها مال، وأنت تستطيع أن تحرمها من مالها، فتخاف فتتزوجك. وإذا تزوجتها فقد انتقمت من بيورنج. لقد قلت لي في تلك الليلة، حين كنت متجمداً من البرد، إنها تحبك.

ـ أنا قلت لك هذا؟ أنا لم أقل هذا الكلام حتماً!

ـ بلى بلى. قلت هذا الكلام بعينه.

ـ قلته أثناء الهذيان. ولا بد أنني حدثتك إذن عن الوثيقة؟

ـ نعم، ذكرت أن تلك الرسالة هي في حوزتك. فتساءلت أنا: إذا كان يملك تلك الرسالة فماذا ينتظر؟ كيف يضيِّع وقته؟

تمتمت أقول:

ـ أضغاث أحلام. لست من الحماقة بحيث أصدِّق أن هذا الزواج يمكن أن يتم. هناك أولاً فرق السن. وهناك ثانياً أنني ليس لي اسم.

ـ أقول لك إنها ستتزوجك. يستحيل ألا تتزوجك حين تكون

Twitter: @ketab_n

مهدَّدة بفقد ميراث ضخم. وسوف أدبر هذا الأمر. ثم إنها تحبك. هل تعلم؟ إن هذا الأمير العجوز يحمل لك أطيب المشاعر. فما أكثر العلاقات التي تستطيع أن تعقدها برعايته! أما عن الاسم، فإن المرء في هذا الزمان لا يحتاج إلى اسم: متى ملكت المال فسوف تسير قدماً إلى أمام، وسوف تمضي بعيداً، فما هي إلا عشر سنين إذا أنت تملك من الملايين ما تهتزّ له روسيا كلها: ما حاجتك إلى الاسم حينذاك؟ إن في وسع المرء أن يشتري من النمسا لقب بارون. وحين تتزوج عليك أن تفرض إرادتك. يجب على الرجل أن يعرف كيف يعامل النساء. إن المرأة التي تحب رجلاً تريد أن يسيطر هذا الرجل عليها. المرأة تهوى في الرجل الصلابة... وأنت متى أخفتها بالرسالة تكون قد برهنت لها في الوقت نفسه على صلابتك. ستقول: «آ... لا يزال في ريق الشباب ثم هو صلب العزيمة إلى هذا الحد!».

بقيت على مقعدي كالمصعوق. ما كان لي أن أنقاد لمثل هذا الحديث الأحمق مع أي إنسان آخر. ولكن ظمأ لذيذاً لا أدري ما كنهه كان يدفعني إلى إطالة الحديث. ثم إن لامبرت كان أشد غباء وأشد حطة من أن يخجل المرء أمامه. قلت فجأة:

ـ إسمع يا لامبرت. قل ما شئت. ولكن كلامك زاخر بالسخافات. ولئن كنت أكلمك فلأننا رفيقان، فليس لأحدنا أن يخجل من الآخر. وما كان لي أن أنزل إلى هذا المستوى لو كنت أكلم شخصاً آخر. ثم ما الذي يجعلك تجزم بأنها تحبني؟ لقد صدقت منذ قليل حين تكلمت عن المال. ولكنك يا لامبرت لا تعرف المجتمع الراقي: إن كل شيء في تلك البيئة يخضع لتقاليد نظام الأبوة، ويخضع لاعتبارات التمييز بين الطبقات. وهي الآن

Twitter: @ketab_n

تجهل طاقاتي، ولا تعرف المدى الذي يمكن أن أبلغه في هذه الحياة، فلا يمكن إلا أن تشعر بالعار إذا هي تزوجتني. لكنني لا أكتمك يا لامبرت أن هناك نقطة تبعث على الأمل هي أنها قد تتزوجني على سبيل الشكر والامتنان، لأنني سأخلِّصها عندئذ من كره يضمره لها رجل تخاف منه.

ـ أباك تعني؟ هل هي تحبه إذن كثيراً؟

ألقى لامبرت هذا السؤال وقد هزَّه فضول شديد. هتفت أقول:

ـ لا، لا. حقاً إنك لفظيع وغبي في آن واحد، يا لامبرت! هل يمكن أن أريد تزوجها لو كان يحبها؟ الإبن وأبوه! سيكون هذا مخزياً رغم كل شيء! إن أبي يحب ماما. لقد رأيته يقبِّلها. ما كان أغباني حين كنت أتصور في الماضي أنه يحب كاترينا نيقولايفنا! صحيح أنه كان يحبها، ولكنه أصبح يكرهها منذ مدة طويلة. إنه يريد الانتقام، وهي خائفة. ذلك أنه رهيب إذا هو أخذ ينتقم يا لامبرت! يكاد يصبح عندئذ مجنوناً. إذا غضب منها فإنه يفقد صوابه فلا يتورع عن شيء! هذا كره من نوع الكره الذي كان ينشب بين الأسر القديمة ويقوم على أساس من مبادىء. الناس في عصرنا هذا لا تقيم وزناً للمبادىء. في عصرنا هذا لا مبادىء بل حالات خاصة. آه... لامبرت! إنك لا تفهم شيئاً. أنت غبي كقدميك. أنا أكلمك الآن عن المبادىء، وأنت لا تفهم من أمر المبادىء شيئاً. أنت جاهل جهلاً رهيباً. هل تتذكر كيف كنت تضربني؟ ولكنني الآن أقوى منك. هل تعلم هذا؟

ـ عزيزي آركادي، لنذهب إلى بيتي! سنقضي السهرة معاً، وسنشرب زجاجة أخرى، وستغني لنا آلفونسين عازفةً على القيثار.

ـ لا، لن أذهب. اسمع يا لامبرت. أنا لي «فكرتي». فإذا لم

Twitter: @ketab_n

ينجح المشروع ولم أتزوج، فسوف أرتد إلى فكرتي. أما أنت فليس لك فكرة.

- طيب طيب. ستحدثني عن هذا. هيَّا بنا!

- لن أذهب إلى بيتك!

ونهضت، وأنا لا أزال أقول:

- لا أريد أن أذهب، ولن أذهب. سأجيء إليك، ولكن ما أنت إلا وغد. سأعطيك ثلاثين ألفاً. ليكن. لكنني أطهر منك وأنبل منك. أما هي، فإنني أمنعك حتى من أن تفكر فيها: إنها فوقنا جميعاً. ما خططك إلا قذارات أستغربها حتى منك أنت. أريد أن أتزوج. هذه قضية أخرى. ولكنني لست في حاجة إلى ثروة. أنا أحتقر الثروة. لن أقبل ولو قدَّمت لي ثروتها راكعة... أن أتزوج؟ هذه مسألة أخرى. ثم... هل تعلم؟ صدقت حين قلت أن على الرجل أن يكون صلباً فيعرف كيف يسيطر عليهن. حسن أن يحب الرجل، أن يحب حباً قوياً مشبوباً، بكل ما يقدر عليه الرجل وتعجز عنه المرأة من عظمة النفس، ولكن يجب أن يكون الرجل طاغية مستبداً. ذلك أن المرأة، يا لامبرت، تحب الاستبداد. أنت يا لامبرت تعرف النساء، ولكنك في كل ما عدا ذلك غبي غباءً يثير الدهشة. ثم هل تعلم يا لامبرت؟ ما أنت بالمقزز إلى الحد الذي يتصوره المرء حين يراك. أنت بسيط. أحبك يا لامبرت. آه يا لامبرت، لماذا أنت سافل؟ الحياة معك يمكن أن تكون ملأى بالفرح والمرح! هل تعلم يا لامبرت؟ أنا أرى أن تريشانوف لطيف وديع.

هذه الجمل الأخيرة المفككة التي لا يربطها رابط إنما تمتمتها بعد أن صرنا في الشارع. إنني أتذكر أيسر التفاصيل: يجب أن يرى

Twitter: @ketab_n

القارىء كيف أمكنني عندئذ أن أسقط في مثل هذا الوحل بمثل هذه السهولة بعد كل ما شبَّ في نفسي من حماسة، وكل ما حلفته من أيمان، وكل ما قطعته من عهود لأرجع إلى الخير وأبحث عن الجمال. قسماً ما كنت لأعترف بهذه المخازي على أية حال من الأحوال، على أية حال من الأحوال، لولا اقتناعي الكامل التام بأن الحياة قد أحالتني إنساناً آخر تعلم الحياة العملية وتعودها.

كنا قد خرجنا من الدكان، وكان لامبرت يسندني محيطاً بذراعه قامتي. ورفعت إليه بصري فجأة، فرأيت في نظرته الثابتة المتفحصة اليقظة المختلسة ذلك التعبير نفسه الذي رأيته فيها يوم كنت متجلداً من البرد عند الصباح، فقادني محيطاً قامتي بذراعه، على هذه الصورة تماماً، إلى أن أوصلني إلى عربة ركبتها، وكان يصغي بأذنيه وعينيه جميعاً إلى تمتماتي المفككة التي لا يربطها رابط. إن الأشخاص الذين أثملهم الشراب ولكنهم لم يسكروا سكراً تاماً، توافيهم على حين فجأة لحظات صحو كامل.

قلت له بصلابة وأنا ألقي عليه نظرة ساخرة وأدفع ذراعه عني:

ـ لن أصحبك إلى بيتك بحال من الأحوال!

ـ طيب طيب. سآمر آلفونسين بأن تهيىء لنا شاياً.

كان مقتنعاً أعمق الاقتناع بأنني لن أفلت منه. وكان يحيطني بذراعه ويسندني مغتبطاً أعظم الاغتباط، لأنه أطبق على فريسته. لقد كان محتاجاً إليَّ في ذلك المساء ذاته، وأنا على هذه الحال نفسها. وسترون سبب ذلك فيما بعد.

كررت أقول:

ـ لن أذهب معك! يا حوذي!

وكانت زلاجة تمر في تلك اللحظة نفسها فوثبت وصرت فيها.

Twitter: @ketab_n

فزأر لامبرت خائفاً خوفاً رهيباً وهو يشدني من معطفي:

ـ إلى أين تذهب؟ ما هذا الذي تفعل؟

فصحت أقول له:

ـ ولا تحاول أن تتبعني، لا تجرِ ورائي!

وضرب الحوذي حصانه بسوطه، فسارت العربة، وأفلت معطفي من يدي لامبرت. فصرخ لامبرت ورائي يقول بصوت خبيث:

ـ سيان! لسوف تجيء!

ـ أجيء إذا أردت.

كذلك أجبته من العربة وأنا ألتفت إليه.

2

لم يلاحقني، ويرجع ذلك في أغلب الظن إلى أنه لم يقع على عربة فوراً، فاستطعت أن أفلت منه. ولكن ما إن وصلت إلى «سوق العلف» حتى نزلت من العربة وصرفتها. كان بي شوق جنوني إلى المشي. لم أكن أشعر لا بتعب ولا بسكر شديد. وإنما كنت أشعر بنوع من نشاط الهمة وفيض القوة، وبقدرة خارقة على القيام بأي عمل، وبأفكار لذيذة لا نهاية لها تزدحم في رأسي.

وكان قلبي يخفق خفقاناً قوياً، حتى لقد كنت أسمع كل دقة من دقاته. وكان كل شيء في نظري فاتناً وسهلاً. فلما وصلت إلى أول مخفر بسوق العلف شبت في نفسي رغبة قوية في أن أمضي إلى الخفير فأعانقه وأقبّله. وكان الجليد يذوب، وكان الميدان مظلماً، وكانت تفوح فيه روائح كريهة؛ غير أن كل شيء كان يعجبني، حتى هذا الميدان.

قلت لنفسي: «سأسير الآن في شارع أوبوخوف، ثم ألتفت يسرةً

Twitter: @ketab_n

فأمشي في شارع سيمينوفسكي، فأكون قد درت دورة. هذا لذيذ. وكانت أزرار معطفي محلولة: لا أحد يشد معطفي. أين هم اللصوص إذن؟ يقال إن في «ميدان العلف» لصوصاً. فما بالهم لا يتقدمون مني! قد أعطيهم معطفي. ما حاجتي إليه؟ المعطف تملك. و«كل تملك سرقة». ولكن كفى بلاهة! ما أجمل كل شيء! ما أحلى أن يذوب الجليد. علام الجليد؟ ما ينبغي أن يكون جليد. ما أحسن أن يقول المرء سخافات. عجيب، ماذا قلت للامبرت عن المبادىء؟ قلت إنه لا مبادىء بل حالات خاصة. كذبت. كذبت أكبر الكذب. كذبت متعمداً، لأدهشه وأذهله. هذا عيب، هذا خزي. ولكن لا ضير. سأصلح الأمر. لا تشعر بعار يا آركادي ماكاروفتش، لا تعذب نفسك! إنك تعجبني يا آركادي ماكاروفتش، بل إنك تعجبني كثيراً يا صديقي الشاب. خسارة أن تكون وغداً صغيراً... و... و... آه... آه...».

وقفت فجأة وانتشى قلبي من جديد.

«رباه! ماذا قال؟ قال إنها تحبني! يا للسافل! لقد كذب. قال ذلك لأصحبه فأقضي الليلة عنده. ولكن قد أكون مخطئاً. قال إن آنا آندرييفنا تعتقد بهذا هي أيضاً... هىء هىء! لعل داريا أونيسيموفنا استطاعت أن تعرف شيئاً: إنها تحشر أنفها في كل مكان. ثم لماذا لم أصحبه إلى بيته؟ لو صحبته لكان يمكن أن يحكي لي كل شيء. هم... إن له خطته. أوجست هذا وتنبأت بجميع تفاصيله. حلم. إنك قد أجدت تصور خطتك يا مسيو لامبرت. ولكنك تكذب. لن تجري الأمور هذا المجرى. ولكن قد تجري هذا المجرى! قد تجري! هل هو يعجز عن تزويجي؟ إنه قادر على هذا قدرة تامة. هو ساذج وهو يصدِّق نفسه. هو غبي

Twitter: @ketab_n

وجريء، كجميع رجال الأعمال. اجتماع الغباء والجسارة قوة كبيرة. اعترف يا آركادي إيفانوفتش، اعترف أنك خفت من لامبرت! وما حاجته إلى رجال شرفاء؟ إنه قال هذا الكلام جاداً: ما من رجل شريف هنا! ولكن ماذا أنت؟ هوه! ما هذا الذي أقوله؟ أليس الأوغاد في حاجة إلى شرفاء؟ إن الحاجة إلى الشرفاء هي في الأعمال السافلة أشد منها في أي مجال آخر. هأهأها! كنت لا تعرف هذا بعدُ يا آركادي ماكاروفتش، من شدة براءتك! يا رب! ماذا لو زوجني حقاً!

وتوقفت مرةً أخرى. يجب أن أعترف هنا بأمر سخيف (ما دام هذا الأمر يرجع عهده إلى زمان بعيد)، يجب أن أعترف بأنني كنت منذ مدة طويلة أريد أن أتزوج. بل قل إنني كنت لا أريد هذا، وما كان لهذا أن يحدث (وهو لن يحدث أبداً، أقسم على ذلك بشرفي)، لكنني كنت قد حلمت بالزواج مراراً كثيرة، خلال مدة طويلة، قلت لنفسي عدداً لا نهاية له من المرات: ما أحلى أن أتزوج! وكان يحدث لي هذا كل مساء حين أستلقي في فراشي لأنام. بدأ ذلك عندي وأنا في السادسة عشرة من العمر. كان لي في المدرسة الثانوية رفيق اسمه لافروفسكي. هو فتى لطيف جداً، وهادىء، وجميل. ولكن هذه مزاياه كلها، لا ميزة له غيرها. كنت لا أكاد أكلمه أبداً. ثم إذا نحن نجد نفسينا في ذات يوم وحيدين، قد جلس كل منا بجانب الآخر. كان غارقاً في التفكير. وها هو ذا يقول لي فجأة: «آه يا دولجوروكي! ما رأيك؟ ليتنا نتزوج! ومتى نتزوج إذا لم نتزوج الآن؟ هذه أصلح فترات العمر للزواج. ومع ذلك يستحيل الزواج!». قال ما قاله صادقاً مخلصاً. فشعرت بأنني أوافقه على رأيه بكل نفسي، لأنني كنت أحلم هذا الحلم من قبل.

Twitter: @ketab_n

والتقينا بعد ذلك عدة مرات متتالية، فكنا نتكلم في هذا الأمر دائماً، متخفين متكتمين. وبعد ذلك انفصلنا، لا أدري لماذا، وانقطعنا عن التخاطب. في ذلك الحين إذن إنما أخذت أحلم بالزواج. ولكن علام أذكر كل شيء؟ إنني ما تحدثت عن تلك الفترة إلا لأبين كيف أن الأمور يرجع عهدها في بعض الأحيان إلى زمان بعيد...

قلت لنفسي وأنا أستمر في المشي: «ليس هناك إلا اعتراض هام واحد: إن فرقاً طفيفاً في السن لن يكون عقبةً، ولكنْ هي أرستقراطية، وأنا دولجوروكي فحسب! هذا سيىء جداً! همْ... يستطيع فرسيلوف إذا تزوج ماما أن يطلب من الحكومة موافقتها على أن يتبناني... مكافأةً للأب على خدماته. لقد خدم في الوظيفة. فله إذن خدمات. كان وسيط صلح. آه... ما هذه الدناءة التي أنحط إليها!».

هتفت هذا الهتاف، ووقفت مرةً ثالثة على حين فجأة، لكنني في هذه المرة كنت كمن سحق في مكانه سحقاً. أحسست بمذلة أليمة من هذه الفكرة التي أمكن أن تخطر ببالي وهي أن أغير اسمي بالتبني فأخون كل طفولتي. وبدَّد هذا كلَّ ما كنت أحسه من بهجة، وطار فرحي دخاناً. قلت محدثاً نفسي وأنا أحمرّ احمراراً فظيعاً: «لن، لن أفضي بهذا إلى أحد، ولئن انحططت إلى هذه الدناءة كلها، فذلك... فذلك لأنني عاشق وغبي. لا، إذا صدق لامبرت في أمر، فقد صدق حين قال إن المرء في هذا الزمان لا يحتاج إلى هذه السخافات، وإن الشيء الأساسي في عصرنا إنما هو الشخص ثم ماله. بل الشخص ثم قوته لا ماله. إنني أستطيع بهذه الثروة أن أنطلق في تحقيق «فكرتي»، فما هي إلا عشر سنين حتى يترجع ذكر

Twitter: @ketab_n

اسمي في روسيا كلها، وأنتقم من الجميع. ولا حاجة بي معها إلى هذا الاحتفال كله! هنا صدق لامبرت أيضاً: لسوف تخاف فتتزوجني. الأمر بسيط. سوف توافق ببساطة تامة، على أتفه نحو. وتذكرت أقوال لامبرت: «إنك لا تعرف في أي ماخور تمَّ هذا»، فقلت أحدث نفسي مؤيداً كلام لامبرت: «صحيح. إن لامبرت على حق في جميع النقاط. هو أصدق رأياً مني ألف مرة، وأصدق رأياً من فرسيلوف، ومن سائر هؤلاء المثاليين! إنه رجل واقعي. سوف ترى أن لي إرادة صلبة. وسوف تقول: إن له إرادة صلبة». لامبرت وغد. وهو لا يفكر إلا في أن يحصل مني على ثلاثين ألفاً. ولكنه صديقي الوحيد، رغم كل شيء. ما من صداقة أخرى ممكنة. إن الذين تخيلوا هذا أناس عمليون. وأنا لا أذلها هي. هل أنا أذلها؟ أبداً. النساء جميعاً سواء. هل في الدنيا كلها امرأة غير دنيئة؟ لهذا هن في حاجة إلى الرجل. لقد خلقن عبيداً. المرأة رذيلة وفضيحة، والرجل نبل وكرم. وستبقى الحال على هذا المنوال إلى آخر الدهر. إنني أفكر في استغلال الوثيقة: أي ضير في هذا؟ هذا لا ينفي النبل ولا الكرم. ليس في هذه الحياة شيلر كامل لا تشوبه شائبة. تلك صورة لفّقها الخيال. لا قيمة للوسيلة الدنيئة إذا كانت الغاية نبيلة. ثم يُغسل كل شيء فلا يبقى أثر من وساخة. هذه رحابة الفكر، هذه هي الحياة، هذه هي الحقيقة العملية. كذلك يجب أن تُسَمّى الأمور اليوم!».

أعود فأستغفر القارىء عن ذكر كل هذا الهذيان الذي دار في رأس سكران، أستغفره عن ذكره كاملاً لم أسقط منه شيئاً. إن ما ذكرته هو زبدة الأفكار التي تلاحقت في رأسي آنذاك، لكنني أظن مع ذلك أنني استعملت هذه العبارات نفسها. وكان لا بد لي أن

Twitter: @ketab_n

أنقلها الآن ما دمت أكتب لأحكم على نفسي. وإلا لم يبق ما أحكم عليه. هل في الحياة ما هو أخطر من هذا؟ وليست الخمر بمبرر. فقديماً قال المثل اللاتيني: «الخمر تكشف».

وفيما كنت مسترسلاً في هذه الأحلام غارقاً في هذه الأخيلة، لاحظت أنني قد وصلت إلى البيت، أعني بيت أمي. حتى أنني لم ألاحظ كيف دخلت. ولكن ما إن وضعت قدمي في حجرة المدخل الصغيرة حتى أدركت فوراً أن شيئاً خارقاً قد حدث. ففي الغرف يُسمع كلام ويُطلق صراخ، وأمي تبكي. وكادت لوكيريا أن تقلبني وهي تمر كالإعصار من غرفة ماكار إيفانوفتش إلى المطبخ. فخلعت معطفي، ودخلت غرفة ماكار إيفانوفتش لأن الجميع كانوا محتشدين فيها.

كان في الغرفة فرسيلوف وأمي. وكانت أمي متهالكة على ذراعي فرسيلوف، وكان فرسيلوف يشدها إلى صدره شداً قوياً. وكان ماكار إيفانوفتش جالساً على المقعد كعادته، لكنه يبدو منهاراً لا قوة له. فكانت ليزا تسند كتفه بمشقة كبيرة لتمنعه من السقوط. وكان واضحاً أنه يوشك في كل لحظة أن يسقط. فلما تقدمت نحوه بخطوة سريعة، ارتعدت وأدركت كل شيء: كان الشيخ ميتاً.

لقد مات منذ قليل، ربما قبل وصولي بدقيقة واحدة. كان قبل عشر دقائق لا يحس بأي تغير في حالته. ولم يكن عنده إلا ليزا. كانت جالسةً بجانبه تحدثه عن حزنها وتفضي إليه بأشجانها، وكان هو يلاعب رأسها كما فعل بالأمس. ثم إذا هو يرتجف على حين فجأة (هذا ما روته ليزا)، وقد أراد أن ينهض، وأراد أن يصرخ، لكنه لم يلبث أن سقط على جنبه الأيسر صامتاً. قال فرسيلوف: «هو القلب!». وصرخت ليزا صرخة قوية جعلت كل من في البيت يهبون واقفين، وهرع الجميع. حدث هذا كله ربما قبل وصولي بدقيقة واحدة!

Twitter: @ketab_n

صرخ فرسيلوف يقول لي:

ـ آركادي! اركض فوراً إلى تاتيانا بافلوفنا! هي الآن في بيتها حتماً. فقل لها أن تأتي فوراً. اركب عربة. أسرع، أرجوك.

كانت عيناه تسطعان، أتذكر هذا تذكراً واضحاً. لم ألاحظ في وجهه شيئاً مما يشبه أن يكون حسرة واضحة أو دموعاً. إن أمي وليزا ولوكيريا هنَّ اللواتي كن يبكين. بل إني لأذكر ذكراً واضحاً أن ما فجأ بصري في وجهه إنما هو اهتياج شديد، نوع من حماسة. وركضت متجهاً إلى بيت تاتيانا بافلوفنا.

ليس الطريق طويلاً. تعلمون هذا مما سلف. لم أركب عربة، وإنما اجتزت المسافة راكضاً بغير توقف. كنت مضطرب الفكر، حتى لأكاد أكون متحمساً أنا أيضاً. لقد أدركت أن حادثاً له شأن خطير قد وقع. فلما وصلت إلى بيت تاتيانا بافلوفنا، كان سكري قد تبدد تماماً، وتبددت معه جميع تلك الأفكار الدنيئة.

فتحت الفنلندية الباب وقالت: «السيدة خرجت!»، وهمَّت أن تغلقه ثانيةً.

فقلت وأنا أقتحم الباب إلى حجرة المدخل اقتحاماً:

ـ خرجت؟ كيف؟ مستحيل. مات ماكار إيفانوفتش!

فإذا بصوت تاتيانا بافلوفنا يدوِّي من خلال باب صالونها المغلق:

ـ ما... ذا؟

مات! ماكار إيفانوفتش مات! يرجوك آندريه بتروفتش أن تجيئي حالاً.

ـ كذاب!

وصرَّ المزلاج، ولكن الباب لم يفتح فتحاً وإنما شقّ بمقدار إصبع:

Twitter: @ketab_n

ـ «ماذا حدث؟ قل!».

ـ لا أدري. وصلت إلى البيت فوجدت ماكار إيفانوفتش ميتاً. آندريه بتروفتش يقول: «هو القلب!».

ـ حالاً، حالاً! اركض. قل إني آتية فوراً. هيا اذهب. ما بالك لا تذهب! ماذا؟ ما بقاؤك واقفاً هنا؟

لقد رأيت رؤية واضحةً، من خلال الباب المشقوق، إن أحداً خرج من وراء الستارة التي تحجب سرير تاتيانا بافلوفنا، وتسمَّر في قرارة الغرفة، وراء تاتيانا بافلوفنا، فوجدتني أضع يدي على المزلاج آلياً، غريزياً، بحيث لا يمكن إغلاق الباب ثانية.

ـ آركادي إيفانوفتش! هل صحيح أنه مات؟

إنه صوت أعرفه، صوت رقيق عذب متسق، يرن رنين المعدن، هزَّ أعماق نفسي منذ سمعته. وكان سؤالها يختلج بعاطفة وتأثر.

قالت تاتيانا بافلوفنا وهي تترك الباب فجأة:

ـ إذا كان الأمر كذلك، فدبرا أمركما بنفسكما كما تريدان. أنت التي أردت هذا!

وولَّت مسرعة تختطف شالاً ومعطفاً قصيراً، وتهرع إلى السلم. وبقينا وحيدين. نضوت معطفي، وتقدمت خطوة، وأغلقت الباب.

كانت واقفةً أمامي كما حدث في لقائنا السابق، مشرقة المحيا، واضحة النظرة. وكما في المرة الماضية مدت إليَّ كلتا يديها. وكأن منجلاً قطع ساقيَّ، فإذا أنا أهوي على قدميها.

3

أخذت أبكي، لا أدري لماذا. لقد نسيت الآن كيف أجلستني بجانبها. ولكنني ـ وهذه ذكرى ثمينة ـ رأيتنا جالسين جنباً إلى جنب،

Twitter: @ketab_n

قد أمسك كل منا يد الآخر، واندفعنا في حديث سريع. سألتني عن الشيخ وعن موته، فحكيت لها ما أعرف، فلو رآني أحد أثناء ذلك لظنني أبكي على ماكار إيفانوفتش، ولكان ذلك ذروة السخافة. وأنا أعلم على كل حال أنها لا يمكن أن تفترض فيَّ بلاهةً كهذه البلاهة الصبيانية. وثبت إلى نفسي أخيراً على حين فجأة، وشعرت بخزي وعار. أفترض الآن أنني إنما بكيت حينذاك من فرط الحماسة، وأظن أنها أدركت ذلك فوراً، فأنا من هذه الناحية مطمئن.

وبدا لي فجأة أن من المستغرب جداً أن تسألني بمثل هذا الإلحاح عن ماكار إيفانوفتش. فسألتها مدهوشاً:

ـ هل تعرفينه؟

فأجابت:

ـ منذ مدة طويلة. إنني لم أره يوماً. ولكنه لعب في حياتي دوراً. سمعت عنه أشياء كثيرة في الماضي من الرجل الذي أخشاه. تعرف من أعني.

ـ أعرف الآن أن «ذلك الرجل» كان أقرب إلى نفسك كثيراً مما أظهرت.

قلت لها ذلك وأنا لا أدري ما الذي أردت أن أعبِّر عنه، ولكنني قلته مؤاخذاً مقطب الجبين.

تابعت مساءلتي فقالت دون أن تصغي إلى كلامي:

ـ تقول إنك رأيته يقبِّل ماما منذ قليل؟ قبَّلها؟ رأيته بعينيك؟

فأسرعت أجيب مؤكداً، وقد رأيت كيف تهلل وجهها فرحاً:

ـ نعم رأيته. وصدِّقي أن ذلك كله كان صادقاً كل الصدق كريماً كل الكرم.

قالت وهي ترسم إشارة الصليب:

Twitter: @ketab_n

ـ الحمد لله. الآن تحلل من أغلاله. كان هذا الشيخ يكبل حياة آندريه بتروفتش بالأصفاد. ولسوف ينبعث الشعور بالواجب والشعور بالكرامة في نفسه من جديد، كما حدث هذا مرةً من قبل. ذلك أنه رجل كريم قبل كل شيء. وسوف يهدأ قلب ماما التي يحبها أكثر مما يحب أي شيء في هذه الحياة، وسيهدأ هو نفسه أخيراً. الحمد لله. آن الأوان.

ـ هل هو عزيز عليك؟

ـ نعم، عزيز جداً، ولكن ليس بالمعنى الذي يريده هو وتقصده أنت.

سألتها فجأة:

ـ ولكن الآن، أأنت خائفة على نفسك أم خائفة عليه؟

ـ هذه أسئلة صعبة. لنتركها!

ـ لنتركها، نعم. ولكنني كنت لا أعرف من هذا كله شيئاً، ولعل هناك أموراً كثيرة أخرى أجهلها كل الجهل. مهما يكن من أمر، أنت على حق. لقد تبدل الآن كل شيء، وإذا كان أحد قد بُعث بعثاً جديداً فهو أنا. لقد انحططت بتصوراتي وأفكاري انحطاطاً شديداً تجاهك يا كاترينا نيقولايفنا؛ ولعلني، منذ ساعة لا أكثر، قد ارتكبت عملاً دنيئاً في حقك. ولكن اعلمي أنني الآن، وأنا جالس بجنبك، لا أحس بشيء من عذاب الضمير. ذلك أن كل شيء قد زال، ذلك أن كل شيء قد تبدل؛ والرجل الذي كان منذ ساعة يضمر لك شراً أنا لا أعرفه، ولا أريد أن أعرفه.

ابتسمت وقالت:

ـ أَفِقْ. لكأنك تهذي قليلاً.

تابعت كلامي قائلاً:

Twitter: @ketab_n

ـ وهل يستطيع المرء أن يحكم على نفسه حين يكون معك؟ سواء أكان حقيراً أم كان شريفاً فإنك تظلين كالشمس لا يمكن الوصول إليك. ولكن ليتك تعرفين ماذا حدث منذ ساعة، منذ ساعة لا أكثر. يا للحلم الذي كان بصدد التحقق!

قالت وهي تبتسم ابتسامة رقيقة عذبة:

ـ أظن أنني أعرف كل شيء. لقد أردت منذ قليل أن تنتقم مني، وحلفت لتضيِّعنِّي. ولا شك مع ذلك في أنك لو سمعت أحداً يتجرأ فيقول كلمة سوء في حقي أمامك لقتلته أو لألحقت به أذى.

صحيح أنها ابتسمت وكانت تمزح. ولكن مردَّ ذلك إلى طيبة قلبها، فقد عرفت فيما بعد أنها في تلك اللحظة كانت نفسها كلها مترعة بهم شخصي ضخم وبعاطفة تبلغ من القوة والصرامة أنها كانت لا تتحدث معي ولا تجيب عن أسئلتي الجوفاء المحنقة إلا كما يجيب المرء في بعض الأحيان عن أسئلة سخيفة يصرُّ طفل صغير على إلقائها إصراراً عنيداً، فهو يجيب عنها ليتخلص ويرتاح. وقد أدركت ذلك فجأة، فشعرت بخجل وخزي، ولكنني كنت لا أستطيع أن أتوقف.

هتفت أقول وقد فقدت سيطرتي على نفسي:

ـ لا، لم أقتل الشخص الذي قال في حقك سوءاً، بل أيَّدته وشجعته!

ـ أرجوك، ناشدتك الله، لا تقصص علي شيئاً، لا فائدة في هذا، لا يجب هذا.

ومدَّت يدها لوقفي عن الكلام، حتى لقد ظهر في وجهها ألم. ولكنني كنت قد وثبت ووقفت أمامها لأروي لها كل شيء. ولو قد فعلت لما حدث ما حدث بعد ذلك. لأنني كنت سأنتهي حتماً إلى

Twitter: @ketab_n

الاعتراف لها بكل شيء، وإلى تسليمها الوثيقة. ولكنها انفجرت تضحك على حين فجأة قائلة:

ـ لا داعي إلى الكلام. ما أنا في حاجة إلى شيء. دعك من التفاصيل! جرائمك كلها، أنا أعرفها. أراهن أنك أردت أن تتزوجني، أو أردت شيئاً من هذا القبيل، وأنك قد تواطأت منذ قليل مع واحد من أعوانك، هو رفيق من رفاقك القدامى في المدرسة... أظن أنني حزرت!

بهذا هتفتْ وهي تحدِّق إليَّ.

فقلت لها متمتماً كما يتمتم أبله، وقد اعتراني شده وذهول:

ـ كيف... كيف أمكنك أن تحزري؟

ـ أين الصعوبة في هذا؟ ولكن كفى كفى! إني أغفر لك، ولكن كف عن الكلام في هذا الأمر.

حتى لقد حرَّكت يدها بإشارة تنم عن شدة التململ. وأردفت تقول:

ـ أنا أيضاً أحب أن أحلم. ليتك تعلم الأساليب التي ألجأ إليها في أحلامي، حين لا يصدني شيء! كفى! إنك لا تزيد على أن تبث الاضطراب في نفسي. يسرني جداً أن تاتيانا بافلوفنا خرجت. كنت أريد كثيراً أن أراك، فلو بقيتْ لما استطعنا أن نتكلم كما نتكلم الآن. أظن أنني مذنبة في حقك، مسؤولة عما وقع لك حينذاك. أليس كذلك؟

ـ أنت؟ مذنبة؟ ولكنني أنا الذي أسلمتك «إليه». ترى ما عساك قلت عني؟ لقد ظللت أفكر في هذا الأمر طول الوقت، في جميع هذه الأيام، كلَّ لحظة، أفكر فيه وأحس به.

لم أكذب عليها. قالت:

Twitter: @ketab_n

ـ أخطأت إذ عذَّبت نفسك هذا التعذيب. لقد أدركتُ أنا على الفور كيف حدث كل شيء. لقد كشفتَ له، بكل بساطة، وأنت في غمرة الفرح، أنك تحبني و... أنني، وأنني كنت أدع لك أن تتكلم وأصغي إليك. ذلك أنك لم تتجاوز من عمرك العشرين. أنت تحبه أكثر مما تحب الكون بأسره، وتبحث فيه عن صديق، عن مثلٍ أعلى، وقد أدركتُ أنا هذا حق الإدراك. ولكن بعد فوات الأوان. صحيح أنني أخطأت أنا أيضاً، لا شك في هذا، لكنني كنت معتكرة المزاج مكفهرة النفس، فأمرت بألا تُقبل في البيت بعد ذلك. وعندئذ إنما وقع ذلك المشهد أمام الباب، ثم كانت تلك الليلة. أعلم أنني طوال هذا الوقت كنت أحلم، مثلك، بأن أراك خفيةً، لكنني كنت لا أعرف السبيل إلى تحقيق هذه الأمنية. وما الذي كنت أخشاه أكثر من أي شيء آخر فيما تظن؟ لقد كنت أخشى أن تصدِّق نمائمه عني وأقاويله في حقي.

هتفت أقول:

ـ أبداً!

ـ إنني أقدِّر لقاءاتنا الماضية. وما أحبه فيك هو الفتى المراهق، وربما هذا الصدق أيضاً.. ذلك أن لي طبعاً يتصف بالجد. أعلم أنني بين نساء عصري أكثرهن صرامة وجداً. هأ هأ هأ! لسوف يتاح لنا أن نتحادث كثيراً، أما الآن فلست هادئة النفس مطمئنة البال. إنني الآن منفعلة انفعالاً شديداً... بل إنني في حالة هستريا. ولكن، أخيراً، أخيراً، سوف يتركني وشأني أعيش في سلام!

أفلتت منها هذه الجملة الأخيرة بغير إرادة. وقد فهمتها أنا فوراً ولم أشأ أن أتوقف عندها. لكنني كنت أرتجف ارتجافاً شديداً.

ثم عادت تهتف من جديد كأنها تحدث نفسها:

Twitter: @ketab_n

ـ هو يعلم أنني غفرت له!

فلم أتمالك نفسي فهتفت أسألها:

ـ كيف أمكنك أن تغفري له تلك الرسالة. وكيف يستطيع أن يعرف هو أنك غفرت له؟

فتابعت كلامها تجيبني، ولكن كأنها لا تخاطبني وإنما هي تحدث نفسها:

ـ إنه يعرف! لقد استرد صوابه الآن. كيف لا يدرك أنني غفرت له وهو يعرف نفسي كلها على ظهر القلب؟ إنه ليعلم حق العلم أنني من نوعه تقريباً.

ـ أنت؟

ـ نعم، وهو يعرف ذلك. أنا لست مشبوبة العاطفة بل هادئة، لكنني أنا أيضاً أحب أن يكون جميع الناس أخياراً طيبين... ليس عبثاً أنه افتتن بي حباً!

ـ فلماذا قال إذن أنك تتصفين بجميع العيوب والنقائص؟

ـ قال هذا كلاماً لا أكثر. أما رأيه الذي يكتمه سراً في قرارة نفسه فيختلف عن هذا الكلام كل الاختلاف. ولكن أليس صحيحاً أن رسالته كانت مضحكة؟

ـ مضحكة؟

كنت أصغي إليها بكل ما أملك من قوة الانتباه. وأظن أنها كانت تعاني نوبة هستريا حقاً، و... أنها ربما كانت لا تتكلم من أجلي أنا أبداً. ولكنني لم أستطع أن أمسك عن مساءلتها. قالت:

ـ مضحكة قطعاً. ولشد ما كان يمكن أن أضحك لولا... لولا أنني كنت خائفةً خوفاً شديداً. لست مع ذلك جبانة. لا يذهبن بك الظن إلى أنني جبانة. لكن رسالته قد حرمتني من النوم تلك الليلة.

Twitter: @ketab_n

لكأنها كتبت بدم، بدم رجل مريض. ماذا يبقى للمرء أن يفعل بعد رسالة كتلك الرسالة؟ إنني أحب الحياة، وأخاف على حياتي كثيراً. في هذه النقطة أنا جبانة حقاً.

وهتفت فجأة تقول:

ـ اذهب إليه. هو الآن وحيد. أغلب الظن أنه لم يبق هناك. لا بد أنه مضى إلى مكان آخر. فأدركه بأقصى سرعة، يجب أن تدركه، إركض إليه، وأظهر له أنك ابنه المحب، وبرهن له على أنك فتى طيب لطيف، يا عزيزي الطالب، وعلى أنني... لا... إنني أسأل الله أن يهب لك السعادة. أنا لا أحب أحداً، ذلك أفضل، ولكنني أتمنى السعادة للجميع، للجميع، وأتمناها له قبل أي إنسان آخر. ألا فليعرف هذا... فليعرفه حالاً. سيسرُّه كثيراً أن يعرف...

ونهضتْ، واختفت فجأة وراء الستارة. كانت دموع تلتمع في وجهها حينذاك (دموع هسترية بعد الضحك). بقيت وحيداً، مضطرباً. كنت لا أعرف حقاً إلى أي شيء يجب أن أعزو مثل هذا الانفعال الشديد الذي ما كان لي أن أفترضه فيها. وانقبض صدري.

انتظرت خمس دقائق، ثم عشراً. وأدهشني الصمت العميق فجأةً، فقررت أن أنظر من الباب وأنا أنادي. فلما ناديت ظهرت لي ماريا فأعلنت لي بلهجة هادئة، أن مولاتها ارتدت ثيابها منذ مدة طويلة، وغادرت البيت خارجة من سلم الخدم.

Twitter: @ketab_n

الفصل السابع

1

لم يكن ينقصني إلا هذا. تناولت معطفي، ولبسته بسرعة، وهرعت أخرج وأنا أتساءل: «إنها تريد أن أذهب إليه، فأين يمكنني أن أجده؟».

غير أن هناك، عدا هذا كله، سؤالاً كان يحيِّرني: «لماذا تتصور أن الزمان قد تبدل الآن، وأنه سيدعها وشأنها تعيش في سلام؟ لأنه سيتزوج ماما قطعاً. ولكن ما علاقتها هي بهذا؟ أيبهجها أن يتزوج ماما أم يشقيها؟ أليس هذا هو ما يجعلها في حالة هستريا؟ ما أعجزني عن حل المشكلة!».

إنني أسجل هذا الخاطر الثاني الذي لمع في ذهني سريعاً كالبرق، أسجله للتذكرة. إن له شأناً كبيراً. كان ذلك المساء حاسماً. إن المرء مضطر أن يصدق أخيراً بالقدر: فإنني ما إن قطعت مائة خطوة متجهاً إلى بيت ماما، حتى اصطدمت بالرجل الذي كنت أبحث عنه. وضع يده على كتفي ووقف، وهتف يقول فرحاً مدهوشاً في آن واحد:

ـ أنت؟

وأضاف مسرعاً في الكلام:

ـ تصور أنني ذهبت إلى بيتك ساعياً إليك، وسألت عنك: أنت

Twitter: @ketab_n

وحدك من أحتاج إليه الآن في الكون كله! لا أدري بماذا أجابني صاحبك الموظف، مؤجر بيتك، لقد طفق يقول أشياء كثيرة المهم أنك لم تكن هناك، فانصرفت من عنده، ناسياً حتى أن أطلب منه إبلاغك أن تجيء إليَّ فوراً. وفيما أنا أمشي راجعاً، كنت مقتنعاً اقتناعاً لا يتزعزع بأن القدر لا يمكن إلا أن يضعك في طريقي في هذا الوقت الذي أحتاج فيه إليك هذا الاحتياج الشديد كله. فكنت أول شخص ألقاه. هلمَّ بنا إلى بيتي. إنك لم تزرني حتى الآن في يوم من الأيام...

الخلاصة أن كلاً منا كان يسعى إلى الآخر ويبحث عنه، فوقعت لنا كلينا مصادفة واحدة. وحثثنا الخطى. في الطريق لم يوجِّه إليَّ إلا بضع جمل قصيرة: إنه ترك ماما مع تاتيانا بافلوفنا، الخ الخ. وكان يقودني ممسكاً ذراعي. لم يكن بيته بعيداً، فسرعان ما وصلنا. لم أزره قبل اليوم فعلاً. هو بيت صغير من ثلاث غرف استأجره (بل قد استأجرته تاتيانا بافلوفنا) لسكنى «الطفل الرضيع» لا أكثر. وقد كانت تاتيانا بافلوفنا هي التي تشرف على البيت مع خادم للطفل (هي الآن داريا أونيسيموفنا). ولكن البيت كان يضم غرفة لفرسيلوف هي الغرفة الأولى التي تقع على يمينك حين تدخل. إنها غرفة واسعة حسنة الأثاث، هي نوع من حجرة للقراءة والعمل. فعلى المائدة وفي الخزانة وفوق الرفوف، يرى المرء كتباً كثيرة (كان مسكن ماما يكاد يخلو من الكتب خلواً تاماً)، وأوراقاً فيها كتابة، وحزم رسائل. الخلاصة أن هذا كله يشير إلى أن المكان مسكون منذ مدة طويلة، وكنت أعرف أن فرسيلوف كان ينتقل إلى هذا البيت من وقت إلى آخر (ولو نادراً)، فيمكث فيه مدداً تبلغ عدة أسابيع في بعض الأحيان.

Twitter: @ketab_n

إن أول شيء لفت انتباهي صورة فوتوغرافية لماما معلقة فوق المكتب ضمن إطار رائع من خشب محفور. واضح أن الصورة قد أخذت لها في الخارج، وإنها بحكم كبرها النادر شيء ثمين. لم أكن أعرف هذه الصورة قبل الآن، ولا سمعت عنها. غير أن ما خطف بصري خاصةً هو شبهها الكبير بماما. إنه شبه روحي إن صح التعبير: لكأنها صورة رسمتها يد فنان ماهر، ولم يلتقطها جهاز آلي. فما إن دخلت حتى رأيتني أقف أمام الصورة جامداً رغم إرادتي.

قال فرسيلوف:

ـ أليس كذلك؟ أليس كذلك؟

كان يريد أن يقول: «أليست تشبهها حقاً؟». فالتفتّ إليه، ففاجأني تعبير وجهه. كان شاحب اللون قليلاً، غير أن نظرته المشدودة الحارة كانت تسطع سعادةً وقوة: لم أعهد في وجهه مثل هذا التعبير قبل الآن.

قلت متحمساً على حين فجأة:

ـ ما كنت أعرف أنك أحببت ماما هذا الحب كله!

فابتسم ابتسامة سعيدة، فيها مع ذلك ألم، أو قل فيها عاطفة إنسانية أعلى... لا أعرف كيف أعبر! ولكن يبدو لي أن الإنسان حين يكون على جانب كبير من الثقافة، لا يستطيع أن يعبر وجهه عن سعادة منتصرة ظافرة. وها هو ذا، بدون أن يجيبني، يرفع الصورة بكلتا يديه، فيقربها منه، ويقبّلها، ثم يعود فيعلقها بالحائط. قال:

ـ لاحظ أن الصور الفوتوغرافية يندر أن تشتمل على شبه. وسبب ذلك واضح: فالأصل، أعني كل واحد منا، يندر أن يشبه

Twitter: @ketab_n

نفسه. هناك لحظات نادرة يعبِّر فيها الوجه عن السمة الأساسية في الإنسان وعن فكره الذي يميزه. إن الفنان يدرس الوجه، فيدرك ذلك الفكر الأساسي، حتى حين لا يكون ذلك الفكر بارزاً في الوجه أثناء الرسم. أما الفوتوغرافيا فإنها تفاجىء الشخص كما هو في اللحظة التي تلتقط له فيها الصورة. ومن الجائز جداً أن يفاجأ نابوليون في لحظة من اللحظات غبياً، وأن يفاجأ بسمارك في لحظة من اللحظات رقيقاً حنوناً. ولكن هنا، في هذه الصورة، شاءت المصادفة أن تدرك الشمس صوفيا في لحظتها الأساسية، فظهرت على حقيقتها، امرأةً ذات خفر، تفيض حباً رقيقاً، ويشع منها عفاف فيه وجل. ما أعظم السعادة التي ملأت جوانحها حين اقتنعت بأنني أرغب كثيراً في الحصول على صورتها هذه! إن هذه الصورة لا يرجع عهدها إلى زمن بعيد. ولكن صوفيا كانت في تلك الأيام أفتى وأجمل! ومع ذلك كان خداها منذ ذلك الحين خاسفين، وكانت لها هذه الغضون في الجبين، وكان في نظرتها هذا الحياء الوجل، وذلك كله قد ازداد بتقدم السنين وبرز مزيداً من البروز شيئاً بعد شيء. هل تصدق يا صغيري؟ إني لأكاد أعجز الآن عن أن أتصورها بوجه آخر! ومع ذلك كانت، هي أيضاً، شابة وفاتنة! إن النساء الروسيات تدب إليهن الدمامة بسرعة، وينقضي جمالهن، ولا شك في أن هذا لا يرجع إلى خصائص في طبيعة الجنس الروسي فحسب، وإنما يرجع أيضاً إلى أن النساء الروسيات يندفعن في الحب بلا تحفظ. إذا أحبت المرأة الروسية، فإنها تهب كل شيء دفعةً واحدة: تهب اللحظة والمصير، الحاضر والمستقبل: إنهن لا يستطعن الاقتصاد والتوفير، إنهن لا يدَّخرن. فسرعان ما ينتقل جمالهن إلى من يحببن. هاتان الخدان الخاسفتان هما أيضاً جمال

Twitter: @ketab_n

ضحت لي به من أجل متعة قصيرة. أنت يسرك أنني أحببت أمك، ولعلك كنت لا تصدِّق أن أكون قد أحببتها، أليس كذلك؟ بلى يا صديقي بلى! أحببتها كثيراً. لكنني لم أجلب لها في يوم من الأيام إلا السوء. هناك صورة أخرى. خذ. أنظر في هذه أيضاً.

تناول الصورة من على المكتب ومدّها إليَّ. هي صورة فوتوغرافية أيضاً، أصغر من صورة ماما كثيراً، قد وضعت في إطار بيضوي من خشب نحيل: وجه فتاة هزيلة مصدورة، لكنها جميلة. إن الفتاة تفكر، ولكن وجهها خال من الفكر خلواً غريباً. قسمات متسقة. طلعة تصفَّت وراقت بتعاقب الأجيال، ولكنها تشعرك بأن فيها مرضاً: فكأن هذه الإنسانة قد فاجأتها فكرة ثابتة، فنالتها بعذاب شديد لأنها فوق طاقة قواها.

قلت أسأله وأنا أشعر ببعض الخجل:

ـ هذه... هذه هي الفتاة التي أردت أن تتزوجها هناك ثم ماتت بالسل، أليس كذلك؟ بنت زوجها «هي».

ـ نعم، أردت أن أتزوجها. ماتت بالسل. بنت زوجها. كنت أعلم أنك تعلم. تلك نمائم. على كل حال، ما كان يمكنك أن تعرف هنا شيئاً، بغض النظر عن النمائم. دع هذه الصورة في مكانها يا صديقي. هي مجنونة شقية لا أكثر.

ـ مجنونة تماماً؟

ـ أو معتوهة. لكنني أظن أنها مجنونة أيضاً. لقد ولدت ولداً من الأمير سرجي بتروفتش (عن جنون، لا عن حب، وهذا عمل من أدنأ وأحقر أعمال الأمير سرجي بتروفتش): والطفل هنا الآن، في هذه الغرفة. إنني منذ مدة طويلة أريد أن أريك الطفل. والأمير سرجي بتروفتش لم يجرؤ أن يجيء إلى هنا ليرى ولده. هذا اتفاق

Twitter: @ketab_n

أبرمناه معاً في الخارج. ضممت الطفل إليَّ بإذن من أمك. وبإذن من أمك، أردت أيضاً أن أتزوج تلك... البائسة...

قلت بحرارة:

ـ كيف يمكن إذنٌ كهذا؟

ـ يمكن. ما كان لأمك أن تغار! ليست تلك المختلة بامرأة!

هتفت أقول:

ـ في نظر الآخرين ليست امرأة. ولكنها في نظر أمي امرأة. لن أصدق أبداً أن الغيرة لم تصب أمي!

صدقت. لقد أدركت أنا هذا بعد أن انتهى كل شيء، أي بعد أن أذنت أمك. ولكن دعنا من هذا. إن الأمر لم يتم، لأن ليديا ماتت. ولعل الأمر ما كان ليتم ولو بقيت حية. على كل حال، أنا لا أدع لأمك أن تأتي إلى الطفل، حتى في هذا الحين. ذلك حادث عارض مضى. يا عزيزي، إنني أنتظرك هنا منذ مدة طويلة. إنني أحلم بلقاء بيننا هنا منذ زمن طويل. هل تقدِّر طول هذا الزمن؟ سنتان.

قال ذلك وهو يلقي عليَّ نظرة يتجلى فيها الصدق، وتعبر عن اندفاع من القلب حار. فتناولت يده، وهتفت أسأله:

ـ لماذا تأخرت؟ لماذا لم تنادني؟ لو علمت ما حدث، فأشرت لي بأصبعك أن أجيء إليك، لما وقع الذي وقع...

في تلك اللحظة جيء بالسماور، ثم إذا بداريا أونيسيموفنا تدخل حاملةً الطفل. وكان الطفل نائماً.

قال فرسيلوف:

ـ انظر إليه. إنني أحبه. ولقد أمرت بإحضاره لتراه أنت. والآن أرجعيه يا داريا أونيسيموفنا. اجلس إلى جانب السماور. سأتخيَّل

Twitter: @ketab_n

أننا عشنا دائماً هكذا، أنا وأنت، وأننا اجتمعنا كل مساء هذا الاجتماع، دون أن ننفصل في يوم من الأيام. دعني أنظر إليك: اجلس هكذا لأرى وجهك. كم أحبه، هذا الوجه، وجهك! لطالما تصورته وتخيلته! لطالما انتظرتك وأنا بموسكو! تسألني لماذا لم أرسل من يجيئني بك منذ مدة طويلة؟ انتظر. لعلك ستفهم الآن.

ـ أيكون موت ذلك الشيخ هو الذي حل عقدة لسانك؟ غريب. . .

نطقت بتلك الجملة، ولكن ذلك لا ينفي أنني كنت أنظر إليه بحب. وتحدثنا كما يتحدث صديقان، بأكمل وأسمى معاني هذه الكلمة. لقد جاء بي إلى هنا ليشرح لي، ليحكي لي، ليبرر نفسه. . . ولكن كل شيء قد اتضح وتبرر قبل كل كلام. مهما أسمع منه الآن، فإن الهدف قد تم بلوغه. وكنا كلانا نعرف ذلك، وكان كل منا ينظر إلى الآخر بسعادة.

أجابني يقول:

ـ لا، ليس موت الشيخ هو الذي حل عقدة لساني، ليس هذا الموت وحده هو الذي حل عقدة لساني. هناك شيء آخر كان له تأثيره في هذا الاتجاه نفسه. بورك في هذه اللحظة، وفي حياتنا، منذ الآن، وإلى الأبد. لنتحدث يا عزيزي. إنني أبتعد دائماً عن الموضوع، وأشرد إلى غيره. أهمُّ أن أتكلم في شيء، فإذا أنا أتوه في تفاصيل شيء آخر. ذلك يحدث دائماً حين يكون القلب طافحاً. ولكن فلنتحدث. آن الأوان، وإني لموله حباً بك منذ مدة طويلة يا صغيري.

ارتد فرسيلوف إلى ظهر مقعده، وجعل يتأملني مرةً أخرى من الرأس إلى القدمين.

Twitter: @ketab_n

قلت وأنا غارق في افتتاني:

ـ ما أغرب أن أسمع هذا، ما أغرب أن أسمعه!. . .

ولكن هأنذا أرى الغضن المألوف الذي يعبّر عن الأسى والسخرية معاً، هأنذا أرى هذا الغضن الذي أعرفه حق معرفته، يظهر في وجهه من جديد. إنني أتذكر هذا تذكراً واضحاً. ولكن فرسيلوف تجلد. وبجهد، بدأ يتكلم.

2

ـ اسمع يا آركادي، ما عسى كنت أقول لك لو ناديتك قبل الآن؟

كان ذلك جوابه كله.

ـ هل تريد أن تقول إنك اليوم زوج أمي وإنك أبي. . . وإنك ما كنت تستطيع أن تقول لي شيئاً عن وضعي الاجتماعي؟ هل هذا ما تعنيه؟

ـ ليس هذا وحده. هناك أشياء كثيرة كنت سأضطر إلى السكوت عنها. هناك أشياء مضحكة، بل مُذلة، لأنها تشبه أن تكون مكائد مشعوذين، وألعاب مهرّجين. كيف كان يمكن أن يفهم أحدنا عن الآخر، إذا كنت أنا نفسي لم أفهم نفسي إلا اليوم، في الساعة الخامسة بعد الظهر، أي قبل موت ماكار إيفانوفتش بساعتين تماماً؟ أراك تنظر إليَّ بارتباك واضح وحيرة أليمة. لا تقلق! سأشرح لك الأمر. غير أن ما قلته صحيح كل الصحة. حياة كاملة تنقضي في ترحال وشك، ثم إذا بالحل يأتي فجأة، في يوم معين، في الساعة الخامسة بعد الظهر. شيء مُذل، أليس كذلك؟ لو حدث هذا قبل مدة قصيرة، لكان يمكن أن أشعر منه بمهانة حقاً.

Twitter: @ketab_n

كنت أصغي بحيرة أليمة فعلاً. وكنت أرى الغضن القديم في وجه فرسيلوف، بارزاً بروزاً قوياً، الغضن الذي كنت أتمنى ألا أراه فيه ذلك المساء بعد كل ما قيل من كلام. وفجأة رأيتني أهتف قائلاً:

ـ هل وصلك «منها» شيء، هذا اليوم، في الساعة الخامسة؟

فنظر إليَّ محدقاً، وكان واضحاً أنه فوجىء بهتافي بل لعله فوجىء أيضاً بقولي «منها»، وها هو ذا يقول مبتسماً ابتسامةً يمازجها تفكر:

ـ ستعلم كل شيء. ولن أخفي عنك شيئاً مما يجب أن تعلمه، فمن أجل هذا إنما جئت بك إلى هنا. ولكن فلنؤجل هذا إلى وقت آخر. إنني يا صديقي أعرف منذ مدة طويلة أن لنا أولاداً يتساءلون عن أسرتهم منذ طفولتهم، ويجرح أنفسهم ما يرونه من بشاعة في آبائهم وفي بيئتهم. وقد لاحظت أن هؤلاء الأولاد تمتلىء قلوبهم قلقاً منذ يكونون في المدرسة، واستخلصت من ذلك أن السبب هو أنهم عرفوا الحسد قبل الأوان. وبعد ذلك عددت نفسي واحداً منهم. ولكن... معذرة يا عزيزي، إنني أشرد شروداً غريباً. كنت أريد أن أقول إنني خفت عليك دائماً هنا، طوال هذا الوقت تقريباً. كنت أراك دائماً كواحد من أولئك الصغار الذين يشعرون بما يملكون من موهبة فيعتصمون بالعزلة. أنا أيضاً، مثلك، لم أحبَّ رفاقي في يوم من الأيام. ما أكبر شقاء هؤلاء الصغار الذين يُتركون لقواهم وحدها، ويُتركون لأحلامهم، وقد أوتوا ظمأ مشبوباً إلى الجمال، ظمأ سابقاً لأوانه، يكاد يكون مشبعاً بروح الانتقام، نعم، بروح «الانتقام». ولكن كفى يا عزيزي، لقد شردت مرةً أخرى. إنني حتى قبل أن يبدأ حبي لك، كنت أتخيلك أنت وأحلامك،

Twitter: @ketab_n

أحلام المعتزل المتوحش. ولكن كفى. لقد نسيت حقاً عمَّ كنت أريد أن أتكلم... على كل حال، هذا كله أيضاً كان يجب أن يقال. ماذا كان يمكنني أن أقول لك من قبل؟ الآن أرى نظرتك ترمقني، فأعرف أن «ابني» هو الذي ينظر إليَّ. وما كان لي بالأمس، بالأمس فقط، أن أصدِّق أنني سأجد نفسي في يوم من الأيام متحدثاً مع ابني كما أفعل اليوم.

كان يبدو ذاهلاً ذهولاً شديداً بالفعل، ولكنه كان يبدو في الوقت نفسه متأثراً تأثراً عميقاً.

قلت مسلماً له نفسي كلها:

ـ الآن لم أعد في حاجة إلى أن أحلم؛ الآن يكفيني أن تكون لي. لسوف أتبعك!

ـ تتبعني أنا؟ ولكن ترحالي قد انتهى، انتهى في هذا اليوم نفسه: لقد وصلت متأخراً يا عزيزي. اليوم ينتهي الفصل الأخير، وتسدل الستارة. طال هذا الفصل الأخير كثيراً. لقد بدأ منذ زمن بعيد، بدأ حين فررت إلى الخارج آخر مرة. تركت يومئذ كل شيء. واعلم أنني تركت يومئذ أمك، وأعلنت لها أنني تاركها. يجب أن تعلم هذا. قلت لها إنني راحل إلى الأبد، وأنها لن تراني بعدئذ قط. وأسوأ من ذلك أنني نسيت حتى أن أترك لها شيئاً من مال. وأنت أيضاً لم تخطر ببالي لحظة واحدة. رحلت منتوياً أن أبقى في أوروبا يا عزيزي، وألا أعود إلى البيت أبداً. هاجرت.

هتفت أقول عاجزاً عن ضبط نفسي:

ـ ذهبت إلى هرتسن؟ ذهبت لتكون داعية في الخارج؟ لا بد أنك ساهمت طيلة حياتك في مؤامرة من المؤامرات!

ـ لا يا صديقي، لم أشارك في أية مؤامرة. أرى عينيك

Twitter: @ketab_n

تلتمعان. أحب صيحاتك يا عزيزي. لا، لقد سافرت سأماً لا أكثر. سافرت في أعقاب ضجر تملّكني فجأة. هو ضجر سيدٍ روسي. لا أجد في تعريف هذا الضجر تعبيراً أنسب. ضجر سيد روسي لا أكثر.

جمجمت أقول لاهثاً:

ـ القناة... تحرير الأقنان؟

ـ لا، لا يا صديقي! أتظن أنني آسف على نظام القنانة؟ أتظن أنني لم أحتمل تحرير الأقنان؟ لا، لا يا صديقي. ثم إننا نحن الذين حررناهم. لقد هاجرت بدون أي حقد. كنت قبل قليل وسيط صلح، وقد بذلت جميع جهودي. اندفعت أعمل بإخلاص وتفانٍ. ولئن كوفئت على ليبراليّتي مكافأة سيئة، فإن هذا نفسه لم يكن سبب رحيلي. لا أحد منا كوفىء حينذاك، أقصد لا أحد من أمثالي. كانت العزة هي التي تدفعني إلى الرحيل، لا الندامة. هاجرت بلا غضب، بلا حقد، بلا حسرة. صدّق أنني لا أعتقد بأنه آن لي أن أختم حياتي حذاءً. «أنا سيد قبل كل شيء، وسوف أموت سيداً. لكن هذا لا ينفي أنني كنت حزيناً. لعل روسيا لا تزال تضم ألف رجل من نوعي. ألف رجل لا أكثر. ولكن هذا العدد يكفي حتى لا تموت الفكرة. نحن حملة الفكرة يا عزيزي. يا صديقي، إنني أكلمك وفي نفسي أمل غريب هو أنك ستفهم هذا الهراء المشوش الملتبس. لقد جئت بك إلى هنا لا انقياداً لنزوة في قلبي... إنني منذ مدة طويلة أحلم بأن أقول لك... نعم لك... لك أنت!... على كل حال، على كل حال...

هتفت أقول:

ـ بل تكلم، تكلم، إنني أقرأ في وجهك الصدق... ماذا عن

Twitter: @ketab_n

أوروبا؟ هل بعثتك أوروبا بعثاً جديداً!... وماذا كان ذلك الضجر، «ضجر السيد»؟ سامحني... إنني لمَّا أفهم بعد.

ـ تسألني هل بعثتني أوروبا بعثاً جديداً؟ فاعلم أنني إنما سافرت لأدفنها!

قلت مدهوشاً:

ـ لتدفنها؟

فابتسم. وقال:

ـ آركادي، صديقي، الآن نفسي رقَّت وفكري اضطرب. لن أنسى أبداً لحظاتي الأولى بأوروبا. كنت قد عشت في أوروبا من قبل، ولكن ذلك كان في عهد خاص، ولم أكن قد دخلت أوروبا قبلئذ بمثل ذلك الحزن... ولا بمثل ذلك الحب. سأصف لك واحداً من مشاعري الأولى حينذاك. هو حلم رأيته، حلم حقيقي.

«حدث ذلك وأنا لا أزال بألمانيا. كنت قد غادرت درسدن، ثم تجاوزت المحطة التي كان ينبغي أن أغيِّر فيها القطار، تجاوزتها سهواً وغفلة فسرت في غير الاتجاه الذي كنت أريد أن أسير فيه. فما إن وصلت إلى أول محطة تالية، حتى نزلت. كان الجو صحواً. هي مدينة ألمانية صغيرة. دلوني على فندق. كان يجب عليَّ أن أنتظر: إن القطار التالي يمر في الساعة الحادية عشرة من المساء. ولقد سررت بهذه المغامرة سروراً كبيراً، فلا شيء كان يستعجلني. الفندق صغير رديء، لكنه غارق في الخضرة وشرائط الأزهار، على عادة القوم هناك. أعطيت غرفة صغيرة. ولما كنت قد قضيت الليلة كلها في القطار، فسرعان ما نمت بعد الغداء، في نحو الساعة الرابعة من الأصيل.

«فحلمت حلماً غير مألوف البتة، ما رأيت مثله من قبل أبداً. إن

Twitter: @ketab_n

في متحف درسدن لوحة للرسام كلود لوران جُعل عنوانها في الكاتالوج «آسيس وجالاتي». أما أنا فقد سميت هذه اللوحة دائماً «العصر الذهبي»، لا أدري لماذا! لقد سبق أن رأيت هذه اللوحة. وقبل ثلاثة أيام لاحظتها مرةً أخرى عابراً.

«فهذه اللوحة هي ما رأيته في الحلم. لكنني لم أرها صورةً، بل رأيتها واقعاً. إنني لا أتذكر على وجه الدقة ما الذي رأيته في الحلم هذه الرؤية. ولكنني رأيت، كما في اللوحة، ركناً من الأرخبيل اليوناني منذ ثلاثة آلاف سنة: أمواجاً زرقاء هادئة، جزراً وصخوراً، شاطئاً مزهراً؛ وفي بعيد، منظراً كأنه السحر، شمساً غاربة تفتن النظر. يستحيل على المرء أن يصف هذا بألفاظ. إنها الإنسانية الأوروبية تتذكر مهدها: ملأت هذه الفكرة شعاب نفسي بحب كحب الابن أبويه. هذا هو الفردوس الأرضي للإنسانية: الآلهة تهبط من السماء لتؤاخي البشر... آه... ما كان أجملهم، أولئك البشر! كانوا يفيقون وينامون سعداء أبرياء. المروج والحراج الصغيرة تمتلىء بأغانيهم وصيحاتهم الجذلى. فيض من الطاقات البكر ينتشر حباً وفرحاً ساذجاً. الشمس تغمرهم بدفئها وضيائها، معجبةً بهؤلاء الأطفال الرائعين... إنه حلم أخاذ، طالما فتنت روعته الإنسانية عن نفسها وأزاغت بصرها! إن العصر الذهبي هو الحلم المستحيل الذي حلمه كل من وجدوا على هذه الأرض، ولكنه على استحالته رأينا بشراً يهبون له حياتهم كلها، وقواهم كلها، وفي سبيله مات أنبياء وقُتل أنبياء، وبدونه لا تريد الشعوب أن تعيش، ولا تريد حتى أن تموت! هذا الإحساس كله، قد عشته في ذلك الحلم. والصخور والبحر، وأشعة الشمس المائلة عند الغروب، ذلك كله بدا لي أنني لا أزال أراه حين

Twitter: @ketab_n

أفقت من نومي وفتحت عينيَّ المغرورقتين بالدموع. كنت سعيداً. أتذكر هذا. إن إحساساً بسعادة لم أشعر بمثلها من قبل، قد اختلج في قلبي حتى كاد أن يكون ألماً. كان ذلك حباً للإنسانية كلها.

«وكان المساء قد حل. ومن خلال خضرة الأزهار الموضوعة على النافذة، كانت حزمة من أشعة مائلة تلطم زجاج غرفتي الصغيرة فتغمرني بضيائها. ثم ماذا يا صديقي؟ إن تلك الشمس الغاربة في أول أيام الإنسانية الغربية، التي كنت أراها في الحلم قد استحالت في نظري فجأة منذ أن استيقظت شمساً غاربة في آخر أيام الإنسانية الأوروبية! فوق أوروبا كلها كانت تسمع حينئذ أصوات نواقيس جنازة. لست أعني الحرب وحريق التويلري فحسب. لقد كنت أعلم، بدون الحرب وبدون حريق التويلري، أن كل شيء سينقضي، عاجلاً أو آجلاً، وأن كل وجه العالم الأوروبي القديم سيندرس. ولكنني، أنا الأوروبي الروسي، كنت لا أستطيع أن أقبل هذا. نعم، كانوا قد حرقوا التويلري! لا، مهلاً، أنا أعرف أن هذا كان «منطقياً». وأنا أدرك تماماً ما كان للفكرة التي راجت آنئذ من قوة لا تقاوم. ولكنني، كممثل للفكر الروسي الرفيع، كنت لا أستطيع أن أقبل هذا، لأن الفكر الروسي الرفيع يصالح بين جميع الأفكار المتعارضة مصالحة عامة شاملة. ومن ذا الذي كان يمكنه حينذاك، في العالم بأسره، أن يفهم هذا الفكر؟ لقد كنت أطوف وحيداً. لست أتكلم عن نفسي، بل عن الفكر الروسي. هناك، كان الاقتتال والمنطق العنيد. هناك، كان الفرنسي ليس إلا فرنسياً، وكان الألماني ليس إلا ألمانياً، وذلك بعنفٍ لم يشهد تاريخهم كله عنفاً أقوى منه؛ أي إن الفرنسي ما أساء إلى فرنسا يوماً كما أساء إليها في هذه

Twitter: @ketab_n

الفترة، ولا الألماني أساء إلى ألمانيا يوماً كما أساء إليها في هذه الفترة! لم يكن في أوروبا كلها عندئذ أوروبي واحد! أنا وحدي بين جميع مشعلي الحرائق كنت أستطيع أن أقول لهم وجهاً لوجه إنَّ إقدامهم على إحراق التويلري خطأ؛ وأنا وحدي بين جميع المحافظين المنتقمين كنت أستطيع أن أقول لهم إنّ إحراق التويلري إن كان خطأ فهو منطقي. وذلك، يا عزيزي، لأنني، كروسي، كنت عندئذ، في أوروبا، «الأوروبي الوحيد». لست أتكلم عن نفسي، بل عن الفكر الروسي كله. كنت أضرب في الأرض يا صديقي، كنت أضرب في الأرض، ولا أعرف أنني لم يبق لي إلا أن أسكت وأن أضرب في الأرض... ولكنني كنت حزيناً رغم كل شيء. ذلك لأنني، يا ابني، لا أملك إلا أن أحترم نبالتي. تضحك، أليس كذلك؟

قلت بصوت متأثر:

ـ لا، لا أضحك. لا أضحك البتة. إنك برؤياك «العصر الذهبي» قد بثثت الاضطراب في قلبي؛ ثق كل الثقة أنني بدأت أفهمك. غير أن ما يسعدني أكثر من أي شيء آخر هو أنك تحترم نفسك هذا الاحترام كله. أسارع فأصارحك بذلك. ما كنت لأتوقع منك هذا أبداً!

ـ سبق أن قلت لك إنني أحب صيحات تعجبك يا عزيزي!

قال ذلك وابتسم لملاحظتي الساذجة مرةً أخرى، ثم نهض عن مقعده؛ وبدون أن يعي ما يفعل، أخذ يذرع الغرفة جيئةً وذهاباً. فنهضت أنا أيضاً. وتابع هو كلامه بلغته العجيبة الغريبة، الزاخرة بالفكر مع ذلك.

Twitter: @ketab_n

3

ـ نعم يا بني، أعود فأكرر لك أنني لا أملك إلا أن أحترم نبالتي. لقد نشأ عندنا، خلال القرون، نموذج حضاري أعلى لم يشاهد في أي مكان آخر في الكون، هو نموذج التألم للبشر كافة. هذا نموذج روسي. ولكن لما كان هذا النموذج إنما خلقه الجزء الأعلى ثقافة بين مجموع الشعب الروسي، فإنني أحمل شرف الانتماء إليه. إنه يحتوي مستقبل روسيا. إن عددنا لا يربو على ألف رجل، قد نكون أكثر من ذلك قليلاً وقد نكون أقل من ذلك قليلاً ولكن روسيا كلها إنما عاشت حتى الآن لتنجبنا. رب قائل يقول إن هذا العدد ضئيل جداً، وإنها لفضيحة أن تنفق روسيا قروناً طويلة وأن تضحي بملايين كثيرة من أبنائها في سبيل أن تنجب هذه الصفوة. أما أنا فأرى أن ذلك ليس قليلاً.

كنت أصغي إلى كلامه بجهد شاق، فأرى تعبيراً عن اقتناع تكوَّن خلال حياة بأسرها. إن كلامه هذا عن «الألف رجل» يكشف النقاب عن نفسه كلها. وقدَّرت أن انطلاقه هذا في مكاشفتي إنما مردُّه إلى صدمة خارجية، وأنه يقول لي هذا الكلام الحار كله حباً بي. ولكن السبب الذي من أجله أخذ يتكلم فجأة، والذي من أجله كان يريد أن يتحدث إليَّ، إليَّ أنا خاصةً، ظل مجهولاً عندي.

وتابع كلامه يقول:

ـ هاجرت غير آسف على شيء مما خلفت ورائي. كنت قد خدمت روسيا على أرضها بكل ما أملك من قوى. وحين سافرت ظللت أخدمها، لكنني وسعت فكرتي. هل كان يجب علي أن أبقى روسيا ضيّقاً، مثلما كان كل فرنسي فرنسياً، وكل ألماني ألمانياً؟

Twitter: @ketab_n

في أوروبا لن يفهموا هذا الكلام. إن أوروبا قد خلقت النماذج النبيلة للفرنسي والإنجليزي والألماني. أما إنسانها في المستقبل فإنها لا تزال تجهل عنه كل شيء تقريباً. وأظن أنها لا تريد أن تعرف عنه شيئاً حتى الآن. وذلك أمر يمكن فهمه: إنهم ليسوا أحراراً، أما نحن فأحرار. أنا وحدي في أوروبا، مع ضجري الروسي، كنت حراً.

لاحظ يا صديقي هذا الشيء الغريب: إن كل فرنسي يستطيع أن يخدم الإنسانية مع بلده فرنسا، ولكن بشرط أن يبقى فرنسياً خاصة. ويصدق هذا على الإنجليزي وعلى الألماني. والروسي وحده، حتى في عصرنا هذا، أي قبل أن تتحقق له صورته النهائية، قد وهب له أن يكون روسياً أكثر لأنه أوتي القدرة على أن يكون أوروبياً أكثر. هذا هو الفارق القومي الأساسي الذي يميزنا عن سائر الناس، فنحن من هذه الناحية لا يشبهنا أحد. أنا في فرنسا فرنسي، ومع الألماني ألماني، ويوناني مع يوناني العصر القديم، وأنا بهذا نفسه روسي دائماً إلى الحد الأقصى. أنا بهذا نفسه روسي حقاً، أقدم لروسيا أكبر قدر من الخدمات، لأنني أجسِّد فكرها الأساسي. أنا رائد هذا الفكر. لقد هاجرت، ولكن هل تركت روسيا؟ لا، لم أتركها. ظللت أخدمها. وهبني لم أعمل شيئاً في أوروبا، هبني لم أذهب إليها إلا لأتجول وأترحل وأضرب في الأرض (ولقد كنت أعرف أنني لا أرحل إليها إلا لهذا الغرض) فحسبي هذا لأذهب إليها مع فكري وضميري. لقد نقلت إلى أوروبا سأمي الروسي. لا، ليس الدم الذي كان يسيل حينئذ هو الذي روَّعني، حتى ولا إحراق التويلري، بل ما كان لا بد أن يتبع ذلك. كان محكوماً عليهم أن يظلوا يقتتلون زمناً طويلاً أيضاً، لأنهم لا يزالون ألماناً

Twitter: @ketab_n

وفرنسيين أكثر مما يجب، ولأنهم لم ينتهوا من عملهم في تمثيل هذا الدور. كنت حتى ذلك الحين أشعر بحسرة لما يقع من دمار. إن أوروبا عزيزة على الروسي كروسيا سواء بسواء، كل حجر في أوروبا حبيب إلى قلب الروسي. كانت أوروبا للروسي وطناً كروسيا، بل كانت له وطناً أكثر من روسيا. يستحيل أن يحب أحد روسيا كما أحبها، ولكنني لم ألم نفسي في يوم من الأيام على أنني وجدت البندقية وباريس وروما وما فيها من كنوز العلم والفن وما لها من تاريخ، أحبَّ إليَّ من روسيا. آه... إن قلوب الروس تحمل حباً كبيراً لتلك الحجارة الأجنبية، لتلك الروائع التي تنتمي إلى العالم القديم، تلك البقايا من المعجزات المقدسة. بل إن هذا كله أعزَّ على نفوسنا منه على نفوسهم! إن لهم الآن أفكاراً أخرى وعواطف أخرى، لقد كفوا عن تقدير تلك الحجارة القديمة!... هناك لا يكافح المحافظ إلا في سبيل البقاء. ومشعل الحرائق لا يعمل إلا ليطالب بحقه في قطعة خبز. روسيا وحدها لا تحيا من أجل نفسها، بل من أجل الفكر. اعترفْ يا صديقي بهذه الحقيقة الواضحة: أن روسيا منذ قرابة قرن لا تحيا من أجل نفسها بل من أجل أوروبا فقط! أما هم، فقد نُذروا لآلام رهيبة قبل أن يصلوا إلى ملكوت الرب.

كنت أصغي إليه مضطرباً أشد الاضطراب. أعترف بذلك. حتى لهجة كلامه كانت تروِّعني، رغم أنني لم أملك إلا أن أفاجأ بأفكاره. وكان يخيفني إخافةً رهيبة أن يكون فيما يقول كاذباً. فرأيتني ألقي عليه هذا السؤال فجأة بلهجة قاسية:

ـ قلت «ملكوت الرب». وقد علمت أنك عملت هنالك داعيةً ومبشراً، وأنك كنت تثقل جسمك بأصفاد. هل هذا صحيح؟

Twitter: @ketab_n

فابتسم وقال:

ـ دعك من أصفادي. تلك مسألة أخرى. في ذلك العهد لم أكن أبشِّر بشيء بعد. ولكنني كنت أتوق إلى الههم. هذا صحيح. كانوا قد نادوا بالإلحاد... نادى به نفر منهم، نادت به طليعة منهم، ولكن ذلك كان الخطوة الأولى نحو «التنفيذ»، وهذا هو الأمر الخطير. كان سلاحهم المنطق دائماً. وحيث يكون المنطق يكون الضجر. كنت أنا أنتمي إلى حضارة أخرى، فكان قلبي يرفض هذا. كان ذلك العقوق في انفصالهم عن فكرة، وكانت تلك الأصوات التي تنطلق من الصفارات، وكان ذلك التلويث والتلطيخ بالوحل، كان ذلك كله أموراً لا أطيق احتمالها. كانت أساليب الإسكافيين هذه ترعبني. صحيح أن الواقع تفوح منه دائماً رائحة النعال، حتى حين يصبو المرء إلى المثل الأعلى صبوة لألاءة. ولقد كان علي أن أعرف ذلك. لكنني كنت طرازاً آخر من البشر: كنت حراً في اختياري، ولم يكونوا هم أحراراً. فكنت أبكي، أبكي عليهم، أبكي على الفكرة القديمة. ولعلني بدموع صادقة إنما كنت أبكي، من غير كلام مزوَّق.

سألته غير مصدق:

ـ هل كنت تؤمن بالله هذا الإيمان القوي حقاً؟

ـ يا صديقي، هذا سؤال لعله نافل. هب أني لم أكن أؤمن هذا الإيمان القوي. ذلك لا ينفي أنني كنت لا أملك إلا أن أتحسر على فكرة وأن أحنَّ إليها. كنت في بعض اللحظات لا أفلح في أن أتصور كيف يستطيع الإنسان أن يحيا بدون إله، ولا أن أتصور هل يصبح هذا ممكناً في يوم من الأيام. كان قلبي يجيب دائماً بأن هذا مستحيل. قد يحدث هذا في عهد من العهود إلى حين. وإني لأشك

Twitter: @ketab_n

في أن يأتي هذا العهد. ولكنني كنت أتخيل عندئذ لوحة أخرى مختلفة كل الاختلاف...

ـ ما هي؟

لقد سبق أن صرَّح لي طبعاً بأنه كان سعيداً. وواضح أن أقواله كانت تشتمل على حماسة كبيرة. ولقد أخذت أنا أكثر كلامه هذا المأخذ، ونظرت إليه بهذا المنظار. وإني لما أحمله لهذا الرجل من احترام، لن أضع على الورق كل ما تبادلناه من حديث حينذاك. غير أن خطوطاً معينة من اللوحة الغريبة التي حملته على أن يرسمها لي ينبغي أن تذكر هنا. ولقد كانت مسألة «الأصفاد» خاصةً هي التي تشغل بالي وتعذبني، فكنت أريد أن تتضح لي، فلذلك ألححت. أن أفكاراً تبلغ غاية الغرابة والعجب مما قاله في ذلك اليوم قد بقيت منقوشة في قلبي إلى الأبد.

بدأ يتكلم وهو يبتسم ابتسامةً يمازجها تفكير، فقال:

ـ إليك اللوحة التي أتخيلها يا عزيزي. أتخيل أن القتال انتهى، وأن الصراع هدأ. فبعد التلاعن والتقاذف بالوحل وتبادل التصفير، عمَّ الهدوء، وبقي البشر «وحيدين» كما كانوا يريدون: هجرتهم الفكرة الكبيرة التي كانت تعيش معهم، وغاب ينبوع الطاقة الذي كان إلى ذلك الحين يغذيهم ويمدهم بالحرارة، كتلك الشمس الرائعة الآسرة التي نراها في لوحة كلود لوران. ولكن هذا يكون الآن آخر أيام الإنسانية. فإذا بالبشر يدركون أنهم أصبحوا وحيدين تماماً، ويحسون فجأة أنهم مهجورون هجر اليتامى. يا صغيري العزيز، إنني لم أستطع في يوم من الأيام أن أتخيل البشر عقوقين أغبياء. فلما صاروا يتامى أسرعوا يتقاربون ويتلاصقون بمزيد من القوة ومزيد من العاطفة والمحبة. وأمسك بعضهم بأيدي بعض،

Twitter: @ketab_n

لأنهم أدركوا أنهم بعد الآن ليس لبعضهم أحد غير بعضهم الآخر. إن فكرة الخلود العظيمة تكون قد زالت، فلا بد أن يعتاضوا عنها بغيرها. فإذا بذلك الفيض من الحب الذي كانوا يحملونه لمن هو الخلود، يتحول الآن إلى الطبيعة، إلى العالم، إلى البشر، إلى كل عشبة. سوف يؤخذون عندئذ بالأرض وبالحياة، وسوف يحبونها حباً لا سبيل إلى مقاومته، على قدر شعورهم شيئاً فشيئاً بأن حياتهم عرض زائل، وبأن زمنها محدود، وسوف يكون حبهم حباً خاصاً ليس هو الحب الذي كانوا يحسونه من قبل. سوف يلاحظون في الحياة ويكتشفون فيها ظاهرات وأسراراً لم تخطر لهم إلى ذلك الحين على بال، لأنهم سينظرون إليها بعين جديدة، سينظرون إليها نظرة الحبيب إلى حبيبته. سوف يستيقظون فيسارع بعضهم إلى بعض يتعانقون، ويتحابون، لعلمهم بأن أيامهم زائلة، وأن ذلك هو كل ما بقي لهم. سيعمل بعضهم في سبيل بعض، وسيعطي كلٌّ منهم شيئاً لكل الناس، فيكون بذلك سعيداً. سيعلم كل طفل وسيحس أن كل إنسان على هذه الأرض هو له أب وأم. سيقول كل واحد لنفسه حين ينظر إلى غروب الشمس: «ليكن الغد آخر أيامي. سأموت. ولكن لا ضير: لأنهم سيبقون هم جميعاً، وبعدهم سيبقى أولادهم». وهذه الفكرة، فكرة أنهم سيبقون وسيظلون متحابين متعاطفين يخاف بعضهم على بعض، ستحل محل فكرة اللقاء بعد الموت. لشد ما سيسارعون إلى التحاب، من أجل أن يخنقوا الحزن الكبير الذي في قلوبهم. سيكونون متكبرين جريئين على أنفسهم، ولكنهم سيكونون خجلين وجلين أمام الآخرين. سيخاف كل واحد على سعادة وحياة كل واحد آخر. سيحن بعضهم على بعض. ولن يشعروا بما يشعرون به اليوم من خجل وخزي.

Twitter: @ketab_n

سيداعب بعضهم بعضاً كأطفال. وحين يلتقون سيتبادلون نظرات عميقة زاخرة بالذكاء، وسيكون في نظراتهم حب وأسى.

وقطع كلامه مبتسماً على حين فجأة ثم أضاف:

ـ يا عزيزي، ليس هذا كله إلا خيالاً، بل هو خيال لا يمكن أن يتحقق في الواقع. لكنني كثيراً ما تخيلت هذه الصور، لأنني لم أستطع في يوم من الأيام أن أحيا بدونها، ولا أن أمتنع عن التفكير فيها. ولست أتكلم عن إيماني، فإيماني ليس كبيراً. أنا رجل يؤمن بوجود الله، ولكنه لا يؤمن بالدين؛ رجل يؤمن بوجود الله إيمان فلاسفة، كسائر أولئك الألف من الرجال، أو هذا ما أفترضه. ولكن... ولكن الشيء الذي يلفت النظر هو أنني كنت أنهي لوحتي دائماً برؤيا «المسيح على بحر البلطيق»، كما نرى ذلك عند الشاعر هايني. إنني لم أستطع إلا أن أراه أخيراً بين البشر الذين أصبحوا يتامى. يجيء إليهم، ويمد لهم ذراعيه، ويقول: «كيف نسيتموني؟». فإذا بنوع من حجاب يسقط عن جميع الأبصار، وإذا بنشيد حماسي هو نشيد الانبعاث الجديد الأخير، يأخذ يترجع مدوياً.

«دعنا من هذا يا صديقي؛ أما عن «أصفادي»، فتلك سخافة. لا يشغلن أمرها بالك. هناك شيء آخر: أنت تعرف أن لساني خجول ومقتضب. فلئن استرسلت اليوم في الكلام، فذلك... بسبب عواطف مختلفة، وبسبب أنني معك. لغيرك لن أقول شيئاً أبداً. أضيف هذا لأطمئنك.

كنت متأثراً منفعلاً. إن الكذب الذي كنت أخشاه لا وجود له. ولقد أسعدني خاصةً أن أرى رؤية واضحةً بعد الآن أنه كان يعاني من ضجر حقاً، وأنه كان يتألم ويتعذب، وأنه قد أحب كثيراً بدون شك: وهذا ما أثر في نفسي أكثر من أي شيء آخر. وقد أعلنت له

Twitter: @ketab_n

ذلك بحماسة. ثم أضفت أسأله فجأة:

ـ ولكن يبدو لي أنك رغم كل ضجرك، كنت سعيداً أقصى السعادة في ذلك الأوان، أليس هذا صحيحاً؟

فقال:

ـ إنك اليوم مصيب في ملاحظاتك. نعم. كنت سعيداً. وهل كان يمكن أن أكون شقياً وأنا في مثل ذلك الضجر؟ ليس أحد أكثر حرية ولا أعظم سعادة من المترحل الروسي الأوروبي الذي ينتمي إلى أولئك الألف من الأفراد. أقول لك هذا بدون أن أضحك، وفي كلامي كثير من الجد. نعم، ما كنت لأبيع ضجري بأية سعادة. يا عزيزي. ومن السعادة أنني أحببت حينئذ أمك أول حب في حياتي. نعم، فيما كنت أضرب في الأرض وأعاني الضجر، أحببتها فجأة كما لم أحب من قبل، وسرعان ما أرسلت أستدعيها.

قلت:

ـ آ... أقصص عليَّ هذا... كلمني عن ماما.

ثم أضاف يقول وهو يبتسم فرحاً:

ـ وقد خشيت أن تعفيني من هذا الحديث مستعيضاً عنه بالكلام عن هرتسن أو عن مؤامرة ما...

ـ ما جئت بك إلى هنا إلا لأحدثك عن هذا.

Twitter: @ketab_n

الفصل الثامن

1

قضينا في الحديث كل المساء وشطراً من الليل، فلن أروي كل ما قيل، بل أكتفي بما أوضح لي في النهاية نقطة من حياته كانت عندي لغزاً.

وأبدأ بما يلي: ليس يخامرني أي شك في أنه أحب ماما، فإذا هجرها وانفصل عنها حين سافر إلى الخارج، فلأنه كان مرهقاً بالضجر، أو لسبب آخر من هذا القبيل، وذلك أمر يحدث لجميع الناس في هذه الحياة الدنيا ويصعب دائماً تعليله. ثم إنه في الخارج، بعد انقضاء زمن غير قصير، قد عاوده حب ماما فجأةً، من بعيد، بالفكر، فأرسل يستدعيها. رب قائل يقول: «هذه نزوة». ولكنني أقول غير ذلك، ففي رأيي إن ما فعله كان فيه أكبر الجد رغم ما تتصف به طبيعته من تناقضات أسلّم بوجودها. ولكنني أحلف أن ضجره الأوروبي أمر لا شك فيه، وأنه يساوي بل يفوق كثيراً أي شكل من أشكال النشاط العملي في هذا الزمان، كإنشاء سكك حديدية مثلاً. وأنا أرى في حبه للإنسانية عاطفة صادقة كل الصدق، عميقة كل العمق، بريئة من كل كذب أو تزييف. وأرى في حبه لماما أمراً لا يمكن الجدال فيه إطلاقاً، وإن كان جائزاً أنه يشتمل على شيء من غرابة. إنه في الخارج، بينما هو في «ضجر

Twitter: @ketab_n

وسعادة»، وبينما هو في عزلة كعزلة النسَّاك (أضيف هذه الواقعة الخاصة التي أمدتني بها تاتيانا بافلوفنا فيما بعد)، تذكَّرَ ماما على حين فجأة، وتذكَّرَ خديها الخاسفتين خاصة، فأسرع يستدعيها فوراً.

قال لي (وقد أفلتت منه هذه الجملة كما أفلت غيرها):

ـ يا صديقي، لقد أحسست فجأة أن خدمة الفكرة لا تعفيني أبداً، كإنسان أخلاقي وعاقل، من أن أسعد في أثناء حياتي إنساناً واحداً على الأقل، إسعاداً عملياً.

فسألته متحيراً:

ـ أتكون فكرة مستمدة من الكتب، كهذه الفكرة، هي التي جعلتك تعزم أمرك؟

ـ ليست هذه فكرة مستمدة من الكتب. وقد تكون كذلك فعلاً. إن الأشياء يختلط بعضها ببعض. ولكنني كنت أحب أمك فعلاً، كنت أحبها حباً صادقاً، حباً لا شأن له بالكتب البتة. ولولا أنني كنت أحبها هذا الحب لما استدعيتها، بل عمدت إلى إسعاد أول ألماني ألقاه أو أول ألمانية ألقاها بعد اهتدائي إلى تلك الفكرة. أما عن ضرورة إسعاد إنسان واحد على الأقل أثناء الحياة إسعاداً عملياً، أي إسعاداً فعلياً، فهذه فكرة أنصبها قاعدةً يؤمر بالتزامها كل إنسان مثقف، تماماً كما يمكن أن يوضع قانون يأمر كل فلاح بأن يغرس شجرة واحدة على الأقل أثناء حياته، لأن الأشجار يقل عددها في روسيا الآن. بل إن شجرة واحدة لا تكفي. فيمكن أن يؤمر الفلاح بأن يغرس شجرة في كل سنة. إن الإنسان المتفوق المثقف الذي يسعى وراء فكرة عليا يدير ظهره للحياة اليومية أحياناً، فيصبح سخيفاً مضحكاً، ويصبح صاحب نزوات، ويصبح بارداً، بل أقول بصراحة أنه يصبح غبياً، في الحياة العملية طبعاً،

Twitter: @ketab_n

بل يصبح آخر الأمر غبياً حتى في نظرياته. وهكذا يكون من شأن الاهتمام بالحياة العملية، وإسعاد إنسان واقعي واحد على الأقل إسعاداً واقعياً، أن يشفي وأن يجدد نضارة الشخص الذي يحسن هذا الإحسان. قد يكون هذا الرأي سخيفاً من حيث هو نظرية، لكنه متى طُبِّق وأصبح عادة مستحكمة، لا يكون رأياً غبياً إلى الحد الذي قد يتوهمه المرء... لقد جربت هذا بنفسي: فإنني منذ أخذت أتصور نتائج هذا الرأي ـ على سبيل التسلية في أول الأمر، طبعاً ـ بدأت أدرك مدى الحب الذي يحمله قلبي لأمك... ولم أكن قد أدركت أبداً، حتى ذلك الحين، أنني كنت أحبها. حين كنت أعيش معها، كنت أتمتع بها في إبان جمالها، ثم تستبد بي النزوات. ولم أدرك أنني أحبها إلا في ألمانيا. بدأ ذلك بخديها الخاسفين اللذين كنت لا أستطيع أبداً أن أتصورها إلا وأراهما، حتى لأشعر بألم يصهر قلبي، ألم حقيقي، ألم جسمي. هناك يا عزيزي ذكريات أليمة تحدث وجعاً واقعياً. إن جميع الناس أو أكثر الناس يحملون ذكريات كهذه الذكريات، ولكنهم ينسونها، ثم يتفق للمرء أن يتذكر بعد ذلك قسمة من قسمات الوجه أحياناً، فإذا هو ينشَدّ إليها ولا يستطيع منها فكاكاً. أخذت أتذكر ألف أمر من تفاصيل حياتي مع صوفيا. وأصبحت هذه التفاصيل توافيني أخيراً من تلقاء نفسها، وتحاصرني جمهرة غفيرة. وكادت هذه الذكريات أن تقتلني عذاباً بينما كنت أنتظر وصولها. غير أن الشيء الذي كان يعذبني خاصة إنما هو ذكرى مذلتها الأبدية لي، واعتقادها بأنها أدنى مني كثيراً في كل أمر من الأمور، وأنني أفوقها كثيراً حتى في الجسم! تصور! كانت تشعر بخجل شديد ويتخضب وجهها بحمرة قانية حين كنت أنظر أحياناً إلى يديها وأصابعها التي لم يكن فيها شيء من

Twitter: @ketab_n

أرستقراطية. بل إنها لم تكن تخجل من أصابعها وحدها بل من جسمها كله، رغم أنني أحببت جماله. كانت تشعر معي بحياء دائم يبلغ حد التوحش. وأسوأ ما في الأمر أن هذا الحياء كان يمازجه نوع من ذعر لا ينقطع. الخلاصة أنها كانت تعدُّ نفسها بالقياس إليَّ شيئاً لا وجود له، أو شيئاً يكاد يكون غير لائق. وكنت في البداية أظن أنها لا تزال ترى فيَّ سيدها، وأنها كانت تهابني وتخشاني. ولكن الأمر لم يكن كذلك. وإني لأحلف لك مع ذلك أنها كانت أقدر من أي إنسان على معرفة عيوبي ونقائصي، وأنني ما رأيت في حياتي امرأةً لها مثل قلبها رهافة ونفاذ إدراك. لشد ما كانت تشعر بالشقاء حين كنت أضطرها في البداية، أيام كانت لا تزال جميلة جمالاً فاتناً، أن تتزين. كان ذلك منها يشتمل على عزة وعلى شعور آخر سريع التأذي: كانت تدرك أنها لن تصبح بالتزين سيدة، وأنها لن تكون بلباس أجنبي إلا مضحكة. وهي لا تريد أن يكون لباسها مضحكاً، وتدرك أن لكل امرأة ثياباً تناسبها، وذلك أمر ستظل تعجز عن فهمه ألوف بل مئات الألوف من النساء اللواتي يرضيهن أن تكون ثيابهن على الموضة وكفى! كانت تخاف من نظرة ساخرة قد ألقيها عليها. وما أشد الألم الذي كنت أشعر به حين أتذكر عينيها المدهوشتين اللتين كثيراً ما فاجأتهما محدقتين إليَّ أثناء حياتنا المشتركة: لقد كنت أحس أنها تدرك مصيرها إدراكاً كاملاً، وتعرف المستقبل الذي ينتظرها، حتى لقد كان ذلك يحزنني، وإن لم أكلمها في هذا الأمر، وإنما ظللت أترفع عن الخوض في حديث عنه. ولكن هل تعلم؟ إنها لم تكن في جميع الأحيان خائفة متوحشة كما هي الآن. وهي حتى هذا اليوم لا يزال يتفق لها أن تفرح فجأةً وأن تتزين كما تفعل امرأة في العشرين من عمرها.

Twitter: @ketab_n

لكنها في ذلك الوقت، إبان صباها، كانت تعشق الثرثرة والضحك أحياناً، في بيئتها طبعاً، مع الخادمات مثلاً. ولشد ما كانت ترتجف إذا أنا باغتها ضاحكة على حين فجأة، وسرعان ما كانت تحمر عندئذ وتشخص إليَّ ببصرها خائفة! في ذات يوم لا يسبق رحيلي إلى الخارج بمدة طويلة، بل هو تقريباً عشية انفصالي عنها، دخلت إلى غرفتها فوجدتها وحيدة بلا شغل، قد وضعت كوعيها على المائدة واسترسلت في تأمل عميق. لم يسبق لها أن بقيت من قبل عاطلة عن العمل في أي يوم من الأيام تقريباً. وكنت في ذلك الأوان قد انقطعت عن ملاطفتها منذ مدة طويلة. فاستطعت أن أقترب منها برفق ماشياً على رؤوس الأصابع، فأمسكتها فجأة وقبّلتها. انتفضت: لن أنسى في حياتي ما ارتسم على وجهها عندئذ من آيات الافتتان والسعادة. ولكن ذلك لم يلبث أن حل محله احمرار سريع، وقدحت عيناها شرراً. هل تعلم ماذا قرأت في ذلك الشرر؟ «إنك تعطيني صدقة!» وانفجرت تبكي كمن أصابتها نوبة هستريا، زاعمةً أنني روَّعتها. ووقفت أنا واجماً أفكر. إن هذه الذكريات شاقة على النفس يا صديقي. هذا ما نجده لدى كبار الفنانين: إن قصائدهم تصور في بعض الأحيان مشاهد «أليمة» تظل تقبض صدرك طول حياتك كلما تذكرتها. من ذلك مناجاة «عطيل» الأخيرة، ومشهد «أوجين» على قدمي تاتيانا، ولقاء السجين الهارب والطفلة الصغيرة في «بؤساء» فكتور هوجو. إن هذه المشاهد تطعن قلبك مرةً، ثم يبقى الجرح نازفاً إلى الأبد. آه... ما كان أشد نفاد صبري وأنا أنتظر وصول صوفيا، ولم كنت أود أن أقبّلها في أقرب وقت؟ لقد أخذت أضع برنامجاً كاملاً لحياة جديدة. أخذت أفكر في الوسائل التي سأعمد إليها لأزيل من نفسها، شيئاً بعد شيء،

Twitter: @ketab_n

بجهد متصل منظم، خوفها الدائم مني، ولأفهمها قيمتها الكبيرة، ولأجعلها تدرك أنها تفوقني كثيراً. آه... لقد كنت أعلم، حتى منذ ذلك الحين، أنني أحب أمك متى انفصلت عنها، فإذا اجتمعنا من جديد، فتر حبي وبرد. ولكن شيئاً آخر حدث حينذاك.

كنت مدهوشاً. وهذا سؤال يبرق في ذهني: ماذا عنها «هي»؟ وسألته في حذر.

ـ وكيف تم اللقاء؟

ـ في ذلك الوقت؟ لم يتم لقاء. وصلتُ إلى مدينة كونجسبرج بعد عناء شديد، وبقيت بها، وكنت أنا على نهر الراين. لم أذهب إليها، بل أرسلت آمرها بأن تبقى حيث هي. التقينا بعد ذلك بمدة طويلة... مدة طويلة جداً... حين ذهبت أستأذنها في أن أتزوج.

2

لن أذكر هنا إلا الأشياء الأساسية، أي ما استطعت أن أحفظه. زد على ذلك أنه قد أخذ يتكلم بدون تسلسل ولا ترابط، وتضاعف تفكك أقواله وتشوشها واضطرابها عشر مرات منذ بلغ من حديثه هذا الموضع.

لقد لقي كاترينا نيقولايفنا مصادفةً، حينما كان ينتظر ماما، بل حينما كان نفاد صبره أثناء هذا الانتظار قد بلغ قمته. كانوا يومئذ جميعاً على نهر الراين، يقضون موسم المياه المعدنية. وكان زوج كاترينا إيفانوفنا يحتضر تقريباً، أو قل على الأقل كان الأطباء يائسين منه فهو بحكم المحتضر.

خطفت كاترينا إيفانوفنا بصر أبي منذ أول لقاء، حتى لكأنها رمته بسحر. كان ذلك قدراً محتوماً. لاحظوا أنني، وأنا أسجل وأتذكر

Twitter: @ketab_n

الآن هذا كله، لا أذكر أن فرسيلوف استعمل في حديثه كلمة «الحب» مرة واحدة، ولا قال أنه «شغف»، وإنما استعمل كلمة «القدر»، فحفظت هذه الكلمة.

ولقد كان الأمر قدراً بالفعل. إنه «لم يرد» ذلك، لم يرد أن يحب. لا أدري هل أقدر أن أعبِّر عن هذا تعبيراً واضحاً. المهم أنه كان مستاءً بكل نفسه من أن هذا الأمر قد أمكن أن يقع له. إن كل ما كان يملكه من حرية قد زال دفعة واحدة حين كان ذلك اللقاء، ووجد الرجل نفسه مشدوداً حتى الأبد إلى امرأة ليس بينه وبينها شيء مشترك. إنه لم يرغب في أن يستعبده الهوى هذا الاستعباد. يجب أن أقول اليوم بصراحة: إن كاترينا نيقولايفنا نموذج نادر في نساء المجتمع الراقي، نموذج لعل المرء لا يقع عليه في تلك البيئات. هي نموذج امرأة بسيطة صريحة إلى أقصى حدود البساطة والصراحة. ولقد سمعت، بل علمت من مصدر موثوق به، أن هذا بعينه هو ما يجعلها كاسحة لا سبيل إلى مقاومتها حين تظهر في المجتمع (وكانت في كثير من الأحيان تبتعد عن المجتمع ابتعاداً تاماً). وكان فرسيلوف، أثناء ذلك اللقاء الأول، لا يظن أن لها هذه المزايا، حتى لقد ظن نقيض ذلك، أي اعتقد أنها امرأة متصنعة منافقة. وسأستبق الأمور فأذكر هنا ما كان من رأيها هي فيه. لقد قالت إن رجلاً مثالياً لا يمكن أن يحكم عليها غير هذا الحكم، لأن المثالي حين يصطدم بالواقع يكون محمولاً أكثر من سائر الناس على افتراض جميع أنواع العيوب». لا أدري هل يصدق هذا الرأي على المثاليين عامةً، ولكنني أعرف أنه يصدق عليه. وأحب أن أضيف هنا رأيي أنا، وهو رأي تكوَّن في ذهني بينما كنت أصغي إليه: لقد قلت لنفسي إنه كان يحب ماما

Twitter: @ketab_n

حباً إنسانياً شاملاً إن صح التعبير، لا ذلك الحب العادي الذي يشتعل في نفس المرء حين يحب امرأة، وأنه منذ أول اتصال له بامرأة أحبها ذلك الحب العادي، قد أسرع ينبذ ذلك الحب ويرفضه، بسبب عدم التعود في أغلب الظن. على أن هذه الفكرة ربما كانت خطأ. وأنا لم أعبِّر له عنها على كل حال. ولو فعلت ذلك لما كنت لبقاً. لا سيما وأنه كان في حالة توجب على المرء أن يداريه. لقد كان مضطرباً اضطراباً رهيباً. حتى إنه في بعض المواضع من حديثه كان ينقطع عن الكلام على حين فجأة أحياناً، ويبقى صامتاً عدة دقائق وهو يذرع أرض الغرفة منقلب السحنة. . .

ولم تلبث كاترينا نيقولايفنا إن نفذت إلى سره، ولعلها تغنجت له: إنَّ الأنثى لا تتنازل عن القيام بدورها، حتى أطهر النساء. هذه عندهن غريزة لا يستطعن مقاومتها. ثم انتهى كل شيء بقطيعة عنيفة، بل أظن أنه أراد أن يقتلها. لقد أخافها، ولعله كان يمكن أن يقتلها. «لكن ذلك كله استحال فجأة إلى كره». ثم جاءت مرحلة أخرى عجيبة. لقد تملكته فكرة غريبة على حين فجأة: أن يعذِّب نفسه باتباع رياضة نفسية قاسية هي «تلك الرياضة نفسها التي يستعملها الرهبان. فباتباع هذه الرياضة اتباعاً تدريجياً منظماً مطرداً تتوصل إلى التغلب على إرادتك، بادئاً بأتفه الأشياء وأيسرها، منتهياً بتحقيق انتصار كامل على إرادتك، فتصبح حراً». وأضاف إن هذه الرياضة التي يتبعها الرهبان بالتقشف وتعذيب النفس ليست لعباً، بل هي علم نشأ من تجربة دامت ألف سنة. على أن أهم ما في الأمر هو أن فكرة «ترويض» النفس هذه لم تنشأ في ذهنه عن رغبة في التحرّر من كاترينا نيقولايفنا، بل عن اقتناع كامل بأنه لا يحب كاترينا نيقولايفنا وإنما هو يكرهها. وقد بلغ من قوة الاعتقاد

Twitter: @ketab_n

بهذا الكره أنه زُيِّن له فجأة أن يحب ابنة زوجها، التي أغواها الأمير وتركها، وأن يتزوجها، وأنه آمن هو نفسه بهذا الحب الجديد، واجتذب إليه حبَّ تلك البلهاء المسكينة التي هيأ لها هذا الحب في الأشهر الأخيرة من حياتها سعادة كاملة. لماذا لم يتذكر ماما التي كانت لا تزال تنتظره بمدينة كونجسبرج، بدلاً من تلك الفتاة البلهاء؟ ذلك سؤال يظل عندي بلا جواب!... لقد نسي ماما نسياناً مباغتاً تاماً، حتى لقد انقطع عن إرسال شيء من المال إليها لتعيش، فاضطرت أن تستنجد بتاتيانا بافلوفنا التي أغاثتها وكفلت لها الخلاص. ولكنه ذهب إلى ماما فجأة ليطلب منها «إذناً للزواج من تلك الفتاة»، متعللاً بأن «خطيبةً كهذه ليست امرأة». قد تكون هذه الصورة كلها صورة رجل «مستمد من الكتب» كما وصفته بذلك كاترينا نيقولايفنا فيما بعد، ولكن لماذا يكون هؤلاء «الرجال المستمدون من الكتب» (إذا صح أنهم كذلك) قادرين على أن يعذبوا أنفسهم حقاً رغم كل شيء، وأن يصلوا إلى مآسي كهذه المآسي؟ على أنني في ذلك المساء قد فكرت في الأمر تفكيراً يختلف عن هذا قليلاً، وبرقت في ذهني فكرة أخرى:

ـ إن ثقافتك ونفسك كلها قد كلفتاك عذاباً ومعارك ظللت تخوضها طوال حياتك، أما هي فقد تلقت الكمال مجاناً. وهذا ليس من المساواة في شيء. ذلك ما يثير الحنق في المرأة.

قلت له هذا لا لأرضيه، وإنما قلته بحرارة وحتى باستياء. فقال مدهوشاً من كلماتي:

ـ الكمال؟ كمالها؟ ألا إنها محرومة من أي كمال! إنها امرأة عادية جداً. امرأة لا قيمة لها بتاتاً... ولكنها مضطرة أن تحصّل كل أنواع الكمال.

Twitter: @ketab_n

قلت:

ـ لماذا مضطرة؟

فصاح غاضباً:

ـ لأنها تملك قوةً كهذه القوة، فهي مضطرة أن تحصّل كل أنواع الكمال.

ـ الأمر المحزن أنك معذَّب حتى الآن.

أفلتت مني هذه الجملة بغير إرادة. فوقف أمامي متحيراً، وقال مردداً:

ـ حتى الآن؟ معذَّب؟

وأضاءت وجهه على حين فجأة ابتسامة هادئة طويلة واجمة، ورفع أصبعه كمن قرر أمراً. حتى إذا ثاب إلى نفسه تماماً تناول من على المائدة رسالة مفضوضة ورماها أمامي قائلاً:

ـ خذ! اقرأ! يجب أن تعرف كل شيء على الإطلاق... لماذا تركتني أنبش هذه الحماقات كلها طول هذه المدة؟ إن هذا لا يزيد على أن يعذّب قلبي!...

لن أستطيع أن أعبِّر عما اعتراني من دهشة! لقد وصلته هذه الرسالة منها «هي»، في هذا اليوم نفسه، الساعة الخامسة من المساء. قرأت الرسالة وأنا أرتعش من الانفعال تقريباً. لم تكن الرسالة طويلة. لكنها تبلغ من الصراحة والصدق أنني كنت، وأنا أقرؤها، أتمثل كاتبتها أمامي وأسمع صوتها متكلمة. إن كاترينا نيقولايفنا تعبِّر له في هذه الرسالة تعبيراً مخلصاً كل الإخلاص (أي تعبيراً مؤثراً) عن خوفها منه، ثم تتوسل إليه أن «يدعها وشأنها تعيش في سلام»، وتبلغه في ختام الرسالة أنها ستتزوج بيورنج فعلاً. ولم تكن قد كتبت إليه قبل اليوم أبداً.

Twitter: @ketab_n

وإليكم ما فهمته من أقواله:

ما كاد يفرغ من قراءة هذه الرسالة حتى أحس في نفسه فجأة بأمر لم يكن يتوقعه قط: لقد شعر، لأول مرة خلال هاتين السنتين المشؤومتين، بأنه لا يحمل لها أي كره، ولا تهتز لها نفسه أي اهتزاز، هو الذي «فقد صوابه» منذ مدة قصيرة حين سمع اسم بيورنج. حتى لقد قال لي بعاطفة عميقة: «بالعكس: باركتها من كل قلبي». سمعت منه هذه الكلمات معجباً. هكذا زايله كل ما كان يضطرم في قلبه من هوى ومن عذاب، زايله دفعةً واحدة، من تلقاء نفسه، كأنه كان حلماً، كأنه كان مساً ثم مضى! وقد دهش هو من نفسه، فأسرع يذهب إلى أمي، فدخل عليها لحظة أصبحت «حرة»، أي لحظة مات الشيخ الذي أوصاه بالأمس أن يتزوجها. ولقد هزته هاتان المصادفتان هزاً قوياً. وبعد قليل، خرج يبحث عني. لن أنسى أبداً أنني سرعان ما خطرت بباله.

لا ولن أنسى نهاية تلك السهرة. إن هذا الرجل قد تبدل مرةً أخرى تبدلاً كبيراً مباغتاً. بقينا معاً إلى ساعة متأخرة من الليل. سأتحدث فيما بعد عن الأثر الذي أحدثه فينا «النبأ»، سأتحدث عنه في حينه. أما الآن فسوف أقتصر على بضع كلمات أختم بها كلامي عنه هو. إنني لأدرك، حين أفكر الآن، أن ما فتنني فيه حينذاك هو ذلك النوع من الانقياد لي، ذلك الإخلاص الصادق في مخاطبة فتى مثلي! لقد هتف يقول: «كان ذلك ضلالاً. ولكن بورك ذلك الضلال! فلولاه لكان يمكن ألا أهتدي في قلبي، اهتداءً كاملاً أبدياً، إلى ملكتي الوحيدة، إلى شهيدتي، أمك». هذه الكلمات الحارة التي أفلتت منه بقوة لا تقاوم، إنما أسجلها هنا من أجل تتمة القصة. ولكنه كان قد غزا قلبي وأسر نفسي.

Twitter: @ketab_n

أذكر أننا صرنا في النهاية إلى مرح جنوني. أمر بشمبانيا، فشربنا «نخب» ماما، و«نخب» المستقبل. وكان يزخر حياة، ويفيض تأهباً وتهيؤاً للحياة! ولكن مرحنا الجنوني لم يكن سببه الخمر: فلم يشرب كل منا إلا كأسين اثنين. لا أدري لماذا أصبحنا في النهاية نضحك عاجزين عن كبح ضحكنا. أخذنا نتكلم في أمور لا قيمة لها. روى نكات. ورويت نكات. وكانت الضحكات والنكات بريئة كل البراءة، خالية من أية سخرية، ولكنها كانت تزيدنا مرحاً. وكان لا يريد أن يخلي سبيلي فهو ما ينفك يقول: «ابق، ابق»؛ وبقيت. حتى إذا خرجت صحبني.

كان الليل رائعاً، وكان جليد خفيف.

سألته فجأة بدون سابق تفكير، وأنا أصافحه مرة أخيرة عند منعطف:

ـ قل لي هل أجبتها؟

ـ لا، لم أجبها بعد. ولكن لا قيمة لهذا. تعال غداً، تعال في وقت أبكر. آ. . . شيء آخر: أترك لامبرت نهائياً، ومزِّق «الوثيقة» بأقصى سرعة. أستودعك الله.

قال ذلك ومضى فجأة. فبقيت مسمَّراً في مكاني وقد بلغت من الاضطراب أنني لم أجرؤ أن أناديه. هزَّتني كلمة «الوثيقة» خاصة: من عسى يحدثه عنها بهذه الألفاظ الدقيقة غير لامبرت؟ وعدت إلى البيت قلقاً أشد القلق. وبرق في ذهني سؤال: كيف يمكن أن يزايله في مثل لمح البصر «مَسٌّ دام سنتين»، ثم إذا هو يختفي كحلم، يتبدد كدخان، يغيب كرؤيا؟

Twitter: @ketab_n

الفصل التاسع

1

استيقظت في الغداة أنضرَ همةً وأحسن حالاً. حتى لقد رأيتني آخذ على نفسي، بغير غضب، شيئاً من الخفة ونوعاً من التعالي ظهرا عليَّ أمس حين كنت أصغي إلى بعض الفقرات من «اعترافه». لقد كان اعترافه مفككاً في بعض الأحيان، وكان عدد من أقواله غامضاً مبهماً بل مضطرباً مشوشاً لا ترابط فيه ولا اتساق بين أجزائه. ولكن هل كان قد أعدَّ خطابَ خطيبٍ حين دعاني إلى بيته؟ حسبي أنه شرفني باللجوء إليَّ كما يلجأ صديق إلى صديقه الوحيد في مثل اللحظة التي كان فيها. لن أنسى له هذا ما حييت. بل لقد كان اعترافه «مؤثراً في القلب»، أقول هذا ولو سخر من هذا التعبير ساخرون. ولئن اشتمل هذا الاعتراف على عناصر مستهترة، أو حتى مضحكة قليلاً، فلقد كنت أرحب صدراً وأوسع أفقاً من ألا أفهم أو ألا أقبل الواقعية ـ دون أن ألطِّخ المثالية على كل حال. أخيراً فهمت هذا الرجل؛ ولقد ساءني وأحزنني قليلاً أن أرى أمره بسيطاً كل تلك البساطة: هذا الإنسان، كنت في قرارة قلبي أنزله أعلى منزلة، وأضعه فوق السحاب. وكان لا بد لي حتماً أن ألفع مصيره برداء من السر، وكنت أتمنى طبعاً ألا ينكشف ذلك السر بمثل هذه السهولة. ثم لقد كان هناك، في لقائه «معها»، وخلال

Twitter: @ketab_n

هاتين السنتين من العذاب، أشياء أخرى كثيرة معقدة: «لم يرد ذلك القدر. كان في حاجة إلى الحرية لا إلى عبودية القدر. عبودية القدر هذه هي التي اضطرته أن يجرح شعور ماما التي كانت تنتظره في لونجسبرج...». وعدا ذلك، كان هذا الإنسان في نظري داعية ومبشراً على كل حال: كان يحمل في قلبه العصر الذهبي، ويعرف مستقبل الإلحاد. ثم إذا بلقائه معها قد حطم كل شيء، وشوّه كل شيء. أنا لم أخنها طبعاً، ولكنني مع ذلك قد انحزت إليه. كنت أقول لنفسي: ما كان لماما مثلاً أن تحرفه عن طريقه ولو تزوجته. وكنت أحس أن لقاءه مع «الأخرى» أمر مختلف كل الاختلاف. صحيح أن ماما ما كانت لتجيئه بالهدوء والسكينة. ولكن هذا أفضل. إن أمثال هؤلاء الرجال ما ينبغي أن يُحكم عليهم بالمقاييس التي يُحكم بها على غيرهم. إن لهم شأناً خاصاً. إن حياتهم ستنقضي دائماً على هذا النحو. وليس في ذلك شذوذ. بالعكس: فإنما الشذوذ أن يجدوا الهدوء، أو أن يصبحوا كسائر الناس المتوسطين. إن افتخاره بالنبالة وقوله «سأموت سيداً» لم يقلقاني. لقد أدركت ما السيد الذي كان يعنيه: إنه السيد الذي يهب كل شيء، ويبشر بمواطن الكون، ويشيع الفكرة الروسية الداعية إلى «لقاء الأفكار لقاءً شاملاً». لعل هذا كله كان سخافات وحماقات، أعني «لقاء الأفكار لقاءً شاملاً» (مع أنه لا غنى عنه طبعاً)، ولكن ألم يكن حسناً أنه نذر حياته للفكرة ولم يقفها على عجل الذهب؟ ولكن أنا... رباه... ها أنا انحنيت لعجل الذهب حين تصورت فكرتي؟ هل المال هو ما كنت في حاجة إليه؟ يميناً لم أكن في حاجة إلا إلى الفكرة! يميناً لو ملكت المال لما نجّدت كرسياً واحداً ولا ديواناً واحداً بالقطيفة، ولما أكلت غير صحن الحساء الذي آكله اليوم مع مائة مليون!

Twitter: @ketab_n

لبست ثيابي، وشعرت بقوة تدفعني إليه ولا أستطيع مغالبتها. يجب أن أضيف هنا أنني فيما يتعلق بإشارته إلى الوثيقة أمس، قد وجدتني أهدأ بالاً. قلت لنفسي إنّني قد أبحث هذا الموضوع معه. وأي ضير في أن يكون لامبرت قد تسلل إليه وحدّثه عن شيء؟ وكانت فرحتي الكبرى هي إحساسي الغريب بأنه أصبح لا «يحبها». كنت مقتنعاً بهذا اقتناعاً مطلقاً. وكنت أحس أن ثقلاً رهيباً قد نزل عن قلبي. حتى إنني أتذكر افتراضاً مرَّ بخاطري: إن ما اشتملت عليه غضبته المسعورة من شذوذ عجيب رهيب حين جاءه نبأ بيورنج، وما لجأ إليه عندئذ من إرسال رسالته تلك التي احتوت على سب وشتم، أقول إن ذلك العنف كله ربما كان إيذاناً بتغير جذري في عواطفه وعودة سريعة إلى الحس السليم والعقل الراجح. قلت لنفسي: إن هذا لا بد أن يكون شبيهاً بالنوبة التي تحدث في مرض ثم يعقبها نقيضها! فما ذلك إلا مرحلة طبية! وقد أسعدتني هذه الفكرة.

وهتفت أقول: «الآن فلتتصرف في مصيرها كما تشاء، ولتتزوج بيورنج ما حلا لها ذلك، فإنما المهم أنه هو، أبي، صديقي، قد زال حبه لها.». على أن عواطفي أنا قد كان فيها سر. ولست أريد في مذكراتي هنا أن ألحَّ عليه أو أكشف عنه.

ولكن كفى! الآن سأروي جميع الأهوال التي تعاقبت، بدون أي مداراة في هذه المرة.

2

في الساعة العاشرة، فيما كنت أتهيأ للخروج (لأذهب إليه طبعاً) جاءت داريا أونيسيموفنا. فسألتها مرحاً هل هو أرسلها إليَّ،

Twitter: @ketab_n

فأحزنني أن أعلم أنه ليس هو الذي أرسلها، وإنما أرسلتها آنا آندرييفنا، وأنها ـ هي داريا أونيسيموفنا ـ «قد خرجت من البيت عند طلوع الصباح».

ـ أي بيت؟

ـ البيت نفسه، بيت الأمس. إن البيت الذي كنت فيه أمس، أعني بيت الطفل، مستأجر الآن باسمي أنا، ولكن تاتيانا بافلوفنا هي التي تدفع . . .

قاطعتها غاضباً أقول:

ـ ما شأني أنا وهذا! ولكن هو، هل هو في البيت؟ هل أجده إذا ذهبت إليه؟

فما كان أشد دهشتي حين علمت أنه خرج قبل أن تخرج هي، فإذا كانت قد خرجت هي عند طلوع النهار، فقد خرج هو قبل طلوع النهار.

ـ لعله يكون قد رجع إلى البيت الآن؟

ـ لا، إنه لم يرجع حتماً، وربما لا يرجع أبداً.

قالت ذلك وهي تحدِّق إليَّ بنظرتها الحادة الماكرة التي سبق أن ضقت بها وانزعجت منها حين زارتني مريضاً في السرير. إن ما أحنقني بخاصة هو هذه الأسرار وهذه السخافات التي تعود إلى الظهور: إنَّ هؤلاء الناس يصرّون على ألا يستغنوا عن الألغاز والمكر.

ـ لماذا قلت «ربما لا يرجع أبداً»؟ ماذا تعنين بهذا؟ لقد ذهب إلى ماما وهذا كل شيء!

ـ لا أدري.

ـ ولكن ما جاء بك أنت؟

Twitter: @ketab_n

فقالت لي إنّها الآن آتية من عند آنا آندرييفنا، وإنّ آنا آندرييفنا تدعوني أن أجيء إليها حالاً، وإلا «فات الأوان». فأحنقني هذا الكلام الملغز مرة أخرى وأخرجني عن طوري:

ـ لماذا يفوت الأوان؟ لا أريد أن أذهب إليها ولن أذهب! لن أنقاد للتضليل مرة جديدة! إنني لا أعبأ بلامبرت! قولي لها هذا. فإذا أرسلت لي لامبرت، فلأطردنَّه ركلاً بقدمي.

ارتاعت داريا ارتياعاً رهيباً.

قالت وهي تتقدم مني خطوةً وتضم يديها إحداهما إلى الأخرى ضارعة متوسلة:

ـ لا، انتظر. لا تسرع إلى الغضب هذا الإسراع. إن الأمر خطير، بل خطير جداً بالنسبة إليك، وإليهم أيضاً، إلى آندريه بتروفتش، وإلى أمك، وإلى الجميع. فاذهب إلى آنا آندرييفنا حالاً، لأنها لا تستطيع أن تنتظرك مدة أطول... أحلف لك بشرفي. وبعد ذلك تتخذ قراراً.

نظرت إليها مدهوشاً مشمئزاً. وهتفت أقول بعناد وعداوة:

ـ سخافات. لن يحدث شيء. لن أذهب. تغير الآن كل شيء. هل أنت قادرة على أن تفهمي؟ مع السلامة يا داريا أونيسيموفنا. لن أذهب. عمداً لن أذهب. وعمداً لن أسألك عن شيء. وإلا أفقدتني صوابي. لا أريد أن أحشر أنفي في أسراركم.

ولكنها لم تنصرف، بل ظلت متسمرة في مكانها، فلم يسعني إلا أن أتناول معطفي وطاقيتي، وأن أخرج تاركاً إياها في وسط الغرفة. لم يكن في غرفتي رسائل ولا أوراق، ولا كنت أقفلها بالمفتاح في أي يوم من الأيام تقريباً حين أخرج. ولكن ما كدت أصل إلى الباب المفضي إلى الشارع حتى رأيت مؤجر غرفتي بيتر

Twitter: @ketab_n

ايبوليتوفتش يركض ورائي بدون قبعة وبدون سترة.

ـ آركادي ماكاروفتش! آركادي ماكاروفتش!

ـ ما بك أنت أيضاً؟

ـ ألا تأمر بشيء قبل أن تخرج؟

ـ لا.

فنظر إليَّ نظرة نافذةً فيها قلق واضح، وقال يسأل:

ـ فيما يتعلق بالبيت مثلاً؟

ـ فيما يتعلق بالبيت؟ ألم تستلم الأجرة؟

ـ ليس الأمر أمر الأجرة...

قال ذلك وهو يبتسم ابتسامة طويلة على حين فجأة، ويظل يتفحصني بنظرته. فصحت أقول غاضباً:

ـ ولكن ماذا حدث لكم جميعاً؟ ماذا تريد أنت؟

فانتظر بضع ثوان، كأنه لا يزال يأمل مني شيئاً. ثم دمدم يقول وهو يبتسم ابتسامة أطول:

ـ إذن تأمرني فيما بعد، ما دمت الآن معتكر المزاج. طيب. مع السلامة. أنا أيضاً يجب أن أذهب إلى المكتب.

وعاد يصعد السلم راكضاً. إنّ هذا كله يبعث على التفكير طبعاً. وأنا أتعمد ألا أغفل أي تفصيل من تفاصيل هذه السخافات الصغيرة، لأن كل واحد منها قد وجد مكانه من بعد في مجموعها المتشابك. هذه حقيقة. ولئن ضقت ذلك الضيق كله، وحنقت ذلك الحنق كله، فلأنني عدت أجد في أقوالهم لهجة المكر واللغز تلك التي كنت أتقزز منها وكانت تذكرني بالماضي.

ولكن فلأتابع حديثي.

لم أجد فرسيلوف في البيت: كان قد خرج فعلاً مع طلوع

Twitter: @ketab_n

النهار. وقفت أقول لنفسي: «سأجده عند ماما حتماً». ولم أسأل الخادمة عن شيء. إنها امرأة غبية. ولم يكن في البيت أحد غيرها. ركضت متجهاً إلى بيت ماما. أعترف بأنني كنت قلقاً غاية القلق. حتى لقد ركبت عربة بعد أن قطعت نصف الطريق. فعرفت هناك «أنه لم يأتِ إلى بيت ماما منذ مساء الأمس». لم يكن مع ماما إلا تاتيانا بافلوفنا وليزا. وما إن دخلت حتى تأهبت ليزا للخروج.

لا تزالان تقيمان فوق، في «تابوتي». وتحت، في الصالون، كان جثمان ماكار إيفانوفتش مسجّى على المائدة، وكان شيخ مجهول يقرأ عليه المزامير. لن أصف بعد الآن شيئاً مما لا يتصل بالقضية اتصالاً مباشراً. لكنني أحب أن أسجل أن النعش الذي صُنع له ووُضع في الغرفة لم يكن نعشاً مبتذلاً: صحيح أنه أسود، ولكنه مفروش بقطيفة؛ والكفن ثمين: ترف لا يناسب الشيخ ولا يناسب اعتقاداته. ولكن تلك كانت رغبة ماما وتاتيانا بافلوفنا، حرصتا عليها أشد الحرص.

لم أكن أنتظر طبعاً أن أراهنَّ في مرح. لكنني ما إن رأيت الحزن الساحق والقلق الشديد والهم الثقيل في أعينهن حتى قدَّرت أن «هناك شيئاً آخر غير المتوفى قطعاً». أعود فأكرر أنني أتذكر هذا تذكراً واضحاً.

ومع ذلك قبلت ماما بحنان، ثم لم ألبث أن سألتها «عنه». فسرعان ما اشتعل في نظرتها استطلاع قلق. فبادرت أضيف أننا قضينا السهرة معاً إلى ساعة متأخرة من الليل، ولكنني لم أجده اليوم في البيت، فقد خرج مع طلوع النهار، رغم أنه طلب مني في الليلة البارحة، حين افترقنا، أن أجيء إليه في أبكر وقت. لم تجب ماما بشيء، ولكن تاتيانا بافلوفنا انتهزت فرصةً فلوحت لي بأصبعها مهدِّدة.

Twitter: @ketab_n

وقالت ليزا فجأة بلهجة قاطعة وهي تخرج من الغرفة مسرعة:

ـ أستودعك الله، أخي.

وبادرت ألحق بها طبعاً، فوجدتها واقفةً تنتظرني عند الباب.

قالت لي بهمس سريع:

ـ قدَّرت أنك ستنزل.

ـ ماذا حدث يا ليزا؟

ـ أنا نفسي لا أعلم. ولكن لا بد أن أشياء كثيرة قد حدثت. لا بد أنها خاتمة هذه «القصة الأبدية». لم يأتِ. ولكن وصلتهم أخبار عنه. لن يحكوا لك شيئاً. فكن هادئاً، ولا تسألهم أي سؤال إذا كنت تملك بعض الذكاء. أنا أيضاً لم أسأل. ماما مرهقة. إلى اللقاء!

وفتحت الباب. قلت:

ـ ليزا! وأنت، أليس بك شيء؟

ووثبت أدركها في الدهليز. إن هيئتها المهدودة المكروبة اليائسة قد طعنت قلبي. فنظرت إليَّ نظرة لم تكن غاضبة فحسب، بل كانت كاسرة أيضاً. ثم ابتسمت ابتسامة مرة، وحركت يدها بإشارة يأس.

وفيما كانت تهبط السلم منصرفةً، هتفت تقول:

ـ إذا مات فيجب أن نحمد الله.

كانت تعني الأمير سرجي بتروفتش الذي كان راقداً مع حمى وغيبوبة. حدّثتُ نفسي محنقاً: «القصة الأبدية؟ أية قصة أبدية؟» وسرعان ما ساورتني رغبة قوية في أن أحدثهم عن جزء ـ على الأقل ـ مما أحسست به بعد سماع «اعترافه» في الليلة البارحة، وأن أذكر لهم ذلك الاعتراف ذاته. «إنهم يحملون آراء سيئة فيه. ألا فليعلموا إذن كل شيء!». تلك هي الفكرة التي لمعت في خاطري.

Twitter: @ketab_n

أذكر أنني بدأت الكلام بغير خراقة، فسرعان ما أثرت اهتمامهما واجتذبت انتباههما. حتى إن تاتيانا بافلوفنا كانت تشرب أقوالي شرباً، وذلك شيء لم يسبق أن حدث من قبل. وكانت أمي أكثر تحفظاً. كانت رصينة جداً، ولكن ابتسامة خفيفة رائعة، وإن تكن يائسة كل اليأس، قد أضاءت وجهها ولازمته إلى نهاية الحديث. واسترسلت في الكلام، رغم علمي بأنهما لا تكادان تفهمان ما أقول. وقد أدهشني كل الإدهاش أن تاتيانا بافلوفنا لم تحاول أن تناكدني، فلا سألتني توضيحات ولا نصبت لي فخاخاً، كما كان من عادتها أن تفعل حين أتكلم. وكانت تقتصر على أن تزم شفتيها وتغمض عينيها نصف إغماض من حين إلى حين كأنما هي تجهد أن تفهم. حتى لقد بدا لي في بعض اللحظات أنهما كانتا تدركان كل شيء. غير أن ذلك كان مستحيلاً في الواقع. تحدثت مثلاً عن اعتقاداته وآرائه، وعن حماسته أمس، عن حماسته لماما خاصةً، عن حبه لماما، ورويت كيف قبَّل صورتها... فكانتا، وهما تصغيان إلى كلامي، تتبادلان نظرات سريعة صامتتين. واحمرت ماما احمراراً شديداً. وظلتا كلتاهما لا تقولان شيئاً. ثم... ثم... كنت لا أستطيع طبعاً، بحضور ماما، أن ألمس النقطة الأساسية، أعني لقاءه مع الأخرى، و«انبعاثه» الروحي بعد تلقيه تلك الرسالة. وكان ذلك هو الأمر الجوهري في الواقع. وهكذا فإن جميع عواطفه التي عبَّر عنها في الليلة البارحة والتي كنت آمل أن أبهج بها ماما كثيراً، بقيت غامضة غير مفهومة بطبيعة الحال، ولم يكن الذنب في ذلك ذنبي، لأن كل ما كان يمكنني أن أقوله، قد قلته بل أحسنت قوله جداً. فلما انتهيت كنت مرتبكاً أشد الارتباك. واستمر صمتهما. فوجدت نفسي معهما في ضيق شديد. فقلت وأنا أنهض لأنصرف:

Twitter: @ketab_n

ـ لا بد أنه رجع إلى البيت الآن. أو لعله ذهب إلى بيتي فهو ينتظرني هناك.

فقالت تاتيانا بافلوفنا مؤيدة بلهجة قاطعة:

ـ طيب. اذهب إليه، اذهب إليه!

وسألتني ماما بهمس:

ـ هل ذهبت إلى تحت؟

ـ نعم، حييت جثمانه، وصلَّيت له. ما أجمله من وجه هادىء يا ماما! شكراً لأنك لم تقصِّري في أمر النعش أيَّ تقصير. لقد استغربت ذلك في أول الأمر، ولكنني سرعان ما أدركت أنني لو كنت في مكانك لفعلت ما فعلته أنت.

سألتني أمي مختلجة الشفتين:

ـ هل تأتي غداً إلى الكنيسة للجنازة؟

فقلت مدهوشاً:

ـ كيف لا يا ماما؟ سأحضر قداس اليوم، وآتي غداً أيضاً. وغداً عيد ميلادك يا ماما، يا صديقتي الغالية! لم ينقصه إلا ثلاثة أيام!

وانصرفت مدهوشاً دهشة أليمة: يا له من سؤال سخيف! كيف تسألني هل آتي إلى الكنيسة أم لا؟

وإذا كانتا تخشيان ألا آتي أنا، فما عسى تكون خشيتهما من ألا يأتي «هو»؟

وكنت أعلم أن تاتيانا بافلوفنا قد تلحق بي، فتعمدت أن أقف عند العتبة. وأدركتني فعلاً، لكنها دفعتني بيدها إلى السلّم، وخرجت بعدي وأغلقت الباب.

ـ تاتيانا بافلوفنا! هل تتوقعان إذن ألا يجيء آندريه بتروفتش لا اليوم ولا غداً؟ إنني خائف...

Twitter: @ketab_n

ـ اسكت. يا له من أمر عظيم أن تكون خائفاً!!... قل: إنك لم تذكر كلَّ شيء حين رويت ما رويته عن الليلة البارحة، أليس كذلك؟

لم أجد داعياً إلى الكتمان، فحكيت لها ـ وأنا شبه غاضب على فرسيلوف ـ حكاية الرسالة التي وصلته من كاترينا نيقولايفنا، والأثر الذي أحدثته تلك الرسالة في نفسه إذ بعثته بعثاً جديداً. فما كان أشد استغرابي حين لاحظت أن واقعة الرسالة لم تدهشها، فأدركت أنها على علم بأمرها.

ـ ألا تكذب فيما تقول؟

ـ لا، لا أكذب.

فابتسمت ابتسامة ساخرة وكأنها تفكر، ثم قالت:

ـ هه! بُعث بعثاً جديداً! لا ينقص إلا هذا! هل صحيح أنه قبَّل الصورة؟

ـ صحيح يا تاتيانا بافلوفنا.

ـ قبَّلها بعاطفة، أم تظاهر تظاهراً؟

ـ تظاهر تظاهراً؟ هل يتظاهر أحياناً؟ عيب يا تاتيانا بافلوفنا! إن لك نفساً قاسية، نفس امرأة!

قلت ذلك بحرارة، ولكنها تظاهرت بأنها لم تسمعني. كانت قد عادت تغرق في أفكارها رغم شدة البرد على السلّم. كنت أنا مرتدياً معطفي، أما هي فكانت بفستانها فقط.

قالت باحتقار وتململ:

ـ كان يمكن أن أعهد إليك بمهمة، ولكن المؤسف أنك غبي غباء شديداً. اسمع: إذهب إلى آنا آندرييفنا، وانظر ماذا يحدث عندها. لا بل لا تذهب! فلن تكون هناك إلا غبياً. امش. ما بقاؤك هنا متسمراً كنصب؟

Twitter: @ketab_n

ـ لا، لن أذهب إلى آنا آندرييفنا! ومع ذلك فإن آنا آندرييفنا هي التي أرسلت تستدعيني إليها اليوم.

ـ هي نفسها؟ أرسلت داريا أونيسيموفنا؟

كانت تاتيانا بافلوفنا قد أدارت ظهرها وأخذت تفتح الباب لتنصرف، لكنها ما إن سمعت كلامي حتى التفتت إليَّ ثانية وطرحت ذلك السؤال وهي تغلق الباب من جديد.

كررت أقول متلذذاً:

ـ لن أذهب إلى آنا آندرييفنا بحال من الأحوال. لن أذهب إليها، لأنني وُصفت منذ هنيهة بأنني غبي، مع أنني لم أكن في حياتي ذكياً نافذ البصيرة كما كنت اليوم. إن قضاياكم كلها موضوعة على راحة كفي، أراها رؤية واضحة أكبر الوضوح! على كل حال، لن أذهب إلى آنا آندرييفنا.

فهتفت تقول وهي لا تزال تفكر:

ـ كنت أعرف هذا! لسوف يوثقونها الآن ويضعونها في الكيس.

ـ آنا آندرييفنا؟

ـ غبي!

ـ من تعنين إذن؟ كاترينا نيقولايفنا؟ أي كيس؟

جزعت جزعاً رهيباً. إن فكرة غامضة، لكنها فظيعة، قد برقت في نفسي كلها. وألقت عليَّ تاتيانا بافلوفنا نظرة ثاقبة، وسألتني فجأة:

ـ وأنت ما شأنك وهذا كله؟ ما دورك في هذا الأمر؟ لقد سمعت شيئاً عنك أنت أيضاً. حذار.

ـ اسمعي يا تاتيانا بافلوفنا. سوف أكشف لك سراً رهيباً. ولكن ليس الآن. الآن لا يتسع الوقت. غداً سأكشف لك عن ذلك السر، على انفراد. ولكن قولي لي الحقيقة كلها فوراً: ما هذا

Twitter: @ketab_n

الكيس الذي تتحدثين عنه؟ ذلك أن جسمي كله يرتعد ارتعاداً شديداً. . .

صاحت تقول:

ـ لا يهمني أن يرتعد جسمك أو لا يرتعد. ما هذا السر الذي تريد أن تبوح لي به في الغد أيضاً؟ هل تعرف شيئاً بالفعل؟ قل ما تعرفه بصراحة. . .

وعادت تلقي عليَّ نظرتها الفاحصة. ثم قالت تسألني:

ـ ألم تحلف لها أنك قد حرقت رسالة كرافت؟

وتابعت أنا أيضاً كلامي دون أن أجيب عن سؤالها لأنني كنت خارجاً عن طوري:

ـ تاتيانا بافلوفنا، أكرر لك. . . لا تعذبيني. . . انتبهي يا تاتيانا بافلوفنا. . . فبسبب ما تخفينه عني قد تقع مصيبة أكبر. لقد كان أمس في حالة انبعاث كامل.

ـ امش يا مهرِّج! أنت أيضاً هائم حباً. . . الأب والابن مولهان بحب امرأة واحدة! تفو! إنكما لمقززان!

واختفت. وصفقت الباب وراءها استياءً وامتعاضاً وشعرت أنا بغضب شديد من هذه الوقاحة وهذا الاستهتار الذي لا يمكن أن تصل إليه إلا امرأة، فخرجت راكضاً وقد جُرح شعوري جرحاً عميقاً. ولكنني لن أحدثكم عن مشاعري المضطربة: فقد عاهدتكم على ذلك. لن أحكي إلا الوقائع التي ستضع في أيديكم الآن مفتاح كل شيء.

وقد انطلقت إليه طبعاً، فأخبرتني الخادمة مرة أخرى بأنه لم يرجع. سألتها:

ـ ولن يرجع؟

Twitter: @ketab_n

ـ الله أعلم!

3

الوقائع، الوقائع! ولكن ما الذي سيستطيع أن يفهمه القارىء؟ أتذكر أنني، أنا نفسي، وقد سحقتني تلك الوقائع ذاتها، كنت لا أستطيع أن أفهمها، فما انتهى النهار إلا كان عقلي قد انقلب رأساً على عقب فعلاً! لذلك سأسبق الأحداث ببضع كلمات.

إليكم ما كان يدور عليه قلقي وعذابي: إذا كان قد بُعث بالأمس بعثاً جديداً فكفَّ عن «حبها» فأين يجب أن يكون اليوم؟ الجواب: أولاً، عندي، أنا الذي قبَّلني البارحة، ثم فوراً عند أمي، التي قبَّل صورتها. ولكنه بدلاً من أن يقوم بهاتين الخطوتين، غادر البيت عند «طلوع النهار»، واختفى لا يدري أحد أين، وتقول داريا أونيسيموفنا أنه في أغلب الظن لن يعود. أكثر من ذلك. إن ليزا تتحدث عن خاتمة «القصة الأبدية»، وتؤكد أن ماما وصلتها أخبار عنه، أحدثُ من هذه الأخبار أيضاً. وهم عدا ذلك يعرفون أمر الرسالة التي بعثتها إليه كاترينا نيقولايفنا (لاحظت أنا هذا)، ولكنهم رغم كل شيء لا يصدِّقون أنه «بعث بعثاً جديداً»، وإن كانوا قد أصغوا إليَّ بانتباه شديد. كانت ماما مهدَّمة تهديماً، وكانت تاتيانا بافلوفنا تبتسم ابتسامة ساخرة حين أنطق بكلمة «الانبعاث» هذه. معنى ذلك إذن أنه قد وقعت له في الليل ثورة أخرى، وقعت له نوبة أخرى، بعد كل حماسته وحنانه وتأثره بالأمس! ومعنى ذلك إذن أن هذا «الانبعاث» كله قد تبدد كفقاعة صابون! ولعله الآن يعاني ذلك الاهتياج المسعور نفسه الذي أصابه حين جاءه نبأ بيورنج! فإذا صحَّ هذا فما عسى يحدث لماما؟ وما عسى يحدث

Twitter: @ketab_n

لي أنا، ولنا جميعاً... وما عسى يحدث لها «هي» خاصة؟ ما الكيس الذي كانت تعنيه تاتيانا حين أمرتني أن أذهب إلى آنا آندرييفنا؟ لا بد أن «الكيس» إذن عند آنا آندرييفنا؟ ولماذا عند آنا آندرييفنا؟

وهُرعت إلى آنا آندرييفنا طبعاً. كنت تعمدت عن غضبٍ أن أقول إنني لن أذهب إليها. ثم هُرعت الآن. ولكن ما الذي قالته تاتيانا بافلوفنا عن الوثيقة؟ أليس هو الذي قال لي أمس: «احرق الوثيقة»؟

تلك كانت خواطري. ذلك ما كان يخنقني. ولكنني كنت في حاجة إليه «هو» خاصة. معه يمكن أن أحل كل شيء في طرفة عين، يمكن أن نتفاهم ببضع كلمات: آخذ يديه، وأشد عليهما، وأجد في قلبي الأقوال الحارة المناسبة. كذلك كنت أحلم. إن في وسعي أن أنتصر على جنونه!... ولكن أين هو؟ أين هو؟ وما كان ينقصني في مثل تلك اللحظة إلا أن ألقى لامبرت، بينما أنا في مثل ذلك الفوران! وكدت أصل إلى البيت، فإذا أنا أقع على لامبرت فجأة. فأخذ يطلق صيحات فرح إذ رآني. وتناول يدي.

ـ هذه هي المرة الثالثة التي أجيء إليك فيها. «أخيراً»! هلمَّ بنا نتغدى.

ـ انتظر. أنت آت من بيتي؟ هل آندريه بتروفتش هناك؟

ـ لا، ليس من أحد هناك. دعهم جميعاً! أنت زعلت أمس يا أحمق! كنت سكران. هناك حديث جرى بيني وبينك. علمتُ اليوم أنباء رائعة عمَّا كنا نتكلم فيه أمس...

قاطعته أقول لاهثاً متعجلاً، صائحاً بعض الصياح برغم إرادتي:

ـ لامبرت، لئن وقفت فإنني لم أقف إلا لأقطع صلتي بك قطعاً نهائياً. وقد، قلت لك هذا بالأمس، غير أنك تصر على أن لا

Twitter: @ketab_n

تفهم. لامبرت، أنت صبي وغبي في آن واحد، كفرنسي. تتخيل دائماً أنك لا تزال عند توشار وأنني لا أزال أحمق كما كنت عند توشار. . . ولكنني الآن غير ما كنت عند توشار. كنت أمس سكران، ولكن سبب سكري لم يكن الخمر بل لأني كنت مهتاجاً من قبل أن أشرب. ولئن أيّدت ما كنت تقوله، فقد كنت أتظاهر تظاهراً لأعرف تفكيرك. لقد خدعتك، فسررت أنت وصدقتني واستمررت في الثرثرة. اعلم أن زواجي بها حماقة لن يصدقّها تلميذ من تلاميذ الصف الإعدادي في يوم من الأيام. هل يمكن أن يتخيل أحد أن أصدِّق هذا الكلام؟ لكنك تخيلته أنت! مرد ذلك إلى أنك لا تُستقبل في المجتمع، الراقي، ولا تعرف ما يجري فيه. إن الأمور لا تجري عندهم بمثل هذه السهولة. ليست الأمور بسيطة هذه البساطة في المجتمع الراقي. ليس أمراً هيناً أن تقرر فجأة أن تتزوجني. سأقول لك بوضوح ماذا تريد أنت: تريد أن تجتذبني فتسقيني إلى أن أسكر فأسلمك الوثيقة وأشاركك في مؤامرة حقيرة على كاترينا نيقولايفنا! اعلم إذن أنك مخطىء. لن أجيء إليك أبداً. واعلم أيضاً أن الورقة ستكون بين يديها غداً أو بعد غد، لأن تلك الورقة ملك لها، لأنها هي التي كتبتها، وسأسلِّمها إليها بنفسي، فإذا أردت أن تعرف أين سأسلِّمها إياها فاعلم أن ذلك سيكون في مسكن تاتيانا بافلوفنا، وبحضور تاتيانا بافلوفنا، صديقتها، ولن أطالب بشيء ثمناً لذلك. والآن: إلى الأمام، سر! وإلا، وإلا يا لامبرت، فسأكون أقل أدباً. . .

قلت ذلك وأخذت أرتجف. إن أسوأ عادة لدى كل إنسان وأضرَّ عادةٍ بكل إنسان، في كل ظرف، هي أن يصطنع وضع التعاظم. ما كان أغناني عن هذا الاندفاع الحار أمامه! ما كان أغناني عن هذا

Twitter: @ketab_n

الخطاب الذي كنت أوَّقع كلماته مترنماً وأرفع صوتي فيه أكثر فأكثر، ثم أنهيه بذكر تلك النقطة التفصيلية النافلة، فأقول إني سأسلمها الوثيقة بنفسي في مسكن تاتيانا بافلوفنا؟ لقد أحسست فجأة برغبة قوية في إدهاشه وإذهاله! فحين تكلمت عن الوثيقة بتلك الفظاظة رأيت جزعاً غبياً يعتريه بغتة، أردت أن أسحقه مزيداً من السحق بذكر مزيد من التفاصيل! فكانت هذه الثرثرة المغرورة التي تلاحظ في النساء سبباً في وقوع كوارث رهيبة، لأن هذه النقطة التفصيلية. المتعلقة بتاتيانا بافلوفنا ومسكنها سرعان ما نقشت في ذهنه الذي هو ذهن إنسان حقير ورجل عملي في الأمور الصغيرة. إنه في الأمور الكبيرة الجدية تافه لا يفهم شيئاً، أما في هذه التفاصيل الجزئية فإنه حاضر البديهة دائماً. فلو أنني لم أذكر اسم تاتيانا بافلوفنا، لتجنبت وقوع مصائب كثيرة. ومع ذلك فإنه بعد أن أصغى إليَّ بدا كمن فقد صوابه. قال مجمجماً:

ـ اسمع. آلفونسين ستغني... آلفونسين ذهبت «إليها»... إسمع. عندي رسالة، أو رسالة تقريباً، تتحدث فيها آخماكوفا عنك. المجدور هو الذي زوَّدني بهذه الرسالة. هل تتذكر المجدور؟ سترى، سترى! هلمَّ بنا!

ـ كذاب! أرني الرسالة!

ـ هي في البيت، عند آلفونسين. هيَّا بنا إلى البيت!

كان يكذب طبعاً، كان يهذي، مخافة أن أفلت منه. لكنني تركته فجأة في وسط الشارع، وحين همَّ أن يتبعني، وقفت أهدِّده بأصبعي. فتردد لحظةً فأتيح لي أن أختفي: لعل خطةً أخرى كانت قد نبتت في رأسه منذ ذلك الحين. لكن المفاجآت واللقاءات لم تكن قد انتهت بالنسبة إليَّ. إنني حين أتذكر اليوم الحافل بالشقاء،

Twitter: @ketab_n

يبدو لي دائماً أن تلك المفاجآت واللقاءات إنما كانت على موعد لتنهلَّ عليَّ غزيرة رهيبة. إنني ما إن فتحت باب مسكني حتى اصطدمت في حجرة المدخل بشاب طويل القامة له وجه بيضوي شاحب، ومشية مهيبة «راقية»، يرتدي معطفاً رائعاً، ويزين وجهه بنظارة أنف. كانت له نظارة أنف. ولكنه حين رآني خلعها (من قبيل المجاملة الأنيقة)، وقال لي وهو يبتسم ابتسامة رقيقة ويُنهض قبعته الطويلة بأدب وتهذيب، ولكن دون أن يقف: «آ. . . مساء الخير!» (بالفرنسية) ثم مضى يدرك السلّم. لقد عرف كل منا الآخر على الفور، رغم أنني لم أره إلا مرة واحدة سريعة بموسكو. إنه أخو آنا آندرييفنا، الحاجب بالبلاط، الشاب فرسيلوف، ابن فرسيلوف، أي أخي تقريباً، وكانت المؤجّرة تصحبه مشيعة (لم يكن زوجها قد عاد من المكتب بعد). فلما انصرف هجمت أسألها:

ـ ماذا يعمل هنا؟ هل كان في غرفتي؟

ـ لا، لم يكن في غرفتك. جاء يزورني أنا. . .

كذلك أجابتني بلهجة قاطعة خشنة وهي تدير ظهرها. فهتفت أقول صارخاً:

ـ لا، لن يمر الأمر هكذا. أجيبي من فضلك ماذا جاء يعمل هنا؟

ـ أوه! هل من واجبي أن أحكي لك لماذا يجيء الناس؟ أظن أن من حقنا، نحن أيضاً، أن تكون لنا شؤون خاصة. لعل هذا الشاب جاء يقترض مالاً، أو جاء يسألني عن عنوان، أو لعلني وعدته في المرة السابقة أن. . .

ـ في المرة السابقة؟

ـ آ. . . طبعاً! في المرة السابقة. إنه لم يجيء اليوم أول مرة!

Twitter: @ketab_n

وانصرفت. أدركت أن اللهجة في البيت تغيرت: أخذوا يغلظون لي القول! هذا سر جديد! الأسرار تتراكم عند كل خطوة، في كل ساعة! في المرة الأولى جاء الشاب فرسيلوف مع أخته، آنا آندرييفنا، حينما كنت مريضاً. تذكرت هذا تذكراً واضحاً. وتذكرت كذلك جملةً قصيرة مدهشة أفلتت أمس من آنا آندرييفنا: وهي أن الأمير العجوز سيقف عندي. ولكن هذا كله كان يبلغ من الغرابة أنني لم أستطع أن أفهم شيئاً. فرأيتني ألطم جبيني، وأهرع إلى بيت آنا آندرييفنا حتى دون أن أجلس لأستريح. ولم أجد آنا آندرييفنا في بيتها، لكن البواب السويسري أجابني بأنها «سافرت إلى تسارسكويا، وأنها لن ترجع إلا غداً في مثل هذه الساعة تقريباً».

ـ سافرت إلى تسارسكويا! ذهبت إلى الأمير العجوز حتماً، وذهب أخوها إلى مسكني يفتشه! لا، هذا مستحيل!

وصررت بأسناني قائلاً: «إذا كان هناك تهديد حقاً، فسوف أدافع عن «المرأة المسكينة»!.

ومن بيت آنا آندرييفنا لم أرجع إلى بيتي، لأن رأسي الملتهب قد انبجست فيه، على حين فجأة، ذكرى المطعم الذي يقع تحت مستوى الأرض، والذي اعتاد آندريه بتروفتش أن يذهب إليه في ساعات حزنه. فابتهجت لهذه الفكرة ابتهاجاً عظيماً، وهرعت إلى المطعم فوراً. كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة، وكان المساء يهبط. قيل لي في المطعم إنه جاء، «فلبث لحظةً ثم انصرف، وقد يعود». فقررت فجأة، بكل ما أملك من طاقة، أن أنتظره، فأمرت لنفسي بغداء. هناك أمل على الأقل!

وتغديت بل ظللت آكل طبقاً بعد طبق حتى يحق لي البقاء أطول مدة. أظن أنني مكثت زهاء أربع ساعات. لا أصف حزني،

Twitter: @ketab_n

وتلهفي المحموم. لقد كان كل شيء فيَّ يهتز ويرتعش. إن هذا الأرغن البرباري، وهؤلاء الشاربين، وهذا الضجر، إن هذا كله قد نُقش في نفسي، ولعله نُقش فيها إلى الأبد! لا ولا أصف الأفكار التي كانت تعصف في رأسي كغمامة من أوراق أشجار يابسة في فصل الخريف بعد إعصار. كان في رأسي شيء من هذا القبيل حقاً، وكنت في بعض اللحظات أحس بأن عقلي قد بارحني فعلاً. أعترف بهذا.

غير أن ما كان يعذبني خاصة (عدا عذابي الرئيسي طبعاً) إنما هو ذكرى حادث لم أكلم عنه أحداً في يوم من الأيام. . . كانت هذه الذكرى كذبابة سامة من ذباب الخريف تدور، وتئز، وتصمت، وتحاصر، ثم تلسع لسعاً موجعاً على حين فجأة. فإليكم حكاية هذه الذكرى، لأنها، هي أيضاً، يجب أن تُروى في موضع ما من هذه القصة.

4

حينما كنت بموسكو وتقرر أن أسافر إلى بطرسبرج، أبلغني نيقولا سيمونوفتش أن هناك مالاً سيصلني من بطرسبرج كنفقات للسفر. لم أسأل من الذي سيرسل إليَّ المال، إذ كنت أعلم أن فرسيلوف هو الذي سيرسله. وكنت في ذلك الحين أحلم بلقائي مع فرسيلوف ليلاً ونهاراً، خافقَ القلب طموحَ المشاريع، وانقطعت انقطاعاً تاماً عن التحدث في هذا الأمر حتى إلى ماريا إيفانوفنا. يجب أن أذكّر من جهة أخرى أنني كنت أملك مالاً أنفقه على الرحلة. ولكنني قررت رغم كل شيء أن أنتظر! وكنت أقدِّر أن المال سيصلني بالبريد.

Twitter: @ketab_n

ولكن ها هو ذا نيقولا سيمونوفتش يعود إلى البيت ذات يوم فيبلغني (باختصار، على عادته، وبدون إلحاح) أن عليَّ أن أذهب غداً إلى بيت الأمير فـ. . . سكي بشارع مياسنتسكايا، في الساعة الحادية عشرة من الصباح، فهناك سيسلِّمني حاجب البلاط، فرسيلوف، ابن آندريه بتروفتش، الذي وصل من بطرسبرج ونزل عند رفيقه في المدرسة الثانوية، الأمير فـ. . . سكي، هناك سيسلِّمني المبلغ المرسل إليَّ كنفقاتٍ للرحلة. بدت لي المسألة بسيطة غاية البساطة: فمن الجائز جداً أن يكون آندريه بتروفتش قد عهد بهذه المهمة إلى ابنه، بدلاً من إرسال المبلغ بالبريد. ومع ذلك فإن هذا النبأ قد أمسك بخناقي وأخافني خوفاً غير طبيعي. لا شك في أن فرسيلوف قد أراد أن يعرِّفني بابنه، الذي هو أخي. كذلك تصورت نيات الرجل الذي كنت أحلم به، وتصورت عواطفه. ولكن سؤالاً ضخماً قد انتصب أمامي: كيف أتصرف وكيف يجب أن أتصرف في هذا اللقاء الذي لم أتوقعه البتة، وهلاَّ يجرح هذا اللقاء كرامتي؟

وفي الساعة الحادية عشرة تماماً من صباح الغد، دخلت بيت الأمير فـ. . . سكي. إنها شقة عازب. ولكنه بدا لي البيت فاخر الأثاث. وكان فيه خدم بالملابس الرسمية. وقفت في حجرة المدخل. فكانت تصل إليَّ من الداخل أصوات حديث حار وضحكات. إن لدى الأمير فـ. . . سكي ضيوفاً آخرين غير حاجب البلاط. ذكرت للخادم اسمي وطلبت منه أن يبلغ عن وصولي. وأغلب الظن أني فعلت ذلك بشيء من الخيلاء. المهم أنني لاحظت أن الخادم حين انصرف عني قد نظر إليَّ نظرة غريبة، بل إنه لم يولني حقي من الاحترام فيما بدا لي. وما كان أشد دهشتي

Twitter: @ketab_n

حين رأيته يغيب مدة طويلة، زهاء خمس دقائق، كنت أسمع خلالها رنين تلك الضحكات نفسها وأصداء تلك الأحاديث ذاتها!

وقد انتظرت واقفاً بطبيعة الحال، لأنني، وأنا «سيد مثله»، لا يليق بي بل يستحيل عليَّ أن أجلس في حجرة المدخل التي يرابط فيها الخدم. ومن جهة أخرى لم أشأ بحال من الأحوال أن أبادر من تلقاء نفسي، بدون دعوة خاصة، فأدخل الصالون، فذلك لا يتفق وكبريائي. لعلها كانت كبرياء مغالية، ولكن هذا ما كان! وقد أدهشني أن أرى الخدم الذين بقوا (وعددهم اثنان) يسمحون لأنفسهم أن يجلسوا بحضوري. فأشحت عنهم متظاهراً بأنني لم أر ذلك منهم، ولكن أخذ جسمي كله يرتجف. ثم التفت فجأة، ودنوت من أحد الخادمين «فأمرته» بأن يمضي يبلغ عني مرةً أخرى على الفور. ولكن الخادم، رغم قسوة نظرتي وشدة اهتياجي، نظر إليَّ في كسل دون أن ينهض، وأجابني الآخر نيابة عنه:

ـ تم الإبلاغ عن وصولك. اطمئن!

فقررت أن أنتظر دقيقة واحدة، واحدة فقط، أو أقلَّ من ذلك، ثم «أنصرف». لقد كانت ثيابي حسنة: فبدلتي جديدة، ومعطفي جديد، وقميصي نضر كل النضارة عنيت به ماريا إيفانوفنا عنايةً خاصة لهذا اللقاء. ولكن الخدم، كما علمت بعد مدة طويلة، ببطرسبرج، من «مصدر موثوق به»، كان قد أبلغهم أمس خادم جاء مع فرسيلوف، أنه سيجيء إلى البيت شاب اسمه فلان هو أخو فرسيلوف سفاحاً. الآن أعرف هذا معرفة اليقين.

انقضت الدقيقة. إن ذلك الإحساس الذي يحسه المرء حين يريد أن يعزم أمره ثم لا يستطيع ذلك: «أأمضي أم لا؟ أأنصرف أم لا؟»، كنت أحسه في كل ثانية من الثواني وأنا أكاد أرتعش. وفجأة

Twitter: @ketab_n

رجع الخادم الذي ذهب يبلغ عن وصولي. كان يحمل بيده أربع ورقات نقدية حمراء، أي أربعين روبلاً. فقال لي:

ـ خذ. إليك هذه الأربعين روبلاً!

غلى دمي وفار. يالها من إهانة! لقد لبثت أحلم بهذا اللقاء الذي هيأه فرسيلوف للأخوين، لبثت أحلم به طوال الليل. وطوال الليل ظللت أتساءل محموماً: كيف يجب أن يكون سلوكي حتى لا أخفض قدر نفسي، وحتى لا أسيء إلى ذلك الصرح كله من الأفكار الذي بنيته في عزلتي وأستطيع أن أعتز وأن أفتخر به في أية بيئة. كنت أقول لنفسي: سأظهر نبلاً، وكبرياء، وقد أظهر شيئاً من الحزن والأسى أيضاً، بل قد أظهر قدراً من الخشونة والجفوة حتى في صحبة الأمير ف... سكي، فبذلك أدخل هذا المجتمع دخولاً مهيباً. آه... لا أحب أن أداري نفسي، فعلى هذا النحو إنما يجب أن تُسجَّل هذه التفاصيل الأليمة كلها! وفجأة: أربعون روبلاً، تُرسل إليَّ مع خادم، إلى حجرة المدخل، بعد انتظار دام عشر دقائق، ويقدِّمها إليَّ الخادم رأساً، بيده، بأصابعه، لا موضوعة على صحن، ولا مودعة في ظرف!...

صرخت في وجه الخادم صراخاً بلغ من الشدة أنه ارتجف وتراجع القهقرى، وأمرته بأن يعيد المال إلى سيده حالاً «ليحمله سيده إليَّ بنفسه!»، أي أنني طلبت طلباً لا شك أنه كان في نظر الخادم غير معقول ولا مفهوم. ولكن صراخي قد بلغ من القوة أن الخادم أطاع الأمر. هذا عدا أن صرخاتي سُمعت في الصالون، فسرعان ما توقفت أصوات الأحاديث والضحك فوراً.

ولم ألبث أن سمعت وقع أقدام رصينة موزونة هادئة، ثم إذا أنا أرى قامة فارعة لفتى جميل المحيا متكبر الهيئة (وقد بدا لي يومئذ أشد

Twitter: @ketab_n

شحوباً ونحولاً منه في هذا اللقاء الثاني) تظهر في العتبة أو قل تقف على مسافة بضعة سنتمترات من العتبة. كان يرتدي ثوباً للمنزل رائعاً مصنوعاً من حرير أحمر، وينتعل بابوجين ويضع على عينيه نظارة أنف. وها هو ذا يتفرس فيَّ من خلال نظارته بدون أن يقول كلمة واحدة، فتقدمت منه خطوةً، كوحش كاسر، ووقفت أمامه متحدياً، أحدِّق إليه بنظرة ثابتة. ولكنه لم يتأملني هذا التأمل إلا برهة قصيرة لا تزيد على عشر ثوان، ثم إذا بسخرية خفيفة لا تكاد تُرى تظهر على شفتيه، ولكنها مع ذلك سخرية جارحة جداً، جارحة لأنها لا تكاد تُرى. ثم ها هو ذا يدور على كعبيه، ثم يرجع إلى حيث كان، دون تعجل، بل بهدوء ورفق وخطى موزونة كما جاء. آه من هؤلاء الوقحين الذين يتعلمون إهانة الناس منذ طفولتهم، في أسرتهم، من أمهاتهم! وقد فقدت حضور بديهتي طبعاً. آه. . . لماذا فقدتها؟

وفي تلك اللحظة نفسها تقريباً رجع ذلك الخادم نفسه حاملاً بيديه تلك الورقات نفسها، وقال:

ـ تفضل بقبولها. إنها مرسلة من بطرسبرج. لا يمكن استقبالك. «ربما استقبلك «السيد» في مرة أخرى، حين يكون لديه متسع من الوقت أكبر».

أحسست أن الكلمات الأخيرة قد أضافها هو. ولكن اضطرابي استمر في إضعاف نفسي. فتناولت المال بدون تفكير واتجهت نحو الباب. فبسبب ذلك الاضطراب إنما أخذت المال، وكان ينبغي في الواقع أن أرفضه. ولم يفت الخادم، من أجل إهانتي طبعاً، أن يغضب غضبة جديرة بخادم حقاً فأسرع يفتح الباب أمامي واسعاً، حتى إذا مررت قال بوقار ولهجة خاصة:

ـ تفضل!

Twitter: @ketab_n

فزأرت أقول وأنا أرفع يدي ولكن دون أن أهوى بها:

ـ أنت وغد. وسيدك وغد آخر، فقل له هذا فوراً.

أضفت هذه الجملة الأخيرة وأنا أدرك السلَّم مسرعاً.

ـ لا يحق لك! ولو نقلت كلامك إلى «السيد» فوراً، لاستطاع «السيد» أن يرسلك إلى مخفر الشرطة حالاً مع بطاقة منه. أما تهديدي أنا، فلا يحق لك...

هبطت السلّم. إنه سلّم مترف عريض مكشوف. فيمكن أن أُرى من أعلى نازلاً على السجادة الحمراء. فكان الخدم الثلاثة قد خرجوا واتكئوا بأكواعهم على قمة الدرابزين ينظرون إلى انسحابي. وقد قررت أن ألزم الصمت طبعاً: كيف أشاجر خدماً؟ ووصلت إلى تحت، دون أن أتعجل الخطى، وإنما أتعمد البطء فيما أظن.

رب حكماء (شيطان يأخذهم!) يقولون إن هذا كله حساسية لا داعي إليها، وتأذ في غير محله، وحنق لا يصدر إلا عن أغرار! قد يكون هذا الكلام صحيحاً. غير أن الأمر كان بالنسبة إليَّ جرحاً عميقاً، جرحاً لم يمكن أن يندمل حتى الآن، حتى في هذه اللحظة التي أكتب فيها بعد أن انتهى كل شيء، بل أنتقم لكل شيء. يميناً يميناً ما أنا بالحقود ولا بمن يتحرق إلى الانتقام. صحيح أنني أشتهي دائماً، إلى حد التألم، أن أنتقم ممن ينالني بإهانة. ولكنني أحلف لكم أنني بالسماحة أنتقم. إنني أرد على الإهانة رداً فيه سماحة، فيكفيني أن يشعر المسيء وأن يدرك أنني كنت سمحاً كريماً، حتى أحس أنني انتقمت منه. يجب أن أضيف في هذه المناسبة أنني لا أتحرق إلى الانتقام، ولكنني حقود وإن أكن سمحاً كريماً: هل يشبهني في هذا جميع الناس؟ لقد وصلت إلى بيت الأمير ف... سكي فيَّاض النفس بعواطف كريمة... قد تكون عواطف

Twitter: @ketab_n

مضحكة... لا مانع... ولكن لأن يكون المرء مضحكاً ولكن على شهامة، خير من ألا يكون مضحكاً ولكن على دناءه ووضاعة!

لم أحدِّث أحداً عن هذا اللقاء الذي تمَّ بيني وبين «أخي»، ولم أكاشف به حتى ماريا إيفانوفنا، ولم أبح بسرِّه حتى لليزا حين جئت إلى بطرسبرج. كان ذلك اللقاء بمثابة صفعة أليمة جللتني بالخزي والعار. ثم هأنذا أقع فجأة على هذا السيد في ظروف يا لها من ظروف عجيبة! وها هو ذا يبتسم لي، ويرفع قبعته احتراماً، وينزع حتى نظارته تودداً، ويقول لي فجأة بلهجة فيها صداقة: «مساء الخير» (بالفرنسية). إن هذا يبعث على التفكير والتأمل طبعاً... ولكن الجرح نُكِئ وَنَزَف!

5

بعد الانتظار في المطعم مدةً تزيد على أربع ساعات وجدتني كمن أصابته نوبة على حين فجأة، فإذا أنا أخرج وأتجه مسرعاً إلى بيت فرسيلوف. إنه لم يرجع إلى البيت. وكانت الخادمة سأمانة، فرجتني أن أرسل إليها داريا أونيسيموفنا بسرعة. هه! هذا ما كان يشغل بالي! وذهبت إلى بيت ماما أيضاً، ولكنني لم أدخل، وإنما استدعيت لوكيريا إلى الدهليز، فعلمت منها أنه لم يظهر، وأن ليزا غابت. ولاحظت أن لوكيريا كانت تود لو تسألني أيضاً، بل لعلها ودَّت لو تعهد إليَّ بمهمة، ولكن هل كان يمكنني أن أصغي إليها؟ هناك أمل أخير: لعله ذهب إلى بيتي. ولكنني لم أصدِّق أن يكون قد ذهب إلى بيتي!

سبق أن قلت إن عقلي كان اضطرب واختل تقريباً. وهأنذا أجد في غرفتي: آلفونسين والمؤجر. بل قل إنني وجدتهما يخرجان من

Twitter: @ketab_n

غرفتي. وكان بيتر إبيوليتوفتش يحمل شمعة.

صرخت أقول له:

ـ ما هذا؟ كيف تجاسرت أن تُدخل إلى غرفتي هذه التافهة؟

فهتفت آلفونسين تقول بالفرنسية:

ـ «غريب... والأصدقاء؟».

فزأرت قائلاً:

ـ أخرجي من هنا.

ـ «دب حقاً».

وفرت إلى الممر متظاهرةً بالخوف، واختفت في غرفة صاحبة البيت. واقترب مني بيتر إبيوليتوفتش بهيئة قاسية وهو يحمل شمعدانه:

ـ اسمح لي أن ألفت نظرك يا آركادي ماكاروفتش إلى أنك قد أسرفت في الاندفاع. ومهما يكن احترامنا لك، فإننا لا يسعنا إلا أن نذكِّرك بأن مدموازيل آلفونسين لا توصف بالتافهة. بالعكس! إنها لم تأتِ لتزورك أنت بل لتزور زوجتي. لقد تعارفنا منذ بعض الوقت.

فكررت سؤالي وأنا أمسك رأسي الذي أصابه ما يشبه بالصداع فجأة:

ـ ولكن كيف تجاسرت أن تدخلها غرفتي؟

ـ مصادفة!... دخلت أنا لأغلق كوة النافذة التي كنت قد فتحتها لتهوية الغرفة، وإذ كنا مستمرين في الحديث الذي بدأناه أنا وآلفونسين كارلوفنا، فقد دخلت الغرفة معي متابعةً كلامها، دون أن تشعر.

ـ هذا كذب. آلفونسين جاسوسة. ولامبرت جاسوس. وربما

Twitter: @ketab_n

كنت أنت أيضاً جاسوساً. لقد جاءت لتسرق شيئاً.

ـ قل ما شئت. اليوم تقول شيئاً، وغداً تقول شيئاً آخر. أريد أن أبلغك أنني أجرت مسكني الشخصي، أجرته إلى حين، وسنقيم أنا وامرأتي في حجرة المكتب. ويترتب على هذا أن آلفونسين كارلوفنا هي الآن من سكان البيت تقريباً، مثلك.

هتفت أسأله مرتاعاً:

ـ أجرت مسكنك للامبرت؟

فابتسم تلك الابتسامة الطويلة التي لاحت في وجهه عند الصباح ولكن فيها الآن ثباتاً لم يكن لها حينذاك، وقال:

ـ لا، لم أؤجره للامبرت. أظن أنك تعرف لمن أجرته، وإنما أنت تتظاهر بالجهل تفكهاً وتسلية! وإذا غضبت فمن باب التقيد بالشكل. ليلتك سعيدة.

ـ نعم، نعم، دعني هادئاً.

وحرَّكت يديَّ متململاً، وكدت أبكي من شدة ضيقي، فلم يسعه إلا أن يدهش وهو ينظر إليَّ. ولكنه خرج. فدفعت المزلاج، وتهالكت على سريري، ودفنت وجهي في الوسادة. كذلك انقضى ذلك اليوم الأول الرهيب من الأيام الثلاثة المشؤومة التي تختم مذكراتي.

Twitter: @ketab_n

الفصل العاشر

1

ولكني سأستبق الأحداث مرةً أخرى. إني أرى أن من الواجب منذ الآن أن أزود القارىء ببعض المعلومات، لأن المجرى الأساسي لهذه القصة قد دخلت فيه أحداث عارضة تبلغ من الوفرة أن القارىء يمكن أن يتوه ما لم يُزوَّد ببعض الإيضاحات سلفاً. ما ذلك «الكيس» الذي أشارت إليه تاتيانا بافلوفنا؟ إن آنا آندرييفنا قد رأت أخيراً أن تقدم على خطوة هي أجرأ خطوة يمكن تصورها في هذا الوضع. امرأة جسور حقاً! لقد نقل الأمير العجوز، بحجة المرض، إلى تسارسكويا سيلو؛ وترتب على ذلك أن نبأ اعتزامه الزواج بآنا آندرييفنا لم يتح له أن يذيع في المجتمع وإنما اختنق في مهده إن صح التعبير. ولكن الشيخ الضعيف الذي يمكن للمرء أن يفعل به كل شيء، ما كان له، رغم ذلك، أن يوافق بحال من الأحوال على أن يتخلى عن فكرته وأن يخون آنا آندرييفنا التي طلبت أن يتزوجها. لقد كان من هذه الناحية فارساً. وفي وسعه، عاجلاً أو آجلاً، أن ينهض فجأة، فيضع نيته موضع التنفيذ بقوة جبارة لا سبيل إلى السيطرة عليها، كما يحدث ذلك للطباع الضعيفة في أحيان كثيرة، لأن ثمة حدوداً لا يجوز أن ندفعهم إلى ما وراءها. ولقد كان الشيخ يدرك عدا ذلك تماماً الإدراك أن وضع آنا آندرييفنا

Twitter: @ketab_n

التي يحترمها احتراماً عظيماً وضع حرج، كما يدرك أيضاً أن هناك نمائم يمكن أن تذاع، وسخريات يمكن أن تنطلق، وشائعات يمكن أن تروَّج. والشيء الذي كان يهدئه ويوقفه الآن هو أن كاترينا نيقولايفنا لم تسمح لنفسها أبداً، لا تصريحاً ولا تلميحاً، أن تقول أمامه أي رأي سيىء في آنا آندرييفنا، ولا أن تبدي أي اعتراض على اعتزامه الزواج بها. بالعكس: كانت تبدي فرحاً كبيراً، وكانت تحيط خطيبة أبيها بأكبر الرعاية وأعظم الاهتمام. وهكذا كانت آنا آندرييفنا في موقف دقيق غاية الدقة، فهي بما تملكه من رهافة الحس، تدرك أنها إذا قامت بأي هجوم على كاترينا نيقولايفنا التي يحبها الأمير أعظم الحب أيضاً، ويحبها اليوم أكثر مما أحبها في أي يوم، لا سيما وأنها سمحت له بالزواج مبرهنةً على ذلك القدر كله من الكرم والاحترام، فإنها ستجرح أرق مشاعرها، وستجعلها تشك فيها بل تستاء منها. على هذا الميدان إذن إنما كان يقوم القتال الآن: فالخصمان ـ أي آنا آندرييفنا وكاترينا نيقولايفنا ـ إنما يحاربان بسلاح المجاملة والصبر. والأمير، من جهته، لا يدري أي المرأتين أروع من الأخرى وأدعى إلى الإعجاب! وعلى عادة جميع الرجال الضعاف، الذين لهم مع ذلك قلوب رقيقة، انتهى به الأمر إلى التألم واتهام نفسه بكل شيء. ويقال إن كآبته قد وصلت إلى حد المرض، وإن أعصابه تهدمت، فبدلاً من أن يجد في تسارسكويا الشفاء، أوشك أن يلزم فيها الفراش فيما قيل.

أحب أن أشير هنا، مستطرداً، إلى شيء لم أعلم به إلا بعد مدة طويلة، هو أن بيورنج، فيما يقال، قد اقترح على كاترينا نيقولايفنا أن يقتادا العجوز إلى الخارج، بعد أن يهيئاه لذلك بحيلة من الحيل، ثم يكون من السهل عليهما هناك، في الخارج، أن يحصلا

Twitter: @ketab_n

على شهادة من أطباء. ولكن هذا ما لا تقبله كاترينا نيقولايفنا بحال من الأحوال. أو ذلك ما قيل فيما بعد، حتى ليقال إنها رفضت الاقتراح مستاءة. وتلك شائعة بعيدة العهد، لكنني أصدِّقها.

فلما صارت القضية إلى هذا الطريق المسدود، علمت آنا آندرييفنا من لامبرت أن هناك رسالة تسأل فيها البنت أحد رجال القانون عن وسيلة يمكن أن تعمد إليها لإعلان أن أباها مجنون. فإذا بروحها المتكبرة الانتقامية تهتاج أشد الاهتياج على حين فجأة. وتذكرت ما سبق أن دار بيني وبينها من أحاديث، وقرَّبت بين تلك الأحاديث وبين طائفة كبيرة من الأحاديث الصغيرة فلم يخامرها شكٌ في أن هذا النبأ صحيح. فإذا بخطة للهجوم تنضج في قلبها، قلب المرأة الصلبة التي لا تلين، وإذا هي تجد نفسها مدفوعة إلى تنفيذ هذه الخطة دفعاً لا سبيل إلى مقاومته. وكانت الخطة هي أن تكشف للأمير فجأة، بدون مداراة ومراعاة، وبدون لف ودوران عن القصة كلها، فترعبه وتهزه هزاً قوياً، وتبيِّن له أن مستشفى المجانين ينتظره حتماً. فإذا عند واستاء ورفض أن يصدِّق، كشفت له عن قصة رسالة ابنته قائلةً له: «إن نية إعلان أنك مجنون قد سبق أن وُجدت في الماضي، فكيف لا توجد الآن من بابٍ أولى لمنعك من الزواج!». وبعد ذلك تنقل الشيخ العجوز إلى بطرسبرج مروَّعاً مهدَّماً مقتولاً، وتجيء به إلى «بيتي أنا رأساً».

هذه مجازفة رهيبة. ولكن آنا آندرييفنا كانت تعتمد على قوتها اعتماداً ثابتاً لا يتزعزع. ويجب أن أقول هنا، مبتعداً عن الموضوع لحظةً، ومستبقاً الأحداث استباقاً كبيراً، إن ظنها لم يخطىء كثيراً فيما يتعلق بقوة هذه الضربة. فإن هذا النبأ كان له من التأثير في الأمير الشيخ أكثر مما تصورت هي وتصورنا نحن أن يكون له من

Twitter: @ketab_n

تأثير. ولم أكن علمت أبداً إلى ذلك الحين أن الأمير كان قد ترامى إلى سمعه شيء عن تلك الوثيقة، ولكنه، على ما هو معهود في جميع الرجال الضعاف الهيابين، لم يصدّق تلك الشائعة بل دفعها عنه بكل ما يملك من قوة، حفاظاً على هدوئه وطمأنينته. ويجب أن أضيف أيضاً أن وجود الرسالة قد أثر في كاترينا نيقولايفنا تأثيراً رهيباً يفوق كثيراً ما كنت أتوقع أن يكون له من تأثير حينذاك!... الخلاصة أن تلك الورقة قد ظهر أنها أخطر شأناً مما كنت أظن أنا الذي كنت أحملها مخيطةً في جيبي. ولكنني أرى أنني أسرف في استباق الأحداث.

رب سائل يسأل: ولكن لماذا تجيء به إلى بيتي رأساً؟ لماذا تنقل الأمير إلى غرفنا البائسة فترعبه في هذا الجو التعيس؟ إذا كان نقله إلى منزله مستحيلاً (لأن من الجائز أن يُحبط المشروع كله هناك)، فلماذا لا تهيىء له مسكناً «ثرياً» كما كان يقترح لامبرت؟ هنا تكمن كل مجازفة الخطوة الخارقة التي قامت بها آنا آندرييفنا!

كان الأمر الأساسي هو أن تطلع الأمير على الوثيقة فور وصوله. وكنت أنا لا أسلِّم الوثيقة بحال من الأحوال. ولأن على آنا آندرييفنا ألا تضيع شيئاً من الوقت، ولأنها تعتمد على سلطانها اعتماداً كبيراً، فقد قررت أن تشرع في تنفيذ الخطة قبل أن تملك الوثيقة، على أن تجيء بالأمير إلى بيتي رأساً. لماذا؟ لكي تنقضّ عليَّ أنا أيضاً، فتقتل بحجر واحد عصفورين كما يقول المثل. كانت تريد أن تعمد إلى أسلوب الصدمة والهزة والمباغتة معي أنا أيضاً. كانت تقدِّر أنني متى رأيت الشيخ في بيتي، ورأيت ارتياعه وحزنه، وسمعت رجاءه ورجاءها، فقد أستسلم فأظهر الوثيقة. يجب أن أعترف بأن حسابها كان حاذقاً وذكياً، وكان يقوم على

Twitter: @ketab_n

معرفة بالنفس الإنسانية، وإذا لم يكن قد نجح فقد أوشك. أما الشيخ فقد استطاعت أن تحمله على تصديقها بالأيمان تحلفها، وأعلنت له أنها ستمضي به إلى «بيتي أنا». ذلك كله قد عرفته فيما بعد. إن مجرد إبلاغه أن الوثيقة عندي قد أزال من قلبه الوَجِل آخر شكوكه في صحة الواقعة: فإلى هذا الحد كان يحبني ويحترمني!

يجب أن أذكر أيضاً أن آنا آندرييفنا نفسها لم تشك لحظة واحدة في أن الوثيقة لا تزال عندي، وأنني لم أتخلص منها بعد. والحق أنها قد أساءت فهم طبعي، فكانت تعول بكثير من الاستهتار على سذاجتي وبراءتي وبساطتي، وحتى على فرط حساسيتي، وقد قدَّرت من جهة أخرى أنني إذا قررت أن أسلِّم الوثيقة إلى كاترينا نيقولايفنا مثلاً، فلا بد أن يكون هذا التسليم في ظروف خاصة، فكانت تريد أن تستبق هذه الظروف وأن تمنعها، وذلك بالمفاجأة والهجوم المباغت والصدمة.

ثم إن لامبرت قد طمأنها عن هذا كله. سبق أن قلت أن وضع لامبرت كان في ذلك الحين حرجاً غاية الحرج، دقيقاً أشد الدقة: لقد كان، هو الخائن، يريد أن يصرفني عن آنا آندرييفنا، ويحملني على بيع الوثيقة لآخماكوفا بالاتفاق معه، لأن ذلك يعود عليه بربح أكبر. لكنه وقد لاحظ أنني ظللت أرفض إلى آخر لحظة أن أسلِّم شيئاً بحال من الأحوال، قرر أن يساعد حتى آنا آندرييفنا من أجل ألا يفقد أي ربح. لذلك أخذ يستميت في تقديم خدماته لها، حتى لقد عرفت أنه عرض عليها أن يجيئها بكاهن عند اللزوم... ولكن آنا آندرييفنا ابتسمت له ابتسامة احتقار، ورجته أن يخفف من قوة حماسته ونشاطه. كان لامبرت يبدو لها رجلاً كريهاً مقيتاً، ولا يوقظ في نفسها إلا اشمئزازاً وتقززاً. لكنها قبلت خدماته على سبيل

Twitter: @ketab_n

الحكمة والروية والحذر. وكانت هذه الخدمات هي أن يتجسس لها مثلاً! يجب أن أقول في هذه المناسبة إنني لا أدري حتى هذه اللحظة هل كانوا قد اشتروا بيتر إبيوليتوفتش أم لا، وهل قبض منهم أي شيء ثمناً لخدماته أم هو دخل شركتهم ببساطةٍ من باب حب المغامرة. ولكنه كان يتجسس عليَّ. أما امرأته فأنا أعلم علم اليقين أنها كانت تقوم بهذا التجسس.

سيدرك القارىء الآن أنني، رغم تحسبي قليلاً، لم يكن في وسعي أن أحزر أني سأجد الأمير العجوز في بيتي غداً أو بعد غد. وما كان لي أن أفترض لدى آنا آندرييفنا جسارة كهذه الجسارة! إن المرء يستطيع أن يقول بالكلام ما يريد، وأن يشير بالكلام إلى أي شيء. أما أن يقرر، ويشرع، وينفذ... فهذا يحتاج إلى طبع خاص وشكيمة قوية!

2

أتابع:

استيقظت في الغداة ضحى. لقد نمت نوماً عميقاً بلا أحلام. فلما أفقت أحسست براحة كبيرة في جسمي ونفسي على السواء، حتى لكأن الأمس لم يوجد. قررت ألا أذهب إلى بيت ماما، وإنما أمضي إلى كنيسة المقبرة رأساً. حتى إذا انتهت الجنازة رجعت إلى أمي فلم أتركها النهار كله. وكنت واثقاً ثقة تامة بأنني سألقاه عند ماما على كل حال، في ساعة متقدمة أو في ساعة متأخرة من النهار، ولكنني سألقاه.

لم يكن في البيت لا آلفونسين ولا المؤجر. لقد خرجا منذ وقت غير قصير. ولم أشأ أن أسأل امرأة المؤجر، وكنت قد قررت على

Twitter: @ketab_n

كل حال أن أقطع جميع صلاتي بهم، وأن أترك هذا البيت في أقرب وقت. لذلك ما أن أُتيت بالقهوة حتى عدت أغلق على نفسي الباب. ولكن الباب لم يلبث أن قُرع. فدهشت. وكان القارع تريشانوف.

فتحت له فوراً، ودعوته أن يدخل وسرني أن أراه. ولكنه رفض أن يدخل وقال:

ـ كلمتان فقط أريد أن أقولهما لك على العتبة. . . أم الأفضل أن أدخل؟ أظن أن الكلام يجب أن يقال هنا همساً. ولكنني لن أجلس. أراك تنظر إلى معطفي الرديء. لقد استرد لامبرت مني المعطف.

كان يرتدي معطفاً بالياً طويلاً على قامته فعلاً. وقد وقف أمامي متسمراً، متجهم الوجه مهموماً، واضعاً يديه في جيبه، دون أن يخلع قبعته:

ـ لن أجلس! لن أجلس! اسمع يا دولجوروكي! لا أعرف تفاصيل. لكني أعرف أن لامبرت يدبر لك مكيدة، وهذه المكيدة توشك أن تتم حتماً. اعلم هذا علم اليقين. فكن يقظاً. إن المجدور هو الذي زلَّ لسانه فألمع إلى هذا الأمر. هل تتذكر المجدور؟ إنه لم يذكر لي نوع المكيدة، فلا أستطيع أن أقول لك أكثر مما قلت. أنا لم أجيء إليك إلا لأنبهك. إلى اللقاء!

ـ ولكن هلاً جلست يا عزيزي تريشانوف؟ صحيح أنني على عجلة من أمري، ولكن يسعدني أن أراك. . .

ـ لا، لا، لن أجلس. ولكنني سأتذكر طوال حياتي أنك أحسنت استقبالي. آه يا دولجوروكي؟ لماذا خداع الناس؟ إني قد ارتضيت لنفسي عامداً أن أرتكب أنواعاً من القذارات، وأن أقوم

Twitter: @ketab_n

بأعمال تبلغ من الدناءة أنني أخجل من ذكرها لك. نحن الآن نعمل مع المجدور... أستودعك الله... إنني لا أستحق أن أجلس عندك.

ـ كفى يا تريشانوف، يا عزيزي...

ـ لا يا دولجوروكي... أنا الآن ذاهب للقيام بأعمال وسخة، وسألهو بعد ذلك وأقصف. وقريباً سأحظى بمعطف أجمل من معطفي السابق أيضاً... وسأمضي أتنزه راكباً عربة. ولكني سأظل أعرف بيني وبين نفسي أنني خجلت أن أجلس عندك لاعتقادي بأنني لا أستحق ذلك، وبأنني أمامك دنيء سافل. سوف أحظى بلذة هذه الذكرى على الأقل، حين أمضي أتبذل في القصف واللهو بحقارة ونذالة. أستودعك الله. هيَّا. أستودعك الله. لن أناولك يدي أيضاً. إن آلفونسين لا ترضى أن تصافحني. وأرجوك ألا تسعى إلي، وألا تحاول رؤيتي. هذا شرط بيننا.

واستدار الفتى العجيب على كعبيه ومضى. لا يتسع وقتي الآن للبحث عنه، ولكنني قطعت على نفسي عهداً لأكشفن مكانه بأقصى سرعة مهما كلف الأمر، متى فرغت من تدبير أموري وحل مشاكلي.

لن أصف وقائع ذلك الصباح تفصيلاً، رغم أن هناك ذكريات كثيرة ينبغي حفظها. لم يحضر فرسيلوف إلى الكنيسة. حتى لقد كان يمكن للمرء أن يستنتج من النظر إلى وجوههم أنهم كانوا، حتى قبل حمل الجثمان، لا يتوقعون أن يجيء إلى الكنيسة. وقد صلَّت أمي بحرارة، بل كانت غارقة في صلاتها غرقاً كاملاً. ولم يكن أحد بجانب الجثمان إلا تاتيانا بافلوفنا وليزا. لكنني لا أصف، لا أصف شيئاً. بعد الدفن، عاد الجميع إلى البيت، وجلسوا إلى

Twitter: @ketab_n

المائدة. فاستنتجت مرة أخرى من النظر إلى وجوههن أنهن كن لا ينتظرنه على المائدة أيضاً. حتى إذا نهضنا، اقتربت من ماما، وقبَّلتها بحرارة، وتمنيت لها عيداً سعيداً؛ واقتدت بي ليزا، ففعلت مثلي.

وهمست تقول خفيةً:

ـ اسمع يا أخي، إنهن ينتظرنه.

ـ أدركت هذا يا ليزا، رأيته.

ـ سيأتي حتماً.

قلت لنفسي: لا بد أن لديهن معلومات دقيقة. لكنني لم أسأل. رغم أنني لا أصف عواطفي، يجب أن أذكر أن هذا اللغز قد جثم ثقيلاً على قلبي، رغم كل ما كنت فيه من حسن المزاج. جلسنا جميعاً في الصالون، إلى المائدة المستديرة، حول ماما، آه... ما كان أعظم سعادتي بوجودي معها ونظري إليها! وطلبت مني ماما فجأة أن أقرأ لها صفحة من الإنجيل. فقرأت لها إصحاحاً من إنجيل القديس لوقا. لم تكن تبكي، حتى أنها لم تكن شديدة الحزن، ولكن وجهها لم يكن روحانياً في يوم من الأيام بمقدار ما هو روحاني في هذا اليوم. وكانت تسطع في نظرتها اللطيفة فكرة، ولكن لم يكن في هذه النظرة أي شيء من نفاد الصبر في انتظار أمر من الأمور. وجرت الأحاديث ثرةً لا ينضب لها معين. قيلت ذكريات كثيرة عن المتوفى. وذكرت عنه تاتيانا بافلوفنا طائفة كبيرة من الأمور كنت أجهلها إلى ذلك الحين كل الجهل. فلو سجلت ما دار في ذلك الحديث لجمعت محصولاً وافراً شائقاً. حتى تاتيانا بافلوفنا تغيَّرت حالها: فهي الآن رقيقة جداً، ملاطفة جداً، بل هي هادئة جداً، رغم أنها تكلمت كثيراً لتسلِّي ماما. لكن هناك أمراً تفصيلياً أتذكره تذكراً واضحاً: كانت ماما جالسةً على الديوان،

Twitter: @ketab_n

وكان فوق منضدة صغيرة على يسارها صورةٌ يبدو أنها وُضعت هنالك عمداً، وهي أيقونة قديمة بدون مسند من معدن، تمثل قديسَيْن فوق رأسيهما هالتان. إن هذه الأيقونة كانت لماكار إيفانوفتش: كنت أعلم ذلك، وكنت أعلم أيضاً أن المتوفى كان لا يفارقها أبداً وكان يعتقد بقدرتها الإعجازية.

نظرت تاتيانا بافلوفنا إلى الأيقونة عدة مرات ثم قالت فجأةً وهي تغيِّر موضوع الحديث:

ـ اسمعي يا صوفيا، أليس الأفضل أن نضع هذه الأيقونة قائمة على المائدة مستندةً إلى الحائط وأن نشعل أمامها شمعة؟

قالت:

ـ بلى هي على هذا الوضع أحسن.

ـ حقاً. وإلا كنا نسرف في الاحتفال...

لم أفهم حينئذ شيئاً، ولكن واقع الأمر أن ماكار إيفانوفتش قد أعلن جهاراً منذ مدة طويلة أنه يورث آندريه بتروفتش هذه الصورة، فكانت ماما تستعد لتسليمها إليه.

كانت الساعة قد بلغت الخامسة والنصف من الأصيل. وطال الحديث. فإذا أنا ألاحظ في وجه ماما نوعاً من الارتعاش، وإذا هي تنصب جذعها بسرعة وتصيخ بسمعها على حين كانت تاتيانا بافلوفنا مستمرةً في كلامها ولم تلاحظ شيئاً. فأسرعتُ التفتُ إلى جهة الباب، فما انقضت لحظة حتى رأيت آندريه بتروفتش في العتبة. إنه لم يسلك طريق درج المدخل، وإنما جاء من جهة سلم الخدم، فمرَّ بالمطبخ فالدهليز، وكانت أمي وحدها هي التي سمعت وقع خطاه. سأصف الآن كل مشهد الجنون الذي أعقب ذلك، حركةً حركة، وكلمةً كلمة.

Twitter: @ketab_n

في البداية، لم ألاحظ على وجهه، من أول نظرة على الأقل، أيَّ تغير. كان هندامه هو هندامه المألوف، أي هنداماً أقرب إلى الأناقة. وكان يمسك بيده باقة أزهار غضة، باقةً صغيرة لكنها ثمينة. وقد اقترب من ماما ومدَّ إليها الباقة مبتسماً فنظرت إليه ماما بدهشة وجلة، لكنها قبلت الباقة، ثم إذا بحمرة تنعش خديها الشاحبين فجأة، وإذا بفرح يسطع في عينيها.

قال:

ـ كنت أعرف أنك ستستقبلينني هذا الاستقبال يا صوفيا.

وإذ كنا قد نهضنا جميعاً عند دخوله فقد دنا من المائدة، فجلس على المقعد الذي كانت تجلس عليه ليزا، والذي يقع على يسار ماما، دون أن ينتبه إلى أنه يأخذ مكان شخص آخر. وهكذا كان موقعه بجانب المنضدة التي كانت عليها الأيقونة.

ـ سلام على الجميع. يا صوفيا، لقد أصررت إصراراً مطلقاً على أن أحمل إليك هذه الباقة احتفالاً بعيد ميلادك. ولئن لم أجىء إلى الجنازة، فلكي لا أظهر أمام ميت بباقة أزهار. لكنني أعلم أنك كنت لا تنتظرين مجيئي إلى الجنازة. ولن يحقد عليَّ الشيخ لأنني جئت بأزهار، ألم يأمرنا هو نفسه بالفرح؟ أعتقد أنه الآن في مكان ما بهذه الغرفة.

نظرت إليه ماما مستغربة. وكانت تاتيانا بافلوفنا كمن طار صوابها. فسألته:

ـ من بهذه الغرفة؟

ـ المتوفى. ولكن فلندع هذا الأمر. تعرفون أن الإنسان الذي لا يؤمن بالمعجزات يكون أميل من غيره إلى الإيمان بالأوهام والخرافات. ولكن فلنجعل كلامنا يدور على باقة الأزهار: كيف

Twitter: @ketab_n

حملتها إلى هنا؟ لا أدري. لقد اشتهيت عدة مرات أن أرميها على الثلج وأن أدوسها بقدمي.

ارتعدت ماما. وتابع هو كلامه يقول:

ـ اشتهيتُ ذلك بقوة جنونية. رحمةً بي يا صوفيا، ورحمةً برأسي المسكين. لقد اشتهيت ذلك لأن الباقة جميلة مسرفة في الجمال. هل في العالم أجمل من زهرة؟ حملتها والثلج والجليد في كل مكان. جليدنا والأزهار: تعارض! ولكن ليس هذا ما يهمني: فإنما أنا اشتهيت أن أدوسها بقدميَّ لأنها جميلة. يا صوفيا، سأغيب من جديد، ولكنني سأعود بسرعة، لأنني سأخاف، فيما يخيَّل إليَّ. سأخاف: ومن يشفيني من الخوف إلا صوفيا؟ أين أجد ملاكاً مثل صونيا؟ ولكن ما تلك الصورة هناك؟ آ. . . أيقونة المتوفى! تذكرت. ورثها عن أسرته، عن جده. لم ينفصل عنها طول حياته. أنا أعلم هذا. وأتذكر أنه أورثني إياها. نعم، أتذكر هذا تذكراً واضحاً. . . وأظن أنها أيقونة من أيقونات «قدامى المؤمنين». . . أرني!

وتناول الأيقونة بيديه، وقرَّبها من الشمعة، وأخذ يتأملها. ولكنه بعد أن أمسكها بضع ثوان فقط، وضعها على المائدة، أمامه في هذه المرة. كنت مدهوشاً مذهولاً. لقد أطلق هذه الجمل كلها على نحو ما كان لأحد أن يتوقعه، فكنت لا أستطيع أن أجمع شتات فكري. ولكنني أتذكر أن هلعاً يشبه المرض قد نفذ في قلبي. وانقلب ذعر أمي إلى حيرة وارتباك، وإلى شفقة وعطف. كانت ترى فيه إنساناً بائساً قبل أي شيء آخر. لقد سبق له أن كان حديثه غريباً هذه الغرابة قبل الآن. وشحب لون ليزا شحوباً هائلاً على حين فجأة، وأومأت لي برأسها إليه. ولكن تاتيانا بافلوفنا هي التي كانت أكثرهن جزعاً. قالت تسأله بحذر:

Twitter: @ketab_n

ـ ولكن ماذا بك يا عزيزي آندريه بتروفتش؟

ـ حقاً لا أدري ماذا بي يا تاتيانا بافلوفنا العزيزة. هدئي روعك. لا أزال أتذكر أنك تاتيانا بافلوفنا، وأنك طيبة رائعة. ولكنني لم أجيء إلا لأمكث دقيقة واحدة. إنني أود أن أقول لليزا شيئاً حسناً، وأبحث عن كلمة أقولها فلا أفلح، مع أن قلبي مترع بكلمات لا أستطيع أن أقولها وهي كلمات غريبة في الواقع. يخيَّل إليَّ أنني أزدوج فأصبح اثنين.

قال ذلك وهو ينظر إلينا جميعاً بوجه جادٍ إلى أقصى حدود الجد، وبرغبة صادقة في الإفصاح عما في نفسه. وتابع كلامه يقول:

ـ الحقيقة أن فكري يزدوج فيصبح فكرين اثنين، وهذا ما أخشاه كثيراً. لكأن لي (أنا آخر) يجلس إلى جانبي. فأنا رجل عاقل معتدل، ولكن الآخر الذي بجانبي يصرُّ على أن يقوم بعمل مستحيل، أو عمل سخيف جداً، ثم إذا بي أشعر فجأةً أنني أنا الذي أريد أن أقوم بهذا العمل، لا يدري إلا الله لماذا! أريد! أريد أن أقوم به رغم أنفي، وأريد أن أقوم به وأنا أعارضه بكل ما أملك من قوة. عرفت ذات مرة طبيباً أخذ يصفر في الكنيسة فجأة أثناء الاحتفال بجنازة ابنه. حقاً لقد خفت أن أجيء اليوم إلى الجنازة، لأنني قد رسخ في عقلي اعتقاد جازم ويقين مطلق بأنني سأنطلق صافراً أو ضاحكاً أثناء الجنازة على حين فجأة، كما فعل ذلك الطبيب المسكين الذي كانت نهايته سيئة. وحقاً لا أدري لماذا لازمتني ذكرى ذلك الطبيب طوال هذا اليوم، لازمتني ملازمة لم أستطيع منها فكاكاً. اسمعي يا صوفيا، هأنذا أعود فأمسك الصورة (كان قد أمسك بالصورة ثانيةً وأخذ يقلِّبها بين يديه)، فهل تعلمين

Twitter: @ketab_n

أنني، في هذه اللحظة بعينها، تستبد بي رغبة جنونية في أن أقذفها إلى زاوية المدفأة، فإذا هي تنكسر على الفور نصفين، نصفين لا أكثر ولا أقل؟

قال هذا بدون أي تصنع، بدون أي رغبة في الظهور. بل كان يتكلم ببساطة، فكان ذلك يزيد الأمر هولاً. لكأنه خائف فعلاً من شيء. ولاحظت فجأة أن يديه ترتجفان قليلاً.

هتفت ماما ضامةً يديها ضارعةً:

ـ آندريه بتروفتش!

وقالت تاتيانا بافلوفنا وهي تنتفض:

ـ اترك، اترك الصورة يا آندريه بتروفتش! اتركها! ضعها في مكانها! واخلع ثيابك، وارقد في سريرك. يا آركادي، اذهب فاستدع الطبيب!

قال برفق وهو يشملنا جميعاً بنظرة واحدة:

ـ مع ذلك... مع ذلك، ما أشد اضطرابكم!

ثم وضع كوعيه على المائدة، وتناول رأسه بيديه، وقال:

ـ إنني أخيفكم. ولكن اسمعوا يا أصدقائي. هلاّ سررتموني قليلاً، فعدتم تجلسون، وهدأتم جميعاً، دقيقةً واحدة! صوفيا، ليس هذا ما جئت من أجل أن أقوله لك. أنا جئت لأبلغك شيئاً، لكنه شيء مختلف عن هذا كل الاختلاف. أستودعك الله يا صوفيا. أنا راحل من جديد، كما سبق أن رحلت مراراً. لا شك في أنني سأعود إليك في يوم من الأيام. بهذا أنت لا بد منك، ولا غنى عنك. لمن عسى أرجع، حين يكون كل شيء قد انتهى؟ صدِّقي يا صوفيا أنني جئت إليك اليوم كما يجيء المرء إلى ملاك لا إلى عدو: هل يمكن أن تكوني عدوتي؟ كيف يمكن أن تكوني عدوتي؟

Twitter: @ketab_n

لا تصدقي أنني أريد أن أحطم هذه الصورة، لأنني في الواقع، يا صوفيا، تستبد بي، رغم كل شيء، رغبة قوية في تحطيمها. . .

حين هتفت تاتيانا بافلوفنا قائلةً له منذ قليل: «اترك الصورة»، فإنها كانت قد انتزعت الصورة من يديه، وظلت تمسكها بيدها. فها هو ذا آندريه بتروفتش، بعد أن نطق بآخر كلمة، يثب من مكانه فجأةً، ويخطف الصورة من يدي تاتيانا بافلوفنا فوراً، ويشهرها بوحشية، ثم يهوي بها على زاوية المدفأة بكل ما أوتي من قوة، فإذا بالأيقونة تنكسر نصفين تماماً. وعاد يلتفت إلينا بغتةً، فكان وجهه الشاحب قد احمر احمراراً شديداً، وكانت كل قسمة من قسمات وجهه تختلج:

ـ لا تنظري إلى عملي نظرتك إلى رمز يا صوفيا. ليس ميراث ماكار هو ما حطمته، وإنما حطمت بدون هدف غير التحطيم. . . ولكنني سأعود إليك رغم كل شيء، سأرجع إلى ملاكي الأخير. على كل حال، عُدِّي عملي رمزاً إذا شئت، فإنه رمز أيضاً!. . .

وخرج من الغرفة بخطى متعجلة، ومضى عن طريق المطبخ في هذه المرة أيضاً (وكان قد ترك بالمطبخ معطفه وطاقيته). لن أقص عليكم ما حدث لماما تفصيلاً. لقد هبَّت واقفةً وقد اعتراها رعب قاتل، ورفعت يديها فعقدتهما على رأسها، وصرخت تقول له فجأة:

ـ آندريه بتروفتش، تعال ودِّع على الأقل يا عزيزي!

فصاحت تاتيانا بافلوفنا تقول لها وقد أخذت ترتعش ارتعاشاً شديداً، واعترتها نوبة حنق رهيب، حنق حيواني:

ـ سيرجع يا صوفيا، سيرجع. أما سمعت ما قاله؟ لقد وعد بأن يرجع. دعي للمجنون المسكين أن يتجول مرةً أخيرة! حين يدب

Twitter: @ketab_n

إليه الهرم، وحين يصبح كسيحاً، فمن ذا الذي سيدلله غيرك يا خادمته القديمة؟ إنه يعلن هذا جهاراً، لا يساوره خجل...

أما عنا نحن، فإن ليزا قد أغمي عليها؛ وأنا أردت أن أركض وراءه، لكنني ارتميت على ماما أضمها بذراعيَّ. وهرعت لوكيريا لتأتي إلى ليزا بكأس ماء. ولكن ماما لم تلبث أن أفاقت من إغمائها، فتهاوت على الديوان، وغطت وجهها بيديها، وطفقت تبكي.

وصاحت تاتيانا بافلوفنا تقول بأعلى صوتها:

ـ أدركه، أدركه على كل حال. هيَّا... أدركه، لا تتركه خطوة واحدة، هلمَّ... ماذا تنتظر؟ هل أنا التي يجب أن أركض وراءه إذن؟

وكانت تبذل كل ما تملك من جهد لانتزاعي من ماما.

وصرخت أمي تقول هي أيضاً على حين فجأة:

ـ بنيَّ آركادي، هلمَّ أركض وراءه، أسرع!

فخرجت مسرعاً، عن طريق المطبخ والفناء أيضاً. لكنني لم أجده في أي مكان. كان قد اختفى. وعلى الرصيف من بعيد، كانت تتراءى في الظلام بقع سوداء هي قامات المارة، فاندفعت أدركها، وأخذت أتفرس في وجه كل واحد متى وصلت إليه، ثم أمضي أتفرس في وجه آخر، وهكذا دواليك، إلى أن بلغت منعطفاً.

«لا يغضب أحد من مجنون. وإذا كانت تاتيانا بافلوفنا مستعرة الغضب منه، فمعنى ذلك أنه ليس بمجنون البتة...» تلك هي الفكرة التي برقت في ذهني. بدا لي أن ذلك كله كان «رمزاً»، وأنه إنما أراد أن ينتهي من شيء ما، كما انتهى من تلك الأيقونة. ولكن لا شك أن «مِثْله» «قرينه» كان بجانبه أيضاً...

Twitter: @ketab_n

3

لم أقع عليه في أي مكان. ولا يُعقل أن أركض إلى بيته، فمن الصعب على المرء أن يتصور أنه رجع إلى بيته وكفى! وعرضت لي فكرة على حين بغتة، فهرعت إلى بيت آنا آندرييفنا.

كانت آنا آندرييفنا قد عادت إلى البيت، فأدخلت عليها فوراً. وقد دخلت عليها محاولاً أن أسيطر على نفسي ما أمكنني ذلك. وبدون أن أجلس، قصصت عليها المشهد الذي رأيته كله، أي حكاية «المِثْل» تلك. فلن أنسى ما حييت، ولن أغفر لها ما حييت أنها كانت تصغي إلى كلامي بشراهة شديدة، ولكن بهدوء لا رحمة فيه، وطمأنينة لا تعكر صفوها عاطفة. ولقد أصغت إلى حديثي واقفةً هي أيضاً.

ختمت حديثي أسألها ملحاً:

ـ أين هو؟ لعلك تعلمين؟ لقد أرادت تاتيانا بافلوفنا أن ترسلني إليك أمس...

ـ ذلك أنني كنت أريد أمس أن أراك. أمس ذهب إلى تسارسكويا، وجاء إليَّ أيضاً. أما الآن...

قالت ذلك ونظرت إلى ساعتها وأردفت:

ـ الساعة الآن هي السابعة. فلا بد أنه في بيته حتماً.

ـ أرى أنك تعلمين كل شيء. فتكلمي، تكلمي!

ـ أعرف أشياء كثيرة، لكنني لا أعرف كل شيء. ليس هناك ما أخفيه عنك طبعاً...

وشملتني بنظرة غريبة وهي تبتسم وتتظاهر بالتفكير. وأردفت:

ـ رداً على رسالة كاترينا نيقولايفنا، كتب إليها بالأمس يخطبها رسمياً.

Twitter: @ketab_n

فحملقت بعينيّ قائلاً:

ـ لا يمكن!

ـ عن طريقي وصلتها الرسالة. أنا التي سلَّمتها لها مختومةً. في هذه المرة تصرف كما يتصرف «فارس» ولم يكتم عني شيئاً.

ـ آنا آندرييفنا! لا أفهم!

طبعاً. أمر صعب فهمه. ولكن مثله في هذا كمثل مقامر يرمي على المائدة آخر قرش، ويمسك في جيبه مسدساً جاهزاً للإطلاق. ذلك هو معنى العرض الذي تقدم إليها به. احتمال الرفض تسعة حظوظ من عشرة. ولكنه يعتمد على الحظ العاثر. ولا أكتمك أنني استغربت... لعله كان خارجاً عن طوره: لعل «المثْل» الذي وصفته أحسن وصف كان بقربه!

ـ وتضحكين أيضاً؟ كيف يمكن أن أصدِّق أنك أنت التي أوصلت الرسالة؟ ألست خطيبة أبيها؟ رحماك آنا آندرييفنا!

ـ رجاني أن أضحي لسعادته بسعادتي. بل قل إنه لم يرجني رجاء صريحاً، فإنما تمّ الأمر بصمت، لكنني قرأت في عينيه كل شيء. وما استغرابك؟ ألم يذهب إلى أمك بمدينة كونجسبرج يطلب منها أن تأذن له بتزوج ابنة زوج مدام أخماكوفا؟ ذلك شبيه بما عمد إليه أمس، إذ اختارني مندوبة عنه ونجية له.

كانت شاحبةً بعض الشحوب. ولكن هدوءها كان يعزِّز سخريتها. وقد غفرتُ لها كثيراً في تلك اللحظة، حين أخذت أفهم الأمور شيئاً فشيئاً. واسترسلت في التفكير دقيقة، فكانت صامتة تنتظر.

قلت ضاحكاً على حين فجأة:

ـ اسمعي، لقد أوصلت أنت الرسالة لأنك لا تجازفين بشيء،

Twitter: @ketab_n

فالزواج لن يتم مهما يكن من أمر ولكن هو؟ وهي؟ لا شك أنها لن تلتفت إلى طلبه، وحينئذ... حينئذ، ماذا يمكن أن يحدث؟ أين هو الآن يا آنا آندرييفنا؟ إن كل دقيقة لثمينة، وفي كل لحظة يمكن أن تقع مصيبة!

ـ قلت لك إنه في بيته. ففي رسالته التي سلَّمتها أمس إلى كاترينا نيقولايفنا، رجاها «على كل حال» أن تمن عليه بلقاء في بيته، الساعة السابعة من هذا المساء. وقد وعَدَته بأن تجيء إليه في الموعد المضروب.

ـ هي، في بيته؟

ـ لمَ لا؟ البيت بيت داريا أونيسيموفنا. ففي إمكانهما أن يلتقيا فيه زائرين لها.

ـ لكنها تخاف منه... قد يقتلها!

ـ إن كاترينا نيقولايفنا رغم كل خوفها الذي لاحظته بنفسي قد أضمرت دائماً، حتى في الماضي، شيئاً من الإعجاب بنبل المبادىء وسمو الفكر لدى آندريه بتروفتش. وقد وثقت به هذه المرة لتنتهي منه إلى الأبد. كما أنه، من جهته، قد حلف لها يمين الفروسية أنه لن ينالها بسوء فما يجب أن تخشى شيئاً. لا أتذكر نص التعابير التي استعملها. وإنما المهم أنها وثقت به واطمأنت إليه... لأول مرة إن صح القول. ولأول مرة ردت على مشاعره بمثلها، فكأن اندفاعة بطولية قد تحققت لهما كليهما.

هتفت أقول:

ـ والمثْل، والمثْل! ذلك أنه فقد عقله!

ـ لا شك أن كاترينا نيقولايفنا، حين وعدته أمس بالمجيء إلى الموعد، لم تقدر أن حادثاً كهذا يمكن أن يقع.

Twitter: @ketab_n

أدرت ظهري فجأة، وولَّيت هارباً... إليه... إليهما طبعاً! ولكنني لم ألبث أن رجعت من حجرة المدخل ثانيةً، وتفرست في وجه آنا آندرييفنا، أختي، وقلت صارخاً:

ـ أم تراك تريدين أن يقتلها؟

أطلقت هذه الصرخة، وخرجت من البيت راكضاً.

ورغم أنني كنت أرتعش ارتعاشاً شديداً كمن هو في نوبة حمى، فقد دخلت الشقة بغير ضجة، من المطبخ، وطلبت من الخادمة أن تأتيني داريا أونيسيموفنا بصوت خافت. ولكن سرعان ما جاءت داريا من تلقاء نفسها، فرشقتني صامتةً بنظرة مستفهمة رهيبة، وقالت:

ـ ليس مولاي في البيت.

لكنني ذكرت لها بوضوح ودقة، هامساً همساً سريعاً، إنني أعرف كل شيء من آنا آندرييفنا، وأنني آتٍ من عندها.

ـ أين هما يا داريا أونيسيموفنا؟

ـ في الصالون، حيث كنتما بالأمس جالسَيْن إلى المائدة...

ـ داريا أونيسيموفنا، دعيني أذهب إلى هناك...

ـ كيف يمكنني هذا؟

ـ لا أذهب إلى هناك، بل إلى الغرفة المجاورة يا داريا أونيسيموفنا.

إن آنا آندرييفنا تريد هذا أيضاً. فلو كانت لا تريده لما قالت لي أنهما هنا. لن يسمعاني. هي نفسها تريد هذا...

قالت داريا أونيسيموفنا دون أن تحول عني بصرها:

ـ وإذا كانت لا تريده؟.

فقلت مستعطفاً:

Twitter: @ketab_n

ـ داريا أونيسيموفنا، إنني أتذكر ابنتك أوليا... دعيني أدخل.

فإذا بذقنها وشفتيها تأخذ بالاختلاج فجأة، وقالت لي:

ـ يا عزيزي... إكراماً لذكرى أوليا... تقديراً لعواطفك... ولكن لا تتخلَّ عن آنا آندرييفنا يا عزيزي! لن تتخلى عنها، أليس كذلك؟ لن تتخلى عنها؟

ـ لا، لن أتخلى عنها.

ـ عاهدني عهد الشرف أنك لن تدخل الصالون، ولن تصرخ، إذا أنا خبأتك هناك.

ـ أحلف لك بشرفي يا داريا أونيسيموفنا!

قادتني إلى حجرة مظلمة، مجاورة للغرفة التي كانا فيها، وسارت بي على سجادة طرية بدون ضجة إلى أن بلغنا الستارة، فأجلستني هناك، وأزاحت ركناً من الستارة، فكنت أراهما كليهما.

انصرفت هي وبقيت أنا. طبعاً بقيت. لقد أدركت أنني أتصنت بغير حق، وأنني أتجسس على أسرار غيري، ولكنني بقيت. كيف لا أبقى وأنا أعرف أنّ المثْل موجود؟ ألم يسبق لهذا المثْل أن حطم الأيقونة على مرأى مني؟

4

كانا جالسين إلى تلك المائدة نفسها التي شربنا عليها معاً بالأمس نخب «انبعاثه». وكانا متقابلين. إنني أميز وجهيهما تمييزاً واضحاً. كانت ترتدي فستاناً أسود، وكانت جميلة هادئة المظهر على عادتها. وكان يتكلم، فكانت تصغي إليه بانتباه شديد بشوش. حتى ليمكن أن يكتشف المرء في وجهها شيئاً من خجل. أما هو، فقد كان مهتاجاً اهتياجاً شديداً. لقد وصلت وهما في غمرة

Twitter: @ketab_n

الحديث، لذلك لبثت برهةً لا أفهم شيئاً. أتذكر أنها سألته فجأة:

ـ وهل أنا السبب في ذلك؟

فأجابها:

ـ بل أنا. أنت مذنبة بدون أن تكوني مذنبة. هذه أمور تحدث. وتلك هي الأخطاء التي لا تغتفر، ومرتكبوها يعاقبون في جميع الأحيان تقريباً.

أضاف ذلك وهو يضحك ضحكة غريبة. وتابع كلامه يقول:

ـ لقد اعتقدت في لحظة من اللحظات أنني نسيتك نسياناً تاماً، فكنت أضحك فعلاً من هواي الأحمق... ولكنك تعرفين هذا! على كل حال، فلم يعنيني أن تتزوجي فلاناً أو فلاناً من الناس. لقد بعثت إليك بالأمس رسالةً أطلب منك فيها أن نتزوج. فلا تؤاخذيني. كان ذلك عملاً غبياً. ولكن لم يكن عندي بديل. ما الذي كان يمكنني أن أفعله غير ذلك العمل الغبيّ؟ لا أدري.

قال ذلك وانفجر يضحك ضحكاً شاذاً ملتبساً وهو يرفع عينيه إليها فجأة بعد أن كان يكلمها ناظراً إلى جانب. لو كنت في مكانها لأخافتني تلك الضحكة. أحسست بهذا. ونهض عن كرسيه فجأة وقال يسألها بغتةً كأنما هو تذكر الأمر الجوهري:

ـ قولي: كيف أمكنك أن توافقي على المجيء إلى هنا؟ إن دعوتي ورسالتي كلها ما كانتا إلا حماقة... انتظري: أظن أنني أستطيع أن أحزر كيف وافقت على المجيء. ولكن لماذا جئت؟ ذلك هو السؤال. أتراك جئت عن خوف فحسب؟

فقالت وهي تنظر إليه بحذر:

ـ جئت لأراك.

وصمت الاثنان كلاهما نصف دقيقة. وعاد فرسيلوف يجلس، ثم

Twitter: @ketab_n

أخذ يتكلم بصوت رقيق، لكنه مؤثر، يكاد يكون متهدجاً، فقال:

ـ منذ مدة طويلة لم أرك يا كاترينا نيقولايفنا... منذ مدة بلغت من الطول أنني أصبحت أتصور أنه يكاد يستحيل أن أجدني في ذات يوم، كما أجدني الآن، جالساً بقربك أنظر إلى وجهك وأسمع صوتك... منذ سنتين لم ير أحدنا الآخر، منذ سنتين لم يكلم أحدنا الآخر. كنت لا أقدر أن أكلمك في يوم من الأيام. على كل حال، ما مضى قد مضى، وما بقي اليوم سيزول غداً كدخان. ليكن! إنني أقبل هذا، إذ ليس عندي له بديل.

ثم أضاف يقول لها فجأة كمن يضرع ضراعة:

ـ ولكن لا تنصرفي الآن بدون أن تقولي لي شيئاً. لقد منحتني صَدَقة حين قبلت أن تجيئي، فلا تنصرفي قبل أن تجيبيني عن سؤال سألقيه عليك!

ـ ما السؤال؟

ـ لن يرى أحدنا الآخر بعد اليوم أبداً. فماذا تخسرين إذا قلت لي الحقيقة كلها مرةً واحدة إلى الأبد؟ أجيبيني عن سؤال لا يلقيه العقلاء أبداً: هل أحببتني في لحظة واحدة على الأقل... أم أراني أخطأت الظن؟

احمرت كاترينا نيقولايفنا احمراراً شديداً. وقالت تجيبه:

ـ بل أحببتك.

توقعت أن تقول هذا: يا للمصادفة، يا للصريحة، يا للمستقيمة التي تقول الحقيقة!

وتابع يسألها:

ـ والآن؟

ـ الآن لا أحبك.

Twitter: @ketab_n

ـ وتضحكين؟

ـ لا. لئن ضحكت فوراً فقد كان ذلك برغم إرادتي، لأنني كنت أتوقع أن تسألني «والآن؟»، فلما صدق توقعي ابتسمت، لأن المرء يبتسم دائماً حين يصدق توقعه...

شيء غريب. ما رأيتها قبل اليوم في مثل هذه الحصافة وهذا الاحتراس، ولا رأيتها قبل اليوم شبه خجلى وشبه مستحية إلى هذا الحد! وكان هو يلتهمها بعينيه التهاماً.

ـ أعلم أنك لا تحبينني... ولكن ألا تحبينني البتة!

ـ ربما البتة؟

ثم أضافت تقول بلهجة قاطعة، دون أن تبتسم ودون أن تحمر:

ـ لا أحبك. صحيح أنني أحببتك، ولكن حبي لم يطل. فما لبثت أن كففت عن حبك...

ـ أعرف، أعرف. رأيت أن هذا ليس ما كنت في حاجة إليه... قولي: ما الذي أنت في حاجة إليه؟ إشرحي لي مرةً أخرى...

ـ هل شرحت لك هذا من قبل؟ ما أنا في حاجة إليه؟ إنني امرأة عادية جداً. إنني امرأة هادئة... أحب الناس المرحين.

ـ المرحين؟

ـ ها أنت ذا ترى أنني عاجزة حتى عن التحدث معك. يخيَّل إليَّ أنك لو أحببتني حباً أقل، لأحببتك.

وابتسمت خجلى مرة أخرى. كان يلتمع في جوابها أكبر الصدق. كيف لم تدرك أن هذا الجواب هو الصيغة التي تحدد علاقاتهما تحديداً حاسماً، وتفسر كل شيء، وتقطع بكل شيء؟ وكم كان يجدر به، هو، أن يفهم ذلك. ولكنه نظر وابتسم ابتسامة غريبة وأضاف يسأل:

Twitter: @ketab_n

ـ هل بيورنج مرح؟
فأسرعت تجيبه:
ـ اطمئن. ما هو بالمرح البتة! وإنما أنا أتزوجه لأنني سأكون معه أهدأ مما أكون مع آخر. ثم تبقى نفسي كلها لي أنا.
ـ يقال إنك عدت تحبين حياة المجتمع وتشغفين بها؟
ـ لا لا، ليس حياة المجتمع. فأنا أعرف أن مجتمعنا تسوده الفوضى كما تسود كل ما عداه. ولكن المظاهر الخارجية تظل فيه أحلى، فإذا كان المرء يحب أن يعيش وكفى، فالعيش في المجتمع أمتع من العيش في غيره.
ـ سمعت كلمة «الفوضى» هذه كثيراً، فلا شك أنك خفت كثيراً من الفوضى التي كانت تسود حياتي... أصفاد، وأفكار، وسخافات...
ـ لا، ليس الأمر ذاك أبداً...
ـ ما هو إذن؟ قوليه بصراحة، ناشدتك الله!
ـ طيب، سأقوله بصراحة، لأنني أعدك ذا فكر عظيم. إليك الحقيقة: إنني لم أستطع أن لا أرى فيك شيئاً مضحكاً بغير انقطاع.
قالت ذلك واحمرت فجأة، كأنما هي أحست أنها تورطت في قلة الاحتراس تورطاً كبيراً.
قال آندريه بتروفتش:
ـ لهذه الكلمة التي قلتها، أستطيع أن أغفر لك أشياء كثيرة.
فأسرعت تضيف وهي تزداد احمراراً:
ـ لم أكمل كلامي. أنا المضحكة في الواقع... لا شيء إلا لأنني أكلمك كحمقاء.
ـ لا، ما أنت بمضحكة، وإنما أنت امرأة من نساء المجتمع فاسدة.

Twitter: @ketab_n

قال ذلك واصفر اصفراراً رهيباً. وتابع كلامه فقال:

ـ أنا أيضاً لم أكمل كلامي حين سألتك لماذا جئت. فهل تريدين أن أنهيه؟ إن ثمة رسالة، إن ثمة وثيقة تخلع قلبك هلعاً؛ لأن أباك إذا وقعت هذه الرسالة بين يديه، يمكن أن يلعنك أثناء حياته، وأن يحرمك من ميراثه شرعاً في وصيته. أنت خائفة من هذه الرسالة... وقد جئتني بحثاً عنها وسعياً إليها...

نطق بهذه الكلمات وهو يرتجف من رأسه إلى قدميه، حتى لتكاد تصطك أسنانه.

فكانت تصغي إليه معبرة بوجهها عن سأم وألم. وقالت مدافعة عن نفسها:

ـ أعلم أنك تستطيع أن تحدث لي أكداراً كثيرة، ولكنني لم أوافق على لقائك لأقنعك بالكف عن اضطهادي وتعذيبي بقدر ما جئت لأراك. بل لقد كانت نفسي تضطرم رغبة في لقائك منذ مدة طويلة...

وأضافت تقول فجأة، كأنما تجرفها فكرة قاطعة بل عاطفة غريبة مباغتة:

ـ غير أنني رأيتك على عهدي بك...

ـ هل كنت تتوقعين أن تجديني إنساناً آخر بعد الرسالة التي تكلمت فيها عن فساد خلقك؟ هل جئت إلى هنا بغير خوف البتة؟

ـ جئت لأنني أحببتك في الماضي. ولكن لا تهددني، أرجوك. ما بقينا معاً، فلا تذكرني بأفكاري السيئة وعواطفي الرديئة. إذا أمكنك أن تكلمني في غير هذا فسأكون سعيدة جداً. قد يأتي دور التهديد، أما الآن فقل لي شيئاً آخر، أرجوك! حقاً لقد جئت لأراك وأنصت لك دقيقة. فإذا كنت عاجزاً عن هذا فاقتلني فوراً ولكن لا

Twitter: @ketab_n

تهددني ولا تعذب نفسك أمامي. . .

بهذا ختمت كلامها وهي تنظر إليه مترقبة ترقباً غريباً، كأنما هي تفترض حقاً أنه قد يقتلها.

ونهض آندريه بتروفتش من جديد، وراح يتأملها بنظرات حارة، ثم قال بلهجة قاطعة:

ـ سوف تخرجين من هنا بغير أية إساءة.

فابتسمت وقالت:

ـ نعم، هذا عهد قطعته على نفسك.

ـ ليس لأنني قطعت على نفسي عهداً في الرسالة، بل لأنني أريد أن أفكر فيك طول الليل. . .

ـ تعذيباً لنفسك؟

ـ إنني أستحضر صورتك دائماً حين أخلو إلى نفسي. وأظل أتحدث معك. وأذهب إلى حانات ومواخير فإذا أنت تظهرين لي أيضاً. ولكنك تضحكين مني دائماً، كما تفعلين الآن.

قال ذلك وكأنه خرج عن طوره. فصاحت تقول بصوت مؤثر وقد ارتسم على وجهها عطف قوي:

ـ أبداً، أبداً ما ضحكت منك. وإذا كنت قد جئت فلأنني حاولت بكل الوسائل ألا أجرح شعورك في أمر من الأمور.

وأضافت تقول فجأة:

ـ لقد جئت إلى هنا لأقول لك إني أحبك تقريباً.

ثم أسرعت تتدارك:

ـ معذرة. . . لعلني لم أحسن التعبير عما أردت التعبير عنه.

فضحك وقال:

ـ لماذا لا تجيدين التظاهر؟ لماذا أنت بسيطة كل هذه البساطة؟

Twitter: @ketab_n

لماذا لست كسائر الناس؟... كيف يمكن أن يطرد أحد أحداً ثم يقول له: «أحبك تقريباً»؟...

ـ ذلك أنني لم أحسن التعبير عما أردت التعبير عنه. ذلك أنني ما وُجدت يوماً أمامك إلا شعرت بخجل ولم أحسن الكلام، ولئن لم أحسن التعبير حين قلت لك: «أحبك تقريباً»، فذلك لأن الأمر كان غامضاً في ذهني أيضاً. هذا هو السبب في أني قلت تلك الجملة، رغم أنني في الواقع أحبك... أحبك ذلك الحب «المشترك» الذي يحمله المرء لجميع الناس ولا يخجل من الاعتراف به أبداً...

كان يصيخ بسمعه إليها صامتاً ولا يحول عنها نظرته الحارة، ثم استأنف كلامه فقال:

ـ لا شك أنني أسيء إليك. هذا هو عيب الهوى الشديد. إني لأعرف شيئاً واحداً هو أنني إذا كنت معك فقد انتهيت، وإذا غبت عنك فقد انتهيت أيضاً. سيان أن أكون معك وأن أكون بدونك، فأنت معي دائماً حيثما تكونين. وأعلم كذلك أنني أستطيع أن أكرهك أكثر مما أستطيع أن أحبك... ثم إني منذ مدة طويلة أصبحت لا أفكر في شيء. وصارت تستوي عندي جميع الأمور. كل ما آسف له هو أنني أحببت امرأة مثلك...

كان قد وهن صوته، وتابع كلامه يقول كالمختنق وهو يبتسم ابتسامة صفراء:

ـ ماذا تريدين؟ إنه لجنون مني أن أقول لك هذا الكلام. أظن أنني مستعد أن أقف مسمراً على ساق واحدة مدة ثلاثين سنة إذا كان هذا يرضيك. أرى أنك تشعرين نحوي بشفقة. وجهك يقول: «لو استطعت لأحببتك، لكنني لا أستطيع...». أليس هذا

Twitter: @ketab_n

صحيحاً؟ لا ضير. لست بذي كبرياء. إنني مستعد لأن أقبل منك أية صدقة، كشحاذ، هل تسمعين؟ أية صدقة... أنّى لشحاذ أن يكون ذا كبرياء؟...

فنهضت كاترينا نيقولايفنا واقتربت منه، ثم قالت وهي تلامس بيدها كتفه وقد لاحت في وجهها عاطفة لا يمكن التعبير عنها:

ـ صديقي! إنني لا أستطيع أن أسمع مثل هذه الأقوال! سأظل أفكر فيك طول حياتي تفكيري في أغلى إنسان وأنبل قلب وأقدس شيء يمكن أن أحبه وأحترمه. آندريه بتروفتش! افهمني... إنني لم آتِ إلى هنا عبثاً يا عزيزي، يا من كنت وما تزال عزيزاً على قلبي. لن أنسى أبداً ما أثرته في نفسي من مشاعر أثناء لقاءاتنا الأولى. فلننفصل صديقين، ولسوف تظل في حياتي أجلَّ خواطري شأناً وأحلاها مذاقاً!

قال آندريه بتروفتش:

ـ «فلننفصل. أحبك». سوف أحبك ولكن فلننفصل...

ثم قال وقد شحب لونه شحوباً شديداً:

ـ اسمعي. هبي لي صدقة أخرى: لا تحبيني، ولا تعيشي معي، ولننقطع عن أن يرى أحدنا الآخر إلى الأبد. سوف أختفي متى أصبحت لا تريدين أن تريني، ولا أن تسمعيني... ولكن... ولكن... «لا تتزوجي».

انقبض صدري إلى حد الألم حين سمعت كلامه. إن هذا الرجاء الساذج الذليل يوقظ الشفقة في النفس ويطعن القلب طعناً قوياً بمقدار ما فيه من صراحة وما يشتمل عليه من استحالة. نعم، إنه يطلب صدقة حقاً! هل كان يستطيع أن يظن حقاً أن رجاءه يمكن أن يلبّى؟ مع ذلك. نزل بنفسه إلى حيث يرجو هذا الرجاء، وحرص

Twitter: @ketab_n

على طلب هذه الصدقة. إن هذا الدرك الأدنى من السقوط يشق على المرء أن يراه! أما هي فإن جميع قسمات وجهها قد تشوهت ألماً. ولكنه قبل أن تنطق هي بكلمة واحدة، استدرك يقول بصوت غريب تبدل فجأة فكأنه ليس صوته:

ـ سوف أدمّرك تدميراً!

ولكنها أجابته بكلام لا يقل عن كلامه غرابة، وبصوت كصوت تبدل أيضاً تبديلاً غير متوقع حتى لكأنه ليس صوتها، فقالت:

ـ إذا وهبت لك هذه الصدقة فسوف تنتقم في المستقبل انتقاماً أقسى من الانتقام الذي تهددني به الآن لأنك لن تنسى أبداً أنك استجديتني صدقة وكنت أمامي شحاذاً...

وختمت كلامها وهي تقذفه بنظرة تحد:

ـ لا أستطيع أن أسمع هذه التهديدات من فمك!

فأجابها برفق مبتسماً:

ـ «تهديدات من فمك»، أي من فم شحاذ مثلك! لقد كنت أمزح. لن أصنع بك شيئاً. لا تخافي. انصرفي. أما تلك الوثيقة فسأبذل جميع جهودي لأرسلها إليك. ولكن اذهبي... اذهبي!... لقد بعثت إليك رسالة حمقاء، واستجبت أنت لتلك الرسالة الحمقاء، فجئت: فها نحن سواء: لا دائن ولا مدين!

وأضاف يقول لها ليدلها على الباب حين أرادت أن تخرج عن طريق الغرفة التي كنت مختبئاً فيها وراء الستارة:

ـ من هنا!

قالت وهي تقف على العتبة:

ـ اغفر لي إذا استطعت.

فقال فجأة:

Twitter: @ketab_n

ـ إذا كتب لنا أن نلتقي صديقين في يوم من الأيام، فسنتذكر هذا المشهد ضاحكين.

ولكن قسمات وجهه كلها كانت تختلج كمن اعترته نوبة.

هتفت تقول ضارعة إلى الله وهي تضم يديها إحداهما إلى الأخرى، ولكنها تنظر إلى وجهها وجلةً كأنما هي تحزر ماذا أراد أن يقول:

ـ اسأل الله أن يحدث هذا.

ـ انصرفي! كلانا مفرط في الذكاء. ولكنك... آه... أنت من طينتي! بعثت إليك رسالة مجنونة، فارتضيت أن تجيئي لتقولي أنك «تحبينني تقريباً». لا، لا، إن بنا جنوناً واحداً! كلانا شاذ. ابقي مجنونة دائماً، لا تتغيري، وسنعود فنلتقي صديقين. إنني أتنبأ بهذا. يميناً!

خرجت كاترينا نيقولايفنا. فأسرعت إلى المطبخ دون ضجة. ومن غير أن أنظر تقريباً إلى داريا أونيسيموفنا التي كانت تنتظرني، وثبت إلى الشارع نازلاً على سلّم الخدم ماراً بالفناء. ولكن حين وصلت إلى الشارع كانت هي قد ركبت العربة التي كانت تنتظرها أمام الباب. فأخذت أركض.

Twitter: @ketab_n

الفصل الحادي عشر

1

إلى أين؟ إلى بيت لامبرت!

مهما أشأ أن أسبغ طابعاً منطقياً على سلوكي في ذلك المساء وفي تلك الليلة، ومهما أشأ أن أكتشف فيه شيئاً من سلامة العقل، فإنني حتى في هذه اللحظة التي أستطيع فيها أن أرى الأحداث كلها جملةً واحدة، أجدني عاجزاً عن أن أعرضها بما يجب لها من تسلسل ووضوح. لا بد أنني كنت تائهاً في عاطفة أو قل في سديم مضطرب من العواطف. بل لا شك أن ثمة عاطفة أساسية كانت تسحقني وتسيطر على جميع العواطف الأخرى، ولكن... هل يجب أن أعترف بها؟ لا سيما وأنني غير واثق كل الثقة...

اقتحمت بيت لامبرت، خارجاً عن طوري طبعاً، حتى لقد أخفته هو وصاحبته آلفونسين. لطالما لاحظت لدى الفرنسيين، حتى لدى أشدهم طيشاً وأكثرهم فجوراً، أنهم في داخل بيوتهم حريصون أشدَّ الحرص على نوع من النظام البورجوازي، وعلى طراز من الحياة مطرد رتيب تافه يجري على وتيرة واحدة ولا يحبون أن يخرجوا عنه مرة. ولكن لامبرت سرعان ما أدرك أن شيئاً قد حدث، فسرَّه أن يراني في بيته وأن «يقبض على ناصيتي» أخيراً. لقد كان لا يحلم

Twitter: @ketab_n

إلا بهذا طوال هذه الأيام ليل نهار. ألا ما كان أحوجه إلي! ثم هأنذا، بعد أن فقد هو كل أمل، أجيئه فجأةً، من تلقاء نفسي، بل أجيئه وأنا على هذه الحالة من الجنون، أي على الحالة التي يريدها!

صرخت أقول:

ـ خمراً يا لامبرت! اسقني! دعني أعربد! آلفونسين، أين قيثارتك؟

لن أصف المشهد، فلا داعي إلى ذلك. المهم أننا شربنا، وقصصت عليه كل شيء، كل شيء. فكان يصغي إلى كلامي بشراهة. وقمت أنا بالخطوة الأولى فاقترحت عليه تدبير مؤامرة، إشعال حريق: نستدعي أولاً كاترينا نيقولايفنا برسالة...

قال لامبرت مؤيداً وهو يختطف كل كلمة أقولها:

ـ هذا ممكن...

قلت:

ـ وزيادةً في ضمان نجاح المؤامرة، يجب أن نبعث إليها في تلك الرسالة صورة عن «وثيقتها» لتستطيع أن تدرك أننا لا نغشها.

فقال لامبرت مؤيداً وهو لا ينفك يتبادل النظرات مع آلفونسين:

ـ تماماً! هذا ما يجب أن نفعله.

قلت:

ـ وثالثاً، يجب أن يكون لامبرت هو الذي يدعوها، لشأن يخصه، منتحلاً صفة رجل مجهول آت من موسكو. وأجيء أنا بفرسيلوف.

فقال لامبرت:

ـ ربما نحضر فرسيلوف أيضاً، نعم!

Twitter: @ketab_n

فصحت أقول معترضاً على كلمة «ربما».

ـ لا، ليس «ربما»، بل حتماً. هذا لا غنى عنه.

وأضفت موضحاً وأنا أجرع جرعة (لقد شربنا نحن الثلاثة، لكنني أعتقد أنني شربت زجاجة الشمبانيا كلها وحدي، أما هما فكانا يتظاهران):

ـ هذا كله من أجله هو. نجلس أنا وفرسيلوف في الغرفة الأخرى. يجب الحصول على غرفة ثانية يا لامبرت! حتى إذا جاءت اللحظة التي توافق فيها على كل شيء، أي على الفدية المالية والفدية «الأخرى»، لأنهن جميعاً حقيرات، خرجنا أنا وفرسيلوف من مخبئنا وداهمناها فأقنعناها بحقارتها. وحينئذ يُشفى فرسيلوف ويطردها ركلاً بقدميه. ولكننا في حاجة إلى بيورنج، ليراها هو أيضاً!

أضفت هذه الجملة الأخيرة متحمساً. فقال لامبرت:

ـ لا، بيورنج لا داعي إليه!

فصرخت أقول:

ـ بلى بلى! أنت لا تفهم من الأمر شيئاً لأنك غبي يا لامبرت! بالعكس: يجب أن تحدث فضيحة في المجتمع الراقي: بذلك ننتقم من المجتمع الراقي، ومنها. يجب أن تعاقب! لامبرت، سوف تعطيك كمبيالة... أنا لا حاجة لي إلى المال، أنا أبصق على المال! أما أنت فسوف تنزل فتدس المال في جيبك مخلوطاً ببصاقي. وأكون أنا قد وضعت أنفها في التراب!

كان لامبرت لا ينفك يقول مؤيداً:

ـ نعم، نعم.

ويتبادل النظرات مع آلفونسين.

قلت متمتماً:

Twitter: @ketab_n

ـ لامبرت، إنها تعبد فرسيلوف. رأيت هذا بنفسي منذ هنيهة، وأيقنت به.

ـ من حسن الحظ أنك رأيت كل شيء: ما كنت لأتصور أن لك كل هذه الموهبة في التجسس، ولا أنك تملك كل هذا القدر من الذكاء.

ـ أنت كاذب يا فرنسي. أنا لست جاسوساً ولكنني ذكي جداً.

ثم تابعت كلامي جاهداً أن أعبر عن فكرتي بمشقة وعناء:

ـ هل تعلم يا لامبرت؟ إنها لن تتزوجه، لأن بيورنج ضابط في الحرس، أما فرسيلوف فليس إلا رجلاً كريماً سمحاً محباً للإنسانية، أي هو في نظرهم إنسان مضحك لا أكثر! آه... إنها تفهم هذا الوله وتفتتن به سروراً، وتغنج لفرسيلوف وتجتذبه وتغريه، لكنها لن تتزوجه! إنها امرأة، إنها أفعى! كل امرأة أفعى، وكل أفعى امرأة! يجب أن نشفيه. يجب أن نسقط عن عينيه الغشاوة فيراها على حقيقتها فيشفى. سأجيء به إلى عندك يا لامبرت.

فكان لامبرت لا يزال يُثني على كلامي ويملأ كأسي في كل لحظة:

ـ حسن، حسن!

كان يخشى أن أستاء منه أي استياء، كان يخاف أن يعارضني، وكان يحرص على أن يسقيني مزيداً من الخمر! وكان ذلك منه واضحاً أشدَّ الوضوح، فلم أملك أنا نفسي إلا أن ألاحظه. لكنني ما كان لي أن أنصرف بحال من الأحوال. وظللت أشرب وظللت أتكلم. كنت أحترق رغبة في الإفصاح مرةً عما يعتمل في نفسي! وحين خرج لامبرت ليجيء بزجاجة ثانية، عزفت آلفونسين على قيثارتها لحناً إسبانياً. فكادت تنهمر دموعي، وقلت مخاطباً لامبرت بعاطفة عميقة:

Twitter: @ketab_n

ـ يجب إنقاذ هذا الرجل حتماً يا لامبرت، لأنه... مسحور! لو تزوجها، فلسوف يطردها ركلاً بالقدمين منذ الصباح، بعد الليلة الأولى. فهذا ما يحدث دائماً. إن هذا الحب الوحشي المسعور يوافي المرء كما توافيه نوبة، ويفعل فيه كما يفعل فيه المرض، فما أن يتهيأ له الارتواء، حتى تسقط الغشاوة وتنبجس العاطفة المناقضة: الاشمئزاز والكره والرغبة في الإبادة والسحق. هل تعرف قصة آبيساج يا لامبرت؟ هل قرأتها؟

ـ لا، لا أتذكر. أهذه رواية؟

ـ ذلك أنك لا تعرف شيئاً يا لامبرت. أنت جاهل جهلاً رهيباً، جهلاً فظيعاً! ولكن لا يهمني أن تكون جاهلاً أو أن تكون عالماً! أوه! إنه يحب ماما؛ لقد قبَّل صورتها. ولكن سيكون الأوان قد فات. لذلك يجب إنقاذه منذ الآن...

وأخيراً طفقت أبكي بكاءً مراً. لكنني ظللت أهذر وأشرب. ما أكثر ما شربت! الشيء الأساسي الذي يجب أن أذكره هو أن لامبرت لم يسألني عن الوثيقة مرةً واحدة، طوال السهرة، أقصد لم يسألني: أين هي؟ لم يطلب مني أن أريه إياها، أن أبسطها له على المائدة. ألم يكن طبيعياً مع ذلك أن يلقي عليَّ هذا السؤال ونحن نتفق على القيام بعمل مشترك؟ شيء آخر: لقد اتفقنا على أن نعمل كيت وكيت، وقلنا إننا سنقوم بالعمل حتماً، ولكن أين، ومتى، وكيف؟ ذلك ما لم نقل عنه كلمة واحدة! كان لامبرت لا يزيد على أن يؤيِّد كلامي ويتبادل النظرات مع آلفونسين. لا شيء عدا هذا! صحيح أنني كنت في ذلك الحين عاجزاً عن إدراك ذلك، ولكنني أتذكره تذكراً واضحاً.

وفي النهاية نمت على الديوان، بدون أن أخلع ثيابي. نمت مدةً

Twitter: @ketab_n

طويلة جداً، واستيقظت في وقت متأخر جداً. أذكر أنني حين استيقظت، ظللت متمدداً على الديوان زمناً كالمشدوه، أحاول أن أجمع أفكاري وذكرياتي، وأتظاهر بأنني ما زلت نائماً. ولكن لامبرت كان قد خرج من البيت. كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة.

النار في المدفأة تُسمع طقطقتها، تماماً كالمرة الماضية، حين فتحت عينيَّ في بيت لامبرت بعد تلك الليلة المشؤومة! ولكن آلفونسين كانت ترصدني وراء الحاجز: لاحظت ذلك فوراً، لأنها نظرت إليَّ وتفرست فيَّ مرتين، غير أنني كنت أغمض عيني وأتظاهر بالنوم. كنت أفعل ذلك لأنني أحس باكتئاب وأريد أن أعرف أين أنا من الأمر؟ فما كان أشد عذابي حين تذكرت، فأدركت فظاعة وحقارة ما أقدمت عليه في الليل من اعتراف للامبرت، واتفاق معه... وأدركت مدى خطئي وضلالي إذ جئت إليه أصلاً. ولكنني حمدت الله على أن الوثيقة لا تزال معي، لا تزال مخيطة في جيبي. لقد جسستها بيدي، فأحسست بها! فليس عليَّ إذن إلا أن أثب وثبة واحدة، فأولي هارباً. ولا داعي إلى الخجل بعد ذلك من لامبرت؛ فليس لامبرت بمن يستحق أن نخجل منه!

ولكنني كنت خجلان من نفسي! لقد نصَّبت نفسي قاضياً أحاكم نفسي! ما أشد الألم الذي كان يعصر قلبي! على أنني لن أصف ذلك الشعور الجهنمي، الذي لا يطاق، لن أصف ذلك الإحساس بالخزي والتلطخ والدناءة. ومع ذلك يجب عليَّ أن أعترف. فقد آن أوان الاعتراف فيما أعتقد. ويجب أن أسجل هذا الاعتراف في مذكراتي. ألا فاعلموا أنني إذا كنت قد أردت أن ألوث شرفها بالعار، وإذا كنت قد هيأت نفسي لرؤية المشهد الذي ستدفع فيه

Twitter: @ketab_n

الفدية للامبرت (آه... يا للسفالة!)، فإن هذا لم يكن في سبيل إنقاذ ذلك المجنون فرسيلوف، ولا في سبيل أن أردَّه إلى ماما، وإنما... لأنني... ربما كنت أنا نفسي مولهاً بحبها، غيوراً عليها! ممن كنت غيوراً؟... من بيورنج؟ من فرسيلوف؟ من جميع أولئك الذين ستراهم وستحدثهم في حفلة الرقص، على حين أكون أنا قابعاً في ركني، شاعراً بالخزي من نفسي؟ آه... يا للقذارة!

الخلاصة أنني لا أعرف ممن كنت غيوراً. لكنني كنت أشعر، بل كنت قد أيقنت منذ مساء أمس، كيقيني بأن اثنين واثنين أربعة، أنني فقدتها إلى الأبد، وأن هذه المرأة سوف تنبذني وسوف تسخر من زيفي ومن سخافتي. فهي امرأة صادقة ومستقيمة، وأنا امرؤ متجسس ومخبيء وثائق!

تلك حقيقة كتمتها مدة طويلة، وقد آن لي أن أعترف بها الآن... هأنذا أعترف بها. لكنني أكرر مرةً أخرى، ومرةً أخيرة، أن نصف هذا الاعتراف، وربما ثلاثة أرباعه، قد يكون تجنياً على نفسي! إنني في تلك الليلة قد كرهتها كما يكره رجل مجنون غير مسؤول عن أعماله، ثم كرهتها بعد ذلك كما يكره رجل أخذ به السكر كل مأخذ فانطلق يتكلم كمن أصابه مس. وقد سبق أن ذكرت أن سديماً مضطرباً مشوشاً من العواطف والأحاسيس كان قد أغرقني إغراقاً، فلا أستطيع أن أعي ما بقلبي ولا أن أدرك ما يعصف بنفسي عصفاً. ولكن لا بد لي مع ذلك من هذا الاعتراف، لأن جزءاً من هذه العواطف السيئة الفاسدة قد ملأ نفسي حتماً.

وثبت عن الديوان مشمئزاً اشمئزازاً لا يغالب، عازماً عزماً قوياً على أن أمحو كل شيء. ولكن ما أن وثبت عن ديواني ذلك الوثوب حتى هرعت إليَّ آلفونسين. تناولت معطفي وقبعتي، وقلت

Twitter: @ketab_n

لها أن تبلغ لامبرت أنني كنت بالأمس أهذي، وأنني تجنيت على تلك المرأة، وأنني كنت أمزح، فحذار أن يبيح لنفسه أن تطأ قدماه بيتي في يوم من الأيام. قلت لها ذلك كله بالفرنسية متعجلاً كيفما أتفق، وأغلب الظن أنني قلته غامضاً مشوشاً، فما كان أشد دهشتي حين رأيت آلفونسين تفهم ما قلته فهماً كاملاً؛ وأغرب من هذا أنها كانت تبدو مغتبطةً بكلامي، مهللةً له. قالت مؤيدة:

ـ «نعم. نعم. ذلك عيب. سيدة محترمة. أنت رجل كريم! اطمئن. سأوضح الأمر للامبرت!».

ولقد كان خليقاً بهذا التبدل الغريب المفاجىء في عواطف آلفونسين، وربما في عواطف لامبرت تبعاً لذلك، أن يثير في نفسي الشبهات. لكنني خرجت صامتاً. لقد كنت مضطرب النفس، وكنت لا أحسن التفكير. ولقد أعدت النظر في الأمر كله بعد ذلك، ولكن كان قد فات الأوان! يا للمكيدة الجهنمية التي حيكت لي! إنني أتلبث هنا قليلاً لأشرح ما حدث، وإلا عجز القارىء عن الفهم!

الواقع هو أنني منذ أن لقيت لامبرت أول مرة، في تلك الليلة التي تدفأت فيها عنده بعد تجلدي من البرد، قد حكيت له (يا لغباوتي!) أن الوثيقة مخيطة في جيبي. ولقد نمت على ديوانه في تلك الليلة بعض الوقت فجأة، فلم يلبث لامبرت أن جسَّ جيبي، فأيقن أن الورقة مخيطة فيها فعلاً. واستطاع بعد ذلك مراراً أن يتأكد من أن الورقة لا تزال في مكانها. فأثناء عشائنا في مطعم التتر مثلاً، أتذكر أنه حضنني عدة مرات؛ فلما أدرك أخيراً ما لهذه الورقة من شأن خطير رسم خطة خاصة لم تخطر ببالي قط. لقد كنت أتخيل دائماً (كما يفعل غبي أحمق) أنه إن كان يدعوني إلى بيته دائماً بحماسة شديدة وإصرار كبير، فهو إنما يفعل ذلك

Twitter: @ketab_n

ليستدرجني إلى الدخول في عصابته والمشاركة في عملها. ولكن الحقيقة المؤسفة هي أنه كان يدعوني إلى بيته لغرض آخر! كان يدعوني ليسكرني سكراً شديداً، حتى إذا رقدت غائباً عن شعوري وأخذت أشخر، قصّ جيبي واستولى على الوثيقة. وذلك ما فعلاه في تلك الليلة هو وآلفونسين. قامت آلفونسين بقص جيبي. فلما صارت الرسالة في حوزتها، أعني «رسالتها»، أعني وثيقتي التي جئت بها من موسكو، تناولا ورقة عادية من ورق الرسائل بحجمها نفسه، فوضعاها في مكان الرسالة، ثم أعادا خياطة الجيب في مكانه فكأن شيئاً لم يحدث، فلم ألاحظ أنا شيئاً. إن آلفونسين هي التي أعادت خياطة الجيب. وظللت أنا، أنا الأحمق، ظللت إلى النهاية، خلال يوم ونصف يوم، أظن أنني ما زلت أملك السر، وظللت أعتقد بأن مصير كاترينا لا يزال بين يديَّ.

كلمة أخيرة: إن سرقة الوثيقة كان سبب كل شيء، كان سبب جميع المصائب الأخرى!

2

إليكم الآن آخر أيام مذكراتي. إني أصل إلى نهاية النهاية.

أظن أن الساعة كانت العاشرة والنصف حين وصلت إلى مسكني مهتاج الأعصاب، ذاهلاً أكبر الذهول، عاقداً عزمي على قرار حاسم. ولم أتعجل الخطى، فقد كنت أعرف ماذا سأفعل. ولكن ما إن وطئت قدماي الدهليز حتى رأيت أن الأمر قد دخل مرحلة جديدة: كان العجوز قد نُقل من تسارسكويا سيلو منذ قليل، فهو الآن في بيتنا، وبقربه آنا آندرييفنا!

لم يسكنوه غرفتي، بل الغرفتين المجاورتين لها، أعني غرفتَي

Twitter: @ketab_n

المؤجر. وقد أحدثت بالأمس في هاتين الغرفتين تغييرات وتجميلات، وإن تكن طفيفة. وكان المؤجر قد نقل امرأته إلى حجرة المستأجر المجدور المتذمر الذي سبق أن تكلمت عنه، كما نُقل هذا لا أدري إلى أي مكان.

لم يلبث المؤجر أن تسلل إلى غرفتي ليستقبلني. إن هيئته لا تنم عمَّا كانت تنم عنه بالأمس من حزم، ولكنه كان في اهتياج شديد، اهتياج من مستوى الأحداث إن صح التعبير. لم أكلمه، بل انسحبت إلى زاوية الغرفة، ووضعت رأسي بين يدي، ولبثت على هذه الحال دقيقة. فقدَّر في أول الأمر أنني أصطنع «وضعاً»، ولكنه في النهاية لم يطق صبراً، واعتراه الفزع، فتمتم يسألني:

ـ هل هناك شيء؟

وإذ لم أجبه أردف يقول:

ـ كنت أنتظرك لأسألك هل تريد أن نفتح هذا الباب فيكون اتصال غرفتك بغرفتّي الأمير مباشراً... بدلاً من المرور بالدهليز.

قال ذلك وهو يريني باباً جانبياً مغلقاً، يصل غرفتي بغرفته، أي بما هو الآن مسكن الأمير.

فقلت له برصانة ووقار:

ـ بيتر ايبوليتوفتش، أرجو أن تتفضل فتمضي إلى آنا آندرييفنا فوراً، فتدعوها أن تجيء إلى هنا لتتحدث معي قليلاً. هل وصلا منذ مدة طويلة؟

ـ منذ زهاء ساعة.

ـ طيب. اذهب إلى آنا آندرييفنا وقل لها ما أوصيتك به.

فذهب ثم عاد يحمل إليَّ هذا الجواب الغريب، وهو أن آنا آندرييفنا والأمير ينتظران أن أجيء إليهما بصبر فارغ. إذن لم تشأ

Twitter: @ketab_n

آنا آندرييفنا أن تأتي. فعدّلت ثيابي التي تجعّدت تجعُّد في الليل، ونظفتها بالفرشاة. وغسلت وجهي، ومشطت شعري. فعلت ذلك كله بغير تعجل. ثم مضيت إلى الشيخ مدركاً مدى ما يجب التزامه من حذر وروية.

كان الأمير جالساً على ديوان أمام مائدة مستديرة، أما آنا آندرييفنا فكانت في ركن آخر، أمام مائدة أخرى عليها غطاء وفوقها سماور البيت مجلوّاً كما لم يسبق أن جُلي في يوم من الأيام، وكان ماء السماور يغلي، وكانت آنا آندرييفنا تهيىء الشاي.

دخلت بتلك الهيئة القاسية نفسها، فلاحظ العجوز المسكين ذلك فوراً، فارتجف. وسرعان ما حل محل ابتسامته فزع حقاً. لكنني لم ألحّ، بل أخذت أضحك، ومددت له يديَّ، فارتمى المسكين في أحضاني.

وقد أدركت فوراً ما صار الرجل إليه، دون ريب. كان من الواضح أولاً أن الشيخ الذي كان قبل الآن يتمتع بقدر من القوة وينعم بشيء من سلامة العقل رغم كل شيء، ولا يخلو من بعض الإرادة والصلابة، قد أحالوه بعد آخر لقاء بيني وبينه إلى نوع من مومياء، وجعلوا منه طفلاً شديد الخوف، كثير الحذر والشك. يجب أن أضيف إلى هذا أنه كان يعلم لماذا جيء به إلى هنا، وقد جرى كل شيء على النحو الذي ذكرته من قبل حين استبقت الأحداث. لقد فاجأوه بخيانة ابنته وبحديث مستشفى المجانين، فصعقوه وحطموه وسحقوه سحقاً، فانقاد وهو لا يكاد من شدة ذعره أن يعي ماذا يفعل. قالوا له إن الوثيقة في حوزتي وهي «مفتاح الموقف»، فإذا رآها كان في وسعه أن يتخذ قراره النهائي. يجب أن أبادر فأقول سلفاً إن رؤية الوثيقة واتخاذ القرار هما ما كان

Twitter: @ketab_n

يرعبه تصورهما أكثر مما يرعبه أي شيء في هذا العالم... لقد كان يتوقع أن يراني داخلاً عليه بالقرار في جيبي والورقة في يدي. فما كان أعظم فرحه حين رآني، بانتظار ذلك، مستعداً لأن أضحك وأن أثرثر في موضوع آخر. وقد انسكبت دموعه غزيرةً حين تعانقنا. ولا أكتمكم أنني ذرفت أنا أيضاً بعض العبرات. لقد شعرت فجأة بشفقة كبيرة عليه. وكان كلب آلفونسين الصغير ينبح نباحاً نحيلاً كرنين جرس صغير، ويندفع من الديوان نحوي. إن هذا الكلب الصغير أصبح لا يفارق الشيخ منذ صار عنده، حتى لقد كان ينام معه.

هتف يقول وهو ينظر لآنا آندرييفنا ويومئ إليَّ:

ـ «قلت إنه صاحب قلب نبيل» (بالفرنسية).

فقلت له:

ـ لقد تحسنت صحتك كثيراً يا أمير! هيئتك الآن مزهرة نضرة!

ولكن نقيض قولي كان هو الصحيح وا أسفاه! لقد كان الشيخ أشبه بمومياء. وما قلت له ذلك إلا لأشجعه.

فأخذ يردد بفرح:

ـ «أليس كذلك؟ أليس كذلك؟» (بالفرنسية).

ـ ولكن هلاً شربت شايك. إذا قدّمت لي فنجاناً فسوف يسعدني أن أشرب الشاي بصحبتك.

ـ فكرة عظيمة. «فلنشرب ولنفرح». هناك قصيدة بهذا المعنى. أليس كذلك؟ آنا آندرييفنا، أعطه شاياً. «إنه يفتن دائماً بالعواطف» (بالفرنسية). أعطنا شاياً يا عزيزتي.

سكبت لي آنا آندرييفنا شاياً. ولكنها التفتت نحوي فجأة، وأخذت تتكلم بلهجة فيها كثير من الوقار، فقالت:

ـ آركادي ماكاروفتش، أنا ـ أنا والمحسن إليَّ الأمير نيقولا

Twitter: @ketab_n

إيفانوفتش، قد جئنا إلى بيتك لاجئين. جئنا إليك أنت، لا إلى غيرك، جئنا ضيفين عليك نلتمس عندك المأوى والملاذ. تذكَّر أن مصير هذا الإنسان القديس، النبيل، المحزون، هو بين يديك... إننا ننتظر القرار الذي يمليه عليك قلبك بالحق والعدل!

لكنها لم تستطع أن تكمل كلامها. فقد اعترى الأمير رعب شديد، حتى كاد يرتعش من فرط الذعر، وأخذ يقول مكرراً وهو يرفع يديه نحوها:

ـ «فيما بعد، فيما بعد، أليس كذلك يا صديقتي العزيزة؟» (بالفرنسية).

لن أستطيع أن أصف الأثر الأليم الذي أحدثته في نفسي مقاطعته هذه لحديثها. ولم أجب بشيء، وإنما اكتفيت بتحية فاترة رصينة. ثم جلست إلى المائدة عامداً، وطفقت أتحدث في مواضيع أخرى تافهة، وأخذت أضحك وأمزح... فكان واضحاً أن الشيخ شكر لي ذلك، وأنه اغتبط اغتباطاً شديداً. ولكن فرحه كان رغم شدته مهيأ لأن يتبدد سريعاً وأن يحل محله اكتئاب ويأس. كان هذا واضحاً من أول نظرة.

ـ «بنيَّ العزيز» (بالفرنسية). بلغني أنك كنت مريضاً... آ... معذرة... قيل لي إنك كنت طول هذه المدة منشغلاً بتحضير الأرواح، أهذا صحيح؟

أجبته مبتسماً:

ـ ما خطر لي مثل هذا على بال.

ـ لا؟ من كلمني إذن عن تحضير... الأر... واح؟

انبرت آنا آندرييفنا تشرح فقالت:

ـ إن الموظف، صاحبَ البيت، بيتر ايبوليتوفتش، هو الذي

Twitter: @ketab_n

كان يحدِّثه عن هذه الأمور منذ قليل. إنه رجل مرح، يعرف نكات كثيرة. هل تريد أن أناديه؟

ـ «نعم، نعم، إنه رجل طيب» (بالفرنسية). يعرف نكات كثيرة. ولكن الأفضل أن ندعوه فيما بعد. سوف ندعوه. وسوف يحكي لنا كل شيء. «ولكن فيما بعد» (بالفرنسية). تصور أنه منذ قليل، حين إعداد المائدة، قال لي: إطمئن، فهي لن تطير! نحن لا نحضر الأرواح! هل الموائد تطير عند الذين يحضرون الأرواح؟

ـ لا أدري. يُقال إنها ترتفع بجميع أرجلها.

فقال وهو يرشقني بنظرة مرتاعة:

ـ ولكن هذا الذي تقوله رهيب! (بالفرنسية).

ـ اطمئن. هذه سخافات!

ـ ذلك ما أقوله أنا أيضاً. إن ناستاسيا ستيبانوفنا سالوميافا... أنت تعرفها طبعاً... لا... لا، لا تعرفها... الخلاصة... تصور أنها هي أيضاً تؤمن بتحضير الأرواح...

والتفت الأمير إلى آنا آندرييفنا وقال مكملاً كلامه:

ـ تخيلي هذا «يا ابنتي» (بالفرنسية)! قلت لها يوماً: إن في الوزارات موائد أيضاً، وعلى كل مائدة ثماني أيدٍ من أيدي الموظفين تكتب ولا تنقطع عن الكتابة، فلماذا لا تتراقص تلك الموائد؟ تخيَّليها وقد أخذت ترقص فجأة! شغب تقوم به الموائد في وزارة المالية، أو وزارة التعليم العام... لم يكن ينقص إلا هذا!...

هتفت أقول محاولاً أن أضحك بصدق:

ـ ما ألطف الأشياء التي تقولها دائماً يا أمير!

ـ «أليس كذلك؟ أنا لا أكثر من الكلام ولكنني أحسن القول» (بالفرنسية).

Twitter: @ketab_n

قالت آنا آندرييفنا وهي تنهض:

ـ سأجيء ببيتر ايبوليتوفتش.

وكانت الغبطة تتلألأ في وجهها. فقد أبهجها كثيراً أن رأتني ألاطف الأمير هذه الملاطفة كلها. ولكن ما إن خرجت حتى تبدل وجه الشيخ فجأة. ونظر بسرعة إلى الباب، وأجال بصره فيما حوله، ثم مال من ديوانه عليَّ، وهمس يقول لي بصوت مروَّع:

ـ «يا صديقي العزيز»، ليتني أستطيع أن أراهما كلتيهما هنا! «آه، بنيَّ الغالي!».

ـ هدىء نفسك يا أمير!

ـ نعم نعم، لكننا سنصلح بينهما، أليس كذلك؟ إنه لشجار صغير محزن بين امرأتين تفيضان كرماً وشهامة، أليس كذلك؟ ليس لي من أمل إلا فيك... سنسوِّي هذا كله هنا...

ثم أضاف يقول وهو يلقي نظرة يكاد يكون فيها خوف:

ـ ولكن يا له من مسكن غريب! وهذا المؤجر! إن له عقلاً عجيباً. قل لي: أليس خطراً؟

ـ المؤجر؟ لا! فيم يمكنه أن يكون خطراً؟

ـ حسن! عظيم! «يبدو غبياً، هذا السيد»! يابني! أستحلفك بيسوع المسيح لا تقل لآنا آندرييفنا إني خائف من كل شيء هنا. لقد أجزلتَ المديح لكل شيء منذ أن وطئت هذا المكان، حتى لقد مدحت المؤجر نفسه. اسمع، أنت تعرف قصة فون سون، هل تتذكر؟

ـ نعم أتذكر، فماذا؟

ـ «لا شيء... لا شيء البتة... ولكنني حرّ هنا، أليس كذلك؟». ما رأيك؟ لا يمكن أن يحدث هنا شيء... من ذلك النوع؟

Twitter: @ketab_n

ـ لا، لا، يا عزيزي، اطمئن، أحلف لك...

هتف فجأة يقول وهو يضمّ يديه أمامي ولا يخفي عني شيئاً من جزعه:

ـ «صديقي، ابني»... إذا كان في حوزتك شيء حقاً... وثائق مثلاً... إذا كان ثمة ما يمكن أن تقوله لي... فلا تقله... لا تقله. لا تقل شيئاً، ناشدتك الله... لا تتكلم... الزم الصمت أطول مدة ممكنة، لا تتكلم...

وأراد أن يحضنني بذراعيه. وسالت الدموع على خديه. لن أستطيع أن أصف لكم مدى انقباض قلبي: كان الشيخ المسكين أشبه بطفل بائس ضعيف مرتاع اختطفته غجريات من عشه عند أبويه، وأخذته إلى أجانب. ولكن لم يُسمح لنا بأن نتعانق: فقد فُتح الباب ودخلت آنا آندرييفنا، ولكن الشخص الذي كان يصحبها ليس المؤجر بل هو أخوها، حاجب البلاط. فصعقني هذا الشيء الجديد صعقاً، فسرعان ما نهضت واتجهت نحو الباب.

قالت آنا آندرييفنا بصوت عال:

ـ آركادي ماكاروفتش، إسمح لي أن أعرِّف كلاً منكما بالآخر...

فلم يسعني إلا أن أتوقف. وقلت مقطعاً كلماتي مبرزاً منها كلمة «أحسن»:

ـ أعرف أخاك «أحسن» المعرفة!

فجمجم الشاب وهو يقترب مني طلق الهيئة، ويتناول يدي بحرية فلا أملك أن أسحبها:

ـ أوه! ما كان أكبرها غلطة... وإني لمذنب يا عزيزي آند... آندريه بتروفتش. ولكن خادمي ستيفان هو سبب كل شيء. لقد أساء

Twitter: @ketab_n

الإبلاغ عنك فحسبتك شخصاً آخر.

وأردف يشرح لأخته:

ـ حدث هذا بموسكو...

ثم عاد يكمل كلامه لي:

ـ وقد بذلت بعد ذلك جميع جهودي لأعثر عليك وأشرح لك الأمر. ولكنني مرضت... اسأله! «يا أمير يجب أن نكون صديقين حتى بحكم النسب...».

وتجرأ الفتى الوقح إلى حدّ وضع يده على كتفي، فكان ذلك ذروة رفع الكلفة. فأسرعت أخلِّص كتفي من يده مبتعداً جانباً، ولكنني خجلت أن أزيد على ذلك شيئاً، فاكتفيت بأن خرجت صامتاً، ومضيت إلى غرفتي، فجلست على سريري مفكراً قلقاً مضطرباً. كانت هذه المكيدة تخنقني خنقاً، ولكنني لا أستطيع أن أُصدم آنا آندرييفنا وأن أسحقها سحقاً. لقد شعرت فجأة أنها هي أيضاً عزيزة على نفسي، وأحسست أنها في وضع رهيب.

3

كما كنت أتوقع، جاءت إلى غرفتي، تاركةً الأمير مع أخيها الذي أخذ يردد على مسامع الأمير أنواعاً شتى من نمائم المجتمع الراقي الجديدة، فسرعان ما استطاع بذلك أن يُفرح الأمير المسكين الذي يسهل التأثير فيه.

نهضت عن سريري صامتاً مستفهماً. فبادرتني آنا آندرييفنا قائلة بلهجة جازمة:

ـ قلت لك كل شيء يا آركادي ماكاروفتش. إن مصيرنا بين يديك.

Twitter: @ketab_n

ـ لكنني نبَّهتك أيضاً إلى أنني لا أستطيع... إن واجباتي المقدسة تمنعني من الإقدام على ما تعتمدين عليَّ فيه...

ـ حقاً؟ أهذا جوابك؟ أنا لا يهمني أن أهلك. ولكن الشيخ؟ أعلمْ أنه سيُجنُّ منذ هذا المساء!

هتفت أجيبها بحرارة:

ـ بل سيجنُّ إذا أنا أطلعته على رسالة من ابنته تسأل فيها محامياً كيف يمكن أن يُعلن جنون أبيها. ذلك ما لن يستطيع أن يتحمله. هو قال لي هذا.

الحق أنني كذبت إذ ادعيت أنه قال لي ذلك. ولكن الكذب كان في محله.

ـ قال لك هذا؟ قدَّرت أن يقوله لك. فأنا الهالكة إذن. حتى لقد بكى منذ قليل، وطلب أن يرجع إلى البيت.

سألتها بإلحاح:

ـ قولي لي: ما خطتك على وجه الدقة؟

فاحمّر وجهها من جرح كبريائها إن صح التعبير، ولكنها كابرت وتجلدت، فقال:

ـ إن هذه الرسالة التي بين أيدينا تبرئنا في نظر الناس. سوف أبادر فوراً فأنبىء الأمير «ف...» وبوريس ميخائيلوفتش بلتشيف، صديقي طفولته. هما شخصيتان من أصحاب الشأن والنفوذ، وأنا أعلم أنهما أبديا استياءهما من بعض أعمال هذه الابنة الجشعة التي لا ترحم. ولا شك أنهما سيصلحان ما بين الأب وابنته تلبيةً لطلبي، وسألح أنا نفسي على طلب هذه المصالحة. ولكن الوضع يكون قد تغير تغيراً تاماً. وعدا ذلك سيدعمني أقربائي من جهة أمي، آل فاناريوتوف؛ غير أن الشيء الذي يهمني خاصةً إنما هو

Twitter: @ketab_n

سعادته. يجب أن يعرف أخيراً من ذا الذي كان مخلصاً له حق الإخلاص، فيقدِّره قدره الذي يستحقه. وإني لأعتمد على ما لك لديه من حظوة وما لك فيه من تأثير يا آركادي ماكاروفتش. إنك تحبه كثيراً... ولكن هل يحبه أحد غيري وغيرك؟ إنه لم ينقطع عن ذكرك في هذه الأيام الأخيرة. وكان يحنُّ إليك حنيناً شديداً، ويشعر من بعدك عنه بضجر قوي. وكان يسميك «صديقه الشاب». وطبيعي أن شكري لك وامتناني منك لن يكون لهما حدود ما حييت...

ها... ها هي ذي الآن تعدني بمكافأة... لعلها مكافأة مالية! فقاطعتها قائلاً بلهجة خشنة ونبرة جازمة لا تنثني ولا تلين:

ـ مهما تقولي... فلن أتزحزح عن رفضي قيد شعرة! لكنني أستطيع أن أعاملك بمثل ما تعاملينني به من صراحة، فأصارحك بآخر ما عقدت العزم عليه: بعد مدة قصيرة سأسلِّم الرسالة المشؤومة إلى كاترينا نيقولايفنا يداً بيد، ولكنني سأشترط عليها بسبب كل ما حدث الآن ألا تقوم بفضيحة، وأن تقطع لي على نفسها عهداً بألا تحول بينك وبين تحقيق سعادتك. هذا كل ما أستطيع أن أفعله.

قالت وقد احمرت احمراراً شديداً:

ـ مستحيل!

لقد أثار استياءها أن تتصور أن كاترينا نيقولايفنا سوف «تداريها» وتحميها.

قلت:

ـ لن أغيِّر قراري يا آنا آندرييفنا.

ـ قد تغيِّره.

Twitter: @ketab_n

ـ الجئي إلى لامبرت!

ـ آركادي ماكاروفتش، إنك لا تعرف المصائب التي يمكن أن تنتج عن عنادك.

قالت ذلك بقسوة وغضب شديد. فأجبتها:

ـ جائز جداً أن تنتج مصائب... إنني أشعر بدوار! كفى الآن: لقد قررّت وانتهى الأمر. ولكنني أرجوك، بل أستحلفك بالله، ألا تأتيني بأخيك.

ـ ولكنه يريد أن يمحو ما...

ـ ليس هناك شيء يجب محوه!... ما أنا في حاجة إلى أن يمحو شيئاً. لا أريد، لا أريد!

كذلك صحت وأنا أمسك رأسي بيدي. ولعلني قد عاملتها باستعلاء.

وأردفت أسألها:

ـ قولي لي: أين سيبيت الأمير؟ هنا؟

ـ سيبيت هنا، عندك ومعك.

ـ إني تارك هذا البيت منذ الليلة.

وما إن نطقت بهذه الكلمات التي لا رحمة فيها، حتى تناولت قبعتي وأخذت ألبس معطفي. فكانت آنا آندرييفنا ترقبني صامتة مكفهرة الوجه. وقد رثيت لحال الفتاة المتكبرة، وشعرت نحوها بالشفقة حقاً. ومع ذلك خرجت دون أن أترك لها كلمة أمل واحدة.

4

سأحاول أن أوجز. بعد أن اتخذت قراري على نحو قاطع لا رجعة عنه، اتجهت قُدُماً إلى بيت تاتيانا بافلوفنا. وا أسفاه! لقد

Twitter: @ketab_n

كان يمكن اتقاء مصيبة كبيرة لو أنني وجدتها. ولكن سوء الحظ كان يلاحقني في ذلك اليوم. فلم أجد تاتيانا بافلوفنا. فذهبت إلى ماما، أولاً لأزور أمي المريضة، وثانياً لأنني قدَّرت أنني سوف أجد عندها تاتيانا بافلوفنا في أغلب الظن. ولكن تاتيانا بافلوفنا كانت قد تركت أمي منذ برهة وجيزة. وكانت أمي راقدة في سريرها، وقد بقيت ليزا وحدها معها. رجتني ليزا ألا أدخل وألا أوقظ ماما من نومها قائلةً لي: «إنها لم تنم الليل كله، وظلت تتألم وتتعذب. فمن حسن الحظ أنها غفت الآن». قبَّلت ليزا، وقلت لها بكلمتين إنني اتخذت قراراً ضخماً حاسماً، وإنني مقدم على تنفيذه حالاً. فأصغت ليزا إلى كلامي بدون دهشة كما يصغي المرء إلى كلام عادي جداً، ذلك أنهم جميعاً قد ألفوا كثيراً أن يسمعوا مني كلمات لا أنفك أكررها ثم أكررها، كقولي «قرارات أخيرة»، ثم رأوني أرتخي فأتركها. ولكنني الآن... الآن... لن يكون شأني كما كان. ومن أجل أن أترك لتاتيانا مهلةً تعود أثناءها إلى بيتها، ذهبت إلى المطعم الذي يقع تحت مستوى الشارع، والذي تروج فيه أغنية «لوسيا» رواجاً كبيراً. وسأشرح السبب الذي جعلني في حاجة شديدة إلى تاتيانا بافلوفنا فجأة. لقد كنت أنوي أن أرسلها إلى كاترينا نيقولايفنا فوراً، فتأتي بها إلى بيتها، فأردُّ الوثيقة إلى كاترينا نيقولايفنا بحضور تلك المرأة نفسها بعد أن أشرح لها كل شيء مرة واحدة إلى الأبد. الخلاصة أنني كنت أريد أن أفعل الخير: أريد أولاً أن أبرىء نفسي تبرئة حاسمة، وأحرص على هذه التبرئة وأعدُّها حقاً لي. حتى إذا فرغت من ذلك أخذت أدافع عن آنا آندرييفنا وأقول فيها قولاً حسناً، ثم اصطحبت كاترينا نيقولايفنا وتاتيانا بافلوفنا (شاهداً) إلى بيتي، أي إلى حيث الأمير، فأصلحت

Twitter: @ketab_n

ما بين المرأتين المتخاصمتين هناك، وأردَّ الحياة إلى الأمير... و... و... في نطاق هذه الطائفة الصغيرة، أجعل الجميع سعداء، منذ هذا اليوم، ثم لا يبقى بعد ذلك إلا فرسيلوف وماما. ولم يخالجني شك في نجاح مسعاي: فإن كاترينا نيقولايفنا ستكون ممتنةً من ردِّ الرسالة إليها رداً لا أطالب أن أكافأ عليه بشيء، فلن تستطيع أن ترفض تلبية رجائي. وا أسفاه! كنت لا أزال أتصور أن الوثيقة في حوزتي. آه ما كان أغبى وأحقر الوضع الذي كنت فيه بدون أن أشعر!...

كان الظلام قد هبط، ولعل الساعة كانت قد بلغت الرابعة حين قرعت باب تاتيانا بافلوفنا مرة أخرى. فقالت لي ماري بفظاظة «إنها لم ترجع». إني لأتذكر الآن نظرتها الغريبة المواربة تذكراً واضحاً. ولكنني في تلك اللحظة لم تراودني أية شبهة. حتى لقد خطرت لي هذه الفكرة الأخرى: ففيما كنت أهبط درجات السلم منزعجاً مثبَّط العزيمة، تذكرت الأمير المسكين الذي مدَّ إليَّ ذراعيه منذ قليل، فلمت نفسي لوماً لاذعاً لأنني تركته من غضب؛ وأخذت أتصور، قلقاً أشد القلق، ما لعله حدث عندهم أثناء غيابي من أمور قد تكون سيئة غاية السوء، فأسرعت أعود إلى البيت. فعلمت أن ما وقع هو الحوادث التالية:

إن آنا آندرييفنا التي أغلظت لها القول وأغضبتها، لم تفقد شجاعتها. يجب أن أذكر أنها كانت منذ الصباح قد أرسلت إلى لامبرت مرةً أولى فمرة ثانية، فلما لم يُعْثَرّ عليه في بيته، بعثت أخاها يبحث عنه. كانت المسكينة بعد أن رأت صمودي وعنادي تعقد أملها كله على لامبرت وتأثيره فيَّ. فكانت تنتظره نافذة الصبر. ولكن كان يدهشها أن تراه يهجرها فجأة ويختفي، وهو

Twitter: @ketab_n

الذي كان إلى هذا اليوم لا يتركها أبداً ويظل يحوم حولها. مسكينة! كان لا يمكن أن يخطر لها على بال أن لامبرت الذي يستولي الآن على الوثيقة، قد اتخذ قرارات أخرى، وأن من الطبيعي أن يتوارى عن الأنظار، وأن يتوارى عن نظرها هي خاصة.

كان القلق والشعور بالخطر يتزايدان في نفس آنا آندرييفنا، فكان طبيعياً أن تصبح عاجزة عن تسلية الأمير الشيخ، وكان قلق الشيخ من جهته يشتد اشتداداً يدعو إلى الخوف والفزع. كان يلقي أسئلة غريبة وجلة، وكان ينظر إلى آنا آندرييفنا مشتبهاً مرتاباً، حتى لقد أجهش باكياً عدة مرات. ولم يمكث الشاب فرسيلوف مدة طويلة. فاستدعت آنا آندريفنا، بعد انصرافه، بيتر ايبوليتوفتش الذي كانت تعوِّل عليه كثيراً. ولكن بيتر ايبوليتوفتش لم يحدث في نفس الأمير إلا الاشمئزاز بدلاً من أن يسليه ويسرِّي عنه. وكان الأمير، على كل حال، ينظر إلى بيتر ايبوليتوفتش نظرة فيها حذر وشك وارتياب ما ينفك يزداد. وقد شاءت المصادفة أن يستأنف بيتر ايبوليتوفتش ثرثرته عن تحضير الأرواح، وعن ألاعيب أخرى قال إنه شهدها بنفسه: منها أن مشعوذاً مرَّ بالمدينة يوماً، فكان يقطع رؤوساً على مرأى من الناس، فتسيل الدماء من الأعناق، ويشهد الجمهور ذلك كله بأعينه، ثم يعود الرجل فيتناول الرؤوس المقطوعة ويردُّها إلى مكانها فوق الرقاب فتلتصق على مرأى من جميع الناس أيضاً، وقد حدث هذا كله سنة 1859؛ فحين سمع الأمير هذا الكلام بلغ من شدة الهلع ومن شدة الاستياء في الوقت نفسه أن آنا آندرييفنا اضطرت أن تطرد القصّاص. ومن حسن الحظ أن وصل الغداء في ذلك الوقت، وهو غداء عُني به لامبرت

Twitter: @ketab_n

وآلفونسين، إذا أوصيا بإعداده طباخاً فرنسياً حاذقاً يسكن في بيت قريب، ولكنه لا يعمل الآن في مكان وإنما هو يبحث عن عمل في منزل أسرة أرستقراطية أو في أحد النوادي. فكان من شأن هذا الغداء مع الشمبانيا أن أفرح العجوز جداً، فأكل كثيراً وفرح كثيراً؛ وكان طبيعياً بعد الغداء أن شعر بثقل وأحس برغبة في النوم. وإذ كان من عادته أن ينام بعد الغداء دائماً، فإن آنا آندرييفنا كانت قد أعدّت له سريراً. فكان وهو يرقد على السرير يقبّل يديها ويقول لها إنّها جنَّته، وإنّها أمله، وإنّها حوريته، وإنها «زهرته الذهبية»، إلى ما هنالك من تعابير شرقية. ونام أخيراً. وعندئذ إنما وصلت أنا.

أسرعت آنا آندرييفنا تدخل عليَّ، فضمَّت يديها أمامي ضارعةً مبتهلة، وقالت إنها تتوسل إليَّ (لا من أجلها بل من أجل الأمير) ألا أخرج، وأن أذهب إليه متى استيقظ من نومه. «إذا لم تكن أنت معه فقد هلك. لسوف يصاب بنوبة. أخشى ألا يقاوم إلى آخر اليوم...». وأضافت تقول إنها مضطرة أن تغيب عن البيت اضطراراً لا سبيل إلى دفعه، «وإن غيابها قد يطول ساعتين، فهي إذن تترك الأمير تحت حراستي». فقطعت لها على نفسي عهداً حاراً بأن أبقى إلى المساء، فإذا استيقظ بذلت كل ما أستطيع بذله من جهود لأسلِّيه وأسرِّي عنه.

فقالت تختم كلامها بقوة:

ـ وأنا سأقوم بواجبي.

وانصرفت. يجب أن أذكر مستبقاً الوقائع أنها إنما مضت تبحث عن لامبرت. إنه آخر أمل لها. وعدا ذلك زارت أخاها وأقرباءها آل فاناريوتوف. فتستطيعون الآن أن تتخيلوا كيف كانت حالتها النفسية حين رجعت!

Twitter: @ketab_n

استيقظ الأمير بعد انصرافها بنحو ساعة. وسمعت صوت أنينه من وراء الجدار، فأسرعتُ إليه فوراً. فوجدته جالساً على سريره بثوب المنزل، ولكنه كان قد بلغ من شدة الفزع من الوحدة وضوء المصباح الوحيد الخافت وهذه الغرفة الغريبة أنه حين دخلت عليه ارتعش وانتفض وصرخ. فهرعت إليه، فلما عرف أن القادم عليه هو أنا، أخذ يقبّلني ودموع الفرح تنهمر من عينيه.

- قيل لي أنك تركت هذا البيت، قيل لي أنك خفت ففررت!

- من قال لك هذا؟

- من؟ دعنا! لعلني أنا الذي تخيلته. ولعل أحداً قاله لي أيضاً. لقد حلمت منذ قليل حلماً: رأيت شيخاً ملتحياً يدخل عليَّ فجأة وفي يده أيقونة محطومة نصفين، ويقول لي: «هكذا ستتحطم حياتك!».

- لا بد أن أحداً أعلمك أن فرسيلوف قد كسر أمس أيقونة!

- «أليس كذلك؟»، نعم، نعم، علمت هذا. أخبرتني في هذا الصباح داريا أونيسيموفنا. لقد نقلت إلى هنا حقيبتي وكلبي.

- يا له من حلم غريب!

- وتصور أن هذا الشيخ كان لا ينفك يهددني بأصبعه. ولكن أين آنا آندرييفنا؟

- ستأتي حالاً.

هتف يسأله بألم:

- من أين؟ إلى أين ذهبت؟

- ستكون هنا حالاً. لقد طلبت مني أن أبقى معك لحظة.

- «نعم»، ستجيء. إذن جُنَّ صاحبنا آندريه بتروفتش، «وبهذه المباغتة، وبهذه السرعة!». لطالما تنبأت له بأنه سينتهي هذه النهاية. اسمع يا صديقي...

Twitter: @ketab_n

قال ذلك وأمسك كُمّي وشدني إليه، وهمس:

ـ جاءني المؤجر منذ قليل بصور فوتوغرافية، صور فوتوغرافية قذرة، صور نساء. . . نساء عاريات. . . بأوضاع شرقية مختلفة. . . وأخذ يريني الصور في الضوء. فأخذت أنا أمدح له الصور طبعاً، على مضض وكره. ولكن تلك هي الطريقة التي استعملوها مع ذلك المسكين ليجيئوه بنساء سيئات، فيسكروه بسهولة أكبر. . .

ـ تقصد فون سون أيضاً! دعنا من هذا يا أمير! إن المؤجر رجل غبي لا أكثر.

ـ غبي لا أكثر! «هذا رأيي». يا صديقي، أنقذني من هذا المكان إن استطعت!

قال ذلك وهو يضم يديه أمامي ضارعاً على حين فجأة. قلت:

ـ سأفعل كل ما أستطيع يا أمير! أنا لك. . . عزيزي الأمير، إنتظر، قد أدبر جميع الأمور.

ـ «أليس كذلك؟»، سوف نهرب، تاركين الحقيبة هنا، حتى يتخيلوا أننا سنعود.

ـ إلى أين نهرب؟ وآنا آندرييفنا؟

ـ لا، لا، سنهرب مع آنا آندرييفنا. . . «آه. . . عزيزي». . . أحس بغليان في رأسي. إسمع: إن هناك، في الكيس الذي على اليمين، صورة لكاتيا. لقد دسستُ الصورة في الكيس خفيةً منذ قليل، حتى لا تراها آنا آندرييفنا، وحتى لا تراها هذه المرأة داريا أونيسيموفنا خاصة!. . . أخرج الصورة بسرعة، ناشدتك الله، وأحرص على ألا يفاجئنا أحد. . . ألا يمكن شد المزلاج فلا ينفتح الباب؟

نبشت الكيس فوجدت فيه صورة فوتوغرافية لكاترينا نيقولايفنا

Twitter: @ketab_n

فعلاً، صورةً ذات إطار بيضوي، أخذها الشيخ مني، وحملها إلى الضوء، فأخذت تسيل دموع غزيرة على خديه الهزيلتين الشاحبتين، وهتف يقول:

ـ «ملاك، ملاك من السماء!». أذنبت في حقها طول حياتي. والآن أيضاً! «ابنتي العزيزة» أنا لا أصدِّق شيئاً، لا أصدق شيئاً! قل لي يا صديقي: هل صحيح أنه يُراد إيداعي في ملجأ للمجانين؟ «أقول أشياء حلوة، فيضحك الناس كافة»... ثم يؤخذ هذا الرجل فجأة إلى ملجأ للمجانين.

صحت أقول:

ـ مستحيل. هذا الكلام خطأ. أنا أعرف عواطفها.

ـ أنت أيضاً تعرف عواطفها؟ رائع!... أحييتني يا صديقي! ما أكثر الكلام الذي قالوه لي عنك! استدع كاتيا إلى هنا، ولتتعانقا كلتاهما أمامي، فآخذهما إلى البيت، ونطرد المؤجر.

قال ذلك ونهض وضمَّ يديه ضارعاً، ثم ركع أمامي على الأرض فجأة، وأضاف يهمس بجزع مسعور، مرتعشاً كورقة في مهب الريح:

ـ «عزيزي»، أين سيحشرونني الآن؟

فهتفت أقول وأنا أُنهضه وأُجلسه على السرير:

ـ ألا تصدقني أنا أيضاً؟ هل تظن أنني أنا أيضاً مشارك في المؤامرة؟ ألا إنني لن أسمح لأحد هنا أن يلمسك بإصبعه.

فتمتم يقول وهو يشدُّ على كوعيَّ بيديه شداً قوياً وما يزال يرتعش:

ـ «نعم»، لا تسمح لأحد! لا تسلِّمني إلى أحد! وأنت أيضاً لا تكذب عليَّ... لأنه... هل يمكن أن يقتادوني من هنا؟ اسمع: هذا المؤجر هيبوليت... أو ما اسمه؟ هل هو... طبيب؟

Twitter: @ketab_n

ـ دكتور؟

ـ وهنا. . . أليس هنا ملجأ مجانين، هنا، في هذه الغرفة؟

ولكن الباب فُتح في تلك اللحظة ودخلت آنا آندرييفنا. لا شك أنها كانت تتصنّت وراء الباب، ثم نفد صبرها ففتحت فجأة، فإذا بالأمير الذي كان يرتجف من أيسر صرير، إذا به يصرخ فجأة ويغطس رأسه في وسادته، ثم إذا هو يعاني ما يشبه أن يكون نوبة عصبية انتهت ببكاء يصحبه نشيج. قلت لها وأنا أشير إلى الشيخ:

ـ انظري إلى ثمرة عملك الجميل!

فقالت رافعةً صوتها:

ـ بل هذه ثمرة عملك أنت. إني أتوجه إليك آخر مرة يا آركادي ماكاروفتش: هل تريد أن تكشف عن المؤامرة الجهنمية التي دُبِّرت لهذا الشيخ الذي لا يملك ما يدافع به عن نفسه، وأن تضحي «بأحلام حب جنوني صبياني» في سبيل أن تنقذ «أختك أنت»؟

ـ سأنقذكم جميعاً، ولكن على الوجه الذي ذكرته لك من قبل! أخرج الآن بسرعة، فقد أستطيع أن أجيء بكاترينا نيقولايفنا إلى هنا بعد ساعة، فأصلح ما بينكم جميعاً، وتسعدون جميعاً!

كذلك هتفت كالملهم.

قال الأمير وقد ثاب إلى نفسه أخيراً:

ـ جيء بها، جيء بها إلى هنا. خذني إلى بيتها! أريد كاتيا، أريد أن أرى كاتيا وأن أباركها.

أضاف ذلك هاتفاً وهو يرفع ذراعيه، وينهض عن سريره. فقلت لآنا آندرييفنا وأنا أشير إليه:

ـ هل ترين؟ هل تسمعين ما يقول؟ الآن لن تنقذك أية وثيقة مهما تكن!

Twitter: @ketab_n

ـ أرى. ولكن الوثيقة لا تزال تستطيع أن تسوِّغ سلوكي في نظر المجتمع، أما الآن فأنا مجللة بالخزي والعار! على أن ضميري نقي. لقد تركني الجميع، حتى أخي الذي خشي الإخفاق... لكنني سأقوم بواجبي، وسأبقى بقرب هذا المسكين خادمةً وممرضة.

ولكن لم يكن ثمة وقت يمكن إضاعته. فخرجت من الغرفة مسرعاً، وصرخت من العتبة قائلاً:

ـ سأرجع بعد ساعة، ولن أرجع وحيداً.

Twitter: @ketab_n

الفصل الثاني عشر

1

أخيراً وجدت تاتيانا بافلوفنا! فاندفعت أروي كل شيء دفعة واحدة، فحكيت لها قصة الوثيقة من أولها إلى آخرها، وحدثتها عما يجري عندنا تفصيلاً. وقد استغرق هذا العرض زهاء عشر دقائق رغم أنها فهمت من تلقاء نفسها فهماً كاملاً، وأنها كانت قادرة على أن تدرك القضية بكلمتين. كنت وحدي أتكلم، فقلت الحقيقة كلها ولم أخجل. وكانت هي صامتة ساكنة منتصبة الجذع كوتد، وبقيت جالسة على كرسيها مزمومة الشفتين لا تحول عني عينيها وتصغي إلى كلامي بكل ما تملك من قوة الإصغاء. ولكن ما إن أنهيت حديثي حتى وثبت من مكانها فجأة، وبلغت من سرعة الوثوب أنني وثبت أنا أيضاً، وانطلقت تقول:

ـ آ... يا وغد!... إذن كانت تلك الرسالة مخيطة في جيبك... خاطتها تلك البنية الحمقاء ماريا إيفانوفنا! آه يا نذل، يا سافل! إذن جئت إلى هنا لتسيطر على القلوب، ولتغزو المجتمع الراقي، ولتلحق الأذى بأي إنسان انتقاماً لكونك ابن زنا.

صحت أقول لها:

ـ تاتيانا بافلوفنا، إنني أمنعك من شتمي، ولعلك أنت،

Twitter: @ketab_n

بشتائمك، منذ البداية، كنت سبب استعار نفسي هنا. نعم، أنا ابن زنا، ولعلني أردت فعلاً أن أنتقم لنفسي من ذلك بإيذاء أي إنسان، ما دام الشيطان نفسه عاجزاً عن معرفة المذنب في هذا! ولكن تذكري أنني نبذت تحالفي مع الأوغاد، وأنني انتصرت على أهوائي الجامحة! سوف أضع الوثيقة أمامها دون أن أقول كلمة، وسوف أنصرف حتى دون أن أنتظر منها هي كلمة، وستكونين على ذلك شاهدة.

أعطنيها، أعطني الرسالة، أعطنيها حالاً، ضعها هنا على المائدة! من يدري؟ لعلك تكذب!

ـ هي مخيطة في جيبي. ماريا إيفانوفنا خاطتها بيدها. هي ذي، هنا، أمسكيها، جسّيها، لست أكذب!

فأجابت تاتيانا بافلوفنا تقول بحماسة:

ـ أعطنيها إذن! اسحبها!

ـ مستحيل. سأضعها أمامها بحضورك، وسأنصرف بدون أن أنتظر منها كلمة واحدة. ولكن يجب أن تعرف وأن ترى بعينيها أنني أنا، أنا نفسي، الذي أردُّها إليها، بإرادتي، من غير إكراه، وبدون جزاء.

ـ افتخاراً بنفسك! إنك لا تزال مولّهاً بالحب أيها الغر!

ـ صفيني بما تشائين من نعوت سيئة. إنني أستحق ذلك كله. ولن أزعل. لتحسبني صبياً ترقبها وتخيل مؤامرة عليها. لتحسبني ما تشاء. ولكن فلتعترف بأنني سيطرت على نفسي، وفضّلت سعادتها «هي» على كل شيء في هذا العالم! سيان يا تاتيانا بافلوفنا، سيان! إنني أهيب بنفسي قائلاً: عليك بالشجاعة وعليك بالأمل! لعل هذه خطوتي الأولى في الحياة، ولكنها خطوة انتهت نهاية حسنة، نهاية نبيلة!

Twitter: @ketab_n

وتابعت أقول كالملهم وقد سطعت عيناي:

ـ ثم... هبي أنني أحبها. لست أشعر من هذا بخجل: إن ماما ملاك من السماء، و«هي» ملكة في الأرض! وسيعود فرسيلوف إلى ماما... فلست في حاجة إلى الخجل. لقد سمعت ما قالاه هناك ـ «هي» وفرسيلوف ـ فقد كنت وراء الستارة. آه... نعم... إننا نحن الثلاثة «مصابون بجنون واحد». هل تعلمين من قال هذه الجملة؟ إنه هو، آندريه بتروفتش! وهل تعلمين أننا قد نكون هنا أكثر من ثلاثة، نحن معشر المصابين بهذا الجنون نفسه؟ نعم، أراهن أنك الرابعة! هل تريدين أن أقول لك ما أعتقد به: أراهن أنك أنت أيضاً قد تولهت طوال حياتك بحب آندريه بتروفتش، وأنك ما تزالين مولَّهةً بحبه إلى اليوم...

أعود فأقول إنني كنت أتكلم كالملهم تدفقاً، وكنت سعيداً، ولكنني لم أستطع أن أتمَّ كلامي، فها هي ذي تاتيانا بافلوفنا تمسك شعري بحركة سريعة سرعة خارقة، فتحني رأسي إلى الأرض مرتين، بكل ما تملك من قوة... ثم تتركني حيث أنا، وتنسحب إلى ركن، فتضع وجهها على الجدار مغطى بمنديلها، وتقول لي باكية:

ـ سافل! لا تقل لي مثل هذه الأشياء بعد الآن.

كان ذلك أمراً لا يمكن توقعه، فشدهت أشد الشده. وبقيت متسمراً في مكاني أنظر إليها ولا أدري ماذا يجب أن أعمل.

واستأنفت كلامها فقالت ضاحكة باكيةً في آن واحد:

ـ غبي! تعال! تعال قبِّل صديقتك العجوز البلهاء! ولا تكرر هذه الأشياء بعد اليوم أبداً. إني أحبك أنت، ولقد أحببتك طول حياتي... يا أبله!

Twitter: @ketab_n

قبّلتها. وأحب أن أقول مستطرداً إننا ـ أنا وتاتيانا بافلوفنا ـ قد أصبحنا منذ تلك اللحظة صديقين حميمين.

وهتفت تقول فجأة وهي تلطم جبينها:

ـ ولكن ما بقائي هنا؟ قلت لي إن الأمير العجوز في بيتك؟ هذا صحيح؟

ـ أؤكد لك.

فجمجمت تقول وهي تركض في الغرفة كفأرة:

ـ آه... رباه! لشد ما يوجع قلبي! هكذا يعاملونه إذن منذ الصباح! إن البلهاء لا يعاقبون إذن قط! هل ارتاحت الآن آنا آندرييفنا؟ يا لها من راهبة! والأخرى، الـ«ميليتريا»، لا تعرف شيئاً!

ـ ما ميليتريا؟

ـ الملكة في الأرض، المثل الأعلى! ما العمل الآن؟

هتفت أقول وقد ثبت إلى رشدي:

ـ تاتيانا بافلوفنا. لقد، استرسلنا في سخافات، ونسينا الشيء الأساسي: لقد جئت باحثاً عن كاترينا نيقولايفنا، وهم ينتظرونني هناك!

وشرحت لها أنني سأسلِّم الوثيقة إلى كاترينا نيقولايفنا مشترطاً عليها أن تعدني بمصالحة آنا آندرييفنا فوراً، بل بالموافقة لها على زواجها...

فقاطعتني تاتيانا بافلوفنا قائلة:

ـ هذا حسن جداً. أنا أيضاً كررت عليها هذا مائة مرة. ذلك أنه سيموت قبل أن يتم الزواج؛ أنه لن يتزوجها، وإذا أورثها في وصيته بعض المال، فلا شك أن هذا كتب في الوصية منذ الآن...

ـ هل المال وحده هو ما تأسف عليه كاترينا نيقولايفنا؟

Twitter: @ketab_n

ـ لا ، وإنما هي كانت تخشى دائماً أن تكون الوثيقة عندها ، عند آنا ، وكنت أخشى ذلك أنا أيضاً . فكنا نراقبها هي . كانت البنت لا تريد أن تصدم أباها الشيخ . أما فيما يتعلق بالألماني بيورنج ، فإن المال هو ما كانت تأسف عليه حقاً .

ـ وبعد هذا ، هل يمكن أن تتزوج بيورنج؟

ـ ما حيلتنا مع غبية؟ الغبي يبقى غبياً طول حياته . على كل حال ، سيهيىء لها نوعاً من الهدوء والطمأنينة . «لا بد أن أتزوج أحداً ، فأي فرق بينه وبين غيره؟» . هذا ما تقوله . وسوف نرى ما يحدث . لسوف تعض على أصابعها ندماً ، ولكن بعد فوات الأوان .

ـ فلماذا تسمحين لها بهذا؟ إنك تحبينها ، حتى لقد أعلنت لها أنك مغرمة بها .

ـ مغرمة ، نعم . . . إنني أحبها أكثر مما أحبكم مجتمعين . . . ولكن هذا لا ينفي أنها بلهاء جداً!

ـ هلمي إليها حالاً . سنتخذ قراراً ونقودها إلى أبيها .

ـ ولكن هذا مستحيل ، مستحيل يا غبي! هذا بعينه ما هو مستحيل! آه . . . ما العمل؟ إنني أشعر بدوار .

وطفقت تتحرك في الغرفة مضطربة ، ولكنها تناولت معطفها . قالت :

ـ آه . . . لو أنك أتيت قبل أربع ساعات . . . الساعة الآن هي السابعة وتزيد قليلاً . لقد ذهبت إلى آل بلتشيف تتغدى عندهم ، ثم تصحبهم إلى الأوبرا .

ـ فماذا لو ركضنا إلى الأوبرا؟ . . . لا . . . هذا مستحيل . ولكن ما عسى يحدث للعجوز؟ إنه قد يموت في هذه الليلة .

ـ اسمع . لا تذهب إلى هناك ، بل إذهب إلى ماما ، وغداً ، في

Twitter: @ketab_n

ساعة مبكرة من الصباح. . .

ـ لا، مستحيل، لن أترك الأمير بحال من الأحوال مهما يحدث!

ـ إنك على حق. لا تتركه. ولكنني أنا. . . سأجري إليها رغم كل شيء، فأترك لها كلمة. . . سأكتب برموزنا الخاصة (وستفهم هي) أن الوثيقة موجودة، وأن عليها أن تجيء إليَّ حتماً في الساعة العاشرة تماماً من صباح الغد. اطمئن. ستجيء. ستسمع لي. وعندئذ سنسوِّي كل شيء. اذهب أنت الآن إلى هناك، ودبِّر أمرك مع العجوز. . . أرقده. . . فقد يقاوم الموت إلى الغد. ولا ترعب آنا آندرييفنا. ذلك أنني أحبها هي أيضاً. أنت تظلمها لأنك لا تستطيع أن تفهم: لقد أوذيت وأهينت، أوذيت وأهينت منذ طفولتها. آه. . . ما أكثر ما رأيت منكم جميعاً! ولكن لا تنس أن تقول لها على لساني إني سأتولى الأمر بنفسي، فأمسكه بيدي سعيدة بذلك، ولتطمئن بالاً فلن تصاب كبرياؤها بسوء. ذلك أننا تشاجرنا في الأيام الأخيرة، وتشاتمنا! فاركض إليها. . . بل انتظر. . . أرني جيبك. . . هل ما قلته صحيح؟ صحيح حقاً؟ هه؟ هل هو صحيح حقاً؟ أعطني الرسالة إذن، أبقيها معي هذه الليلة فحسب. هل في هذا ما يضرك؟ اتركها عندي. لن آكلها. من الجائز أن تضيِّعها في هذه الليلة. . . أو أن تغيِّر رأيك!

ـ مستحيل! أمسكي، جسِّي، انظري! لكنني لن أتركها لك بحال من الأحوال.

جسَّت تاتيانا بافلوفنا جيبي بأصابعها، فقالت:

ـ ثمة ورقة حقاً. طيب. اذهب. هيَّا. وسأثب أنا إلى المسرح. فكرتك تلك حسنة. ولكن اركض، ما بالك لا تركض.

Twitter: @ketab_n

ـ تاتيانا بافلوفنا، لحظة! كيف حال أمي؟

ـ حسنة.

ـ وآندريه بتروفتش؟

فحركت يدها بإشارة تهرُّب ثم قالت:

ـ سيسترد عقله.

فانصرفت مسرعاً وقد تشجعت وامتلأت نفسي رجاءً وأملاً، رغم أن النتيجة كانت غير ما توقعت.

ولكن القدر كان قد شاء أن تجري الأمور مجرى آخر، وكنت أجهل ما هيأه لي. حقاً إن على هذه الأرض قدراً.

2

سمعت في بيتنا جلبةً وأنا على السلم. كان باب البيت مفتوحاً. وفي الدهليز كان يقف خادم بملابس رسمية. وكان بيتر ايبوليتوفتش وامرأته واقفين كذلك في الدهليز ينظران مذعورين. إن باب غرفة الأمير مفتوح: وفي داخل الغرفة يجلجل صوت راعد سرعان ما عرفته: إنه صوت بيورنج. وما إن خطوت خطوتين حتى رأيت بيورنج يجر الأمير إلى الدهليز، هو ورفيقه البارون «ر...» الذي سبق أن جاء يفاوض فرسيلوف. كان الأمير غارقاً بدموعه، يرتجف ويشهق ويعانق بيورنج ويقبّله. وكان بيورنج يزعق صارخاً في وجه آنا آندرييفنا التي خرجت هي أيضاً إلى الدهليز تتبع الأمير. وكان بيورنج يهدد آنا آندرييفنا ويتوعدها، وأظن أنه كان يضرب الأرض بقدمه. الخلاصة أنه كان يتصرف تصرف جندي ألماني فظ، رغم كل «المجتمع الراقي الذي ينتمي إليه». وقد عُرف فيما بعد أنه اعتقد أن آنا آندرييفنا قد ارتكبت جريمة من جرائم الحق

Twitter: @ketab_n

العام، وأنها يجب أن تحاسب الآن على هذه الجريمة أمام القضاء. كان من جهله بالقضية يضخمها ويبالغ فيها، كما يحدث هذا لكثير من الناس، لذلك كان يرى أن من حقه أن يتصرف دون اكتراث بأي شيء، ودون مراعاة لأي اعتبار. لا سيما وأنه لم يتح له الوقت الكافي لفهم الأمور: لقد وصلته رسالة غير مذيلة بتوقيع صاحبها، تبلغه كل شيء، كما ظهر ذلك من بعد (وكما سأذكر بعد قليل)، فهرع وهو على هذه الحالة من الغضب المسعور التي يمكن أن ينحدر إليها وينقاد لها أرقى الناس فكراً من أبناء هذا الشعب الألماني، فإذا هم لا يفوقون في سلوكهم إسكافياً من الإسكافيين.

وقد استقبلت آنا آندرييفنا هذه الهجمة بوقار كبير، لكنني لم أشهد هذا. وإنما رأيت بيورنج، بعد أن جرَّ العجوز إلى الدهليز، يسلِّمه فجأة إلى البارون «ر. . .»، ثم يرجع مسرعاً نحو آنا آندرييفنا فيرشقها بالجملة التالية (ربما جواباً على ملاحظة منها):

ـ أنت محتالة متآمرة. إن ما تريدينه هو ماله! فاعلمي أنك منذ هذه اللحظة قد تلطخ شرفك في المجتمع، وأنك ستحاسَبين أمام القضاء! . . .

ـ أنت الذي تستغل مريضاً مسكيناً بعد أن دفعتموه إلى الجنون دفعاً. . . ثم تجيء تنتقم مني لأنني امرأة ليس لها من يدافع عنها. . .

فقال بيورنج ساخراً غاضباً، بلهجة سيئة:

ـ آ. . . نعم. . . أنت خطيبته، خطيبته! . . .

قال الأمير دامع العينين:

ـ بارون. . . بارون. . .

ثم أضاف وهو يمد يديه نحو آنا آندرييفنا:

Twitter: @ketab_n

ـ «أحبك يا ابنتي العزيزة»!

فصرخ بيورنج قائلاً:

ـ دعك يا أمير، إن هناك مؤامرة عليك، وربما على حياتك!

ـ «نعم، نعم، أفهم، فهمت منذ البداية». . .

قالت آنا آندرييفنا رافعةً صوتها:

ـ أمير، إنك تهينني، وتسمح لغيرك بأن يهينني!

فصرخ بيورنج قائلاً لها فجأة:

ـ اخرجي من هنا!

فلم أستطع صبراً. فزأرت أقول له:

ـ وغد.

وأضفت أخاطبها:

ـ آنا آندرييفنا، أنا أدافع عنك.

ليس في نيتي ولا في وسعي أن أسجل جميع التفاصيل. لقد كان مشهداً رهيباً دنيئاً. فقدت صوابي فجأة. أظن أنني هجمت عليه فضربته، أو صدمته صدمة قوية على الأقل. فضربني على رأسي بكل ما أوتي من قوة، فإذا أنا أسقط على الأرض. فلما ثبت إلى نفسي، اندفعت أطاردهم على السلّم. أذكر أن الدم كان يسيل من أنفي. وكانت تنتظرهم عند الباب عربة ففيما كانوا يُركبون الأمير، وثبت إلى العربة، وهجمت مرة أخرى على بيورنج رغم أن الخادم كان يبعدني وينحيني. لا أتذكر الآن كيف وصلت الشرطة. ولكن بيورنج أمسك ياقتي وأصدر إلى الشرطي أمراً صارماً بأن يقتادني إلى المخفر. فصرخت أقول إن من الواجب أن يجيء هو أيضاً إلى المخفر لتسجيل محضر، وأنه ليس من الحق أن أُعتقل وأنا في بيتي تقريباً. ولكن لما كان المشهد قد حدث في الشارع لا

Twitter: @ketab_n

في البيت، ولما كنت أصرخ وأشتم وأتخبط كسكران، ولما كان بيورنج مرتدياً بزته العسكرية، فقد قبض عليَّ الشرطي، فإذا أنا يجن جنوني فعلاً، فأقاوم الشرطي بكل ما أملك من قوة، حتى لقد ضربته فيما أظن. وأتذكر أن اثنين وصلا بعد ذلك، فاقتاداني. ولكنني لا أكاد أتذكر كيف أُدخلت إلى غرفة يملؤها الدخان، وتفسد جوَّها رائحة التبغ، ويحتشد فيها أنواع من الأشخاص بعضهم قاعد وبعضهم واقف، بعضهم ينتظر وبعضهم يكتب. وهناك أيضاً ظللت أزعق مطالباً بكتابة محضر، فبذلك تعقدت القضية إذ دخلها عنصر مقاومة السلطة والتمرد عليها. وكان هندامي قد ساء كثيراً. ونهرني أحدهم نهراً عنيفاً. وأخذ شرطي يتهمني بمشاجرة استعملت فيها الضرب، وطفق يحكي القصة فقال: كان كولونيل... الخ...

صرخ أحدهم يسألني:

ـ ما اسمك؟

فزعقت أقول:

ـ دولجوروكي.

ـ الأمير دولجوروكي؟

فأخرجني هذا السؤال عن طوري وأفقدني رشدي، فأجبت بشتائم فاحشة... ثم... ثم... أتذكَّر أنني جُررت إلى حجرة مظلمة «لأفيق من سكري». لا، لست أحتج. لقد قرأ جميع الناس في الصحف في الآونة الأخيرة شكوى سيد قضى ليلة كاملة في المخفر، وكبِّل بالسلاسل في غرفة «الصحو من السكر»، وكان ذلك الرجل بريئاً براءة تامة، أما أنا فقد كنت مذنباً. تهالكت على مرقد إلى جانب شخصين كانا نائمين كجثتين هامدتين من فرط السكر.

Twitter: @ketab_n

كنت مصاباً بصداع، وكان صدغاي ينبضان، وكان قلبي يدق دقاً قوياً. وأغلب الظن أنني قد أغمي عليَّ، وأخذت أهذي. لكنني أتذكر أنني استيقظت في وسط الليل، فجلست على المرقد، فتذكرت فجأة كل شيء، وأدركت كل شيء، فجعلت كوعيَّ على ركبتيَّ، ووضعت رأسي بين يدي، وغرقت في تفكير عميق.

لا، لن أصف هنا عواطفي، فليس في الوقت متسع لذلك. ولكنني أريد أن أسجل ما يلي: لعلني لم أعش في حياتي كلها لحظات أحفل بالفرح من تلك الدقائق التي قضيتها مفكراً، في الليل العميق، على المرقد الحجري، بمخفر الشرطة. قد يبدو هذا للقارىء أمراً غريباً شاذاً، وقد يحسبه تبجحاً وتفاخراً، وقد يعدّه رغبة في الغرابة والتفرّد. ولكن ما أقوله هو الحقيقة. تلك لحظة من اللحظات التي قد يمر بها كل إنسان، ولكن مرةً واحدة في حياته. ففي تلك اللحظة يقرر مصيره، ويحدد آراءه، ويقول لنفسه إلى الأبد: «انظر أين هي الحقيقة، وانظر أين يجب أن تنشدها». نعم، لقد أضاءت تلك اللحظة نفسي. كنت أعلم حق العلم، بعد أن أهانني ذلك الرجل الوقح بيورنج، وبعد أن أيقنت أن تلك المرأة التي تنتمي إلى المجتمع الراقي ستهينني أيضاً في الغد، كنت أعلم حق العلم أنني أستطيع أن أنتقم انتقاماً رهيباً، ولكنني قررت ألا أنتقم. وقررت، رغم الإغراء، ألا أكشف عن الوثيقة، وألا أطلع عليها الناس (كما كانت تدور هذه الفكرة في رأسي)، وأخذت أكرر على نفسي أنني سأضع الوثيقة أمامها منذ الغد، وأنني قد لا أحظى منها بكلمة شكر بل بابتسامة سخر، غير أنني، رغم كل شيء، لن أقول كلمة واحدة، وسأتركها إلى الأبد... ولكن لا داعي إلى الإلحاح. أما ما سيحدث غداً حين أساق إلى السلطات، وما

Twitter: @ketab_n

سيُصنع بي، فذلك أمر نسيت تقريباً أن أفكر فيه. ورسمت على نفسي إشارة الصليب بارتياح ومحبة، واضطجعت على المرقد، ونمت نوماً مضيئاً كنوم الأطفال.

ولم أستيقظ في الغد إلا ضحى. أنا الآن في الحجرة وحيداً. جلست. وأخذت أنتظر صامتاً. انتظرت مدة طويلة. قرابة ساعة. وأغلب الظن أن الساعة كانت قد بلغت التاسعة حين نوديت. في وسعي أن أذكر تفاصيل كثيرة. ولكن لا داعي إلى ذلك، ما دامت هذه القصة كلها قد انتهت الآن. وحسبي أن أشير إلى الشيء الأساسي. ما كان أشد دهشتي حين رأيتهم يعاملونني بدماثة غير معهودة: ألقوا عليَّ بضعة أسئلة، أجبت عنها بما لا أتذكره الآن، ثم أطلقوا سراحي فوراً. خرجت صامتاً. وقد ارتحت أشد الارتياح حين قرأت في أعينهم دهشتهم من رجل عرف كيف لا يفقد شيئاً من وقاره في مثل الظرف الذي هو فيه. لقد رأيت هذه الدهشة، ولولا أنني رأيتها لما سجلتها. وكانت تاتيانا بافلوفنا تنتظرني أمام الباب. وسأشرح الآن كيف أمكن إخلاء سبيلي بمثل هذه السهولة.

في ساعة مبكرة من الصباح، في نحو الساعة الثامنة، هرعت تاتيانا بافلوفنا إلى بيتي، أعني إلى بيت بيتر ايبوليتوفتش، آملةً أن تجد الأمير هناك، فإذا هي تعلم بكل ما وقع في الليلة البارحة من أهوال، وإذا هي تعلم خاصةً بأنني اعتقلت. فما هي إلا طرفة عين حتى كانت عند كاترينا نيقولايفنا (التي التقت بأبيها منذ الليلة البارحة عند عودتها من المسرح، إذ جيء به إلى بيتها)، فأيقظتها من نومها، وأخافتها، وطالبت بالإفراج عني فوراً. فزوَّدتها كاترينا نيقولايفنا ببطاقة طارت بها فوراً إلى بيورنج تطلب منه في الحال رسالة موجهةً إلى «من يهمه الأمر»، مشتملةً على «رجاء الإفراج

Twitter: @ketab_n

عني بغير إبطاء لأنني اعتقلتُ خطأ». وبهذه الرسالة وصلت إلى مخفر الشرطة، فتمت تلبية الرجاء.

3

الآن أعود إلى النقطة الأساسية.

أمسكت تاتيانا بافلوفنا ذراعي، وأركبتني عربة، وقادتني إلى بيتها. وهناك أمرت بسماور الشاي حالاً، ورتبت هندامي، ونظفتني في المطبخ. وفي ذلك المطبخ نفسه قالت لي بصوت عال إن كاترينا نيقولايفنا ستصل إليها بنفسها في الساعة الحادية عشرة والنصف لتراني (اتفقتا على ذلك منذ قليل). وقد سمعت ماري هذه الكلمات. فجاءتنا بالسماور بعد دقيقة، ولكن حين نادتها تاتيانا بافلوفنا بعد دقيقتين، لم تجب، إذ كانت قد خرجت من البيت.

أظن أن الساعة كانت في نحو العاشرة إلا ربعاً. وقد غضبت تاتيانا بافلوفنا من غياب ماري بدون إذنٍ منها. ولكنها قالت لنفسها إنها ذهبت إلى المتجر، ثم لم تخطر لها على بال. كان لدينا أشياء أخرى نفكر فيها. كنا نتكلم بدون توقف، لأن هناك ما نتكلم فيه، حتى إنني لم أنتبه إلى اختفاء ماري. ولكني أرجو القارىء أن يُبقي هذا الأمر ماثلاً في ذهنه.

كنت كالمخبول طبعاً. وكنت أتحدث عن عواطفي. وكنا ننتظر كاترينا نيقولايفنا خاصة. وكنت أرتعش حين أتصور أنني سألقاها بعد ساعة، وأنني سألقاها في مثل هذه اللحظة الحاسمة من حياتي. وأخيراً، بعد أن شربت فنجانين من الشاي نهضت تاتيانا بافلوفنا فجأة، وتناولت المقص من على الطاولة وقالت لي:

Twitter: @ketab_n

ـ هات جيبك. يجب سحب الرسالة الآن. فليس يمكننا أن نقص الجيب بحضورها!

فهتفت أقول وأنا أحل الأزرار:

ـ نعم.

ـ ما هذه الخياطة المشربكة؟ من خاط هذه الخياطة؟

ـ أنا يا تاتيانا بافلوفنا، أنا نفسي!

ـ واضح أنك الذي خطت!

وسحبت الرسالة. كان الظرف هو الظرف نفسه. ولكن لم يكن في الظرف إلا ورقة بيضاء.

هتفت تاتيانا بافلوفنا قائلةً وهي تقلب الورقة على جميع الوجوه:

ـ ما معنى هذا؟ ما الذي معك؟

كنت واقفاً مشلول اللسان، أصفر الوجه... وتهالكت على الكرسي خائر القوى فجأةً وكاد يُغمى عليَّ.

أعولت تاتيانا بافلوفنا تقول:

ـ وما معنى هذا أيضاً؟ أين الرسالة؟

فصرخت أقول بغتةً وأنا أنتفض:

ـ لامبرت!

لقد حزرتُ أخيراً، ولطمت جبيني بيدي. وأخذت أشرح لها بسرعة كلَّ شيء، وأنا متقطع الأنفاس، فحدثتها عن الليلة التي بت فيها عند لامبرت، وعن المؤامرة التي حكناها حينذاك. وكنت على كل حال قد اعترفت لها بهذه المؤامرة أمس.

صرخت أقول وأنا أقرع الأرض بقدميَّ وأشد شعر رأسي بيدي:

ـ سرقوها مني! سرقوها مني!

فقالت تاتيانا بافلوفنا وقد أدركت الأمر:

Twitter: @ketab_n

ـ يا للمصيبة! كم الساعة الآن؟

ـ الحادية عشرة تقريباً.

ـ وماري التي ليست هنا! يا ماري! ماري!

فأجابت ماري فجأة من المطبخ:

ـ ماذا تريد مولاتي؟

ـ أنت هنا؟ ولكن ما العمل الآن؟ سأثب إلى عندها... وأنت يا من لا تصلح لشيء!

ـ أنا أذهب إلى لامبرت. لأذبحنَّه إذا لزم الأمر.

ولكن ماري صاحت تقول من المطبخ:

ـ مولاتي، إن «واحدة» تسأل عنك.

وما كادت ماري تنهي جملتها حتى دهمتنا تلك «الواحدة» من تلقاء نفسها صارخةً معولة. إنها آلفونسين. لن أصف المشهد بجميع تفاصيله. كانت تلك خدعة وأكذوبة، ولكن يجب أن نعترف لآلفونسين بأنها أجادت التمثيل إجادة هائلة. ردت آلفونسين، وهي تذرف دموع الندم وتحرك يديها بإشارات محمومة، ردت (بالفرنسية طبعاً) أنها هي التي سرقت الرسالة، وأن الرسالة الآن عند لامبرت، وأن لامبرت، بالتواطؤ مع ذلك «الرجل الأسود»، «قاطع الطرق»، يريد استدراج «السيدة الجنرالة» إلى بيته، ليقتلها فوراً، بعد ساعة... وأنها سمعت هذا كله من فميهما، فاعتراها ذعر رهيب حين رأت بين يديهما المسدس، فهرعت إلى هنا، إلينا، لنذهب معها، لننقذ كاترينا نيقولايفنا، لنخلّصها من القتل... «ذلك الرجل الأسود»...

الخلاصة أن ذلك كله بدا لنا جائزاً جداً، حتى إن السخافة والحماقة في بعض شروح آلفونسين كانت تقوّي جوازه.

صاحت تاتيانا بافلوفنا تسألها:

Twitter: @ketab_n

ـ أي «رجل أسود»؟

ـ «نسيت اسمه... رجل فظيع... نعم... اسمه فرسيلوف...

فهتفت:

ـ فرسيلوف؟ مستحيل!

فصرخت تاتيانا بافلوفنا:

ـ بل يمكن أن يفعلها! ولكن قولي لي يا «سيدة»، بدون وثب ونط، وبدون تحريك الذراعين والرجلين، ماذا يريدان أن يفعلا؟ إشرحي شرحاً معقولاً: إنني لا أستطيع أن أصدِّق أنهما يريدان أن يطلقا عليها الرصاص...

فأخذت «السيدة» تشرح فقالت (تذكروا أن ذلك كله كان كذباً كما سبق أن نبَّهت)، قالت إن فرسيلوف سيبقى وراء الباب، وإن لامبرت سيريها هذه الرسالة، متى دخلت، وعندئذ يثب فرسيلوف ف... «فينتقمان منها». وإنها، هي آلفونسين، تخشى أن تحل بها كارثة، لأنها كانت شريكة متواطئة، ولأن تلك «السيدة الجنرالة» ستأتي حتماً، «على الفور، على الفور»، لأنهما أرسلا إليها نسخة من الرسالة، فسوف ترى حالاً أن الأصل في حوزتهما فعلاً، فلا بد أن تأتي. ولامبرت وحده هو الذي كتب لها الرسالة، فهي لا تعرف شيئاً عن فرسيلوف. وقد عرَّف لامبرت نفسه بأنه رجل أوفدته من موسكو، سيدة بموسكو (لاحظوا: ماريا إيفانوفنا!).

صاحت تاتيانا بافلوفنا تقول:

ـ آه... أشعر بألم في قلبي... أحسّ بتدهور في صحتي!...

وصرخت آلفونسين:

ـ «أنقذوها! أنقذوها!».

Twitter: @ketab_n

لا شك أن هذا النبأ المجنون يشتمل على كثير من التفكك يدركه المرء حتى من أول نظرة، ولكن وقتنا لم يتسع للتفكير فيه، لأنه كان يبدو جائزاً كل الجواز حقاً. وكان في وسعنا أن نفترض أيضاً أن من المحتمل جداً أن تمر كاترينا نيقولايفنا بنا أولاً، أي أن تجيء أولاً إلى بيت تاتيانا بافلوفنا بعد تلقيها دعوة لامبرت، لتستجلي الأمر. ولكن هذا أيضاً يمكن جداً ألا يحدث، فقد تذهب إلى هناك رأساً، فتهلك!... وكان يصعب على المرء مع ذلك أن يصدِّق أن ترتمي هذا الارتماء على رجل مجهول مثل لامبرت، استجابةً لأول نداء منه. ولكن هذا يمكن أن يحدث أيضاً، بعد أن ترى نسخة الرسالة، فتقتنع بأن الأصل موجود عنده فعلاً، فتذهب إليه فتقع الكارثة. وكان الوقت شديد الضيق خاصةً، فما ينبغي أن نضيع منه دقيقة واحدة في التفكير.

وهتفت أقول:

ـ لسوف يقتلها فرسيلوف! إذا كان قد هبط إلى حيث يتصل بلامبرت، فلسوف يقتلها حتماً! إنه المثْل!

قالت تاتيانا بافلوفنا وهي تعقف يديها:

ـ آه!... هو «المثْل». هلمَّ بنا. لا بد! خذ قبعتك ومعطفك، ولنذهب إلى هناك معاً. قودينا يا سيدة. آه... ما أبعد المكان! يا ماري، ماري! إذا جاءت كاترينا نيقولايفنا فقولي لها إنني راجعة حالاً، فلتجلس ولتنتظرني، وإذا أبت أن تنتظر فاقفلي الباب بالمفتاح، واحبسيها عن الخروج عنوةً. قولي لها إنني أنا التي أمرت بهذا. سأعطيك مائة روبل يا ماري إذا أنت صنعت لي هذا المعروف.

واندفعنا إلى السلّم. لا شك أن هذا خير ما يمكن عمله، لأن البلاء الأكبر عند لامبرت، فإذا اتفق أن جاءت كاترينا نيقولايفنا

Twitter: @ketab_n

إلى تاتيانا بافلوفنا أولاً، فسيكون في وسع ماري أن تحتجزها. ومع ذلك فإن بافلوفنا غيَّرت رأيها فجأة، رغم أنها كانت قد نادت حوذياً. قالت وهي تتركني مع آلفونسين:

ـ اذهب أنت معها. ومت هناك إذا لزم الأمر، هل تفهم؟ وسألحق أنا بك. أما الآن فإنني سأثب إلى بيتها، فقد أجدها هناك، لأن الشكوك لا تزال تساورني، مهما تقل!

وطارت إلى بيت كاترينا نيقولايفنا. وركضنا أنا وآلفونسين إلى بيت لامبرت. كنت أستحث الحوذي على الإسراع، وأستمر في إلقاء الأسئلة على آلفونسين في الوقت نفسه، ولكن آلفونسين أصبحت لا تجيب إلا بصيحات وتأوهات، وطفقت تبكي آخر الأمر. ولكن القدر كان يحرسنا، فحمانا جميعاً حين كان كل شيء معلقاً بخيط واهن. فما إن قطعنا ربع الطريق حتى سمعت صرخة ورائي تناديني باسمي على حين فجأة، فالتفت، فإذا أنا أرى تريشانوف يلحقنا بعربة. صاح مرتاعاً:

ـ إلى أين؟ ومعها؟ مع آلفونسين؟

فصحت أقول له:

ـ لقد صدقت فيما قلت يا تريشانوف: إن كارثة سقع! إنني ذاهب إلى ذلك الوغد السافل لامبرت! فتعال معي، فيكون عددنا أكبر!

فصرخ تريشانوف قائلاً:

ـ بل ارجع، إرجع حالاً. لامبرت يكذب، وآلفونسين تكذب أيضاً. المجدور هو الذي أرسلني. ليسا في البيت: لقد لقيت لامبرت وفرسيلوف منذ هنيهة. لقد ذهبا إلى بيت تاتيانا بافلوفنا... وهما الآن هناك...

Twitter: @ketab_n

أوقفت العربة، وقفزت إلى عربة تريشانوف. ما زلت لا أدري كيف اتخذت ذلك القرار فجأة، ولكنني صدَّقت تريشانوف، فسرعان ما عزمت أمري. أخذت آلفونسين تطلق صرخات رهيبة، ولكننا تركناها فلا أدري هل تبعتنا أم هي رجعت إلى بيتها. ولكنني لم أرها بعد ذلك على كل حال.

وفي العربة، أفضى إليَّ تريشانوف، كيفما اتفق، وهو يلهث، بأن مكيدة قد دُبِّرت، وأن لامبرت اتفق مع المجدور، ولكن المجدور خان لامبرت في آخر دقيقة، فأرسله، هو تريشانوف، إلى تاتيانا بافلوفنا ليبلغها أن عليها ألا تصدِّق لامبرت وآلفونسين. وأضاف تريشانوف أنه لا يعرف غير هذا، لأن المجدور لم يزد على ذلك شيئاً، لأن وقته لم يتسع لمزيد من الإيضاح، ولأنه كان على عجلة من أمره هو أيضاً، لأن القضية كلها توجب الإسراع. وتابع تريشانوف كلامه فقال: «رأيت أنك ذهبت فجريت أتبعك». كان واضحاً إذن أن المجدور يعرف كل شيء هو أيضاً، ما دام قد أرسل تريشانوف إلى بيت تاتيانا بافلوفنا رأساً. ولكن هذا كان لغزاً آخر.

ومن أجل ألا تختلط الأفكار، سوف أعمد الآن، قبل وصف الكارثة، إلى شرح الحقيقة الصادقة كلها، مستبقاً الأحداث آخر مرة.

4

بعد أن سرق لامبرت الرسالة أسرع يتصل بفرسيلوف. أما كيف أمكن لفرسيلوف أن يتفق مع لامبرت، فهذا ما لا أقوله الآن، وإنما أرجئه إلى حينه، إنه «المثل»، على كل حال! ولكن كان على لامبرت، بعد أن تحالف مع فرسيلوف، أن يستدرج كاترينا نيقولايفنا بأسلوب حاذق بارع. . . لقد كان فرسيلوف يؤكد له أنها لن تأتي.

Twitter: @ketab_n

ولكن لامبرت، منذ أن لقيته في الشارع أمس الأول، وأعلنت له متباهياً متفاخراً أنني سأرد الرسالة إلى كاترينا نيقولايفنا في بيت تاتيانا بافلوفنا وبحضور تاتيانا بافلوفنا، قد أقام نوعاً من الرقابة على شقة تاتيانا بافلوفنا: إذ اشترى ماري بعشرين روبلاً. وغداة غد، بعد أن تمت سرقة الرسالة، زار ماري مرة أخرى، وتفاهم معها تفاهماً كاملاً، إذ وعدها بمائتي روبل ثمناً لما ستقدمه له من خدمات.

ذلك هو السبب في أن ماري ما إن سمعت أن كاترينا نيقولايفنا ستكون عند تاتيانا بافلوفنا في الساعة الحادية عشرة والنصف وأنني سأكون أنا أيضاً عندها، حتى وثبت خارجة من البيت وركبت عربة وأسرعت تحمل النبأ إلى لامبرت... هذا بعينه هو ما كان مطلوباً منها أن تخبر به لامبرت، هذه هي الخدمات التي كان يجب عليها أن تقدمها له. واتفق أن كان فرسيلوف في تلك اللحظة ذاتها عند لامبرت. فما هي إلا طرفة عين حتى تخيل تلك الخطة الجهنمية. يقال إن المجانين يكونون في بعض اللحظات من أوسع الناس حيلة وأعظمهم مكراً.

وكانت الخطة هي أن نستدرج، أنا وتاتيانا، إلى خارج المسكن بأية وسيلة من الوسائل، ولو ربع ساعة فقط، ولكن قبل وصول كاترينا نيقولايفنا؛ وأن ينتظراها في الشارع، فمتى خرجنا أنا وتاتيانا بافلوفنا دخلا إلى البيت الذي ستفتح لهما ماري بابه، وانتظرا وصول كاترينا نيقولايفنا. وفي أثناء ذلك يكون على آلفونسين أن تحتجزنا بكل ما أوتيت من قوة في أي مكان تشاء، وبأية وسيلة تراها. وإذ إن كاترينا نيقولايفنا ستصل في الساعة الحادية عشرة والنصف، كما وعدت بذلك، فإنها ستصل إذن قبل أن نستطيع نحن أن نعود (طبعاً لم تتلق كاترينا نيقولايفنا أي دعوة

Twitter: @ketab_n

من لامبرت، لقد كذبت آلفونسين: إن هذه القصة كلها إنما كانت من اختراع فرسيلوف بجميع تفاصيلها. ولم تزد آلفونسين على أن مثَّلت دور الخائن الذي يخون من شدة فزعه). ومن الواضح أنهما كانا يتعرضان للإخفاق، ولكن تفكيرهما كان سليماً: «إذا نجحت الخطة كان بها، وإذا لم تنجح فلا نفقد شيئاً لأن الوثيقة تبقى معنا». ولكن الخطة نجحت، وكان لا يمكن إلا أن تنجح، لأننا كنا لا نستطيع إلا أن نركض وراء آلفونسين مدفوعين بهذا الافتراض: «ماذا لو صحَّ ما تقوله؟». أعود فأقول: إن وقتنا لم يتسع للتفكير.

5

داهمنا المطبخ أنا وتريشانوف، فوجدنا ماري شبه ميتة من الخوف. لقد أرعبها، حين أدخلت لامبرت وفرسيلوف، أن رأت بين يدي لامبرت مسدساً على حين فجأة. لئن قبلت من لامبرت مالاً، فإن المسدس لم يدخل في حسابها قط. فكانت مضطربة أشد الاضطراب، فما إن رأتني حتى ارتمت عليَّ وقالت:

- الجنرالة جاءت، ومعهما مسدس!

قلت آمر تريشانوف:

- تريشانوف، إبق أنت هنا في المطبخ. فمتى صرختُ أناديك هرعتَ إلى نجدتي.

وفتحت لي ماري باب الدهليز، فتسللت إلى غرفة تاتيانا بافلوفنا، إلى تلك الغرفة الصغيرة التي ليس فيها مكان إلا لسرير تاتيانا بافلوفنا، والتي سبق لي ذات مرة أن تنصتُّ منها على حديث. جلست على السرير، وأسرعت أزيح الستارة قليلاً.

Twitter: @ketab_n

وكان في الغرفة جلبة منذ ذلك الوقت، وكان الحديث يجري بصوت عال. يجب أن أذكر أن كاترينا نيقولايفنا قد وصلت بعدهما بدقيقة واحدة. وكنت قد سمعت هذه الجلبة وذلك الحديث منذ أن دخلت المطبخ.

كان الصياح يصدر عن لامبرت. كانت هي جالسة على الديوان وكان هو متسمراً أمامها يصرخ كأبله. إنني أعلم الآن لماذا فقد هدوءه بهذا الغباء: لقد كان على عجلة من أمره، كان يخشى أن يفاجأ. وكانت الرسالة في يده. لكن فرسيلوف لم يكن بالغرفة. وقد تأهبت للوثوب عند أول خطر. وهأنذا أروي معنى الأحاديث التي جرت بينهما، معناها فحسب. ربما كان هناك أشياء كثيرة لا أتذكرها تذكراً واضحاً. لأنني كنت عندئذ أشد انفعالاً واضطراباً من أن أستطيع حفظها بدقة.

ـ هذه الرسالة تساوي ثلاثين ألف روبل. هل تدهشين؟ الحق أنها تساوي مائة ألف، لكنني لا أطلب إلا ثلاثين ألفاً.

كذلك قال لامبرت بصوت عال، مندفعاً اندفاعاً رهيباً. فكانت كاترينا نيقولايفنا، رغم ذعرها الواضح، تنظر إليه بازدراء واحتقار. قالت:

ـ واضح أن ههنا فخاً، فلست أفهم شيئاً. ولكن إذا كانت تلك الرسالة معك حقاً...

فقاطعها لامبرت قائلاً:

ـ خذي! هي ذي! انظري إليها! انظري إليها! أليست هي نفسها؟ ثلاثون ألف روبل لا تنقص كوبكاً واحداً...

ـ لست أحمل مالاً.

ـ اكتبي سنداً. إليك ورقة. وبعد ذلك تجيئينني بالمال، وسوف

Twitter: @ketab_n

أنتظر أسبوعاً لا أكثر. فمتى جئتني بالمال رددت إليك السند والرسالة.

ـ إنك تكلمني بلهجة سخيفة. وإنك لمخطىء. سوف تؤخذ منك هذه الوثيقة متى شكوتك...

ـ لمن؟ هأ هأ هأ! والفضيحة؟ والرسالة التي سنطلع عليها الأمير؟ وكيف يمكن أن تؤخذ مني؟ إنني لا أحتفظ بوثائق في بيتي. وسأطلع عليها الأمير بواسطة شخص ثالث. لا تعندي يا سيدتي، اشكري لي أنني لا أطلب إلا مبلغاً زهيداً. ولو كان في مكاني رجل آخر لطلب منك خدمات أخرى تعرفين ما هي! إنها الخدمات التي لا ترفض أية امرأة جميلة أن تقدّمها في حالة صعبة وظرف حرج. تعرفين ما هي تلك الخدمات؟ هأ هأ هأ! . «أنت امرأة جميلة!».

لم تزد كاترينا نيقولايفنا على أن وثبت وثبة واحدة وقد احمرّت احمراراً شديداً، فبصقت في وجهه. ثم اتجهت بسرعة نحو الباب. فإذا بالأحمق يشهر مسدسه. إنه، وهو الأبله المحدود العقل، كان مؤمناً إيماناً أعمى بما سيكون للوثيقة من أثر، فلم يدخل في حسابه نوع المرأة التي يخاطبها، وذلك لأنه، كما سبق أن قلت، يتصور لدى جميع الناس وجود تلك العواطف الدنيئة نفسها التي تملأ قلبه. لقد أثار بفظاظته حنق كاترينا نيقولايفنا منذ أول كلمة، ولعلها ما كانت لترفض تسوية مالية.

أعول يقول وقد ثارت ثائرته من البصقة:

ـ لا تتحركي!

وأمسكها من كتفها وأراها المسدس، ليخيفها طبعاً. فصرخت وتهالكت على الديوان. فاندفعت أنا إلى الغرفة. ولكن، في تلك

Twitter: @ketab_n

اللحظة نفسها، دخل فرسيلوف من الباب المتصل بالدهليز (كان ينتظر هناك)، فلم أكد ألقي نظرة واحدة حتى كان قد انتزع المسدس من لامبرت، وأخذ يضربه على رأسه بكل ما أوتي من قوة. فترنح لامبرت، وسقط مغشياً عليه. وكان الدم يسيل غزيراً من جمجمته على السجادة.

أما هي فإنها حين أبصرت فرسيلوف، اصفر وجهها اصفراراً شديداً، وشخصت إليه ببصرها بضع لحظات مرتاعة أشد الارتياع، ثم لم تلبث أن أغمي عليها. فارتمى عليها. هذا كله يبدو لي أنني لا أزال أراه. أتذكر أنني ذعرت حين رأيت وجهه الأحمر الذي يشبه أن يكون بلون القرمز، وحين رأيت عينيه المحتقنتين. وإني لأظن أنه، وقد رآني في الغرفة، لم يعرفني. ارتمى عليها، فتناول جسمها الهامد، وأنهضه بقوة خارقة، فحملها على ذراعيه بسهولة كأنه يحمل ريشة، وأخذ يجول بها في الغرفة، وقد لاح في وجهه الجنون. كانت الغرفة صغيرة، ولكنه كان يطوف من ركن إلى آخر، دون أن يدرك لماذا يفعل ذلك. لقد فقد عقله في لحظة. وكان لا ينقطع عن النظر إليها، عن النظر إلى وجهها. وكنت أنا أركض وراءه. كنت خائفاً من المسدس خاصة: لقد نسيه في يده اليمنى مصوباً إلى رأسها.

ولكنه دفعني مرة بكوعه، وركلني مرة أخرى برجله. وقد أردت أن أنادي تريشانوف، ولكنني خفت أيضاً أن أخيف المجنون فينفجر. وأخيراً أزحت الستارة إزاحة تامة على حين فجأة، وتوسلت إليه أن يرقدها على السرير. فاقترب ووضعها على السرير، لكنه تسمَّر أمامها وحدق إلى عينها تحديقاً ثابتاً مدة دقيقة، ثم إذا هو يميل عليها فجأة فيقبل شفتيها الشاحبتين مرتين. فأدركت أنه قد

Twitter: @ketab_n

فقد عقله فقداً تاماً ثم إذا هو يرفع مسدسه ويهمّ أن يضربها به ولكنه لم يلبث أن عدل عن رأيه، فصوب المسدس إلى وجهها ليطلق النار. فأمسكت ذراعه فوراً بكل ما أملك من قوة، وناديت تريشانوف. أتذكر أننا صارعناه كلانا، ولكنه استطاع أن يخلص ذراعه وأن يطلق النار على نفسه. لقد كان يريد أن يقتلها، ثم يقتل نفسه. لكنه، وقد منعناه من قتلها هي، صوَّب المسدس إلى قلبه هو. ولقد استطعت مع ذلك أن أرفع ذراعه إلى أعلى، فاستقرت الرصاصة في كتفه. وفي تلك اللحظة علت صرخة. إنها تاتيانا بافلوفنا تدهم الغرفة. ولكن فرسيلوف كان قد رقد على الأرض مغمى عليه إلى جانب لامبرت.

Twitter: @ketab_n

الفصل الثالث عشر

1

خاتمة

انقضت على ذلك المشهد قرابة ستة أشهر. إن مياهاً كثيرة قد جرت تحت الجسور، وأن أشياء كثيرة قد أثيرت. وبدأت أنا حياة جديدة. وسوف أخلص القارىء من حديثي أنا أيضاً.

إن سؤالاً قد شغل فكري حينذاك وظل يشغله مدة طويلة: كيف أمكن لفرسيلوف أن يرتبط بشخص مثل لامبرت؟ وما الهدف الذي كان يرمي إليه؟ وقد انتهيت إلى تفسير الأمور على النحو التالي: إنه أثناء تلك الفترة الفاجعة القصيرة، أعني اليوم الأخير واليوم الذي سبقه، كان لا يرمي إلى أي هدف محدد، وإنما كان يعصف به ويستولي على عقله إعصار من العواطف المتناقضة. لا أعتقد أنه أصيب بجنون حقيقي، لا سيما وأنه اليوم ليس مجنوناً قط. ولكنني أؤمن بالمِثْل دون تردد. فما «المِثْل»؟ لقد قرأت في الآونة الأخيرة كتاباً لطبيب اختصاصي، فعرفت أن «المِثْل» درجة أولى من درجات اختلال عقلي خطير يمكن أن يؤدي إلى نهاية محزنة. ولقد أوضح فرسيلوف، يوم حطم الأيقونة عند ماما، أوضح بصدق هائل، آلية

Twitter: @ketab_n

«ازدواج» إرادته وعواطفه. إنني ألح على ذلك المشهد. بالمشهد الذي حدث في بيت ماما، وتحطيم الأيقونة، ذلك كله إنما حدث بتأثير «المِثْل» حتماً. ومع ذلك أظل أتساءل: ألا يمتزج بفعل التحطيم ذاك، رمز شرير ما؟ وأراني أجيب على هذا السؤال نعم، وأعتقد أن ثمة رمزاً يشير إلى كره ما كان يساور تلك النسوة من آمال، وما كنَّ يؤمنَّ به من حقوق، وما كان يقوم في أذهانهن من رأي. فبالاتفاق مع «المِثْل» إنما حطم الأيقونة. فكأنه كان يقول: «هكذا سيتحطم توقعكن». نعم، كان هناك «المِثْل»، ولكن كانت هنالك نزوة أيضاً. على كل حال، ذلك تخمين مني.

إنه رغم عبادته لكاترينا نيقولايفنا كان قد ترسخ في قرارة نفسه شك صادق وعميق في مزاياها الأخلاقية. فحين رابط وراء الباب كان يتوقع أن يراها تذلّ نفسها أمام لامبرت. ولكن إذا كان يتوقع ذلك، فهل كان يريده؟ أعود فأقول: إنني أؤمن إيماناً جازماً بأنه كان لا يريد شيئاً، بل كان لا يفكر البتة. كانت رغبته كلها هي أن يوجد هناك، وأن يثبت بعد ذلك، وأن يقول لها شيئاً ما... وربما... ربما أن يهينها، وربما أيضاً أن يقتلها!... لقد كان كل شيء في تلك اللحظة جائزاً وممكناً. ولكنه حين وصل مع لامبرت كان لا يعرف شيئاً مما قد يحدث. يجب أن أضيف أن المسدس كان للامبرت، وأن فرسيلوف جاء بغير سلاح. فلما رأى ما رأى من كبرياء كاترينا وشممها، ولما لم يستطع خاصة أن يحتمل حقارة لامبرت الذي كان يهددها، اندفع إلى الغرفة، وعندئذ إنما فقد عقله. هل كان يريد أن يطلق عليها الرصاص في تلك اللحظة؟ أنا أعتقد أنه كان لا يعرف من ذلك شيئاً هو نفسه، ولكن لا شك في أنه كان سيطلق النار لولا أننا أمسكنا ذراعه.

Twitter: @ketab_n

ولم يكن الجرح الذي أصيب به قاتلاً. . . فقد شفي، ولكن بعد أن بقي في السرير مدة طويلة، عند ماما طبعاً. نحن الآن، أثناء كتابة هذه الكلمات، في فصل الربيع، في منتصف شهر أيار (مايو). النهار رائع. ونوافذنا مفتوحة. ماما جالسة إلى جانبه. وهو يلاعب خديها وشعرها وينظر إلى عينيها بحنان. ليس هو الآن إلا نصف ما كان فرسيلوف من قبل. أصبح لا يترك ماما، ولن يتركها أبداً. حتى لقد أوتي «موهبة ذرف الدموع»، على حد تعبير ماكار إيفانوفتش الذي لا يُنسى، في قصته عن التاجر. ويخيل إليَّ من جهة أخرى أن فرسيلوف سيعمر طويلاً. هو الآن معنا بسيط كل البساطة، صادق كل الصدق، كطفل، ولكن بدون أن يفقد الاعتدال والرصانة، وبدون أن يفرط في الكلام. لقد احتفظ بذكائه كاملاً، واحتفظ بكل ما يتصف به طبعه الأخلاقي، غير أن كل ما كان لديه من مثل أعلى قد ازداد بروزاً. يجب أن أقول جازماً إنني ما أحببته يوماً كما أحبه الآن، وإنني يؤسفني ألا أملك من فسحة الوقت والمكان ما يمكنني من الإسهاب في الكلام عنه. ومع ذلك سوف أروي قصة حديثة (وهناك قصص أخرى من هذا النوع): في أثناء الصوم الكبير كان قد شفي من جرحه، فإذا هو يعلن في الأسبوع السادس أنه سيتناول القربان المقدس. لم يسبق له أن تناول القربان منذ ثلاثين سنة أو أكثر فيما أظن. سعدت ماما بهذا سعادة كبيرة. وأصبحوا في البيت لا يحضرون من الطعام إلا أطباقاً بغير دسم، ولكنها أطباق غالية الثمن فاخرة الصنف. وقد سمعته في الغرفة المجاورة، يومي الأحد والإثنين، يغني أغنية «ها هو ذا العريس يأتي»، متحمساً للّحن والكلمات جميعاً. وقد اتفق له في ذينك اليومين أن انطلق يتكلم في الدين فقال كلاماً رائعاً. غير أن كل

Twitter: @ketab_n

شيء انقطع يوم الأربعاء. إذ انتابه حنق مفاجىء أو «تناقض مضحك» كما قال ضاحكاً. إن شيئاً ما في أفعال الكاهن وحركاته وإشاراته قد بدا له غليظاً. فلما عاد في ذات يوم من الكنيسة قال وهو يبتسم ابتسامة لطيفة: «يا أصدقائي، إنني أحب الله كثيراً، لكن هناك أشياء تضايقني، لذلك لست مستعداً. . .» وفي مساء ذلك اليوم كان طعام العشاء يضم شرائح لحم مقلي. ولكنني أعرف أن ماما تجلس إلى جانبه في كثير من الأحيان حتى اليوم، فتحادثه بصوت عذب وابتسامة حلوة في موضوعات مجردة جداً. إنها الآن جريئة معه. لا أدري كيف حدث هذا. تجلس إلى جانبه وتكلمه، ويجري الحديث في أكثر الأحيان بصوت خافت. إنه يصغي إليها مبتسماً، ويلاعب شعرها، ويقبل يديها، وتسطع على وجهه أكبر سعادة. وقد تعتريه في بعض الأحيان نوبات تكاد تكون هسترية، فيتناول صورتها الفوتوغرافية، تلك التي قبَّلها في ذلك المساء المشهود، فينظر إليها دامع العينين، ويقبِّلها، ويتذكر، ويدعونا إليه جميعاً. ولكنه في مثل هذه اللحظات لا يتكلم إلا قليلاً!. . . ويبدو أنه نسي نيقولايفنا نسياناً تاماً، فهو لم يذكر اسمها مرة واحدة. أما عن زواجه بماما، فذلك أمر لم يكن حتى الآن محل بحث. وكانوا يريدون أن يسافروا به في الصيف إلى الخارج، ولكن تاتيانا بافلوفنا ألحت على ألا يفعلوا، وهو نفسه لم يشأ على كل حال. فسوف يقضون الصيف في الريف بمكان ما في مقاطعة بطرسبرج. يجب أن أذكر في هذه المناسبة أن تاتيانا بافلوفنا هي التي تنفق الآن على معيشتنا جميعاً. ويجب أن أضيف شيئاً آخر هو أنني حزين أشد الحزن من أنني، طوال هذه المذكرات، قد أبحت لنفسي أن أعامل هذه الإنسانة بغير احترام، وأن أنظر إليها من علٍ. ولكنني كتبت ما

Twitter: @ketab_n

كتبته وأنا أتصور تصوراً مسرفاً في الدقة كيف كانت حالتي في كل لحظة من اللحظات التي وصفتها. وبعد أن فرغت من كتابة آخر سطر أحسست فجأة أنني بفضل هذا التذكر وهذا التسجيل لذكرياتي قد ربيت نفسي تربية جديدة. صحيح أنني أنكر كثيراً مما كتبت، ولا سيما لهجة بعض الجمل أو الصفحات، ولكنني لا أريد أن أمحو ولا أن أصحح كلمة واحدة.

قلت إنه أصبح لا يتكلم عن كاترينا نيقولايفنا البتة. بل إني لأعتقد أنه شفي شفاء تاماً. عن كاترينا نيقولايفنا أصبحنا وحدنا، أنا وتاتيانا بافلوفنا، نتكلم في بعض الأحيان، ونتكلم خفية. إن كاترينا نيقولايفنا هي الآن في الخارج. رأيتها قبل سفرها، وزرتها في بيتها عدة مرات، ومن الخارج بعثت لي حتى الآن رسالتين أجبت عنهما. لن أقول شيئاً عن مضمون الرسالتين ولا عن الموضوعات التي عالجناها حين تركتنا قبل سفرها: فهذه قصة أخرى، قصة «جديدة» كل الجدة، لعلها لا تزال قائمة كلها في المستقبل. حتى مع تاتيانا بافلوفنا هناك موضوعات معينة لا أقاربها. ولكن كفى هذا. أريد أن أضيف فقط أن كاترينا نيقولايفنا لم تتزوج، وهي مسافرة الآن مع بلشتشيف. لقد مات أبوها، فهي أغنى الأرامل. إنها الآن بباريس. لقد تمت القطيعة بينها وبين بيورنج بسرعة، وكأنما تمت من تلقاء نفسها، على نحو طبيعي جداً. وسأحكي هذا على كل حال.

ففي الصباح من يوم ذلك الحادث الرهيب، استطاع المجدور، أعني ذلك الذي انتقل تريشانوف وصديقه إلى خدمته، أن يبلغ بيورنج بالمؤامرة التي تحاك. إليكم كيف حدث ذلك: كان لامبرت قد جعل المجدور يقرر الاشتراك في المؤامرة، وأطلعه بعد أن

Twitter: @ketab_n

صارت الوثيقة في حوزته، على جميع تفاصيل المشروع وجميع ظروفه، وأطلعه أخيراً على الخطة الأخيرة، أي الخطة التي تخيلها فرسيلوف لخداع تاتيانا بافلوفنا. ولكن المجدور آثر في اللحظة الحاسمة أن يخون لامبرت، لأن المجدور كان أعقل هؤلاء الناس جميعاً، إذ تخيل في هذه المشروعات كلها إمكان حدوث جريمة، ورأى خاصة أن الخطوة بعرفان بيورنج وشكره وامتنانه أضمن من خطة خيالية يضعها رجل أهوج أخرق مثل لامبرت ورجل جعله الهوى شبه مجنون مثل فرسيلوف. ذلك كله علمته بعدئذ من تريشانوف. يجب أن أذكر في هذه المناسبة أنني أجهل ولا أفهم العلاقات التي كانت قائمة بين لامبرت والمجدور، ولماذا كان لامبرت لا يستطيع الاستغناء عن المجدور. ولكن المسألة التي كانت تثير عجبي أكثر من سائر ما عداها هي التالية: ما كانت حاجة لامبرت إلى فرسيلوف، مع أنه بعد حصوله على الوثيقة كان يستطيع الاستغناء عن مساعدة فرسيلوف استغناء تاماً؟ ولقد أصبح الجواب واضحاً الآن: كان لامبرت في حاجة إلى فرسيلوف أولاً لأن فرسيلوف عالم بالظروف، وثانياً لأنه يستطيع في حالة الخطر أو في حالة وقوع مصيبة أن يلقي على فرسيلوف جميع التبعات. ولما كان فرسيلوف في غير حاجة إلى المال، فقد رأى لامبرت أن مشاركته مفيدة إلى أقصى حد.

ولكن بيورنج لم يصل في اللحظة المطلوبة. وإنما وصل بعد إطلاق النار بساعة، وكان بيت تاتيانا بافلوفنا قد تغير وجهه تغيراً كاملاً. فبعد خمس دقائق من سقوط فرسيلوف على السجادة مضرجاً بدمائه، نهض لامبرت، وكنا نظنه ميتاً، فأجال بصره فيما حوله، فأدرك في الحال كل شيء، ومضى إلى المطبخ بدون أن

Twitter: @ketab_n

يقول كلمة، فارتدى معطفه واختفى إلى الأبد. وبقيت «الوثيقة» على المائدة. وقد سمعت أنه لم يصب حتى بمرض، ولم يعان إلا شيئاً من أوجاع طفيفة. لقد جندلته الضربة، وأنزفت دمه، ولكنها لم تنله بأذى.

وفي أثناء ذلك ركض تريشانوف يستدعي الطبيب. ولكن فرسيلوف أفاق من غيبوبته قبل وصول الطبيب، وقبل أن يصحو فرسيلوف كانت تاتيانا بافلوفنا قد استطاعت أن ترد كاترينا نيقولايفنا إلى الحياة وأن تعيدها إلى منزلها. وهكذا... حين دهم بيورنج بيت تاتيانا بافلوفنا لم يكن هناك أحد إلا أنا والطبيب وفرسيلوف الجريح وماما التي كانت لا تزال مريضة ولكنها هرعت إلى فرسيلوف كالمجنونة إذ أنبأها تريشانوف نفسه بما حصل. نظر بيورنج مدهوشاً؛ وما إن عرف أن كاترينا نيقولايفنا قد مضت حتى ذهب إلى بيتها دون أن ينطق عندنا بكلمة واحدة.

كان مضطرباً، إذ رأى رؤية واضحةً أن الفضيحة وذيوع النبأ أصبحا أمرين لا يمكن تجنبهما. ومع ذلك لم تقع فضيحة كبرى، وكل ما حدث أن شائعات قد سرت بين الناس وتناقلتها الألسن. صحيح أن طلقة المسدس قد استحال إخفاء أمرها، ولكن الجزء الأساسي من القصة كلها ظلَّ شبه مجهول. ولم يقرر التحقيق إلا أن رجلاً عاشقاً اسمه «ف...»، وهو متزوج ويكاد يبلغ الخمسين من العمر، قد أطلق النار على نفسه من مسدس في نوبة جنون، بينما كان يعلن غرامه لسيدة جديرة بأعظم الاحترام، لكنها لا تبادله عواطفه. لم يُعلم شيء أكثر من هذا. وفي هذه الصورة إنما انتقل الخبر إلى الجرائد غامضاً، بدون ذكر الأسماء، إلا أحرفها الأولى. أعلم مثلاً أن لامبرت لم يقلق أبداً. ولكن بيورنج الذي كان يعرف

Twitter: @ketab_n

الحقيقة خاف خوفاً شديداً. ولقد علم فجأةً، بما يشبه المصادفة، أن لقاءً تم قبل الكارثة بيومين بين كاترينا نيقولايفنا وفرسيلوف الذي يحبها. فأحنقه ذلك حنقاً قوياً، فأباح لنفسه بغير تروٍ ولا حذر أن يقول لكاترينا نيقولايفنا إنَّه لا يدهشه أن تقع لها أحداث فظيعة كهذه. فلم تلبث كاترينا نيقولايفنا أن صرفته فوراً، بدون غضب، ولكن بدون تردد؛ إن ما كانت تقدره من أن زواجها بمثل هذا الرجل زواج يشتمل على حكمة وتعقل قد تبدد كما يتبدد البخار. ولعلها كانت قد كشفته وعرفت حقيقته قبل ذلك بمدة طويلة. ولعلها أيضاً، بعد الهزة القوية التي أصابتها، قد تغيرت بعض آرائها وبعض عواطفها بغتةً. يجب أن أضيف أن لامبرت فرَّ إلى موسكو، وقد علمت أنه قبض عليه هنالك في قضية أخرى. أما تريشانوف فإنني منذ مدة طويلة، بل منذ وقوع تلك الأحداث تقريباً، قد غاب عن بصري فلم أره رغم جميع الجهود التي لا أزال أبذلها لأقع على آثاره. لقد اختفى بعد موت صديقه «الأبله الطويل» الذي أطلق على رأسه الرصاص.

2

ذكرت موت الأمير العجوز نيقولا إيفانوفتش. إن هذا الشيخ الطيب اللطيف قد مات بعد الحادث بمدة قصيرة، بعد نحو شهر. مات في الليل، على سريره، من سكتة قلبية. ولم أكن قد رأيته منذ اليوم الذي قضاه في بيتي. وقد رُوي عنه في أثناء ذلك الشهر أن عقله صحا صحواً كبيراً، وأنه صار جاداً كثير الجد، فهو لا يخاف، ولا يبكي، حتى إنه لم يقل كلمة واحدة عن آنا آندرييفنا طوال تلك المدة. وقد انصب حبه كله على ابنته. وقبل وفاته

Twitter: @ketab_n

بأسبوع، اقترحت عليه كاترينا نيقولايفنا أن يستدعيني لأسليه وأسرِّي عنه، ولكنه قطب حاجبيه. إنني أذكر هذه الواقعة بدون أن أحاول تفسيرها وتعليلها. وكانت أطيانه مزدهرة، وكان يملك عدا ذلك مبلغاً ضخماً من المال. وقد أمر في وصيته بأن يوزَّع ثلث هذا المال تقريباً على أولاده بالمعمودية وما أكثرهم! ولكن الأمر الذي أدهش جميع الناس أشد الدهشة أن هذه الوصية لم تشر إلى آنا آندرييفنا، وخلت حتى من ذكر اسمها خلواً تاماً. إليكم مع ذلك ما أعلمه علم اليقين: إن الشيخ، قبل وفاته ببضعة أيام فقط، استدعى ابنته وصديقيه بلشتشيف والأمير «ف. . .»، فأمر كاترينا نيقولايفنا بأن تقتطع من هذا المال عند وفاته القريبة مبلغ ستين ألف روبل تخص بها آنا آندرييفنا. لقد عبَّر الشيخ عن إرادته هذه تعبيراً واضحاً مقتضباً دقيقاً، دون أن يبيح لنفسه أي تعليق أو تعقيب. وبعد وفاته، حين أضحى كل شيء واضحاً، عهدت كاترينا نيقولايفنا إلى مصرِّف أعمالها بإبلاغ آنا آندرييفنا أن في وسعها أن تقبض هذه الستين ألف روبل متى شاءت. ولكن آنا آندرييفنا رفضت العرض بجفاء وبغير كلام زائد: رفضت قبض المبلغ رغم كل ما أُكِّد لها من أن هذه هي إرادة الأمير فعلاً. ولا يزال المبلغ موقوفاً ينتظر أن تقبضه آنا آندرييفنا، ولا تزال كاترينا نيقولايفنا تأمل أن تغيِّر آنا آندرييفنا رأيها. ولكن آنا آندرييفنا لن تغيِّر رأيها. فهذا ما أعلمه يقيناً، لأنني اليوم من أقرب أصدقاء آنا آندرييفنا إليها. وقد أثار رفضها ضجة، وتحدَّث عنه الناس. وكان من شأن هذا أن خالتها فانارياتوفا التي ساءتها منها فضيحتها مع الأمير في البداية، قد غيَّرت رأيها فيها بعد رفضها المال، فأعربت لها عن احترامها جهاراً. أما أخوها، فقد شاجرها بسبب هذا الرفض شجاراً شديداً. على أنني لا أستطيع

Twitter: @ketab_n

أن أقول، رغم كثرة ترددي على آنا آندرييفنا، هل العلاقة التي بيني وبينها علاقة حميمة وثيقة. عن الماضي نحن لا نتحدث اليوم أبداً. إنها تُسرُ باستقبالي، ولكن حديثها معي حديث مجرد. ولقد قالت لي فيما قالت إنها مصممة على دخول الدير حتماً. قالت لي هذا منذ مدة غير طويلة. ولكنني لا أصدِّق أن تفعل، ولا أرى في قولها هذا إلا تعبيراً عن مرارة.

على أن المرارة الكبرى إنما هي في حديثي الآن عن أختي ليزا. ذلك هو الشقاء الحقيقي! ما أهون أنواع الإخفاق التي منيتُ بها إذا هي قيست بمصيرها الحزين! أولاً: لم يشف الأمير سرجي بتروفتش، ومات في المستشفى قبل صدور الحكم. مات قبل الأمير نيقولا إيفانوفتش. وبقيت ليزا وحيدة مع جنينها. كانت لا تبكي. حتى لقد كانت تبدو هادئة. وصارت لينة دمثة عذبة طيعة. غير أن ما كان يزخر به قلبها في الماضي من حرارة كان كأنه دُفن في أعماق نفسها. كانت تساعد ماما بمذلة، وتُعنى بآندريه بتروفتش المريض. ولكنها أصبحت صامتة صمتاً رهيباً، وأصبحت منطوية على ذاتها لا تريد أن تنظر إلى شيء ولا أن ترى أحداً، فكأن جميع الأمور عندها سواء، وكأنها لا تكترث بشيء من الأشياء. وقد هزلت هزالاً مخيفاً. كنت لا أجرؤ أن أواسيها، رغم أني كثيراً ما جئت إليها عاقداً نيتي على ذلك. فما أن ألقاها حتى أجدني عاجزاً عن الاقتراب منها، وحتى إنه كانت تعوزني الكلمات اللازمة لمواجهة هذا الموضوع. وامتد ذلك إلى أن وقع حادث رهيب: زلت قدمها على السلّم فسقطت، ليس من أعلى السلّم، بل من ثلاث درجات فقط، لكنها أجهضت واستمر مرضها الشتاء كله تقريباً. وقد نهضت الآن، ولكنها في أعقاب ضربة كهذه الضربة لن

Twitter: @ketab_n

تسترد صحتها إلا بعد مدة طويلة. ولا تزال معنا شديدة الصمت كثيرة الوجوم والتفكير، ولكنها عادت تتكلم مع ماما قليلاً. وقد طلعت علينا في هذه الأيام الأخيرة شمس ربيعية رائعة، عالية رائقة؛ ولا أزال أتذكر بيني وبين نفسي تلك الصبيحة المشمسة من أيام الخريف الماضي حين تنزهنا معاً وقد امتلأ قلبانا كلانا بالفرح والأمل، وأحب كل منا الآخر حباً كثيراً! يا حسرتاه! ماذا وقع من بعد؟ لست أتشكى. فأنا قد بدأت حياة جديدة. ولكن هي؟ إن مستقبلها لغز. ولا أستطيع أن أراها إلا ويعصر قلبي الألم.

استطعت مع ذلك منذ ثلاثة أسابيع أن أثير اهتمامها إذ حدثتها عن فاسين. لقد أطلق سراحه أخيراً، وأفرج عنه إفراجاً نهائياً. ورُوي أن هذا الرجل الزاخر برجاحة العقل وحصافة الرأي قد استطاع أن يقدِّم أدق الإيضاحات وأهم المعلومات، فبرّأ نفسه أمام أولئك الذين كان مصيره رهناً برأيهم فيه. وقد تبيَّن على كل حال أن المخطوطة التي أثارت ذلك اللغط كله لم تكن إلا ترجمة عن الفرنسية لمواد كان يجمعها لنفسه وحده، على نية أن يعتمد عليها في كتابة مقالة مفيدة لمجلة من المجلات في المستقبل. وقد سافر الآن إلى إقليم . . .»؛ أما زوج أمه ستيبلكوف فلا يزال في السجن بسبب قضيته الخاصة التي علمت أنها ما تنفك تكبر وتتسع. لقد أصغت ليزا إلى حديثي هذا عن فاسين وهي تبتسم ابتسامة غريبة، وقالت إن ذلك هو ما كان لا بد أن يقع له. ولكن كان واضحاً أنها سُرَّت بما رويته لها، وأغلب الظن أن مردَّ سرورها أن المرحوم الأمير سرجي بتروفتش لم يُلحق تدخله ضرراً بفاسين، ولم يصبه بأذى. أما درجاتشيف والآخرون، فليس عندي ما أقوله عنهم هنا.

انتهيت. لعل بعض القراء يريدون أن أحدثهم مزيداً من الحديث

Twitter: @ketab_n

فأقول لهم ماذا صارت إليه «فكرتي»، وما هي تلك الحياة الجديدة التي بدأتها والتي أشرت إليها إشارة يكتنفها السر؟ فأقول إن هذه الحياة الجديدة التي تنفتح أمامي هي بعينها «فكرتي»، هي «فكرتي» السابقة نفسها، ولكن في صورة مختلفة كل الاختلاف حتى لينكرها المرء ولا يعرفها. ذلك كله لا يدخل في نطاق هذه المذكرات لأنه شيء آخر. انتهت الحياة القديمة، والحياة الجديدة لم تزد على أن بدأت. ومع ذلك سأضيف ما لا غنى عن إضافته. إن صديقتي المخلصة الحبيبة تاتيانا بافلوفنا تحضني كل يوم تقريباً على دخول الجامعة بأقصى سرعة حتماً، وتقول: «فمتى أتممت دراستك رأيت ماذا يجب أن تفعل. أما الآن فأتمم دراستك». أعترف بأن هذا العرض يحملني على التفكير، لكني أجهل القرار الذي سأتخذه كل الجهل. وقد اعترضت عليها مع ذلك قائلاً إني الآن لا يجوز لي أن أتابع دراستي، إذ يجب عليَّ أن أعمل لأعول ماما وليزا. ولكنها تعرض عليَّ ثروتها مؤكدةً أنها تكفي لمدة دراستي كلها. وقد قررت أخيراً أن ألتمس نصيحة أحد الناس. فبعد أن استعرضت مَنْ حولي وقع اختياري على هذا الرجل، نيقولا سيمنوفتش، معلمي السابق بموسكو، زوج ماريا إيفانوفنا؛ ليس لأني في حاجة شديدة إلى نصائح، إلا أن رغبة قوية لا سبيل إلى مغالبتها قد دفعتني إلى معرفة رأي هذا الرجل الأناني، الغريب كل الغرابة عن الأحداث التي وصفتها، ذي القلب الذي يتصف بالبرود، ولكنه ذكي ذكاء لا يمكن جحوده. فأرسلت إليه مخطوطتي، طالباً منه أن يبقي أمرها سراً مكتوماً، لأنني لم أطلع عليها أحداً بعد، ولم أطلع عليها تاتيانا بافلوفنا خاصة. وقد عادت إليَّ المخطوطة بعد خمسة عشر يوماً، مصحوبة برسالة طويلة. وهأنذا أسرد فيما يلي مقتطفات

Twitter: @ketab_n

من تلك الرسالة، لأنني أجد فيها رأياً عاماً له قيمة تعليلية. إليكم هذه المقتطفات:

3

«عزيزي آركادي ماكاروفتش الذي لا يُنسى، إنك لم تستطع في يوم من الأيام أن تستعمل أوقات فراغك العارضة استعمالاً أنفع مما فعلت حين كتبت هذه المذكرات! لقد حصلت لنفسك على إدراك واعٍ لخطاك الأولى العاصفة المحفوفة بالمخاطر في درب الحياة. وإني لأعتقد جازماً بأن هذا الاستعراض قد أتاح لك فعلاً، في كثير من النقاط، أن «تربي نفسك تربية جديدة» كما تقول أنت نفسك. لن أسمح لنفسي بأي نقد حقيقي، رغم أن كل صفحة من هذه الصفحات تستدعي ملاحظات. من ذلك أن حرصك الشديد العنيد المصر على الاحتفاظ «بالوثيقة» طول تلك المدة شيء بارز إلى أبعد حد. على أن هذه الملاحظة التي أبحتها لنفسي ليست إلا واحدة من ألف. وإني لأقدر قدراً عظيماً كذلك أنك قررت أن تبوح لي ـ أنا وحدي في أغلب الظن ـ بسرِّ «فكرتك»، على حد تعبيرك. ولكن حين تسألني أن أعرب لك عن رأيي في هذه الفكرة، فإنني أكون مضطراً إلى الامتناع عن ذلك قطعاً. أولاً لأن الإعراب عن هذا الرأي يحتل مكاناً أكبر من أن تضمه رسالة. وثانياً لأنني غير متأهب للإجابة فما زلت في حاجة إلى هضم هذا كله. ولكنني أقول إن «فكرتك» تتميز بأصالتها، على حين أن كثيراً من شباب الجيل الحالي ينقادون في أغلب الأحيان لأفكار جاهزة لا تنبع من أنفسهم، وعددها محدود جداً، وكثيراً ما تكون خطرة. إن «فكرتك» قد حمتك مثلاً، خلال زمنٍ على الأقل، من أفكار السادة درجاتشيف وشركاه، التي هي أقل أصالةً

Twitter: @ketab_n

ولا شك. وأخيراً فإنني موافق كل الموافقة على رأي المحترمة تاتيانا بافلوفنا التي عرفتها شخصياً، ولكن لم يتح لي حتى الآن أن أقدرها القدر الذي تستحقه. إن رأيها في إدخالك الجامعة سيعود عليك بخير كثير. فلا شك أن العلم والحياة، خلال ثلاث سنين أو أربع، سوف يوسِّعان مزيداً من التوسيع أفق فكرك وآمالك، فإذا أردت بعد الجامعة أن تعود إلى «فكرتك» فلن يمنعك من ذلك شيء.

«واسمح لي الآن، رغم أنك لم تطلب مني هذا، أن أعرض لك بصراحة بعض آرائي أو انطباعاتي التي كوَّنتها في نفسي قراءة هذه المذكرات الصادقة جداً. نعم، إنني أوافق آندريه بتروفتش على أن هناك ما يدعو حقاً إلى الخوف عليك وعلى شبابك «المعتزل». ما أكثر أمثالك من الشبان الذين تتعرض مواهبهم فعلاً لأن تنمو في الاتجاه السيىء: فأما عبودية على طريقة مولتشالين، وأما رغبة خبيئة في الفوضى. وهذه الرغبة في الفوضى إنما تنشأ ـ ربما في أكثر الأحيان ـ عن ظمأ خفي إلى النظام، «الجمال» (إنني أستعمل كلمتك). إن الشباب طاهر نقي لمجرد أنه شباب. ولعل تلك الاندفاعات المبكِّرة إلى الجنون إنما تشتمل على ذلك الظمأ إلى النظام وعلى ذلك البحث عن الحقيقة. فمن المذنب إذا كان بعض الشباب في عصرنا يرون هذه الحقيقة وهذا النظام في نظرياتٍ تبلغ من الحماقة والسخافة أن المرء يستغرب فعلاً أن يؤمنوا بها! أحب أن أقول في هذه المناسبة أن المرء كان يمكن في الماضي ـ في عصر ليس بعيداً، في عهد لا يبعد عنا أكثر من جيل واحد ـ ألا يأخذه بأمثال هؤلاء الشبان ما يأخذه بهم الآن من شفقة ورحمة، لأن أمثالهم في ذلك كانوا ينتهون في جميع الأحيان تقريباً إلى الانضمام إلى الطبقة العليا من مجتمعنا المثقف انضماماً ناجحاً،

Twitter: @ketab_n

ويصبحون جزءاً من تلك الطبقة. فإذا شعروا مثلاً، في بداية الطريق، بما في بيئتهم العائلية من فوضى وعبث وافتقاد النبالة وغياب التقاليد والأشكال الجميلة، كان في هذا خير لهم، لأنهم بعد ذلك يتوقون إلى هذه الأمور كلها توقاً واعياً، ويألفون بهذا نفسه أن يقدِّروها. أما الآن فإن الأمور تجري مجرى مختلفاً بعض الاختلاف، لأنهم أصبحوا لا يعرفون إلى من ينضمون!

«سأوضح رأيي بمقارنة أو قل بمشابهة. لو كنت روائياً روسياً وكانت لي موهبة، لما اخترت أبطال رواياتي إلا من بين أفراد النبالة الروسية القديمة، لأن هذه البيئة التي تضم أفراداً مثقفين هي البيئة الوحيدة التي يستطيع الكاتب أن يجد فيها النظام الجميل والإحساس الجميل اللذين لا غنى عنهما لرواية تريد أن تحدث في القارىء شعوراً بالروعة. لا أقول هذا الكلام مازحاً، رغم أنني لا أنتمي إلى الطبقة النبيلة كما تعلم. لقد سبق أن أشار في «تقاليد أسرة روسية» إلى موضوعات الروايات التي حال الموت بينه وبين كتابتها. فهناك إنما نقع فعلاً على كل ما بلغناه حتى الآن من جمال. هناك على الأقل نجد كل ما وصلنا إليه من توازن وكمال. وإذا قلت هذا فليس معناه إنني أرى ذلك الجمال خالياً من العيوب، أو أرى ذلك التوازن مستقراً استقراراً تاماً. غير أن ثمة أشكالاً ثابتة من الشرف والواجب لا تجدها مكتملةً بل لا تجدها البتة في أي مكان في روسيا خارج النبالة. إنني أتكلم كما يتكلم إنسان هادىء يبحث عن الهدوء.

فإذا سألتني عن ذلك الشرف هل هو أصيل، وعن ذلك الواجب هل هو حق، قلت لك إن هذه مسألة أخرى يمكن أن تدور حولها مساجلات لا نهاية لها. ولكن الشيء الهام في نظري هو أن تلك

Twitter: @ketab_n

الأشكال مكتملة، وأن ثمة نظاماً لم يُفرض فرضاً وإنما هو نابع من حياة تلك النبالة. ألا وإن ما يهمنا أكثر من أي شيء آخر هو أن يكون لنا أخيراً نظام، أياً كان هذا النظام، على شرط أن يكون نظاماً لنا نحن! ذلك هو الأمل، وتلك هي الراحة إن صح التعبير: شيء مكتمل البناء أخيراً، لا هذا التقويض الأبدي، وهذه النشارات التي تتطاير في كل مكان، وهذه النفايات وهذه القاذورات التي لا يخرج منها شيء منذ ما يقرب من مائتي سنة.

«لا تتهمني بالتعصب السلافي، فإنما أنا أتكلم الآن كلام رجل استبد به كره البشر، وأصبح مثقل القلب حزناً! إننا منذ بعض الوقت نشهد حركة تعارض ما أتيت على وصفه الآن كل المعارضة. فالآن أصبحت القذارة لا تصعد إلى الطبقة العليا من المجتمع، وإنما يحدث نقيض هذا، فنرى أجزاء بل كتلاً تنفصل عن نموذج الجمال بتعجل فرح لتندمج في أناس الفوضى والكره. ليست حالاتٍ فريدة معزولة تلك الحالات التي ترى فيها الآباء وأرباب الأسر العريقة المثقفة تسخر الآن من أشياء ربما كان أبناؤهم لا يزالون يرغبون في الإيمان بها. أكثر من ذلك أنهم لا يحرصون على أن يخفوا عن أولادهم فرحتهم الشرهة بأنهم ملكوا الحق في التخلي عن الشرف فجأة، وهو حق يشعرون أنهم حصلوا عليه دفعة واحدة ولا أدري كيف! لست أتكلم عن التقدميين الحقيقيين، يا صديقي العزيز جداً آركادي ماكاروفتش، وإنما أتكلم عن تلك الجمهرة الكبيرة التي لا يُحصى اليوم عددها، والتي قيل في حقها: «قشّر الروسي فترى التتري». صدِّق أن الليبراليين الحقيقيين، أن الأصدقاء الكرماء المخلصين للإنسانية ليس عددهم بيننا كبيراً إلى الحد الذي توهمناه فجأة.

Twitter: @ketab_n

«ولكن هذا كله لا يزال تفلسفاً. فلنعد إلى الروائي الذي تخيلناه. إن موقف صاحبنا الروائي هذا سيكون في هذه الحالة موقفاً محدداً: إنه لن يستطيع أن يكتب إلا روايات من نوع الروايات التاريخية، لأن الجمال النموذج لم يعد له وجود في عصرنا هذا، وإذا كان لا يزال منه بقايا كما يغلب على اعتقاد الناس اليوم، فإن هذه البقايا لم تحتفظ بجمالها. ولا شك أن الكاتب سيستطيع في الروايات التاريخية أيضاً أن يتصور طائفة من التفاصيل لا تزال تمتع النفس وتعزي القلب. حتى ليمكنه أن يأسر لبَّ القارىء أسراً يبلغ من القوة أن يحسب القارىء اللوحة التاريخية واقعاً لا يزال قادراً على الحياة اليوم. ومثل هذه الرواية، إذا كانت موهبة الكاتب عظيمة، سوف تنتمي إلى الأدب الروسي أقلَّ مما تنتمي إلى التاريخ. سوف تكون لوحة مكتملة الجمال الفني تمثل السراب الروسي الذي وجد فعلاً إلى اليوم الذي اكتُشِفَ فيه أنه كان سراباً. إن حفيد أبطال اللوحة التي تمثل أسرة روسية متوسطة الثقافة خلال ثلاثة أجيال وترتبط بالتاريخ الروسي، إن حفيد هؤلاء الأجداد لا يمكن تصويره في نموذجه المعاصر إلا إنساناً مبغضاً للبشر، معتزلاً الناس، صموتاً حزيناً. بل لا بد كذلك أن يكون رجلاً متفرداً يستطيع القارىء أن يحكم عليه منذ النظرة الأولى بأنه قد ابتعد عن الطريق الممهَّدة وأن ليس تحت قدميه أرض. وما هي إلا فترة حتى يختفي هذا الحفيد المبغض للبشر هو أيضاً. وتأتي شخصيات جديدة، لا تزال مجهولة، ويأتي سراب جديد. ولكن أية شخصيات؟ إذا لم تكن شخصيات جميلة، لم يبق ثمة أدب روسي ممكن. ولكن واحسرتاه! هل الرواية وحدها ستكون مستحيلة حينذاك؟

«لا أريد أن أوغل مزيداً من الإيغال. ولنعد إلى مخطوطتك.

Twitter: @ketab_n

أنظر مثلاً إلى أسرتَيْ السيد فرسيلوف (إسمح لي هذه المرة أن أكون صريحاً كل الصراحة). لن أسهب في الكلام عن آندريه بتروفتش نفسه. إنه رب أسرة على كل حال، رغم كل شيء. هو نبيل من أسرة عريقة جداً وهو في الوقت نفسه من أنصار كومونة باريس. هو شاعر حق يحب روسيا ولكنه من جهة أخرى يجحدها. هو امرؤ لا دين له، مستعد مع ذلك لأن يموت تقريباً في سبيل شيء غير محدد يعجز عن تسميته ولكنه يؤمن به إيماناً مشبوباً على غرار طائفة من دعاة المدنية الأوروبية في العهد البطرسبرجي من التاريخ الروسي. ولننظر إلى أسرته الحقيقية: عن ابنه لن أتكلم فما هو بمستحق هذا الشرف. إن الذين لهم أعين يعرفون سلفاً كيف ستكون نهاية هؤلاء الطائشين وإلى أين يقودون غيرهم. ولكن لننظر إلى ابنته آنا آندرييفنا. هذه فتاة ذات شكيمة، أليس كذلك؟ هذه شخصية لها أبعاد الأم ميتروفانيا، دون أن أتنبأ لها بشيء من الإجرام طبعاً. وإلا كنت ظالماً. قل لي الآن يا آركادي ماكاروفتش إن هذه الأسرة استثناء وشذوذ، فأبتهج أعظم الابتهاج. ولكن الأمر ليس كذلك. الأصح أن نقول إن هناك كثرة من هذه الأسر الروسية التي لا يجحد المرء نبالتها والتي تتحول بقوة لا تُقاوم إلى أسر مصادفة وتختلط بأسر المصادفة هذه في السديم الشامل والفوضى العامة. إنك في مخطوطتك ترسم نموذج أسرة من أسر المصادفة هذه. نعم يا آركادي ماكاروفتش، إنك «فرد من أفراد أسرة مصادفة»، في مقابل نماذج لا تزال حديثة لأبناء نبلاء عاشوا طفولة ومراهقة مختلفتين عن طفولتك ومراهقتك كل الاختلاف.

«أعترف لك بأنني لا أتمنى أن أكون روائياً يصوِّر بطلاً هو فرد في أسرة مصادفة!

Twitter: @ketab_n

«جهد لا ثمرة له ولا جمال فيه. إن تلك النماذج لا تزال من الحياة الجارية على كل حال، فهي لذلك لا يمكن أن تكون مكتملة من الناحية الجمالية. كيف يستطيع الكاتب أن يتجنب هنا الأخطاء والمبالغات والإغفالات؟ وسوف يكون على الكاتب أو القارىء أن يخمِّن ويسرف في التخمين. ماذا يبقى لكاتب لا يريد أن يقتصر على الروايات التاريخية... وإنما تستبد به الرغبة في الكتابة عما هو واقع حالي؟ أن يخمِّن و... أن يخطىء.

«غير أن «مذكرات» كالتي كتبتها أنت يمكن في رأيي أن تكون مواد لعمل فني، مواد للوحة ترسم في المستقبل وتكون فوضى لكنها تصوِّر عهداً مضى. نعم، فبفضل التقهقر في الزمان إلى وراء ربما استطاع الفنان أن يجد أشكالاً جميلة لتمثيل السديم الماضي والفوضى الذي انقضى عهدها. في ذلك الوقت ستكون الحاجة إلى مذكرات كمذكراتك. حسبها أنها صادقة: فهي رغم ما تتصف به من فوضى، تشتمل على عدد من عناصر الحقيقة سيتمكن المرء في ضوئها أن يدرك ما كان لا بد أن يختبىء في نفس مراهق ينتمي إلى ذلك العصر المضطرب، وهذا بحث لا تغمط قيمته، ما دام المراهقون هم الذين تتألف منهم الأجيال...».

Twitter: @ketab_n

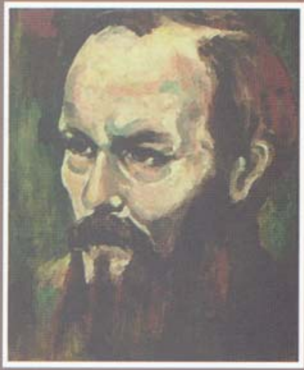

دوستويفسكي

ولد فيدور مخائيلوفتش دوستويفسكي في موسكو في ١٨٢١/١١/١١ من أسرة مطبّب في مشفى للفقراء.

أرسله أبوه لدراسة الهندسة في بطرسبرج ولكن شغفه بالشعر والأدب وإحساسه الرهف تجاه ألم وعذاب الناس، جعله يرى عدم كمال "هذا العالم" فكانت أولى رواياته هي "المساكين" عام ١٨٤٥.

اعتقل عام ١٨٤٩ بسبب انضمامه إلى جماعة من الاشتراكيين الطوباويين، وحكم عليه بالإعدام. لكن خُفّف هذا الحكم بطلب من الإمبراطور. ليطلق سراحه بعد ١٠ سنوات. ويؤسس بعدها مع أخيه ميخائيل مجلة "الوقت" ثم مجلة العصر. وينطلق في الكتابة ويضع أهم رواياته التي صارت معلماً في الأدب الروسي والعالمي وخاصة: الجريمة والعقاب، الأبله، المراهق ثم الأخوة كارامازوف.

توفي دوستويفسكي في ٩ شباط/ فبراير من عام ١٨٨١، ولكن أعماله التي تُقرأ وتُقرأ تجعله حاضراً دائماً.

Twitter: @ketab_n

سامي الدروبي

* أديب وناقد ومترجم ودبلوماسي سوري.
* ولد عام ١٩٢١ بمدينة حمص (الجمهورية العربية السورية).
* درس في جامعات دمشق والقاهرة وباريس وحصل على الدكتوراه في علم النفس من جامعة القاهرةعام ١٩٦١.
* عمل مدرساًللفلسفة في حمص، ثم عميداً لكلية التربية بجامعة دمشق فأستاذاً للفلسفة، فوزيراً للمعارف، ثم سفيراً للجمهورية العربية السورية في يوغسلافيا، ومصر، وأسبانيا، ومندوباً لـ"سوريا" في جامعة الدول العربية.
* له عدة أبحاث نظرية ودراسات فلسفية نفسية حول علاقة علم النفس بالأدب والتعليم.
* ترجم الأعمال الكاملة لدوستويفسكي مؤلفات لليف تولستوي وبوشكين وليرمنتوف وتورجينيف وإيفو أندريتش وآخرين.
* توفي عام ١٩٧٦، ومنح جائزة "لوتس" بعد المات (١٩٧٨).

Twitter:

يعتبر دوستويفسكي واحداً من أعظم كتّاب الرواية، فأعماله تتميز بقدرة على السرد تشدّ القارئ، وبتعبيرها القوي عن دزاخل النفس الإنسانية، وقد عبّر عن ذلك في عناوين رواياته التي تصف الإنسان في شتى مواقفه وتصرّفاته: المقامر-المراهق-مذلون مهانون-الجريمة والعقاب-الأبله...

ورواية "المراهق" تقدّم نموذجاً لشخصيّة "طالب" مراهق، بآماله وأوهامه المتعلقة بالحياة والثراء والحب. وتصف مشاعر الحبّ والكره، والاعتراف والانكار التي يمرّ بها مراهق تجاه والديه وعائلته ومحيطه.

يتتبع دوستويفسكي الصراعات التي يعيشها المراهق أركادي في أجواء عائلته وأوضاعه الحياتية التي يسعى للتمرّد عليها. فيضع نصب عينيه العمل على أن يصبح غنياً كروتشيلد، وينكر عائلته التي يعتبر أنها قصّرت في حقّه، ويسعى لعلاقات مع طبقة الأغنياء والأمراء.

يقدم دوستويفسكي عبر هذه الشخصيّات نماذج إنسانيّة غنيّة كاشفاً عن أهوائها ونزواتها كما عن طيبتها وجمال روحها.

"إنك تحلم بحياة لها دويّ، تحلم أن تحرق لا أدري ماذا، وأن تمزّق لا أدري ماذا، أن تسمو فوق روسيا كلها، أن تمرّ مرور سحابة ساطعة، أن تغرق العالم كله في الخوف والإعجاب، لذلك أرى من المفيد أن أحذّرك لأني أحمل لك عاطفة صادقة".

هذا هو المراهق كما يصفه دوستويفسكي على لسان والده.

ISBN 978-9953-68-459-6
9 789953 684598

تَرجِم
مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم

المركز الثقافي العربي
cca@ccaedition.com